الكرمل



73-72

يبدو العثور على ضوء ما في حلكة هذا الأفق، كالعثور على زهرة خضراء. «قد تكون موجودة في مكان ما من هذا العالم» قال جيمس جويس. لكن العثور عليها يحتاج إلى البحث عنها في مكان أوسع لا يتوفّر لنا. فلنبحث عنها، إذاً، في قلوبنا.

تتدحرج أيَّامنا من «الآن» إلى ما قبله، فطالما أن وجودنا عرضة لتفكيك يوميّ إلى عناصر أولية، يحتاج كل جزء منها إلى معالجة منفصلة، فإن الزمن أيضاً قد يُسَيَّر بإيقاع مقلوب. فليس بعد «الآن» إلاّ جزء مما كان أمس. أما الغد القريب فلا يتجلّى بصفته مشروع أمل، بل بحثاً عن أمس مفقود!

كل عودة إلى «أولاً» هي محاولة لإيقاف حركة الزمن. فالسنوات التسع الماضية لم تكن!. والذين وُلدوا لم يكونوا شرعيين، أو لم يُولدوا إلاّ مجازاً. وما تمَّ بناؤه تهاوى. فالبداية لا تكون إلاَّ من الصفر. فلنجرّب السير من الصفر. وإذا لم ننجح سنعود إلى الصفر من جديد!!!.

مشروع الصفر هذا، قد يكون عَبَثاً أدبياً معقولاً على نُقَّاد اللامعقول. لكنه كارثة إنسانية حين يكون موضوع التجريب العبثي شعباً كاملاً يمتحنه جنرالات الاحتلال بالتكيُّف مع شروط الصفر، بساديّة تمنح الاحتلال الإسرائيلي مكانة عالية في تاريخ التعذيب البشري.

ليس مهماً أن نقارن ما يفعله بنا الاحتلال مع نماذج أُخرى من الجرائم الكلاسيكية، فلكل جريمة إنسانية خصائصها وفرادتها التي تكفي لتعريفها. فهذا الاحتلال الإسرائيلي، المهووس بالعثور على شرعية تاريخية مستحيلة، عاجز عن تعريف ذاته خارج نفي وجودنا، وعاجز عن المصالحة مع نفسه خارج حدود الحرب مع الآخر. وهكذا تبدو حربه التي لا نهاية لها حرباً على وجودنا، دون أن يتساءل: كيف يحلّ معضلة هذا الوجود؟ أو كيف يجتثّ هذا الوجود، أبالترحيل أم بماذا؟

كل شيء عادي، في هذا الاحتلال السادي. لقد ألف العالم هذا الروتين، إلى حدّ السأم. «عودي إلى بيتك. أين بيتك؟» يقول جندي لفلسطينية أدركها نظام منع التجول، فتقول: بيتي هناك... شرقيَّ الدبابة!

بيت شرقيَّ الدبابة، وبيت جنوبيّ سيارة الجيب. لكن الدبابات وسيارات الجيب تتحرك، فتتحرك عناوين البيوت، وتتحرك مصائر الناس. وبساديّة داعرة يقول لنا مكبِّر الصوت: «يا شعب الجبارين، يمنع التجول حتى إشعار آخر. ومن يخالف الأمر يصبح شهيداً، شهيداً، شهيداً»...!

فمن يتذكر أوسلو في ذكراها التاسعة؟

لقد بدأت بوعود غامضة، وانتهت إلى فرض نظام منع التجوّل، وإلى استبدال «غزّة وأريحا أوّلاً»... بشعار «غزة وبيت لحم أولاً» وإلى إعلان الحرب الصريحة على الفلسطينيين لا من أجل نبذ العنف هذه المرة، بل من أجل نبذ الحلم... إلى الأبد! واشتد الحصار لا لوقف المطالبة بانسحاب الجيش الإسرائيلي إلى حدود ٤ حزيران ١٩٦٧ بل لوقف المطالبة أيضاً بالانسحاب إلى خطوط الثلاثين من أيلول ٢٠٠٠.

ليس مهماً أن تتغيَّر اللغة. فاللغة السياسية قادرة على إحداث القطيعة بين الدال والمدلول والدلالة. لكن الحصار توغل أكثر. فتحولنا من محاصرين إلى سجناء بالمعنى الحرفي للكلمة. لكن هذا المعنى الحرفي للكلمة لم يعد ذا معنى، لأنه لم يعد خبراً، لا في الفضائيات ولا لدى أصحاب القرار في المجتمع الدولي الذي يتحرّر تدريجياً من عبء المرجعيات ومن وخز الضمير. أما نحن السجناء، فقد تدرَّبنا على مهنة الإحساس بالفرح الرخيص، كطيور الأقفاص، كُلَّما سمح لنا بالتجوّل في باحة السجن، وبالتزوُّد بحاجات تعيننا على اختبار قدرة الحياة على الانتصار، وعلى عبء انتظار الغد.

هل تعبنا؟ نعم. تعبنا من السجن، ومن الحصار، ومن الاحتلال. ولم نتعب من الأمل. لم نتعب من البحث عن زهرة خضراء، لا بُدَّ أنها موجودة، مهما كانت بعيدة.

في وصف حالتنا
١

شظايا الواقع والزجاج

حسن خضر

-١

كان جهاد، جاري، يدوّن الأحداث اليومية، بعين المُوثّق، وحرص الشاهد على تمكين كلامه من سلطة البرهان. كنتُ أقطع المترين الفاصلين بين شقتينا مرتين في اليوم. مرّة في الصباح، وأخرى في المساء، وكانت الصفحات الفارغة في الكرّاسة المدرسية، الموضوعة على أريكة بجوار التلفزيون، تقل بوتيرة توازي حماسة المذيع على الشاشة، أو حجم نشرة الأخبار المصوّرة.

وقد بدا الأمر عبثيا إلى حد بعيد، لأن الحرب تأتينا بطريقتين مختلفتين. فالأولى، الواقعية، تتكون من أصوات قذائف، وآليات عسكرية ثقيلة، وطائرات تحوّم في الجو، والثانية صورة الواقع كما تنعكس في ملايين البقع الضوئية الصغيرة، التي تتشكل منها مشاهد جثث، وسيّارات محطمة، وبنايات محترقة، ومتظاهرين غاضبين في مدن بعيدة، إلى جانب الوجوه المألوفة لمراسلين حفظنا طريقتهم في الكلام، وألوان ثيابهم.

وتحت عباءة الليل، وحده، يمكن التحرر من وهم أن ما تشكله البقع الضوئية يقع في مكان آخر، بينما الأصوات واقعية، وحقيقية، تهدد الجسد بقدر اقترابها منه. ففي الليل تنوب العين عن الكاميرا في شحن التجربة الفردية بما ينقصها من حسيّة ومباشرة، تجعل الحرب ما يحدث الآن وهنا، وليس ما تقوله نشرة الأخبار. نسمع صوت الانفجار، نهرع إلى النافذة، وفي مرّات قليلة إلى سطح البناية، لنرى حريقا يقص بمشرط الضوء بعضا من ظلام الليل.

لم تكن النتيجة المباشرة لهذا التناقض بين الواقعي والخيالي صعوبة ضبط التعامل مع الواقع وحسب، بل والاعتراف بهامشية فردية يعززها إحساس مروّع بالعجز، فالحرب عليك، وباسمك، وليس فيها ما يمكنّك من العثور على ما يحيل إليك.

لذلك، لم تكن استعارة هوليودية، أن يحضر مشهد فلاح يحاصره جنود الرومان قبل ألفي عام في المكان نفسه. فبعد مرور ستة أيام على الاجتياح الكبير في نيسان، سمحوا للمواطنين ـ

أي لما تبقى للكينونة الفردية من احتمالات التماهي مع أحد - بالخروج للتزوّد بالمواد الغذائية لمدة ساعتين، فقط.

كانت جنازير الدبابات قد حفرت أخاديد عميقة من الوحل في الشارع الترابي، الذي يكاد ينزلق عن كتف الوادي، لولا إصرار المارّة على ترويضه ليصبح نقطة للوصل بين مكانين، في فضاء تسكنه رؤوس التلال، وأشباح بيوت تبدو، كلما اقتربت منها في غير مكانها: مرتجلة، مؤقتة، فوضوية، وسريعة العطب.

هناك، في حقل الوحل، حيث تنغرس الساقان في عجينة جعلها مطر الصباح لزجة وطريّة، وفي ما يشبه الشارع لأنه يصل بين مكانين، تنقض عليك سيارة جيب عسكرية، وناقلة جنود مدرعة. لا يحدث ذلك بما يكفي من سرعة تعطّل الحواس. فشخير المحركات التي تجاهد لدفع تلك الحيوانات المعدنية يسبقها إليك. لا ترى وجوها، بل فوّهة سوداء مصوّبة نحوك، ونثار الوحل المتطاير تحت الجنازير المعدنية والعجلات.

تتظاهر - أنت المواطن المسموح لك بحرية الحركة لمدة ساعتين، كما أكدت مكبرات الصوت، الذي يحمل فاكهة وخضروات في أكياس من البلاستيك الشفاف - أن الأمر لا يعنيك، لكنك لا تنتزع الساقين من الوحل، لأن سيارة الجيب تسد الطريق عليك.

وفي ومضة مفاجئة يتبدل المشهد: ترى جنود الرومان يحيطون بفلاح من سكان هذه التلال، قبل ألفي عام من السماح بحرية الحركة لمدة ساعتين، تكاد تسمع صهيل الخيل، وقع سنابكها، تدق الأرض بنفاد واضح للصبر، أنفاسها التي يحيلها هواء بارد إلى سحاب خفيف، خوذ الجنود اللامعة، الدروع التي تغطي الصدر والكتفين، صنادلهم الجلدية، دروعهم، وسيوفهم القصيرة، المُشرعة.

ذاكرة بصرية هوليودية، بلا شك. لكن تبديل المشهد لم يكن فعلا من أفعال الإرادة، بل كان حيلة من حيل المخيّلة. فما الذي جعلها تعود ألفي عام إلى الوراء، في لحظة تتساوى فيها فرص الحياة باحتمالات الموت؟

لا أملك، بعد مرور أشهر، على ذلك المشهد سوى التساؤل حول كفاءة المخيّلة في تحويل الإحساس بالعجز إلى صورة بصرية، ليس في الواقع ما ينفيها. فذلك ما كان عليه الحال، دائما، في هذا المكان. وليس ثمة ما يبرر عدم احتمال وقوع الحادثة نفسها، على كتف أحد التلال ، في يوم موغل في القدم، عندما اكتشف المكان صورته في مرآة الزمن. لم تتغيّر أشياء كثيرة منذ ذلك اليوم، لم يتغيّر المواطنون، ولا الغزاة، بل تغيّرت أدوات الحرب، فقط.

حتى الاسم يتكوّر - كما تفعل صدفة قديمة - على محارته الأولى، التي ألقتها صدفة جيولوجية على بعد ستة عشر كيلومترا شمالي القدس. فالبيرة، التي أقيم فيها، التي ينادي الغزاة مواطنيها بمكبرات الصوت، هي بئيروت التي نحت الكنعانيون اسمها من آبار للماء تنبت

بين الصخور، وورث الرومان اسمها وآبارها، كما فعل البيزنطيون والعرب، مع تعديلات طفيفة لم تلحق كثيرا من الضرر بالاسم، بل هشمّت أو همّشت بعض أطرافه على مدار قرون من صراع البقاء، وحروب السيطرة على الماء.

وكما تشم جذور الشجيرات الجبلية، العطشى، المعذبة بحرارة الشمس، رائحة الماء في مسام الصخور البركانية، ينصب الاسم مصيدة للماء يحفظ فيها بعض إرثه القديم. في البيرة حي اسمه البالوع، ربما كان ترجمة حرفية لكلمة آرامية قديمة تعني المكان الذي يبتلع الماء، وربما كان محاولة من العرب لوصف منخفض من الأرض تجتمع فيه مياه الأمطار. وقد شاءت صدفة سياسية أن يصبح البالوع حدا للمنطقة أ، حسب التقسيم العبثي لتلك الأرض. الحد الذي وقف الغزاة على جانبه الآخر منذ بداية الاشتباكات المسلحة قبل عامين، وأصبح بوابتهم لدخول البيرة ورام الله منذ أكتوبر الماضي.

لكن المخيّلة ليست مطلقة السراح، دائما، بل هي معمل لتظهير صور تنتخبها الوظيفة الحقيقية، أو المفترضة، للفرد نفسه. ففي حرب أخرى، تسبق هذه الحرب بعشرين عاما، كان المواطن في مدينة محاصرة، وعلى مدار ثلاثة أشهر، تتساوى فيها فرص الحياة باحتمالات الموت، لم يساوره إحساس بالعجز، أو بالعيش بين واقعين: الأوّل افتراضي على شاشة التلفزيون، يرى من خلاله إلى نفسه، والثاني حقيقي، بقدر ما ينطوي عليه احتمال تحويل الكينونة الفردية إلى موضوع للحرب من واقعية.

لعل هذا العطب الوجودي ناجم عن حقيقة بسيطة، لكنها مفزعة: ليست هذه الحرب حربا إلا بقدر انخراطها في الشرط العام لما ينبغي أن تكون عليه، في البيانات الرسمية، ونشرات الأخبار، والمجازات التاريخية الكبرى. وليست هذه الحرب حربا إلا بقدر اختزال خطاب الجماعة القومية عن نفسها لخصوصية التجربة الفردية، أي تحويلها إلى شاهد لما يبرهن على صحتها. وفي الحالتين لا يمكن القبض على الواقع، الواقعي، اليومي، المعاش، النابض بالحياة كحيوان جريح، بل على صورته في اللغة، وفي تمثيلات تتجلى من خلالها كفاءة الفروق الفردية لبشر يمارسون فن التخييل.

ولا شك أنها كانت ذاكرة موغلة في القدم ـ لكنها تشبه، مع فروقات طفيفة، بعض ما بلعه البالوع من صور الحرب، وفنون الكر والفر على مدار قرون يصعب حصرها ـ تلك التي دفعت بشبان لم يتجاوز معظمهم العقد الثاني من العمر، إلى التمركز ذات يوم خلف بناية في آخر شارع يكاد ينزلق عن كتف الوادي في حي البالوع.

كانوا يرتدون بزّات عسكرية نظيفة، يحملون بنادق صنعوا لبعضها حمّالات مرتجلة، ربما كانت سيورا جلدية لحقائب في وقت مضى، ويبدو من عدتهم حرص واضح على تحقيق صورة احتفالية للمقاتل: جعب للرصاص معلقة في صدريات خضراء داكنة على الصدر، زمزميات للماء، ومخزن إضافي للرصاص تشده إلى المخزن المثبت بالبندقية شرائط لاصقة ذات ألوان

مختلفة، وفي حالات من المبالغة المفهومة يصل عدد المخازن الإضافية إلى اثنين.

وهي أشياء مألوفة. كأن ما مضى لم يمض، تماما. فقبل عشرين عاما، وفي مثل تلك الأيام، كنّا نبحث عن شرائط لاصقة لتثبيت المخازن. كانت البزات نظيفة وفضفاضة. وكان الحرص على تمديد حزام البندقية إلى أقصى حد ممكن، لتعليقها حول العنق، والاتكاء عليها بالمرفقين، واضحا آنذاك، كما هو اليوم. لم يفهم عماد في تلك الليلة البعيدة، لماذا تشاجرت معه بلا سبب، في الطريق من كورنيش المزرعة إلى جسر الكولا. كنّا نرى بعضنا على ضوء قنابل الإنارة التي يطلقها الغزاة، وقد بدا شبحه متكئا بمرفقيه على البندقية مثيرا للسخط، لما ينطوي عليه من استنساخ لمشاهد اصطفتها الذاكرة البصرية من تخييلات سينمائية وروائية وتجربة العيش تحت الاحتلال.

لا أحد يستطيع النجاة من غواية التخييل، خاصة في لحظات التماس بين الكينونة الفردية، ومجازات قومية كبرى. ففي تلك اللحظات النادرة، لا يكون التماهي مجرد فعل من أفعال الإرادة فقط، بل توّشيه مسحة من أسى الواقف على سكة التاريخ بلا خيار آخر. ولأنه كذلك يفيض برومانسية عذبة ومعذبة، لكنها مأساوية، بالتأكيد. ومع ذلك، تعمل ديناميات التخييل والذاكرة البصرية في الذهن بطريقة مستقلة ومعقدة، وما تصطفيه الأيام منها قد لا ينسجم، بالضرورة، مع المجازات الكبرى، وربما لأنه كذلك، يدل عليها بصدق أكبر مما يفعل الخطاب.

بيد أن الصورة هذه المرّة تبدو ناقصة بطريقة يصعب فهمها. أو ذلك، على الأقل، ما أوحى به مشهدهم، عندما شرعوا في إطلاق النار على موقع للغزاة لا تصله رصاصات بنادقهم. وعندما أطلق الغزاة نيران رشاشات ثقيلة، أرغمتهم على الاحتماء خلف كتل صخرية تشكل جزءا من مصاطب اصطناعية، ربما كانت عامرة بالخضروات وأشجار الزيتون قبل ألفي عام. بالمناسبة، أحد الأسماء القديمة للبيرة، أيضا، بيت لبوات، أي بيت اللبؤة. ربما أقامت الأسود، هنا، وانتظرت فرائسها قرب عين الماء.

سألت أحدهم من نافذة المطبخ، لماذا يطلق النار على شئ لا يراه. فقال بأنه يريدهم أن يردوا عليه ليتمكن من تحديد موقعهم. وهي عبارة تنطوي على قدر من الشجاعة والسذاجة، يكفي للبحث عن زاوية آمنة في البيت، انتظارا لقذيفة دبابة ستحدد موقعهم، فعلا، لكنها لن تترك أثرا للمعنيين بالتحديد. وقد جاءت تلك القذيفة بعد أيام قليلة، عندما قرر الغزاة قطع الخيط الوهمي، الذي يفصل المنطقة أ عن غيرها.

أما نحن في زمن مضى فلم نعرف أين كانوا، بالضبط. ولم يطلب منّا أحد أن نعرف، عندما افترشنا باب بناية على مسافة قريبة من جسر الكولا، في أوّل أيامنا كمحاربين. كان المدخل نظيفا تحفه من الجانبين زهور للزينة في أصص فخارية ملوّنة، وهي حقيقة أجبرتنا على تحويل علبة سجائر فارغة إلى منفضة، تحلقنا حولها لبرهة من الوقت، ثم تعبنا من حرصنا الشديد على

النظافة. قضينا الساعات الأولى في أحاديث مشتركة، سرعان ما تحوّلت إلى جانبية، تتوقف كلما وقع انفجار في مكان ما، أو جاء في راديو الترانزيستور ما يستحق التعليق، وكنّا نرى أشخاصا يشبهوننا على مداخل بنايات قريبة، ثم أجبرنا اقتراب صوت القذائف، قبيل حلول المساء، على اجتياز المدخل، والجلوس خلف الباب الزجاجي، الذي سيصبح حطاما بعد قليل.

كنّا أفضل حظا منهم، عندما سقطت القذيفة الأولى على الطابق الرابع، ومنحتنا القذيفة الثانية ما يكفي من الوقت للهبوط إلى قبو البناية. بينما لم يمنحهم القصف المفاجئ في أحد أيام أكتوبر الماضي، أكثر من فرصة الانسحاب إلى بناية قيد الإنشاء. قطع الغزاة الخط الوهمي في الخامسة صباحا : هبطوا من تلال تطل على البالوع من جهتين، أحكموا الخناق عليه، وتقدموا في اتجاه رام الله.

بدا الأمر في البداية مجرّد حلم آخر، وهدير الدبابات مثل أمواج معدنية هائلة تتدحرج فوق التلال، لكن استمرار الهدير وكثافته أجبرت النائم على فتح العينين، ليرى من النافذة، في غبش الصباح ـ حيث يختلط ما تبقى من العتمة، بما استجد من خيوط الضوء، في غمامة داكنة تغمر الكون ـ دبابة تسد الأفق كأنها حيوان من أزمنة ما قبل التاريخ. لم يستغرق النهوض، واستيعاب المشهد أكثر من دقائق معدودات، يعقبها ـ كما حدث في مرّات سابقة ولاحقة ـ تساؤل: وماذا بعد. يركض الذهن قبل القدمين بحثا عن مكان آمن، ثم يتجمد في منتصف المسافة، إذ تبدو الخيارات كلها عبثية، تكف المعدة عن التقلّص، ويتراجع توتر الجسد، كأنما يعود إلى مكمنه الأصلي في الذاكرة، أو العروق.

وفي النهاية، أي بعد جلبة الجيران، وتبادل أحاديث سريعة، يغمر الروح والجسد إحساس مروّع بالعجز، يعيد الكائن إلى وحشته وهشاشة وجوده: كينونة مرشحة لعبثية الصدفة، أو صرامة القدر، كما يفعل ثور في حلبة مصارعة أسبانية، يقف محدقا في قاتله، وحيدا ومتوّحدا وصامتا، قبل سقوطه الأخير.

وقد كان التحديق نوعا من مناوشة الموت. كانت أشباح ثلاثة من الشبان تركض في اتجاه بناية قيد الإنشاء، ويبدو أن الحيوان المعدني الضخم، الذي يصب الحمم على مكان أبعد، لم ينتبه إلى أشباح تغطس في العتمة وتطفو، كما يفعل جسد في بحيرة من رماد. وصلوا، انتظروا حتى أصبح النهار أكثر بياضا، وعندما كفت الدبابة عن القصف والحركة، أطلقوا عليها النار من بنادقهم ذات الحمّالات الجلدية الطويلة، رغم أن في النهار ما يكفي من ضوء لتحديد موقع الغزاة، وفي الحكمة ما يكفي من أسباب التروي، قبل استفزاز فيل بمقلاع صغير، إلا أنهم أطلقوا النار.

أخرج طاقم الهلال الأحمر جثة أحدهم بعد ساعة من الوقت، وخرج الآخران على محفتين، بينما تحلّق الغزاة حول الجثة والجسدين الجريحين، كما يفعل صيادون في أدغال أفريقية حول جثث طرائدهم. وفي المساء رأينا المشهد، مرّة أخرى، على شاشة التلفزيون، بين مشاهد أخرى، جعلته

مجرّد تفصيل صغير في تراجيديا ملوّنة، بعيدة ونائية، كأنها تخص المشاهد فينا، ولا تعترف بنا كمرشحين دائمين لتفاصيل صغيرة إضافية.

هل كان الفتى، الذي رأيته من نافذة المطبخ بين تلك الأجساد المطروحة على حمّالات مبللة بالدم؟ هل تمكن، أخيرا، من تحديد موقعهم؟ أم كانت محاولة تحديد الموقع مجرّد ذريعة، كذبة بريئة، لتبرير ثقب الهواء برصاصات غاضبة؟

لم تتغيّر أشياء كثيرة، قبل عشرين عاما كانت طائرة تطارد سيارة عسكرية في الكورنيش قرب الجامعة الأميركية. في السيارة ثلاثة مقاتلين يجلس أحدهم على مقعد منخفض خلف مدفع مضاد للطائرات، ويقف الآخر إلى جانبه، والسائق خلف المقود. الجالس خلف المدفع يطلق الرصاص كلما خرجت السيارة من مرآب بناية، أو منطقة محجوبة بين البنايات. السائق يتقدم إلى الأمام والخلف، يناور، ويستدير بعنف في جميع الاتجاهات. الثالث يراقب الطريق والسماء. والطائرة، كما الكلب في الأحراش، تكمن خلف غيم خفيف، أو تبتعد في الأفق، ثم تنقض من لا مكان.

أخيرا، تعبت الطائرة من لعبة الكر والفر. السيارة لم تتعب. خرجت من مكمنها، نظر ركابها إلى السماء، انتابتهم الحيرة، وماذا بعد: خفض الجالس خلف المدفع المضاد للطائرات الفوّهة، وأطلق وابلا من النار في اتجاه جونيه: شبح صامت على حافة الماء، لا تصله رصاصات غاضبة، بل تثقب الهواء. شجاعة اليائس، أم يأس الشجاع؟

-٢-

لكن ثقب الهواء جاء هذه المرّة في زمن الصورة، وصناعة الأخبار. لذلك، ثمة ما يكفي من الأسباب للقول إن هذا الانقسام بين واقعين، لم يكن تجربة فردية يعززها إحساس واضح بالعجز، بل كان، أيضا، تجربة جمعية تحض على التساؤل حول كفاءة الواقع الافتراضي في افتراس الواقع نفسه، بطريقة دائرية تجعل شاشة التلفزيون مرآة لذات، لا تتحقق إلا بقدر ما ترى من قسماتها السائلة على شاشة مضيئة، فتعد للشاشة ما ينبغي لصورتها أن تكون عليه، وما ينبغي أن تكون عليه لا يملك من برهان سوى ما صنعته صورة الشاشة عنها.

لعبة متبادلة، تعوزها البراءة، أو انتفاء شبهة المصالح المتبادلة، فالذات لا تصنع صورتها المفترضة أو المتخيلة وحسب، بل تسهم الصورة في صناعتها، أيضا. بهذا المعنى يتحقق الاعتماد المتبادل، وتصبح رهينة لصانعي صورتها.

في هذا السياق، أيضا، ضاع الخيط الدقيق الفاصل بين حدث يصبح موضوعا للصورة، وبين حدث يستدرج الصورة لتكون موضوعه الأثير. وقد بدأ الأمر بالأعلام في المظاهرات، عندما شرعت فضائيات بعينها في التركيز على أعلام جماعة معيّنة، لتمنح مشاهديها وهم الحضور المهيمن للجماعة المذكورة في إخراج الفلسطينيين إلى الشوارع. وكان علينا تصديق ذلك، لأنه جاء في نشرة الأخبار المصوّرة، رغم أننا لم نره في الواقع.

وما رأيناه في الواقع كان ينطوي على علامات تثير التساؤل: أصبحت التغطية الإعلامية المصوّرة، والمشهدية، جزءا من الأهداف المضمرة للمظاهرة، التي تحوّلت، مع مرور الأيام، إلى مؤسسة معقدة ذات تراتبية صارمة ـ تخص الصفوف الأولى، وطبيعة الشعارات، والأعلام، وخطوط السير ـ وتقنيات واضحة في فن صناعة المشهد. ولأنها كذلك، سرعان ما ضمرت كظاهرة شعبية، لكنها واظبت على الحضور في نشرات الأخبار المصوّرة، التي سرعان ما استهوتها عناصر أكثر إثارة ودرامية من الأعلام.

وليس ثمة ما يزيد من جرعة الأدرينالين في الدم أكثر من مشهد الدم نفسه. الدم الذي يتهدده، دائما، خطر التحوّل إلى وسيلة إيضاح لما تمتاز به لحظة التصعيد الكربلائية من البلاغة والتسامي. وما كان ذلك ليتحقق إلا باستفزاز ـ يتاخم حد الابتزاز ـ لما تضمره ثقافة الضحية من جوع إلى الجدارة، من حنين إلى ما يشهد لها وعليها، ومن يقين جارح بصوابها.

الصواب الذي ما كان ليصبح صوابا دون تحويل طفل ـ وضعته صدفة مشؤومة في مرمى نيران الجلادين ـ إلى بطل. كأننا لا نحقق فعل الموت، إلا بتجريده من دلالته الفردية، وما يصاحبها من مجانية، وتحويله إلى شكل من أشكال التطهر الجمعي. وبما أن الجماعة لا تعترف بقربان تسوقه يد الصدفة إلى سكين الجلاّد، ترفع البطولة المفترضة الفرد ـ حتى إذا كان طفلا ـ إلى مرتبة تليق بما يصلح للجماعة من قرابين، لتنفي عنه كل احتمالات الصدفة، أو قسوة وعبثية الموت. حتى أم الطفل نفسه وجدت نفسها مضطرة للانخراط في شرط الجماعة، فذكرت في أكثر من مقابلة تلفزيونية إدراكها منذ البداية أنها أنجبت بطلا. بهذه الطريقة تحوّل محمد الدرة إلى بطل. وبهذه الطريقة تحوّل السبّاك، النحيل، الذي أصلح مواسير الصرف الصحي في بنايتنا، قبل مصرعه بأيام قليلة، إلى بطل.

لكن الصواب صناعة، أيضا. والمدهش مدى ما لحق بصناعة الصواب من تدهور، منذ جرعات الأدرينالين الأولى. فقد أصيب التلفزيون الفلسطيني بالسعار، تشبثت كاميراته لساعات طويلة في اليوم الواحد بالأحشاء، والأطراف المبتورة، والجثث المتفحمة، وبقع الدم على أسرة المستشفيات، وفي الشوارع، والبيوت، وثلاّجات حفظ الموتى، كأنها تخشى إفلات المشاهدين من قبضتها، أو إفلات المشهد نفسه من وظيفة المسلخ. ولم تكن، بهذا المعنى، فريدة بين الفضائيات. الفرق في الدرجة، لا في النوع.

ولم تكن الصورة، رغم بلاغتها، التقنية الوحيدة في صناعة الصواب، التي استعانت بمحللين، ومعلقين، وناطقين باسمها، تمكنوا من الإجهاز على ميراث حركة قومية فلسطينية تبلغ من العمر أكثر من ثمانية عقود، راكمت خلالها، عن طريق التجربة والخطأ، وبأثمان باهظة دائما، ثقافة سياسية تتسم بالتعدد والغنى. ولعل سهولة وسرعة التنازل عن ذلك التعدد، تضع التساؤل حول جدية وعمق تلك الثقافة على جدول الأعمال.

ارتدى التنازل طابع انهيار الحدود السياسية والأيديولوجية بين جماعات كانت، حتى وقت قريب، ترى نفسها في مواقع متناقضة. وسرعان ما وجدت جماعات الأغلبية نفسها في سباق مع الزمن لتمثيل خطاب الأقلية، والاستعانة بأدواتها، وتحقيق قدر من التماهي معها، يجعل حدود الماضي، أو الخلاف بشأن الحاضر والمستقبل، مجرد حدث عابر في تاريخها.

ولم يكن نجاح الأقلية في اختطاف الأغلبية، أو عناق الثانية للأولى، ليتأتى خارج ثقافة شعبوية، بدأت منذ أواسط التسعينات سيرورة تدهور واضحة، عندما تملكها وهم التحوّل إلى ديانة مدنية لدولة في طور التكوين، وتملّك الدولة في طور التكوين ـ وقد امتلكت للمرّة الأولى أدوات ووسائل الاتصال الجماهيرية، ومؤسسات السيطرة الثقافية والإعلامية، وبعض الإقليم ـ وهم تفصيل هويّة ملفقة، تخدم أغراضها السياسية الآنية في الضبط، والسيطرة، وإدارة الأزمات، على غرار الأنظمة المعروفة في العالم العربي.

تعتمد ثقافة من هذا النوع مبدأ التخييل الأيقوني للشعب، فيتحول على يديها إلى جوهر ثابت، أعلى من المصالح الطبقية، وأبعد من صراع النخب السياسية، والحراك الاجتماعي. فالأيقونة بعض تجليات المقدس، وبما أنها كذلك، ولأنها كذلك، لا ينجو الخلاف حول تأويلات محتملة لما يجب أن تكون عليه من شبهة المروق، بينما يحقق الامتثال الفردي، أي تعطيل العقل، دليل الوطنية الصادقة، ويحقق الامتثال الجمعي، أي تصعيد الغرائز، دليل حلول المعنى المجرّد للكينونة القومية في صورتها المنتظرة.

لذلك، أصبح الطقس، بما يحققه من مبدأ الامتثال، والقدوة الحسنة، والفرجة التربوية، والتعامل مع الشأن العام بتعبيرات الوحدة العائلية، ونفي كل احتمال للاختلاف، أو الإيهام بكونه خلاصة حكمة أكثر تعقيدا، وأبعد نظرا مما يرى المارقون ـ وكلها دلالات بطريركية ـ سيد المشهد. وما كان لمشهد كهذا أن يتحقق خارج الفضاء البلاغي والتمثيلي لتجربة الميليشيا، أي وجود جماعات مسلحة ذات قدرة ذاتية على التكاثر والانشطار، بما يعيد إلى الذهن ما عرفته بيروت الغربية في السنوات القليلة السابقة للاجتياح الإسرائيلي في عام ١٩٨٢.

على خلفية الامتثال، تحوّلت مقاومة الاحتلال، إلى ما يشبه حربا بين دولتين. وتصرفت المنطقة أ، أي مجموعة الجزر المدينية، التي يتحكم الغزاة بمائها وخبزها ومداخلها، إلى ما يشبه دولة خلف حدود يصعب اختراقها، بفعل العقاب الذي سيناله الغزاة على الأرض، وعدم قبول العرب والعجم لحماقة من هذا النوع. ولم يندر في هذا السياق خروج معلقين، ومحللين، وناطقين، بتصريحات وتحليلات تهدد الغزاة بالويل والثبور وعظائم الأمور.

وقد اتسمت تلك التصريحات والتحليلات بنزعة غير نقدية، معادية للفكر، مفرطة في إرادويتها، ومحليتها، وتفكيرها الرغبي، وعاجزة عن إقامة الصلات الضرورية بين ما يجري على الأرض، ومجمل التوازنات والتحوّلات الإقليمية والدولية. والأسوأ، مدى ما طرأ على خطابها

من ضيق للأفق، واستنكاف عن المعرفة، وتراجع عن خبرات في الوعي اقتربت في وقت سابق من حد البداهة.

وبما أن أغلب تلك التصريحات والتحليلات جاءت في لحظة زواج نادرة بين كاميرا، تقدم لجمهور عريض في فلسطين والعالم العربي، خبزه اليومي المغمس بالدم ومشاعر الغضب والذنب، ورغبة محللين ومعلقين وناطقين في تحويل كلامهم إلى حاشية للحدث، وأحيانا تحويل الحدث نفسه إلى حاشية للكلام، نجحت الصورة في اختزال المشهد في تمثيلات بصرية، يصاحبها كلام يقوم مقام الموسيقى التصويرية.

وبلغ الأمر في حالات محددة حد الميلودراما المبتذلة، عندما استدعى الحدث وحواشيه حملات عربية متلفزة، تستنفر الحس المهني لهندسة العواطف، وبراعة مسرحة الواقع، في حملات تستهدف تقديم التبرعات للفلسطينيين. رأينا، في مناطق مختلفة من العالم العربي، أطفالا يتبرعون بقطعهم المعدنية الصغيرة، ونساء يتبرعن بالحلي، ورجال أعمال يقدمون الشيكات. ومن المؤسف أن أحدا لم يأبه لما تنطوي عليه تلك الحملات من ميلودراما رخيصة بالمعنى العاطفي، ومهينة بالمعنى القومي، حتى عندما وصلت وفود تقدم الشيكات إلى مستحقيها، في غزة، في حفلات متلفزة.

ففي أكثر التعريفات الفقهية ليبرالية ينبغي ممارسة فعل التصدق على الآخرين بأكبر قدر ممكن من الكتمان. وإذا كانت التبرعات أعلى شأنا من الصدقة، وأعمق دلالة، فإن الحرص على عدم تحويل مستحقيها إلى بعض بضاعة التلفزيون، أجدى من توظيفها في لعبة تنظيف الضمير. ومع ذلك، يركض الواقع، والكاميرا تركض خلفه.

ظهرت في الشارع الترابي، الذي يكاد ينزلق عن كتف الوادي، تحصينات تتكون من أكياس الرمل، وصلبان حديدية، تعيد التذكير بصور وأفلام الحرب العالمية الثانية، وتنبئ بالمصير المحتمل لحامل بندقية يحتمي من قذيفة دبابة بكيس من الرمل. ذكرت لأحد المعنيين بالأمر أن موانع من هذا النوع لا توقف الدبابات الحديثة، وأن تمركز شباب خلف تلك الأكياس يضعهم في فك الموت بطريقة مجانية تماما. فقال لي إن الهدف منها تحقيق مسألة رمزية، فقط، فهي رسالة سياسية للإسرائيليين بأننا على استعداد لقتالهم إذا حاولوا الدخول.

يصعب تحرير طريقة الرسائل السياسية هذه من شبهة المشهدية، التي لا تجترح للرمز من وظيفة أبعد من دلالة الواقع الافتراضي، على حساب الواقع نفسه، الذي شهدته في أكتوبر الماضي (٢٠٠١) عندما قرر الغزاة قطع الخيط الوهمي، ووقعت أولى عمليات الاجتياح. لم تتوقف الدبابات أمام الصلبان الحديدية، وأكياس الرمل، بل استخدمتها، إلى جانب أكوام من الطين والحجارة - كما اكتشفنا بعد السماح بالتجوّل - في إنشاء سواتر ترابية أغلقت بعض الشوارع في وجه المارّة والسيارات. لا أعرف كم من الأموال ضاعت سدى في بناء تلك التحصينات،

ولا طبيعة الرسائل السياسية الأخرى، التي استهدفت تحقيق هذه الغاية، ولا العدد الدقيق للخسائر المادية والمعنوية والبشرية الناجمة عن هذا النوع من الحساب. لكن معرفة الدينامية التي تنشئ بواسطتها مخيّلة مولعة بالرموز واقعها الافتراضي، وكذلك معرفة النتائج الميدانية والسياسية المحتملة لواقع من هذا النوع، لا تدخل في باب التفاصيل، ولا تحتمل التأجيل.

ومع هذا، التفاصيل مفتاح سر المشهدية، وعلامتها الفارقة. لذلك، كانت الجنازة الحبلى بمظاهرة اليوم التالي، والمظاهرة الحبلى بجنازة اليوم التالي (التي يتصدرها شبان ملثمون يحملون بنادق أوتوماتيكية، وهياكل من ورق مقوى لمدافع مضادة للدروع، ونماذج لأحزمة ناسفة: يحرقون الأعلام، أو دمى تمثل الأعداء، ويدوسونها بالأقدام، ويطلقون الرصاص في الهواء) لعبة التلفزيون المفضلة، لما تملكه من كفاءة التخييل، ولما يضفيه عليها محللون، ومعلقون وناطقون، من بلاغة الصواب.

لم يكن هذا الواقع الافتراضي ليتحقق دون طمس الواقع نفسه. ففي زحمة المشهدية التربوية والأخلاقية والرمزية، المولعة بدفقات الأدرينالين في الدم، كان ثمة ما يشبه التواطؤ، لتغييب حقائق من نوع: أن المجابهة تدور بين شعب أعزل، وجيش قوي، بين شعب يعاني من نير الاحتلال، وبين قوّة كولونيالية غاشمة.

لذلك، احتل الكلام عن الصراع الوجودي الواجهة، كأنه يجري بين طرفين يملكان القدرة على إلحاق الأذى بدرجة متساوية، ويملكان وسائل التهديد الوجودي بدرجة متساوية، يتحقق بها مبدأ الردع المتبادل. ورغم أن ذلك الكلام لا ينسجم مع الواقع، لأن رغبة الفلسطينيين في التحرر، لا تشكل خطرا يهدد وجود الدولة الإسرائيلية، بل يهدد وجود واستمرار الاحتلال، أعادت الميليشيات إنتاج واقعها الافتراضي، لتصبح رغبة التحرر في تمثيلاتها البلاغية والبصرية محاولة لقطع رأس الدولة، بدلا من صراحة حضورها في الزمان والمكان، كمحاولة لفك قبضة الاحتلال عن عنق الشعب.

وقد استثمرت في سعيها للبرهنة على صدق تمثيلاتها البلاغية والبصرية أقصى ما تملك الضحية من طاقة لإلحاق الأذى بالذات.

-٣-

كأنني استيقظت من حلم، أو وصلت من مكان بعيد. كان الوجه على قدر من الفتنة يغوي باحتمال الجنّة، وفي رائحة ولون الدم اللزج الذي يبلل القميص ما يؤكد أن شيئا ما قد حدث. الدوار بدوره كان واقعيا، والإبرة المعكوفة التي تثقب الجلد، لتغوص فيه وتخرج منه بخيط أبيض، كانت واقعية، أيضا.

لم تقل الطبيبة كلاما كثيرا، ربما لأن صوت انفجارات تشبه مطارق ضخمة على لوح من الفولاذ بدأ يقترب أكثر. ربما لأنني حدقت في وجهها أكثر مما يجب، وبغير ما يجب. ربما لأنها

منهمكة في شغلها كما يجب.

احتمالات كثيرة لحقيقة واحدة ازداد عدد خيوطها بعدما كفت الإبرة عن ثقب الجلد، وغاب الوجه الفاتن عن زاوية النظر، التي سرعان ما تبين صعوبة تعديلها لأن ألم الفكين يصد كل محاولة لتحريك الرأس.

كنت مسجى على طاولة مستطيلة، لا شك أنها طاولة بينغ بونغ، تحوّلت إلى طاولة مرتجلة للعمليات، في عيادة للحزب التقدمي الاشتراكي، في كركون الدروز. لا أعرف الفترة الزمنية التي قضيتها غائبا عن الوعي، لكن الألم الناجم عن رتق الجلد تحت الذقن، بدون مخدر، الألم الذي انتزعني من الغيبوبة، يوحي أنها لم تكن طويلة. فما أن سمع حرّاس العيادة صوت الاصطدام، الذي وقع لحسن الحظ على مسافة أمتار قريبة من العيادة، حتى انتشلوا الجسدين من السيارة التي تهشمت مقدمتها، وتناثر زجاجها الأمامي.

لا أذكر اسم رفيقي في تلك الرحلة الليلية، فقد جمعتنا الصدفة، وحاصرنا القصف في منطقة كلية الهندسة، التي لم نتمكن من مغادرتها حتى منتصف الليل، عندما ابتعدت أصوات الانفجارات مسافة تكفي للخروج، والمشي إلى جسر الكولا، حيث تقبع سيارته، التي ستقلنا إلى الحمرا.

كان إشعال أضواء السيارة في ذلك الوقت مخاطرة غير مضمونة النتائج، كما كان السير بحذر في شوارع معتمة رفاهية يؤكد اقتراب صوت الانفجارات استحالة تحقيقها. لذلك، انطلقت السيارة بسرعة مروّعة، وكان اصطدامها بسيارة تربض في الطريق العام من طبائع الأمور.

لم تعد كثير من التفاصيل الصغيرة ضرورية بعد عشرين عاما، عشت خلالها بندبة صغيرة أسفل الذقن، أصبحت مع مرور الأيام من معالم الوجه، وفي الذاكرة تعتق طعم ذلك الإحساس الغامض بالفرح لمرأى الدم. فقد تملكتني قبل تلك الحادثة فكرة واظبت على الحضور اليومي إلى حد التسلط: أرى دما ينزف مني في بيروت. كان في العمر، وفي الصبوات، ما يكفي لتمكين غواية رومانسية من التحوّل إلى فكرة متسلطة، لكن نزف الدم غير مضمون العواقب في معظم الأحوال، وفي هذا ما يبرر خوف ما قبل الحادثة، وسرور ما بعدها. كأن النبوءة تحققت بأقل خسارة ممكنة.

لكن الحادثة، بكل تفاصيلها الصغيرة، وما رافقها من مشاعر يصعب القبض عليها باللغة، عادت في نوفمبر الماضي، خلال الاجتياح الأوّل. يبدو أن الطبيبة ذات الوجه الفاتن، رغم انهماكها في الشغل، كما يجب، نسيت شظية صغيرة من الزجاج تحت الجلد.

بيضاء، مدببة، صافية، بقطر يبلغ مليمترات قليلة، تليّف حولها الجلد، وسكنت في الجسد عشرين عاما، ثم ضاق بها الجلد، أو ضاقت به. انتفخت الندبة بضعة أيام، خرج منها ما يشبه الصديد، وسقطت على طرف الإصبع أمام نافذة أطل منها على دبابات تعبر الشارع على كتف الوادي في البالوع. دار الزمن دورة كاملة، المحاصِرون، والمحاصَرون لم يتغيّروا.

فتح الزمن قوسا في الأيام الأولى للحرب، عندما رأت صاحبتي بعض ما تبقى من ظهري المهشم، تحت أنقاض بناية أطاح بها صاروخ، وتحلّق حولها عمّال الإنقاذ. سألتُ على الهاتف كيف عرفتْ أن الجثة جثتي، والظهر المهشم ظهري، طالما لم تر الوجه. قالت: نرى الأشياء في الحلم بعين القلب، ونراها في الصحو بعين العقل.

وبما أن الصواريخ كانت تطيح بالبنايات في الواقع، وعمّال الإنقاذ يتحلّقون حول جثث حقيقية على شاشة التلفزيون، وما نراه في الحلم تؤّوله الرغبة كيفما تشاء، سافرت من هلسنكي البعيدة في شمال الكون إلى تل أبيب، محصنة ببطاقة صحافية، وكاميرا في حقيبة اليد، ورغبة في القلب للمس الخطر باليدين. رافقت فريقا من الصحافيين الأجانب أصطحبهم ضابط، في قسم الإعلام بالجيش الإسرائيلي، إلى جنوب لبنان للفرجة على ما تبقى من أطلال قلعة الشقيف، ووصلت مع المجموعة نفسها إلى فندق في بيروت الشرقية، حضرت مؤتمرا صحافيا لشارون في الفندق نفسه.

حذرها الجندي الإسرائيلي، المرابط على آخر نقطة تفصل بين شطري العاصمة اللبنانية، من مخاطر الذهاب إلى بيروت الغربية، فقد يحاول «المخربون» اغتصابها. روت الحادثة بحيادية، وغمزت بعينها ضاحكة: قلت للجندي، أرجو أن يحدث ذلك.

وسرعان ما انخرطت في الدورة اليومية لحياة تستدعي أفضل ما فينا من فنون البقاء، لكنها لا تحررنا من قدرية تبرهن نار تنصب على رؤوسنا من الأرض والسماء والبحر على صوابها. عاشت بين الحدين. فالأوّل يبرر الوقوف في طوابير طويلة للحصول على الخبز أو الماء، والثاني يمكنها من الذهاب إلى أماكن أكثر خطورة من غيرها بحثا عن صور، لا تجعل الدوافع الشخصية المجرّدة، سبب حضورها الوحيد إلى مدينة يحاصرها الموت.

وبين هذه وتلك تجد الوقت لتغيير الضماد، وإشعال شمع في المساء. عندما التقينا قبل عام من ذلك التاريخ، سألت عن الفرق بين منظمتين فلسطينيتين تزعمان تبني الأيديولوجيا نفسها، لكنهما على طرفي نقيض، قلت الفرق في الحماقة، فقط. يومها قبلت دعوتي إلى العشاء، وفي طريق العودة كانت القذائف المضادة للدروع، وأصوات الأسلحة الأوتوماتيكية تغلق الطريق إلى حي أبو شاكر في الفاكهاني، على إثر خلاف مسلّح بين أمل والحزب الشيوعي. تقول ضاحكة: لن أموت، الموت يميز الفلسطينيين، يعرفهم. لا ضرورة، بالتأكيد، لأخذ هذا الكلام على محمل الجد، لكنه بعض ما يحرر تجربة الحرب من خطاب الحرب.

المشكلة أنني أحاول، الآن، تحرير تجربة الحرب الراهنة من خطاب الحرب، فلا أجد سوى دلالة العجز، الذي تعززه أيام متشابهات، يملأ التلفزيون فراغها، ونداءات منع التجول في الصباح، وساعات الحرية القليلة، التي يسمح بها الغزاة، لمدة يومين أو ثلاثة أيام في الأسبوع.

ولعل أوضح علامة لهذه التجربة على جدار الروح المشدود كقوس نافر من العصب، هي

الإحساس بالمهانة اليومية، على المستوى الشخصي والعام، إلى جانب إدراك مرهف كنصل محايد ومثقل بطاقة الأذى، للخسارة التي يحوّلها انسداد الأفق إلى سيرورة للتدهور يصعب التكهن بفترتها الزمنية، أو نتائجها الكارثية.

ورغم ذلك، أغلق الزمن قوسه بطريقة شبه متزامنة مع دخول شظية الزجاج في الجلد وخروجها منه. في الحرب الأولى جاءت امرأة، ترى بعين القلب، إلى بيروت المحاصرة، في محاولة للمس الخطر باليدين. وفي الحرب الثانية جاءت امرأة كقطر الندى إلى البيرة المحاصرة. لا ضماد هذه المرّة، فما لحق بالروح من جراح يستعصي على براعة اليدين، أو كفاءة الطب. لكننا نشعل شمعا في المساء.

في وصف حالتنا
٢

وحشة

(مستلهمة من قانون الجاذبية)

فدوى طوقان

ركض الوقت وخلفني وحدي مع ظلي في الدار
القانون الكوني تلاشى، بدّده عبثُ الأقدار
لا جاذب يمسك امتعتي ويشد بها في أرض الدار
طارت أمتعتي، صارت مُلكاً يملكه الأغيار
طار المقعد، طار خواني، طار الكرسيُّ الدوّار
وحدي مع ظلي في الدار
لا أب، لا أم
لا اخوة، لا أخواتُ تملأ بالضحكات الدار
لا شيء سوى الوحشة والغم
ورُكام الأشهر والأعوام
يثني ظهري، يثقل خطوي، يطفئ في الأفق الأنوار
يوحشني عَبَقُ القهوة / العَبَقُ العطريّ الفوّاح
يغرقني في بحر النشوة / كلَّ مساءٍ، كلّ صباح
ركض الوقت وخلفني وحدي مع ظلي في الدار
كم ذا توحشني مكتبتي .. أنسُ حياتي في الأزمات
وفي الأفراح

فدوى طوقان، شاعرة فلسطينية تقيم في نابلس

توحشني، كم ذا توحشني ساعةُ أمي الأثرية
والصورُ التذكارية
عالقة في صدر جدار
يوحشني عودي
صمتَتْ وانقطعت فيه الاوتار
ركض الوقت وخلفني وحدي في الدار
يوجعني منع التجوال
يوجعني، لا بل يقتلني في وطني قتل الأطفال
أخشى الغد، أخشى المجهول الآتي من غيب الأقدار
ربِّي لا تجعلني عبئاً تنبذه كل الأجيال،
انتظرُ بلوغي أرضَ الصمت / انتظرُ الموت
طالت دربي يا ربي قَصِّرها واختَصِرِ المشوار

نابلس

في وصف حالتنا
٣

من يوميات الاجتياح

يحيى يخلف

الثلاثاء /٢ نيسان (أبريل)

مطر خفيف، وطقس شديد البرودة...

الضباب يملأ الوادي، والغيوم الخفيفة تسبح على علوّ منخفض، وتعبر أمام الشرفة.. وفيما كنت أشرب قهوتي في الشرفة، كانت أصوات انفجارات بعيدة تسمع بين الحين والآخر، وتفسد لحظة سكينة أتوق إليها في هذا الصباح المقلق.

انشغل هيثم وغادة وهالة في نقل الحطب إلى المدفأة، وفي إشعال النار، وذهبت مخيّلتي إلى طوابير المعتقلين الذين يكبّل الجنود أياديهم، ويعصبون أعينهم، ويزجّون بهم في المجنزرات والحافلات، ويلقون بهم في ساحات مكشوفة بمعسكر «عوفر» القريب من بلدة بيتونيا.

لعلهم الآن يتكدّسون في العراء، تحت المطر، بلا ماء ولا طعام وتحت سقف الذل والمهانة، ينتظرون دورهم للدخول إلى غرف التحقيق.. لعلّ عذاب الانتظار أقسى من عذاب التحقيق.

رنّ الهاتف فجأة. لقد صمت طوال الليلة الماضية، قيل: إن الإسرائيليين سيطروا على مباني شركة الاتصالات الفلسطينية، وعطلوا الخطوط، وسيطروا على شبكة الهاتف الخليوي (جوال)، ووضعوها تحت المراقبة.

رنّ الهاتف، مكالمة من ولدي طارق ورامي اللذين يدرسان في القاهرة. لقد ظلاّ يحاولان الاتصال منذ اللحظات الأولى للاجتياح، لكن الخطوط لم تتجاوب..

وها هما يظفران بمكالمة.. تحدثا بلهفة، وسألا أسئلة لا تُحصى، وتخاطفنا سماعة الهاتف بعضنا من بعض، وعلى هدير الدبابات التي تذرع الشارع القريب، كان إيقاع المكالمة حزيناً ومؤلماً

يحيى يخلف، كاتب وروائي فلسطيني مقيم في رام الله

وجارحاً، على الرغم من محاولاتنا إدخال الطمأنينة إلى نفسيهما.

طارق يدرس في المعهد العالي للسينما في القاهرة، ورامي يدرس في جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا في مدينة ٦ أكتوبر.

عاش أولادي منذ طفولتهم ظروف الحرب والحصار والشتات.. في اجتياح عام ٨٢ وحصار بيروت، كان هيثم في التاسعة، وطارق في الرابعة، أما رامي فلم يكن قد أكمل عامه الأول.. وذاق الأولاد معنا بعد ذلك عذابات الغربة، من منفى إلى منفى، ومن مطار إلى مطار.. من بيروت إلى دمشق، ومن دمشق إلى الجزائر، ومن الجزائر إلى تونس، عاشوا في ظروف قلقة، وفي مجتمعات مختلفة، ودخلوا باكراً في مراحل الاغتراب والقلق الوجودي..

دخلوا في مدارس كانوا فيها غرباء، وتغيرت عليهم خلال ثماني سنوات خمسة مناهج تعليمية، وكان كل واحد منهم يحمل جواز سفر يختلف عن جواز سفر أخيه، وتعرضوا للمساءلة والتحقيق في المطارات، وعرفوا - وامتلكوا الوعي بالحقيقة - أن لا وطن لهم إلا فلسطين.

طارق قطع دراسته في معهد السينما أثناء الانتفاضة وجاء ليعيش التجربة، وأثناء وجوده أنجز شريطاً تلفزيونياً عن أطفال «مدرسة الكفيف» في البيرة، الذين تعرضت مدرستهم الداخلية للقصف من مستوطنة «بسغوت»، وكان قد أصيب في بداية الانتفاضة بطلقة مطاطية في ساقه.

عندما عدنا إلى الوطن عام ٩٤، كنا نعتقد أن رحلة العذاب قد أوشكت على الانتهاء. كنا نعتقد أن السلام قادم، وأننا سنبني وطناً جميلاً، وأن الحياة سيكون لها طعم البرتقال والمشمش والتوت، لكن الحياة في هذه اللحظة التي أقفلت بها خط الهاتف، كان لها في الواقع طعم الموت.

أحسست بالاختناق، فقررت أن أخرج من المنزل، وأن أهبط إلى مدخل العمارة. المصعد معطل، هبطت الدرجات بحذر، إذ أنني وقبل بضعة شهور كنت أهبط الدرجات ليلاً، فانقطع التيار الكهربائي، وتعثرت، وسقطت سقطة قاسية، كانت نتيجتها كسراً فظيعاً في الرسغ. هبطت هذه المرة بحذر، لم يكن الوقت ليلاً، لكن النهار هذه الأيام، بمعنى أو بآخر أشد حلكة من ظلام الليل.

في مدخل العمارة، كان يجلس د. جمال محيسن، ود. أمين حداد، والوزير عزام الأحمد، والصديق شوكت أبو فراس..

كانوا يجلسون في زاوية بمدخل العمارة، زاوية مكشوفة، كنا قد وضعنا بها طاولة تنس، لنمارس هذه الرياضة الأنيقة في الأمسيات الرائعة، كانوا يجلسون، يتحلقون حول (كانون النار) الذي يبادر شوكت في أغلب المرات إلى جمع الحطب له وإيقاده.

تنفّست الصعداء، وانخرطت معهم في أحاديث مرهقة عن الوضع الراهن، ومستقبل الأيام والشهور القادمة.

وعلى الرغم من قتامة الصورة، كانت البراعم تطل من حوض الورود المزروعة أمام المدخل..

وفيما كنا مستغرقين في الأحاديث والتدخين والرد على مكالمات الهواتف النقالة، شاهدنا مجموعة من الرجال قادمة من وراء التلة المقابلة..

من هؤلاء الذين يمتلكون هذه الجرأة للمرور في تلك المنطقة المكشوفة والمعرضة لنيران القناصة

المتمركزين على أسطح البنايات المقابلة؟

كانوا أربعة، يتدثّرون بملابس رياضية شتوية، ويغطون رؤوسهم بقبعات صوفية، ويحمل كلٌّ منهم حقيبة يدٍ، يغذون السير في المنحدر، ويتحاشون النظر إلى البيوت المجاورة، وكأنهم لا يرغبون في أن يراهم أحد.

أدركنا أنهم من كوادر المقاومة، وأنهم ينتقلون من منطقة بيتونيا التي تخضع في هذه الآونة للتفتيش، إلى منطقة آمنة، ومن خلال الطريق التي يسلكون، توقعنا أنهم يتوجهون إلى وادي باطن الهواء المحاذي لعمارتنا.

تحاشينا النظر إليهم إدراكاً منا لحاجتهم إلى الإحساس بالطمأنينة، ورغبتهم في أن لا يتعرّف أحد ما على شخصياتهم وهم يعبرون إلى موقع جديد.

وحين مروا بمحاذاتنا لم يتلفتوا نحونا، غير أن شوكت أبو فراس ظل يتابعهم وهم يبتعدون، ويهرولون إلى قاع الوادي، ويغيبون في دغل الأشجار، بين الصخور، ثم يختفون عن الأعين.. قال شوكت بعد برهة من الزمن: لقد عرفت أحدهم.. إنه حسين الشيخ.

حسين الشيخ قائد من قادة تنظيم «فتح» في الضفة الغربية؛ قائد ميداني، تربطنا به صداقة حميمة، ولو كانت الظروف طبيعية لما تردد في التوقف، وطرح السلام، وتجاذب أطراف الحديث معنا.

شعرنا بقلق بالغ، فحسين الشيخ مطلوب لأجهزة الأمن الإسرائيلية، وهو مثل مروان البرغوثي، يسعى الإسرائيليون إلى اعتقاله، والتحقيق معه، وتقديمه إلى محاكمة عسكرية.

كان الصقيع يلفّ رام الله في هذا الصباح الحزين، وفي هذه اللحظات كان الضباب قد بدأ بالانقشاع، وأخذت الطيور تفرد أجنحتها المثقلة بالندى، وتتهيأ للطيران.. بل إن سرباً صغيراً من الحمام، أخذ يذرع الفضاء قبل أن ينقشع الضباب، يطير هنا وهناك بشكل ينم عن الذعر، أكثر مما ينم عن الفرح والسرور.

أين ذهب أولئك الرجال، في هذا الصباح الحزين، وسط الصقيع والرذاذ؟ لقد ذهبوا إلى الوادي العظيم المزروع بأشجار الزيتون والبلوط والكينا والسرو والصفصاف.. ذهبوا إلى بستان الله، إلى ظله الظليل مبتعدين عن الدبابات، وطائرات الأباتشي، والجنود، وقوات الأمن الخاصة (الشاباك)، والكلاب البوليسية..

ذهبوا إلى بستان الله، إلى أحضان الأرض الطيبة، ينشدون زمناً آمناً، ومحطة استراحة..

غاب أولئك الرجال في عمق الوادي، لكن قلوبنا ظلت معهم، ظلت قلوبنا تتلفت نحوهم كلما جاء هدير المجنزرة، وكلما ردّد الفضاء صدى زخة رشاش.

فكرت بعدها أن أصعد إلى الطابق الثاني، لزيارة الصديق عثمان أبو غربية الذي خرج من المستشفى قبل أيام قليلة، بعد عملية جراحية خطرة، عملية قلب مفتوح..

لم يكن يستطيع النزول إلى مدخل العمارة، والانضمام إلينا لأن المصعد معطّل، ولأن الأطباء منعوه من استعمال الدرج.

ها هو الدفء ينتشر، وتنتشر معه رائحة الحطب وهو يحترق.

كانت ألسنة اللهب في المدفأة تشكل تكويناً فنياً ساحراً..

لقد تأخّر مجيء الدفء في هذا الربيع الشرس، ودرجات الحرارة تبدو دون معدلها السنوي في مثل هذا الوقت.

المحطات الفضائية تبث أخبار الحصار على المقاطعة، ووقائع الحصار على كنيسة المهد في بيت لحم، وعن حشود عسكرية مريبة حول نابلس وجنين، وما بين هذا الخبر وذاك، تجري المحطات الفضائية مقابلات مع جنرالات الكلام..

وأثناء ذلك، اتصل بي علاء الخليلي، مدير عام الشؤون المالية والإدارية في وزارة الثقافة، وأكد لي نبأ استيلاء القوات الإسرائيلية على مبنى الوزارة الكائن في حي الإرسال.. البناية التي تشغل وزارة الثقافة معظم طوابقها، وتشغل ما تبقى منها محطتا الاستقلال وأمواج، وهما محطتان محليتان للبث التلفزيوني.

البناية هي أعلى موقع يطل على مبنى المقاطعة، لذلك اختار الإسرائيليون احتلاله، وتحويله إلى مقر لقيادتهم العسكرية في تلك المنطقة، وأبلغني علاء على لسان شهود عيان من البنايات المجاورة، أن الإسرائيليين قد عاثوا بالبناية فساداً، إذ دمروا أجهزة الكمبيوتر، وحطموا الأثاث، وصادروا الأرشيف، وأتلفوا بعض مقتنيات الوزارة من لوحات فنية، وممتلكات ثقافية أخرى..

كما حطموا الأجهزة والموجودات في مكاتب واستوديوهات الاستقلال وأمواج.

لم يعد هناك ما يثير الدهشة، فجرائم الاحتلال فاقت كل التصور، وأوغلت أنياب المحتلين في عموم الاراضي الفلسطينية، واستباح الغزاة كل شيء وحدث في بلادنا ما كان يحدث في الزمن الغابر من سفك للدماء، وتنكيل بالأبرياء، وقتل للأنفس والزرع والشجر، وما أبدعه الإنسان من بناء، وشواهد حضارية، ومن فكر وأدب وفن..

قالت زوجتي: الغضب يندلع في شوارع الدول العربية.. المظاهرات تعم مختلف العواصم.. حتى السعودية التي لم تشهد مظاهرات في السابق، تتحرك الجماهير في بعض مدنها وقراها..

ها هي الدماء الحارة تندفع وتسري في عروق وطن عربي مقيّد.

ها هو الشارع العربي يتحرك، ولكن ماذا تحقق الحركة العفوية من نتائج؟

أين القوى المنظمة.. أين الأحزاب والقوى الوطنية القادرة على التقاط اللحظة التاريخية وتحويلها إلى تغيير وتجديد؟.

حملت معي تساؤلاتي حين انتقلت إلى مكتبي الصغير. جلست وراء الطاولة دون هدف.. بجانبي آخر كتاب كنت قد شرعت بإعادة قراءته، هو الطبقات الكبرى لابن سعد.. واحد من كتب التراث التي أحرص على العودة إليها بين وقت وآخر.

لم أشعر بأية رغبة في القراءة..

على الجانب الآخر من الطاولة، كانت الأوراق والأقلام، وعلى واحدة من الأوراق، بداية مقالة كنت على وشك إنهائها، إنها مقالتي الأسبوعية في جريدة «الأيام».. مقالة لم تكتمل بسبب

الاجتياح.

تذكرت أول مرة، منذ بدء الهجوم الإسرائيلي، أنني كاتب، وأنه يتعين عليّ أن أكتب أو أن أفعل شيئاً..

وفجأة، وجدت نفسي أكتب بياناً موجهاً إلى المثقفين العرب، وإلى مثقفي العالم.

كتبته مدفوعاً بشحنة قهر كانت تملأ قلبي وروحي.. كتبته كنداء موجه من المثقفين الفلسطينيين.. وبعد الانتهاء من كتابته، بدأت الاتصال بمن تمكنت من معرفة أرقام هواتفهم من أدباء وفنانين وأكاديميين، لآخذ موافقتهم على وضع أسمائهم على البيان، ومن بين هؤلاء، اتصلت بالصديق الشاعر غسان زقطان..

لم أتلق جواباً.. الهاتف يرنّ ولا أحد يرفع السماعة. وعلمت فيما بعد أن دورية إسرائيلية سيطرت على العمارة الصغيرة التي يسكن إحدى شققها، وأنزلت السكان إلى الشارع، وأجرت تفتيشاً دقيقاً في الشقق، ثم حشرت جميع السكان في شقة أرضية، وحولت بعض الشقق الأخرى إلى مراكز مراقبة، ومن بينها شقة الصديق غسان زقطان..

تحول بيت غسان إلى مركز مراقبة، يتمركز فيه القناصة الذين يراقبون الشوارع والطرق المقابلة، وتحول منزل الدكتور جهاد مشعل، إلى مقر لقيادة القوات المشرفة على العمليات في مخيم الأمعري، وتحول غسان وجيرانه إلى أسرى في شقة أرضية أحكم الإسرائيليون إغلاقها، وأخذوا معهم مفاتيحها.

نفدت السجائر، ونفد الطعام، ونفدت طاقة الاحتمال البشري..

من آخر ما يختزنه الهاتف المحمول من طاقة، أجرى غسان اتصالات مع بعض أصدقائه من كتّاب العالم، وسرعان ما بدأت حملة ما للتضامن معه، خاصة من البرلمان العالمي للكتّاب..

كما أن الدكتور جهاد مشعل، أحد أبرز العاملين في جمعية الإغاثة الطبية، أثار الموضوع مع منظمات دولية، في مقدمتها الصليب الأحمر..

وأثمرت الجهود، بفك أسر سكان العمارة، وخروج القوات المحتلة منها، وعودة غسان إلى شقته.. إلى بيته النظيف، والأنيق، المسكون بروح حضارة أوغاريت.

الأربعاء، الخميس ٣ . ٤ نيسان (أبريل)

اختلط الليل بالنهار، ودخلنا في حالة يقظة دائمة، ساعات قليلة للنوم دون وقت محدد..

أصبح الزمن مجرداً، اختلط الليل بالنهار، واليوم بالأمس، وكل ما هو محسوس بكل ما هو مجرد.

أصبح لنشرات الأخبار مرارة الملح.. ، منع التجول متواصل، ولا نستطيع التحرك إلا داخل البيت أو أمام العمارة في دائرة نصف قطرها مائة متر.

تواصلت عمليات الاعتقال من العمارات في مختلف الأحياء.. يطلبون من الذكور بواسطة مكبرات الصوت، ومن سن الخامسة عشرة وحتى الخمسين، النزول إلى الساحات وتسليم أنفسهم،

يقيدونهم بالأغلال، ويعصبون أعينهم، ويدفعون بهم إلى الحافلات التي تنقلهم إلى معسكر «عوفر» الرهيب.

ما زال الشاب هاني الفار، في معسكر «عوفر»، حاولت عائلته الاستفسار عنه بواسطة الصليب الأحمر وجمعيات حقوق الإنسان، لكن لم تظفر بخبر عنه.

اندفع عدد كبير من المطلوبين، ومن رجال الشرطة نحو الوادي الذي يحاذي عمارتنا بحثاً عن مكان آمن، مكان يتحصنون، أو يختفون به عن الأعين.. لقد هدّهم التعب والجوع والقلق، فلعلهم يجدون الملاذ بين الصخور، وتحت الأشجار، وفي الكهوف.

وكان الأهالي الذين يقطنون أطراف الوادي، يزودونهم بالطعام.

وفي هذا الصباح، تكثّفت حركة الدوريات والدبابات في منطقتنا السكنية. كنا نسمع حركة الآليات عن بعد ثمانمائة متر، هي المسافة التي تفصلنا عن الشارع الرئيسي.

كنا - سكان العمارة - نتجمع عند المدخل، كنا أسرة واحدة، نتبادل المعلومات، ننتظر اقتحام العمارة، نقلق على الرجال المختبئين في بطن الوادي، نذهب خلسة عندما تبتعد الدوريات إلى الدكان القريب لشراء الحاجيات..

نديم الاتصال بالأصدقاء الذين يقطنون في أحياء مختلفة لمعرفة ما يجري هناك.. ودائماً تأتي الأخبار عن مجازر ترتكبها قوات الاحتلال في العمارات الخالية أو الدكاكين المغلقة، حيث يختبئ من نفدت ذخيرتهم، أو انقطعت بهم السبل.

أمضينا وقتاً طويلاً في تحديد المواقع التي يتمركز فيها القناصة، وراقبنا دوريات القوات الخاصة الإسرائيلية (قوات المستعربين) الذين يلبسون الزيّ الفلسطيني، ويتجوّلون في الأحياء، ويداهمون البيوت حسب معلومات استخبارية.

وعلى الرغم من ذلك، كنا رجالاً ونساء، نتجمع في بعض الأمسيات تحت العمارة، ونجد وقتاً لشرب القهوة، وفي الليالي الباردة نقوم بزيارات عائلية بين طابق وآخر، وكانت النساء يحرصن على تقديم ما لديهن من حلوى صنعنها بأنفسهن، أو ما هو متوفر من بقايا فاكهة قد تكون ذابلة قليلاً، ولكن في مثل هذه الظروف يكون لها مذاق سائغ.

|

كنت أجلس على حافة السور أمام العمارة، عندما شاهدت أحد الرعاة يتدحرج مع ماشيته في الطريق الوعرة التي تفضي إلينا، وإلى الشارع الذي يفضي إلى الوادي..

كان كهلاً يلفّ رأسه بكوفية، يمشي وراء قطيع صغير من الخراف البيضاء والأغنام السوداء.. وأمامه، أو حوله، يمشي كلب مطيع عرف واجبه في المحافظة على وحدة القطيع، ومنع الخراف أو الأغنام الشرسة من الابتعاد أو الخروج عن المسيرة.

يحمل بيمناه عصا يتوكّأ عليها، ويهشّ بها على غنمه، وربما له فيها مآرب أخرى، وفي يسراه يحمل زوّادة يشي منظرها بما تحويه من تقشّف وبؤس.

ظلّ يهبط المنحدر والطريق الوعرة بهدوء وثبات..

ما الذي جاء به، وكيف استطاع أن يخترق حظر التجول؟!!.
كيف يمشي بكل هذه الثقة، دون أن يتوقع طلقة من قناص، أو زخّة رشاش من مجنزرة؟.
عندما أصبح بمحاذاتي توقف، فيما أبطأ قطيعه، وتوقف الكلب لدى توقفه..
طرح السلام، فرددت له التحية بمثلها..
سألني إن كان لدي بعض الماء..
أحضرت له زجاجة ماء، فوضعها داخل الزوّادة، وعند ذلك سألته:
كيف تخرج في مثل هذه الظروف.. ألا تخشى الموت؟.
أجاب الراعي الكهل: الموت والحياة سيان في هذه الأيام..
وتنهّد، ثم أضاف: منذ أسبوع والحيوانات محبوسة داخل السياج، ولم يعد لديّ ما أطعمها إياه.. وهذا الصباح عندما تفقدت القطيع وجدت بعضها وقد نفق من الجوع والعطش.. ماذا تريدني أن أفعل؟.
وعدت أسأله: إلى أين تنوي الذهاب؟.
أشار بيده نحو الوادي الفسيح وقال:
هناك.
إنه يذهب أيضاً إلى بستان الله.. إلى بساط الأعشاب الخضراء، والظل الظليل، لعله يجد مكاناً آمناً، ولعل القطيع يرعى دون خوف أو وجل، ولعل ربيعاً آخر يأتي بمزيد من الحملان والسخول.
شكرني، ومشى.. ظل يهبط المنحدر، ومشى هذه المرة أمام القطيع، فيما الكلب يقفز هنا، ويركض هناك، ويؤدي واجبه على أكمل وجه.

|

ذكّرني حديث الراعي الكهل، بحديث الشاب طارق، صاحب دكان لبيع اللحوم، والذي زرته قبل يومين، أثناء رفع قصير لمنع التجول..
واللحام طارق شاب في بداية العشرينات، وسيم الشكل مثل نجوم الكرة الإيطالية، ولا يخطر لك على بال أنه يعمل جزّاراً إذا ما شاهدته في الشارع، بملابسه الشبابية الأنيقة.
أثناء رفع قصير لمنع التجوّل مررت على دكانه لشراء اللحم.
وجدته يعمل بفتور وبلا حماس، فيما الزبائن يملأون مدخل الحانوت.
كان يعمل ببطء لا يتناسب مع ضيق الوقت الذي حدده الإسرائيليون للناس، كي يتزودوا بشيء من المؤن والحاجيات.
وعندما جاء دوري، نظرت إليه وحاولت أن أقرأ ما يدور بخلده، وخطر ببالي أن أحداً ما من أقاربه أو معارفه الأعزاء قد أصيب بمكروه أثناء هذا الاحتلال اللعين..
سألته: لماذا هذا العبوس.. أنت اليوم على غير عادتك؟.
رفع عينيه إلي، وقال:

واللّه يا عمي لا يفهمني أحد سواك.
كان دائماً يناديني بكنية (عمي) تقديراً واحتراماً، وكان ذلك يسعدني..
قلت له: أرغب في سماعك بالفعل.
توقف عن العمل، وضع السكين جانباً، وقال من وراء اللحم المعلّق بالكلاليب:
تستطيع أن تكتب قصة عما سأقوله لك..
ثم أضاف: ليلة الاجتياح سقت ثلاثة عجول إلى المسلخ، ليتم ذبحها في الصباح التالي، ونقلها مسلوخة إلى الدكان..
ومثلما يحدث في كل مرّة، فقد وضعت لها البرسيم والماء لوجبة العشاء، وأوصيت الحارس عليها، وغادرت إلى منزلي.
فوجئت في الثالثة صباحاً بدخول الدبابات وقطع الطريق، وفرض نظام منع التجول.
حاولت الاتصال بالحارس، إلا أن الهاتف لم يرد، فأيقنت أنه ولّى هارباً وترك العجول وحيدة.
لم أدر ماذا أفعل، وعندما انتصف النهار ازداد قلقي، وحل المساء فأيقنت أن العجول، قد جاعت وأنها تلوك الهواء.
ومرّ نهار آخر، وقلت: إن العجول ستتحمل ولكن ليس إلا ما لا نهاية..
في اليوم الثالث أحسست بحزن شديد، لم أكن أحسب خسارتي في العجول، لكنني كنت متعاطفاً معها..
شعرت أنها تتعذّب وتموت موتاً بطيئاً.. سوف تخور قواها وتموت من الجوع والعطش..
في اليوم الرابع حاولت الاتصال بالصليب الأحمر فقال لي والدي: لا أحد يتدخل من أجل إنقاذ الإنسان، فكيف سيتدخلون من أجل إنقاذ الحيوان؟.
في اليوم الخامس فقدت الأمل..
في اليوم السادس، رفعوا منع التجول، وسمحوا للناس بالخروج..
وأول شيء فعلته هو الذهاب إلى المسلخ، هرعت إلى المسلخ وقلبي يرتجف.. كنت أول من وصل، فلم أجد الحارس ولا العمال.. ذهبت إلى الحظيرة، كانت العجول تستلقي على الأرض، وخيّل إليّ لأوّل وهلة أنها ميّتة، لكن عندما وقفت قبالتها، لاحظت أن أعينها مفتوحة، وأنها تتنفس ببطء.. كانت في الرمق الأخير..
أحضرت لها على الفور الطعام والماء، وقفت على قوائمها بصعوبة، وقفت عندما شمت رائحة العشب اليابس، وتركتها تأكل وجئت إلى الدكان لبيع هذه اللحوم المحفوظة في الثلاجة.. لكن يتعين عليّ قبل انتهاء حظر التجول أن أعود إليها.
روى ما جرى وهو منفعل، وحتى الزبائن الذين أبدوا تذمرهم في البداية، أصغوا باهتمام.. ولعلّ أحدهم سأل مدفوعاً بغريزة حب الاستطلاع:
وماذا ستفعل بتلك العجول، هل ستذبحها؟.
عاد طارق إلى عمله في تنظيف اللحم وتقطيعه، وأثناء ذلك قال:

لا.. لن أذبحها، أفكر بأن أطلق سراحها في البراري، فهناك لا يوجد حظر للتجول.
تذكرت قصة طارق وعجوله الثلاثة.. هل عاد إليها بالفعل، وأطلق سراحها في البراري؟.
هل ذهب بها إلى بستان من بساتين اللّه أيضاً، بعيداً عن المسالخ والدبابات.. والحزن العميق؟!!

الجمعة، السبت، الأحد / من ٤-٦ نيسان (أبريل)

استعادت المقاومة زمام المبادرة، وتصاعدت في جنين ومخيمها، وفي نابلس وبلدتها القديمة ومخيماتها.

وفي مختلف المناطق: رام اللّه، بيت لحم، الخليل، قلقيلية، طولكرم، الأغوار، أعاد المقاومون ترتيب الأشياء بعد أيام قليلة من الصمت، التقطوا فيها الأنفاس، ووصل المقاومون إلى داخل الخط الأخضر.

عمليات الخط الأخضر كانت تثير جدلاً، خاصة في أوساط بعض المثقفين الذين رأوا أن العمليات التي تمس بالمدنيين الإسرائيليين تلحق الضرر بصورة النضال الفلسطيني، خاصة في أوساط الرأي العام العالمي، أما بعض الناس في الشارع الفلسطيني فكانوا يستقبلون مثل تلك العمليات بارتياح، بسبب العنف الإسرائيلي وحالة القهر والإذلال التي مورست عليهم.

ازداد الضغط خلال هذه الفترة على محيط المقاطعة حيث مكتب الرئيس، وواصلت الجرافات عملها في هدم المباني الملاصقة لمبنى الرئاسة، وفي تدمير السيارات المدنية والعسكرية العائدة لقيادة الأمن الوطني، أو بروتوكول الرئاسة.

وبدأوا يمارسون أشكالاً جديدة من الضغط على عصب المحاصرين في مقر الرئاسة، من منع لوصول التموين، وقطع لخطوط الهاتف، وقطع للتيار الكهربائي، أو الماء، أو التهديد بالاقتحام وتنفيذ مناورات تكتيكية توحي بالاستعداد للاقتحام، كما رفعوا منطاداً فوق المقر يحتوي على أجهزة مراقبة وتصوير.

ولم يعد من السهل الاتصال بشقيق زوجتي (غسان) المحاصر في مكتب الرئيس، إذ أن اجهزة التشويش كانت تسلّط حتى على الهواتف النقالة.

في رام اللّه نجح عدد كبير من الأوروبيين المشاركين في الحملة الشعبية الدولية لحماية الشعب الفلسطيني، نجحوا في تخطّي الحواجز، والوصول إلى المدينة، والدخول إلى محيط المستشفيات، والشوارع الرئيسية، ليكونوا شهوداً على جرائم الاحتلال، وليحاولوا إيقاف هذا النزيف المروع.

وتمكن عدد منهم أثناء رفع حظر التجول، من التسلل والوصول إلى مقر الرئاسة، ومقابلة الرئيس، وأصرّ عدد منهم على البقاء، كشكل من أشكال التضامن، ولإحراج الإسرائيليين، فيما لو فكروا باقتحام المبنى.

|

هذا الصباح، أفقت من النوم باكراً على هدير الدبابات..
كان صوتها قريباً، وخيّل إليّ أنها بين لحظة وأخرى، ستهد الجدار وتدخل غرفة نومي..

سارع أهل البيت إلى النوافذ والشرفة المطلّة على الجانب الغربي.. كانت دبابة (ميركافاه) تهدر تحت الجانب الغربي من عمارتنا، كانت تهدر وتثير دخاناً كثيفاً، دبابة كبيرة تشبه عمارة من عدة طوابق، وخلفها كانت مجنزرة مليئة بالجنود، وفوقها جندي يلبس خوذة وسترة واقية، وراء الرشاش، وينظر إلى السكان الذين يطلّون من النوافذ، ويوشك أن يضغط على الزناد.

وعلى السفح الشرقي القريب، كانت مجموعة أخرى من الدبابات والمجنزرات تسيطر على الجانب الآخر من الوادي..

ترجل عدد من الجنود، وهبطوا إلى المنطقة الوعرة المزروعة بالأشجار الكثيفة في نسق عسكري، وهم يصوبون بنادقهم.. ها هي عملية عسكرية، تهدف إلى تطويق واعتقال أو قتل المطلوبين، الذين يختبئون وراء أشجار وصخور الوادي.

هربت الطيور الصغيرة من المكان، أصابها الذعر، فرفرفت بأجنحتها عالياً، وابتعدت.. طائر وحيد ظل يحوم في فضاء الوادي، إنه النسر الذي كنا نشاهده بين فترة وأخرى في الصباح الباكر، أو لحظات الغروب، حينها كان يحلق في الفضاء بحثاً عن فريسة.. يفرد جناحيه ويحلق على علوّ منخفض، ويحدق ببصره الحاد، يفتش في قاع الوادي عن أرنب بري، أو سحلية، أو قنفذ.. يسبح في الفضاء مثل طائرة شراعية، وعندما يحدد هدفه، ينقض فجأة في هبوط عامودي، وبسرعة قصوى، يخطف الفريسة بأظافره، يلتقطها ويطير بها، ويرفرف بأجنحته الكبيرة، ويرتفع في الفضاء، ثم يبتعد بها ليأكلها في مكان آخر.

وحده النسر في هذه اللحظات كان يذرع الفضاء على علوّ منخفض، وقد طال تحليقه دون أن يظفر بشيء، فلعل فرائسه، تلك الكائنات الصغيرة والضعيفة، قد اختبأت في جحورها، وسرت القشعريرة في أبدانها لدى سماعها هدير دبابات (الميركافاه) ذات الجنازير، آكلة لحوم البشر.

ظل الصمت الذي يثير الاستفزاز يسيطر على المكان، الجنود يحاولون النزول والاقتراب أكثر فأكثر نحو فم الوادي، يتحركون ببطء وحذر، لكأن فم الوادي سوف يبتلعهم، فيما إذا فقدوا الحذر والانتباه.

الوادي يبدو كما لو كان فارغاً، كما لو كان راكداً.. ومن الواضح أن معلوماتهم الاستخبارية عمّا يحويه هذه الوادي ناقصة، ومن الواضح أنهم يحاولون الدخول إلى منطقة رمال متحركة، منطقة يجهلونها، ويجهلون ما قد ينتظرهم فيها من مفاجآت..

الجنود يتقدمون بحذر على الكتف الشرقي المقابل لعمارتنا، الدبابات توجه سبطاناتهما نحو مواقع مختلفة، المجنزرات توجه رشاشاتها نحو نوافذ البيوت، وأسطح العمارات المحاذية للوادي..

النسر يحلّق، ويبحث عبثاً عن وجبة يلتهمها.

وفجأة، انقطع الصمت.. فجأة حدث الاشتباك، فجأة أصاب الجنود الذعر فانبطحوا أرضاً، فجأة أطلقت الرشاشات الثقيلة من شتى العيارات نيرانها، فجأة أطلقت الدبابات قذائفها بشكل عشوائي، فجأة امتلأ الوادي بالدخان والحريق، فجأة رفرف النسر بجناحيه، وبدا مذعوراً فارتفع إلى الأعلى، ثم طار مبتعداً.

كنت أطل على المشهد من علٍ.. تواصل قصف المدافع والرشاشات، وكان عليّ أن أميّز صوت رصاص البنادق، الرصاص المتقطع الذي يمارس حالة دفاع عن النفس..

وفجأة أيضاً، امتلأت السماء بالطائرات المروحية التي اعتدنا على رؤيتها، طائرات الأباتشي التي تطلق صاروخاً على هدفها فلا تخطئه، يصل صاروخها هدفه، مثلما تصل الكرة شباك الملعب في لعبة ساخنة من ألعاب كرة اليد.

ثلاث طائرات، سيطرت على الفضاء، بأزيزها، ونزقها، ها قد أثير عش الدبابير، وها هي الدبابير العنيدة تشهر مجسّاتها وإبرها وخراطيمها، وتتهيّأ للسع أو اللدغ..

سقطت الصواريخ هنا وهناك، وأيقنت عندها أن مجزرة قد وقعت، وأحسست بالألم لمصير أولئك المقاومين، الذين وصلوا هناك بحثاً عن ملجأ وعن مكان آمن.. وقفزت صورة حسين الشيخ ورفاقه إلى مخيّلتي، وكذلك قفزت صورة مروان البرغوثي ورفاقه أيضاً، فلعلّ مروان يختبئ هناك، ولعلّ ما لا حصر له من أصدقائي يتحصّنون هناك.

توقف صوت الطلقات المتقطعة من البنادق التي حاولت الدفاع عن النفس، وظلت الماكنة العسكرية الإسرائيلية تعمل، وبكامل طاقتها.

وبعد زمن لا أدري إن طال أم قصر توقف القصف، وأخذ الجنود ينسحبون من بين الأشجار، ويعودون إلى مصفّحاتهم، فيما ظلت الدبابات تراقب المكان، بينما عادت الطائرات من حيث أتت. وعاد الصمت مجدداً، فيما كانت كتلة من النيران تشتعل بين الأشجار، ظللنا نراقبها إلى أن خمدت. امتلأ الفضاء كله برائحة البارود، رائحة الدخان الأسود الكريهة، وذات لحظة، تقدمت سيارة إسعاف إسرائيلية، لم ندرِ هل جاءت لإخلاء الجرحى من الجنود، أم أنها تنتظر خروج الجرحى من الوادي، تقدمت، وحجبتها عنا بناية صغيرة كانت قيد البناء هناك، عند السفح الشرقي، لكنها بعد برهة من الزمن عادت من حيث أتت، فيما تقدمت سيارة إسعاف أخرى عليها نجمة داوود.

طال انتظارنا، وطال انتظار الدبابات والمجنزرات دون أن يخرج أحد من الوادي..

كان الإسرائيليون، كما يبدو، ينتظرون خروج المقاومين مرفوعي الأيدي، وهم يحملون شهداءهم وجرحاهم، لكن أحداً لم يظهر، وبدورهم لم يجرؤ الجنود على النزول إلى الوادي لمعرفة نتائج المعركة، ظلوا من داخل دباباتهم ومجنزراتهم يراقبون المكان الذي أمطروه بالنار، وفتحوا فيه أبواب الجحيم. وظل السكان يراقبون بدورهم، واعتقد أن أحداً منا لم يفكر في طعام الغداء.

|

انخفضت درجات الحرارة في المساء، وعندما كنت أجلس في الشرفة أراقب عن بعد الواد، وأتوقع أن يجد أي جديد، تشاغلت بالنظر إلى الزهور البنفسجية التي فتحت براعمها، وصنعت مشهداً جمالياً يحتاج الإحساس به إلى الشعور بالرضى.

حطّ عصفور ورفيقته على حوض الزهور، كان كل واحد منهما يحمل في منقاره قشّة، حطّا على حافة الحوض، ثم رفرفا وحطّا ثانية وسط زقزقة متبادلة تشبه الكلام، لعلهما يبحثان عن

مكان آمن يبنيان فيه عشهما، لعلهما يتشاوران.. هل وافقت العصفورة؟.
يبدو أنها لم توافق، فالمكان يطل على بيت مأهول، ويتعين والحالة هذه أن يجدا مكاناً أكثر أمناً، لذلك طارا في الفضاء وتوجها إلى مكان آخر.. حتى العصافير باتت مذعورة بعد ما أشاع الإسرائيليون كل هذا الخراب.. حتى العصافير تبحث عن بستان من بساتين اللّه، بستان لم تجده على الأرض، فهل تجده في السماء؟!!.
حلّ الظلام، وأحسست بحاجة إلى فنجان قهوة.. أعدّت هالة، زوجة ابني، لنا جميعاً ركوة قهوة، وانهمكت كعادتها في التطريز، وشرب كل منا فنجان قهوته في مكان جلوسه، هيثم وراء الكمبيوتر، وغادة في الصالون حيث جهاز التلفزيون، وأنا في الشرفة أنتظر، وأتوقع، وأتخيّل، وأدخّن السجائر.
ولأمر ما تذكرت فجأة، الراعي الكهل وقطيعه الصغير، وكلبه الذي لا يكفّ عن الحركة.. ماذا حلّ به، وماذا حلّ بالقطيع؟؟ وهل هلكت تلك الحيوانات اللطيفة في بستان النار؟ لعلّ الذئاب أكثر رأفة من قذائف الجنود.
مرّ الوقت بطيئاً، وحلّت العتمة.
الظلام في ليل الاحتلال شديد الحلكة.
باتت الدبابة والمجنزرة تحت العمارة، فيما انسحبت الدبابات من الجهة المقابلة، وظلت سيارة إسعاف تقف في مكان قريب من التلة المقابلة.
وزاد من همومنا في تلك الليلة انقطاع التيار الكهربائي، وقيل لنا: إن الإسرائيليين قصفوا أحد المحوّلات التي تمدّ المنطقة بالطاقة الكهربائية، وقد يحتاج الأمر إلى يوم أو يومين لإصلاحها.
أي أذى ألحقه بنا الأعداء جرّاء ضرب محوّل الكهرباء؟.
أي أذى نفسي، ألحقه بنا انقطاع التيار الكهربائي عندما غرق المنزل كلّه بالعتمة، وعندما أصبحت رام اللّه تُغَطِّيها كتلة سوداء؟.
لا تعرف قيمة النور إلا عندما تفقده، ولن تستطيع شمعة هزيلة أن تبدّد القلق من روحك.. وفي مثل هذه الظروف، فإن الشعور بالخطر يزداد عندما ينقطع التيار الكهربائي، ويتّسع الخيال لصورة ما قد يحدث تحت جنح الظلام من فظائع.
نمنا باكراً، فقد أحدث الظلام كآبة في نفوسنا منقطعة النظير..
وعندما استلقيت في فراشي، وحاولت أن أغفو، تناهى إلى سمعي، نباح متقطّع، فقمت من فراشي على الفور، وأسرعت وسط العتمة إلى الشرفة، وفي طريقي تعثرت ببعض الأثاث، وإذ وصلت، ألصقت وجهي بزجاج الشرفة..
خُيّل إليّ أنني سمعت الكلب ينبح نباحاً متقطّعاً ثم يصمت.

الثلاثاء ٩ نيسان (أبريل) ٢٠٠٢

صارت الأيام تتشابه.. لكل يوم ملامح وقسمات اليوم الذي سبقه، والأحداث كل يوم تعيد

إنتاج نفسها، معارك طاحنة على أطراف مخيم جنين، وهيئة الأركان الإسرائيلية تعزل القائد المكلّف باحتلال المخيم، وتستبدله بآخر، والجنرال موفاز رئيس هيئة الأركان يشرف على سير المعركة من الجو.

معارك طاحنة في محيط البلدة القديمة في نابلس، ومعارك أخرى واجتياحات للقرى المجاورة، ومخيمات بلاطة، عسكر الجديد والقديم، ومخيم عين بيت الماء، واجتياحات متواصلة لطولكرم وقلقيلية وطوباس ويعبد ومحافظة الخليل.

اعتقالات واسعة في صفوف الشباب، اعتقالات عشوائية في كل مكان، والحصار يشتدّ حول محيط المقاطعة في رام اللّه، وحول كنيسة المهد في بيت لحم.

تلقيت اتصالاً من شقيق زوجتي المحاصر داخل مقر الرئيس، الوضع يزداد سوءاً، لا ماء ولا كهرباء، ولا اتصالات، ولم يبق من التموين سوى الشيء القليل من المعلّبات الكريهة.

قال: إنه لم يبدل ملابسه منذ أسبوعين، ولم يستحمّ منذ أسبوعين، وأن روائح الحمّامات والمراحيض باتت لا تُطاق.

وكان الصديق توفيق الطيراوي إلى جانبه، فتحدثت معه، واستمعت إليه، وكان توفيق يتحلّى بمعنويات عالية، ويتابع كل ما يجري بدقة.

وسط هذا الحريق والدخان، بدأت تتسرّب حكايا إنسانية تزيد من قشعريرة المأساة.

الدبابات الإسرائيلية والجرافات تهدم البيوت والمداخل والساحات في البلدة القديمة في نابلس وتحوّلها إلى ركام، بيوت تهدم على رؤوس ساكنيها، الجثث في الشوارع، بين البيوت، وتحت القناطر، لقد تم تدمير مركز البلدة القديمة، وفيه آثار رومانية وبيزنطية وإسلامية، فيه برج الساعة، والسرايا العثمانية، ومبنى المحكمة العثمانية، والقناطر الجنوبية التي تربط المركز التجاري بالبلدة القديمة مع حي القريون، والشارع الذي يربط باب الساحة بالمسجد الكبير وسوق الحرف التقليدية.

الأحياء التي أصابها الدمار بشكل مباشر هي : حي الياسمينة، حي القريون، حي الحبلة. والمساجد التي تم تدميرها أيضاً هي : الجامع الكبير الذي كان صلاح الدين الأيوبي قد أمر ببنائه، وجامع الخضراء الذي أقامه السلطان قلاوون الصالحي عام ١٢٧٩م، وجامع النصر الذي أقيم فوق مبنى يعود إلى العهد البيزنطي، كذلك دمرت مصانع شعبية يصنع فيها الصابون النابلسي، مثل مصبنة كنعان، ومصبنة النابلسي، ومصبنة الرنتيسي ومبانيها تعود إلى طراز معماري مملوكي وعثماني، وأصاب الضرر المدرج الروماني في حي القريون، وساحة التوتة التي سبق لمنظمة اليونسكو أن شاركت في ترميمها. ومن القصور القديمة التي أصابها التدمير الكلي أو الجزئي: قصر عبد الهادي، وقصر النمر، وقصر طوقان.

وبدت تتسرب، كما ذكرت، قصص جارحة عن قتل الإنسان، ودفنه تحت الركام، فالجرافات التي تعمل على مدار الساعة هدمت البيوت دون أن تطلب من السكان الخروج منها، ومن بين مئات الحكايا سمعت حكاية أسرة نابلسية من عائلة الشعبي.. تسكن هذه الأسرة في منزل أثري

قديم في حارة القريون، وسط البلدة القديمة، وشكل هذا البيت عقبة أمام تقدم الآليات العسكرية الإسرائيلية، على المحور الذي يربط مدخل البلدة القديمة بمركزها.

وفي صباح يوم الجمعة، الموافق الخامس من نيسان (أبريل)، كان معظم أفراد الأسرة في الطابق العلوي يتجمعون عند مدخل الباب في مساحة متر مربع واحد، وتصطك أسنانهم، ويرتجفون هلعاً، إذ يسمعون هدير الدبابات والجرافات وهي تقترب، وتدمر أعصابهم. كانت العائلة تتكون من الوالد عمر الشعبي، وابنتيه فاطمة وعبير وأولادهما، وكنّته نبيلة.

فاطمة تسند ظهرها إلى الباب وتحتضن طفلها (ثلاث سنوات)، وإلى يمينها والدها، وإلى شمالها زوجة شقيقها نبيلة تحتضن ابنها (سبع سنوات)، وأمامها عبير التي تحتضن ابن شقيقها.

كانوا يحيطون بالأطفال، ويحاولون عمل شبكة أمان لهم، ويصارعون، ما أمكنهم، من أجل البقاء. وفجأة، داهمتهم الجرّافة، وغطت على صراخهم، واستغاثاتهم، ونداء الرعب المنطلق من أعماقهم حين بلغت القلوب الحناجر.

إنهار الجدار، وسقط السقف، ونزف الدم، وتحطمت الرؤوس، وانكسرت العظام.

ماتت العائلة، وأفرادها يحتضنون بعضهم البعض في مساحة متر مربع واحد، وغمرهم الركام والتراب والحصى، واختلط الرعب بالصمت، والرجفة بصدى الصرخة، وأسنان الجرافة بسخونة اللحم البشري. هكذا ماتوا معاً.. أزهقت أرواحهم معاً، تحت جنح ظلام الصباح، في عتمة الإعلام وبعيداً عن الأضواء، لكي لا يشعر الضمير الإنساني بعقدة الذنب.

لم تنته الحكاية عند هذا الحد، فحياة الفلسطينيين هذه الأيام مجموعة متصلة من الوقائع السّردية التي يمتزج فيها العبث باللامعقول، والواقع الغرائبي بالواقعية المبتذلة، وأساطير القدماء بلعنة الآلهة، وشهوة الدم لدى دراكولا بالموت أو مسخ الكائنات.

في الواقع أن الحكاية المذكورة، حدثت في الطابق العلوي، أمّا في الطابق الأرضي، فقد كانت تسكن أسرة صغيرة من عائلة الشعبي أيضاً، تتكون من رجل مسن، هو عبد اللّه الشعبي (٦٨ عاماً) وزوجته المقعدة شمسة الطحّان (٦٧ عاماً).

حين داهمت الجرافات المنزل القديم، ودمرت الطابق العلوي، واصلت عملها، ودمرت الطابق الأرضي، وتساقط الركام والحجارة، فانسدت جميع المنافذ، وكان الرجل وزوجته، قد بحثا عن ركن يحتميان به، ووجداً مكاناً ملائماً تحت الأرض، ربما غرفة للمؤونة تشبه الملجأ، ربما غرفة للمعيشة محصنة إلى حدٍّ ما، المهم. انهار البيت بأكمله، وبقيت تلك الغرفة صامدة، لكنها كانت ممتلئة بالرعب والخوف والهواجس، وجد عبد اللّه نفسه في أدغال العتمة مع زوجته المريضة، بعد أن مادت الأرض به، وأفقدته التوازن والسكينة، في غرفة موصدة، محكمة الإغلاق جرّاء الهدم.

كيف يشعر المرء، عندما يستيقظ فجأة، ويكتشف أنهم وضعوه حيّاً في القبر، وأحكموا إغلاق قبره؟.

لا أدري أي إحساس شعر به هذا الرجل الكهل، وأي إحساس شعرت به تلك السيدة النابلسية الكريمة؟.

وكيف انقضت الثواني والدقائق والساعات، وهما ينتظران قدرهما المحتوم؟

أي تداعيات مرت في الخيال وهما يقبعان في هذا القبر، ولا يعرفان إن كان الواحد منهما سيلفظ أنفاسه قبل الآخر، أم أنهما سيلفظان الروح معاً؟

وهل كانا يعرفان الليل من النهار، والصبح من الغسق، والظلم من العدل، والحق من الباطل، والوجود من العدم؟.

أسبوع كامل في غرفة كالقبر، تحت الردم والركام، هل نفد الماء.. هل نفد الهواء.. هل نفدت طاقة الاحتمال، هل ازداد الخوف والرعب والتوقع الأسود والترقّب المليء بالتجاعيد؟

أسبوع كامل في قبر يموت فيه المرء وهو حيّ، ويحيا فيه وهو ميت.

عندما سمحت سلطات الاحتلال لسكان نابلس بالخروج للتزود بالمؤن وقضاء الاحتياجات بعد أيام من هذا الحادث، جاء الأهالي إلى البلدة القديمة لتفقّد المكان وزيارة الأقارب.. أحد الأطفال مدفوعاً بالشقاوة وحب الاستطلاع صعد فوق ركام بيت الشعبي، وبدأ يعبث بالحجارة، وفجأة شاهد رأساً بشرياً بين الركام، رأساً يعلوه الغبار، ويختلط شعر الرأس بالدم الجاف.

صرخ الطفل هلعاً ورعباً، وانتبه الناس إذ ذاك إلى وجود جثث تحت الركام.. كانت جثث الأسرة وأطفالها، جثث عمر الشعبي وعائلته، الذين كانوا يصنعون دائرة حول الأطفال في مساحة متر مربع واحد. يومها لم يتمكن أحد من فعل شيء، لأن الوقت المحدد لرفع حظر التجول قد نفذ.

وعندما رفع حظر التجول في المرة التالية، جاءت فرق الإنقاذ من مديرية الدفاع المدني وبعض المتطوعين، ومدير معهد الزلزال في جامعة النجاح الوطنية، فأخرجوا الجثث من الطابق العلوي، ثم بحثوا في الطابق الأرضي، وعملوا لساعات طويلة لفتح ثغرات في الجدران، بعد أن التقطوا أصواتاً من الكهل الطيب عبد اللّه الشعبي، وزوجته المقعدة شمسة الطحان. واستطاعوا أن يخرجوهما بعد جهدٍ مضنٍ.

الأربعاء ١٠ نيسان (أبريل) ٢٠٠٢

أفقت باكراً على رنين الهاتف.. كان ولدي طارق يتصل من القاهرة، ويوجه لي تحية حب بمناسبة عيد ميلادي.. لعلي نسيت هذه المناسبة في زحمة الأحداث.. كانت أسرتي تحتفل بي في مثل هذا اليوم من كل عام، وتقيم زوجتي والأولاد احتفالاً بسيطاً، أتلقى به التهاني، والهدايا، وكعكة من الحلوى، وينتشر في أرجاء البيت ذلك الفرح العائلي الذي يفرش فيه كل فرد في الأسرة بساط المحبة الصافية، والمشاعر الأنيسة التي احتاج إليها، خاصة كلما تقدم العمر.

أفقت باكراً، ولم أشأ أن أوقظ زوجتي، أو ابني هيثم وزوجته هالة. شربت قهوتي وحيداً، وأنا أجلس في الشرفة، أنظر إلى الوادي الكبير الذي خلا منذ عملية قصفه من الطيور. ومن الحوض أينعت النباتات، وأزهرت البراعم باللون البنفسجي الذي أحب، ومن بعيد كانت سيارة إسعاف تطلق نذيرها في مكان ما من بلدة بيتونيا.

استمعت إلى الأخبار من جهاز الراديو الصغير المتنقل، وهي الأخبار نفسها التي تتكرر كل يوم، لكن الوضع في مخيم جنين يبدو مقلقاً، خاصة وأن الإسرائيليين قد أفرطوا في استعمال

القوّة.
في العاشرة، تلقيت اتصالاً من الصديق زياد أبو عين، مكالمة قصيرة طمأنتني.. قد تكون الخطوط مراقبة، لذلك فهمت منه بالإشارة، انه بخير، وأن الصديق مروان البرغوثي بخير أيضاً.
الإسرائيليون يبحثون أيضاً عن مروان، يريدون أن يحققوا إنجازاً ليقولوا لشعبهم أن عملية (السور الواقي) تحقق لهم الأمن، فهم بحاجة إلى صيد كبير، يثير ضجة إعلامية.
شربت قهوتي، وحلقت ذقني، وخلعت ثياب النوم، ولبست ملابس العمل، فقد قررت في هذا اليوم، أن أجلس وراء طاولة مكتبي الصغير الكائن في غرفة صغيرة عند زاوية من زوايا البيت.
كان محمود درويش يفعل ذلك عندما كان يعيش في باريس، إذ يستحم، ويحلق ذقنه، ويتناول فطوره، ويرتدي ملابسه، ثم يخرج من غرفة النوم إلى غرفة المكتب، وكأنه ذاهب إلى عمله. لعلّ ذلك كان يمنحه إحساساً خاصاً ويهيّئه للانخراط في الكتابة.
قال لي محمود: عليك ألا تنتظر حتى يهبط الوحي، فالكتابة عادة، وعليك أن تجلس وراء الطاولة وتمارس الكتابة، وإلا فإن الوحي سيمرّ وأنت تنتظر. هكذا دخلت غرفة مكتبي، وجلست وراء الطاولة، دون أن تكون لدي فكرة عما يمكن أن أكتبه.
لا أدري لماذا قفزت إلى مخيّلتي صورة (المايسترو) الحاج عمر، قائد فرقة الموسيقى التابعة لقوات الأمن الوطني الفلسطيني، والذي أطلقوا عليه النار مع أربعة من الضباط كبار السن، عند مدخل عمارة بجانب بنك القاهرة – عمان.
لا أدري، لم تخيلته يتقدم جوقته التي تحمل الأبواق النحاسية، والطبول، والمزامير، أثناء مشوار التدريب الصباحي، وهي تعزف المارشات العسكرية، أو النشيد الوطني، ويبدو مزهواً أمام الناس الذين يجذبهم المشهد، فيتوقفون وتظهر عليهم علامات السرور، وعلى وجه تظهر علامات الرضى.
كان المايسترو يبدو لي دائماً شخصية روائية، مثل تلك الشخصيات المجسّمة التي كان ينحتها قلم جورج أمادو.
قلت لنفسي: سوف أجمع عنه المعلومات، وأستمع إلى سيرة حياته من زملائه الضباط، ويمكن أن أوظف هذه الشخصية في قصة، وما أكثر القصص الحيّة التي يمكن للكاتب أن يلتقطها من الواقع، فالكاتب الفلسطيني لا يحتاج إلى نحت شخصيات خيالية، أو البحث عن وقائع من الخيال، فحياة الناس هنا مجموعة من السرديات، ومجموعة لا حصر لها من سير ذاتية، تتضمن القليل من الملهاة والكثير من المأساة.
اكتشفت وأنا أجلس وراء الطاولة أن الكتابة تحتاج إلى قلق شخصي، وإلى أزمة شخصية وإلى توتر شخصي، وأنها – أي الكتابة – تبدو عصية في هذا الوقت الذي نواجه به قلقاً عامّاً، وأزمة عامّة، وتوتّراً عامّاً.
حاولت أن أكتب شيئاً، فلم أفلح إلا في كتابة خربشات، وقلت لنفسي: ان الأمر يحتاج إلى هبوط الوحي، ففي الماضي كان الشعراء في وادي عبقر ينتظرون هبوط الشيطان لا الوحي، وكانوا يعتقدون أن هناك شيطاناً للشعر، وأن لكل شاعر شيطاناً. وأقنعت نفسي بأن الشياطين نفسها، لن تستطيع أن تقترب من هذا الجحيم الذي نعيشه. انصرفت عن محاولة الكتابة، وعدت إلى

جهاز التلفزيون، هذا الجهاز اللعين الذي يزدرد وقتنا، ويستولي على مشاعرنا وأحاسيسنا. الأخبار نفسها، والصور ذاتها، الصور لم تعد تهزّ المشاعر كما كان الأمر في السابق، الصور التي اعتاد المتفرج على رؤيتها، فلم تعد تثير فيه الشعور بالغضب، أو الإحساس بالشفقة. صار كل ما يدور مسلسلاً من المسلسلات المعادة والمكرّرة. نمت نوماً عميقاً في الظهيرة، وعندما صحوت داهمني إحساس حادّ بالوحدة، شعرت بحالة اغتراب وعزلة.

وبدا لي أن كل واحد في هذا البيت يعيش في منفاه، فها هي الأحداث تكسّرنا، وتحوّلنا إلى شظايا.

سهرت ليلاً مع الجيران أسفل العمارة، أوقدنا الحطب في الكانون، فاندلعت ألسنة اللهب، وكنت أشعر بالانطفاء. ومن جهة الغرب، كانت تبدو بيوت بلدة بيتونيا صامتة وحزينة، وكانت أضواؤها شاحبة. كان الفضاء صامتاً ومكدوداً، والبيوت المصطفة فوق الشارع الذي يمتد من سرية رام الله حتى «سوبرماركت خمس نجوم» تبدو كئيبة، وغارقة في الصمت والعتمة.

أما الأحاديث التي كانت تدور في الجلسة، فقد شابها التشاؤم، وفقدان الأمل. وكان إحساسي بالاغتراب والوحشة يزداد ويتعمّق. عدت إلى البيت مثخناً بتعب الروح. أويت إلى فراشي باكراً، وحاولت أن أنام. تذكرت وأنا أسند رأسي على الوسادة، أن أحداً ما في هذا البيت لم يتذكر عيد ميلادي، ولم يجاملني بكلمة، ولم يمنحني كلمة دافئة. أحسست بالوحدة أكثر فأكثر، أحسست ربما برغبة شديدة في البكاء.

الخميس، الجمعة، السبت، الأحد ١١-١٤ نيسان (أبريل) ٢٠٠٢

المزيد من المكر الأميركي، والنفاق الأوروبي، والجرائم الإسرائيلية. المزيد من الصمت الرسمي العربي، والتضامن الكرتوني الذي أطلقته بعض الفضائيات. جمعوا لنا الأموال، أمام أسماعنا وأبصارنا، لكنهم لم يرسلوها، فما أكثر العشاق، وما أقل العشق، كما يقول الشاعر. صمتت البنادق في البلدة القديمة، وأحكم الإسرائيليون السيطرة على نابلس وقراها ومخيماتها، ولكن بقيت حلاوة الروح.

في مخيم جنين زرعوا الدمار، وحصدوا الأرواح، وتقدموا خطوة خطوة وسط مقاومة ضارية، وشجاعة اكتست باللون القرمزي. استشهد محمود طوالبة القائد في (سرايا القدس)، واستشهد زياد العامر القائد في (كتائب الأقصى)، واستشهد آخرون، وظل (أبو جندل) يرفع الراية. وظلت الدبابات والمروحيات تقصف حي الدمج، وحي الحواشين، والحي الشرقي، ومركز المخيم، فيما البلدوزرات تهدم وتجرف البيوت، وتجرف معها الأجساد البشرية. آخر ما كان يملكه أبو جندل، قذيفة واحدة في مدفع (الآر بي جي).. كانت الجرافة العسكرية أمامه، وكان البيت الذي يتحصّن فيه بقايا المقاومين الذين نفدت ذخيرتهم وراءه. القذيفة التي يحملها هي آخر طلقة في جعبته، والجرافة تتقدم وتشهر فكّها المفترس، والشبان في داخل البيت لا يستطيعون الخروج من المكان المحاط بالقناصة.

لم يكن هناك مجال لإضاعة الوقت، وعليه أن يطلق سهمه الأخير، قبل أن يفوت الأوان.. لكن، يتعين عليك أن تكون مقاتلاً، كي تعرف قيمة الطلقة الأخيرة، الطلقة التي تقرر وضعك

الأخير. تقدم أبو جندل، وأصبح في مواجهة الجرافة، في تلك اللحظة يتقرر المصير، فإذا أصاب يندلع اللهب والحريق في الجرافة، وتتحول إلى كتلة سوداء، وإذا أخطأ، فإنه يتحوّل إلى أعزل، وإلى هدف لأسنان الجرافة المصابة بالهيجان والشهوة إلى الدم. أبو جندل.. يوسف أحمد ريحان، الضابط في قوات الأمن الوطني، المقاتل في جنوب لبنان أيام العصر الذهبي للكفاح المسلح، ابن بلدة يعبد التي استشهد في غابتها الشيخ عز الدين القسام...

أبو جندل، قائد قوات المقاومة في مخيم جنين، أطلق القذيفة الأخيرة من مدفع الآر بي جي نحو الجرافة، فأصابها إصابة مباشرة، واندلعت بها النيران، واحترق بداخلها سائقها، الذي كان قبل لحظات يتحلى بقدر عالٍ من السادية.

نجح أبو جندل الذي سبق أن واجه الجنود الإسرائيليين في مخيم الرشيدية أثناء اجتياح عام ٨٢.

أبو جندل، قاد المقاومة في مخيم جنين، كان مبادراً، وأشرف على تنظيمها، وتوزيع المجموعات القتالية على خطوط التماس، وطوال أيام القتال، ومجموعاته تهاجم المواقع التي يستولي عليها الإسرائيليون، وتنصب لهم الكمائن.

في اليوم العاشر للهجوم، أطلق أبو جندل قذيفته الأخيرة، وقد نفد العتاد والزاد والماء، وأحكم الحصار، وطوّق الإسرائيليون كل المداخل والأزقة وسيطروا على أسطح البيوت. وفي موقعه الأخير، جلس أبو جندل وحيداً يفكر فيما يتعين عليه فعله. جاء إليه جمع من نساء المخيم، وطلبن منه، بل ورجونه أن يخلع بزّته العسكرية، ويتنكّر بثياب امرأة ويخرج معهن، فلعلّه يجد فرصة للنجاة. لكنه رفض أن يخلع بدلته العسكرية، وأن يسلك سلوك الجبناء. وبقي في مكانه، حتى جاءت مجموعة من جنود الاحتلال، وطوّقت المنزل، وطلبت منه الخروج عَبر مكبّرات الصوت..

خرج أبو جندل بكامل هيبته وشموخه. طلب منه الجنود أن يرفع يديه ويتقدّم. لكنه لم يمتثل لطلبهم، فعادوا وأنذروه بأن يرفع يديه، ويكشف عن بطنه، ليتأكدوا من أنه لا يحمل حزاماً ناسفاً، لكنه لم يمتثل. وظل يتقدّم بثقة، بلا خوف أو وجل. طلبوا منه التوقّف. ظل يتقدّم دون أن يعبأ بأوامرهم.. عند ذلك، أطلقوا عليه النار.. سقط أبو جندل شهيداً، سقط على أنقاض منزل مدمّر. ثقب الرصاص صدره، فسال الدم.. الدم الساخن القاني.. سال الدم بغزارة، كان ذلك بمثابة وسام الشجاعة الأحمر.

|

أصدر الإسرائيليون أمراً عسكرياً اعتبر مخيم جنين منطقة عسكرية مغلقة يحظر الدخول إليها أو الخروج منها، كانوا بحاجة إلى وقت لإخفاء معالم المجزرة. بدأ العالم يسمع عن هذا المخيم، الذي لم يكن يسمع به أحد، وأعادت الصور القليلة التي تسربت ذكرى مجازر صبرا وشاتيلا، وفرضت الوقائع نفسها، واضطر الرأي العام العالمي أن يستمع إلى الرواية الفلسطينية لما يحدث. تجرّأت بعض المحطات التلفزية الأوروبية، وبثت أشرطة تتهم شارون بالضلوع في مجازر صبرا وشاتيلا، وتحركت الماكنة الدعائية الصهيونية، واستعملت سلاح (المعاداة للسامية)، هذه القنبلة التي تثير الرعب في أوروبا، وتشكل أخطر أشكال الإرهاب الفكري.

وعلى الرغم من ذلك استطاع (تيري رود لارسن) ممثل الأمين العام للأمم المتحدة، وبيتر

هانسن مفوض وكالة الغوث لشؤون اللاجئين من زيارة المخيم، والاطلاع على رقعة الكارثة، وأطلق (لارسن) تصريحات تؤكد على حدوث المجزرة، وعلى ارتكاب القوات الإسرائيلية جرائم حرب. وجاءت ردود الفعل الإسرائيلية عنيفة، ونعتت تيري رود لارسن بأبشع الصفات، وأعلنت عن تحفظها على التعامل معه، وقدمت ضده شكوى للأمين العام كوفي أنان. عمل الإسرائيليون على نقل مئات الجثث إلى أماكن مجهولة، ودفعوا بغالبية سكان المخيم إلى الخروج للقرى المجاورة، وواصلوا مهمة إخفاء معالم المجزرة، وأثناء ذلك خرجت مسيرات جماهيرية حاشدة من داخل الخط الأخضر، نحو الحاجز العسكري الإسرائيلي في منطقة الجلمة المحاذية للمخيم، وتقدم المسيرة أعضاء الكنيست العرب وغيرهم من الشخصيات السياسية والاجتماعية. واستطاع النائب أحمد الطيبي اختراق الحصار العسكري، والوصول إلى أطراف المخيم، مما عرضه فيما بعد لرفع الحصانة عنه وتقييد حركته السياسية، ومحاولة تقديمه إلى المحاكمة.

|

اتسعت الكارثة، وتسرّب المزيد من تفاصيل مجزرة مخيم جنين.. بدت الأشياء شاحبة. صرنا نلوك المرارة، ونمضغ قساوة الأيام. العالم ينهار.. هل هذه علامة من علامات نهاية التاريخ؟. هل تفقد البشرية بعدها الإنساني والأخلاقي؟. هل افترس الإسرائيليون والأميركان البقعة المضيئة في قلب الكرة الأرضية؟ هل انتزعوا ما في الروح البشرية من خير وحب وجمال؟. هل أصبح العالم كالحليب منزوع الدسم؟. أين أفكار عصر التنوير؟. أين أفكار فولتير، وجان جاك روسو، ومنتسيكو، وجان بول سارتر، وهيغل، وكارل ماركس، ومارتن لوثر كينج؟ أين مبادئ روزفلت وترومان، وأين شعلة الحرية، ووثيقة حرية الإنسان، والقانون الدولي، ومبدأ حق تقرير المصير؟.

ظللت أطرح على نفسي الأسئلة وأنا أجلس في الشرفة، أمام زهور البنفسج، أمام هذا الفضاء المغلق، الذي يفرض على طيوره نظام منع التجول. ظللت أطرح الأسئلة.. أسئلة ليس لها أجوبة في لحظة الجنون.. أسئلة تبدو في لحظة غياب الوعي عن هذا الكون، شكلاً من أشكال الكماليات والرفاهية..

|

تحركات عسكرية، وتهديد باقتحام مقرّ الرئيس في رام اللّه، وكنيسة المهد في بيت لحم. مداهمة منازل، اعتقالات بالجملة، رفع بسيط لحظر التجول، خروج الناس لشراء احتياجاتهم من الطعام والدواء، يتلاقى الأصدقاء والجيران في مدخل السوبرماركت، ثرثرة عاجلة، غريب يسأل عن غريب، من اقتحموا بيته، ومن أرسلوه إلى «عوفر»، تحولت المدينة إلى سجن كبير، وساعة السماح بالتجول هي (الفورة) أو الفسحة التي يسمح فيها السجّان إلى السجين بالخروج إلى الساحة. التقيت في مدخل السوبرماركت بالصديق أبو لطفي (محمد لطفي) عضو اللجنة الحركية العليا لـ«فتح»، تعانقنا، كان من الأسماء التي أخاف عليها. سألته عن بعض الأخوة.. سألته عن مروان وحسين الشيخ.. ليس لديه معلومات عن مروان، لكنه أكد لي أن حسين الشيخ بخير. أحسست ببعض الراحة، وتذكرت ذلك اليوم الشتائي الذي شاهدت فيه حسين الشيخ ورفاقه، وهم يرتدون ملابس الرياضة، والطواقي الصوفية، ويذهبون للاحتماء بالوادي العظيم، وادي باطن

الهواء. لقد نجا حسين ورفاقه من القصف، في ذلك الهجوم القاسي، الذي استعمل فيه الإسرائيليون المدفعية والصواريخ.

تنتهي ساعات رفع التجول، وتطلق المجنزرات التي تذرع الشوارع الرئيسية الرصاص في الهواء، وتذكر الناس، بأن عليهم العودة إلى بيوتهم.. أعني إلى سجونهم.

أعود إلى بيتي.. إلى سجني.. ما أصعب أن ينتابك الإحساس بالعجز!! ماذا يستطيع المرء أن يفعل؟. أمام الشعور بالقهر، تفكّر جدّياً في الرد والانتقام. أهذا ما يفسّر استمرار العمليات الانتحارية أو العمليات الاستشهادية كما يحلو لنا أن نطلق عليها؟. أهذا ما يزيد عدد الراغبين في تفجير أنفسهم؟!!

عدنا إلى سجوننا باكراً، وبعد ذلك استباحت الدبابات المدينة، فجّروا أبواب المحال التجارية، حطموا أعمدة الكهرباء، دمروا أرصفة الشوارع، داسوا السيارات التي تقف أمام البيوت، اقتحموا مباني الوزارات ودمروا كل ما وجدوه أمامهم.

واقتحموا كذلك مركز خليل السكاكيني، المركز الثقافي الشهير، خلعوا أبوابه، وعبثوا بمحتوياته، ومزقوا اللوحات الفنية، وقلبوا مكتب الشاعر محمود درويش رأساً على عقب، ودنّسوا بياض الأوراق، وطهارة الشعر والقوافي، أقلقوا الهدوء والسكينة في جمالية المكان، وأثاروا ذعر العصافير في الحديقة.

في وصف حالتنا
٤

خذ نفسا عميقا وانتظر

(حكايات من إحتلال غير عادي)

امتياز دياب

ايار/ مايو ٢٠٠٢

خذ نفساً عميقاً وانتظر... هناك حاجز

«شوفي معبر بيتونيا. هذا حاجز بيتونيا التجاري، عملوه من أسبوعين، قال علشان يْسَهلوا دخول المواد الغذائية. طبعاً هذا شارع رئيسي، بس أغلق وأعيد افتتاحه تحت شعار التسهيلات»
.

سارت السيارة بنا صاعدة تلالا ترابية مليئة بالحجارة. تدور وتلف لتفاديها .. الغبار تحول إلى سحب جافة يضيق بها التنفس. «لأ، وإن جاب واحد بضاعة بدُه(يريد) ينزل، يقطع شارع حولوه لخندق أبو أربع أو خمس أمتار، وبعدين، إرجع حَمِّل على سيارة ثانية ، ساعات بتروح، أيام بتروح، لوينته ؟ لوينته ؟ (إلى متى ؟ إلى متى ؟)»

قال لي السائق:« هذه «رافات» (اسم قرية)وهذه قوى الأمن الوقائي وراء الجبل مباشرة، طبعاً كانت الناس تطفش بين الجبال فعملوا شيك (أسلاك شائكة) ثلاث بتات (طبقات) وسكروا الطريق، وحطوا دبابة، ولا واحد يقدر يطلع إلا عبر الحاجز»

نصل حاجز قلنديا. ننتظر وراء طابور طويل من السيارات المنتظرة لكي يناديهم الجندي. ينادي الواحد بعد الأخر : هوية؟ ..من أين أنت ؟ إلى أين تذهب؟ وعندما يتعب الجندي أو يمل

امتياز دياب ، صحافية ومصورة فلسطينية تعيش في سويسرا. نشرت مقالات في «الكرمل» عن الانتفاضة الأولى، ما بين عامي ١٩٨٨ ـ ١٩٩٣. في الريبورتاج الحالي تصف بلغة الحياة اليومية، بلسان الناس وأصواتهم، بعض ما يعيشه الفلسطينيون الآن وهنا.

يعود إلى خيمته العسكرية على تلة صخرية، أحيانا يرسل من يحل محله، وأحيانا يجلسون ويتبادلون الحديث.

كنا في الوسط، وعندما فرحنا بوصولنا إلى المقدمة، اكتشفنا أننا كنا أمام صخرة كبيرة، وطريق الرام إلى اليمين وطريق رام الله إلى اليسار. حاولت الحديث مع السائق في جهة اليسار لكي يسمح لنا بتجاوز سيارته، فقد وجدنا أنفسنا في طريق مسدود .. قال:« أنا بستنا (انتظر) من ثلاث أرباع الساعة، وإذا بمرّقكم (اعطيكم حق العبور) بزعلوا الجماعة اللي ورانا، ارجعوا أحسن» .

شاب يحاول تنظيم الصفوف، ويحاول الحفاظ على النظام، فيشير لنا أن نعود، نقول له إن طريق العودة مسدود. يقترب، يقول:« حاجز قلنديا أتعس (اسوأ) فلو سمحتم؟ »، سائق مجاور يقول:«السيارة اللي قدامنا محملة (حمولتها) كنادر (أحذية) والجندي عم يفتحها واحدة واحدة .. مضلش عليه (لم يبق) غير يقيسهم». يضحك الشاب ..ضحكنا معه ، تدمع عيناه ، يمر بائع بوظة يشعل الفوضى ليكسب بعض الشواقل.

سمتريلا(سيارة ضخمة) يأتي دورها، تتقدم بثقل، نشير إلى سائقها كي يدعنا نمر، فيرد علينا انه سيمر فوق أي سيارة تحاول تجاوزه .. نتراجع أمام نظراته ونقرر أن نأكل البوظة . نزلت من السيارة، مع البوظة، وتوجهت إلى سيارة في المؤخرة. سالتهم من أين هم ؟ قالوا :«نحن من البرازيل» ...أتوا للاستثمار وهاهم أضاعوا مليون دولار، قضوا العمر في تجميعها. ثم أضاف حسن :« هذا مش بلد، هذه كانت مصيدة. يسألني احمد الذي يتكلم ونصف كلامه باللغة البرتغالية، وأنت ماذا تفعلين هنا ؟ » قلت أني اجمع القصص والحكايات . يقول لي:« إحنا كلنا قصة ذل ومهانة .. يقاطعنا شخص يطلب من حسن أن يسمح له بتجاوزه، فوالدته بالسيارة مريضة قال له: إذا مررت أنت وأمك، أنا الذي سأفقع وأموت هنا. » تراجع الشاب مقهوراً دون نقاش .

السمتريلا الكبيرة تتقدم، يقول الجندي للسائق أن يعود من الناحية الأخرى. استفسر عن السبب. يقول لي منظم السير: هذا المعبر ليس معبرا تجاريا. قلت بأنه لا ينقل بضاعة. يقول الجندي لا يهم إذا كانت السيارة محملة بالبضاعة أم لا. المهم هذه سيارة تجارية كبيرة وليست سيارة خاصة.

وتعود السمتريلا تحشر السيارات لمدة نصف ساعة حتى يتمكن من إدارة سيارته العملاقة، التي كان علينا أن ندور جميعاً لكي نمكنه من الدوران. حاولنا في هذه الحركة أن نعبر، فدرنا حول الصخور، ووجدنا أنفسنا أمام الحاجز تماماً. فرحة لم تتم. أغلق الجندي الحاجز.

سألنا لماذا أغلق الحاجز ؟ فرد منظم السير، اسمه عبد الله، :« لأنه جحش».

ارتفع زعيق السيارات، والأبواق، والهدير بلا جدوى، فالجندي قرر عقابنا بسبب عدم النظام، على حد تعبير عبد الله، الذي قال يجب تنظيم السير دون تدخل الجنود. مرت فتاة تضع منديلا على انفها لتحمي رئتيها من الدخان المنبعث من ثلاثمائة سيارة هادرة على الأقل .

استمر الحال عشرين دقيقة، ثم جاء الجندي وفتح الحاجز. طلب من ركاب السيارة في المقدمة النزول، وفتح الباب الخلفي للسيارة. نزلت عروس بان فستانها الأبيض تحت عباءة بنية (تلبسها العروس لتذهب بها إلى بيت العريس) وكأن قدرة سحرية مستنا جميعاً، كفت السيارات عن الزعيق، والهدير، اشرأبت الأعناق لتتفرج على حاجيات العروس بصمت وحزن وحنق.

نظرت إلى جندي يقف على تلة شاهراً سلاحه. جندي آخر يستخدم منظارا ليتفحصنا. التقطت صورة للجندي، وصورة للعروس، وصورة أخرى من بعيد .

اكتفى الجندي بفتح حقيبة واحدة. أشار للركاب بالعودة إلى السيارة، التي تختفي تاركة مشاعر حنق متضامنة. يرمقني عبد الله قائلا: « لو كان معها حزام متفجرات، أو حدا أعطاها حزام متفجرات، فكرك بتفجر حالها ؟ الناس كلهم شافوا حاجاتها .. يمسح دمعه. يبتعد. يجلس على حجر مقلوع من مكانه . »

فهمت أن عبد الله لا يريد الحديث مع احد. ولن ينظم السير وسيتركنا لزعل الجندي منّا. ذهبت وحشرت نفسي لكي أرى الحاجز. رأيت سيارة إسعاف. لم تمكث السيارة طويلاً. بعد تفتيش سريع عبرت الحاجز، ثم اختفت.

شاب صغير في السابعة عشرة من العمر، يعتلي دراجة نارية، يرتدي ملابس سوداء، وعلى رأسه قبعة واقية. عيناه خضراوان. خلع قبعته فكشف عن شعر اسود مرّجل على آخر موضة. بدا قليل الصبر، ويتأفف من الانتظار. كان الدور لنا، ورغم معرفته التامة بذلك احتل المكان أمامنا، الشيء الذي أثار غضب السائق، فصرخ به ليخلي مكانه. نظر الشاب نحونا وردد: « يلعن هيك بلد باجري (برجلي) »، رأينا الشر في عينيه فسكتنا. اعتبر تفادي الشر من طرفنا فيزا للدخول، بدا بتسخين محرّك الدراجة، ناثراً غباراً كثيفاً ثم تحرك نحو شارع أزالت جنازير الدبابات اسفلته.

أبو ممدوح السائق تعوّذ من الشيطان وقال للشاب: «يا ولد ! لو الله فتحها بوجهي واجاني ولد كان ابني اكبر منك .. زيح من خلقتي (أي اغرب عن وجهي) »، نظر الفتى بعينيه الخضراوين وقد زاد اخضرارهما بفعل الغضب ثم قال بثبات: « مش راح أزيح.. وبلطوا البحر». وبدل أن يبلط أبو ممدوح البحر، نزل من السيارة ووقف قبالة وجه الفتى قائلا: « اسمع يا روح أمك، مش ناقصنا واحد مثلك تزيد الدنيا وساخة، والله، والله، قسما عظما، إذا ما زحت غير كف ألِوْقَلَكْ هالبوز (اشوه وجهك) شايف حالك».

في الأثناء، كفيف يحاول عبور الحاجز سيراً على الأقدام، ولكن من طرف السيارات وليس من طرف المشاة، جاء احد الجنود وقابل الكفيف امسك بذراعه وعبر به الحاجز بكل حنان مما أثار غيظ الجميع، الذين تمتموا بجمل مختلفة مثل: « يا عيني قاتلته الرحمة ومذوب قلبه الحنان». أو » شوف كنه في كاميرا تلفزيون وعم بمثل قدامها، يعني عندهم إنسانية، وبمرقوا العميان» .

مر الكفيف متحسساً طريقه بعصاه. لحظة تعلّق أنظارنا بالمشهد، ركب الفتى الوسيم دراجته النارية وطار بها في لحظة بعد أن وقف أمام الجندي وأراه هويته، ثم ابتعد غائباً ونحن ننظر

بحسد. أبو ممدوح الذي شعر بأنه غبي غضب أكثر. وقال: « طيب وبعدين بدي أروح الحمام، يا خلق الله». أبو عبد الله يضحك ويقول: « هاي عن جد مصيبة المصائب . »

صدر صوت من الراديو يقول: « أوقفت فتاة قرب طولكرم، كانت تريد تفجير نفسها. . ». أبو عبد الله سمع الخبر وضرب كفا بآخر وقال :« يا زلمة (يا رجل) شباب بتفجر نفسها، لكن البنات ليش!؟ وهاي إحنا مش خالصين، وعشان العملية اللي صارت إمبارح بنتانيا مشددين الحصار. عاد الجندي وأغلق الحاجز . »

مرة أخرى دار الهرج والمرج. تقدم عبد الله وبدأ يقنع السيارات بالعودة إلى الخلف، فالجندي لا يحب رؤية الفوضى. كانت المسافة التي أثارت غضبه لا تتجاوز الأمتار الأربعة. ربع ساعة من الجهود الجبارة . .رجعنا إلى الخلف مترين، لكن الجندي رفض إعادة فتح الحاجز، فذهبت مجموعة من الشبان للحديث مع الجنود لكن محاولاتهم با ءت بالفشل، وعندما عادوا سألتهم فتاة : « شو صار بالمفاوضات ؟ » فأجابوها لا توجد فائدة !.

امرأة تقترب وتخرج تقريراً طبياً لمريض معها في السيارة، وتضيف انه أجرى عملية غسل كلى ويجب أن يرتاح. قال لها الجندي أنا جداً متأسف، عليكم الانتظار ثم قال إن الجمهرة تضايقه.

قلت هذا المشهد سريالي، فعلا. أبو ممدوح يقول: « بان هذا موقف صرماية (حذاء)، هذول مش جنود، هذول مجموعة عصابات. القصة مش بس تعذيب الناس، القصة تهجيرهم كمان. »

كان أبو ممدوح يزعق من الغضب واحمر وجهه. حاولت التخفيف عنه، لكنه ثار وقال :« الواحد بدو يقتل قتيل !! » (سال لعاب أبو ممدوح بغزارة، مسح عرقه بكم قميصه) وأضاف: « يشبكونا ببعض. هذاك اليوم على حاجز بيت لحم، واحد مرق عن الثاني، نزل الثاني وقتله».

مخيم الأمعري

سمعت عن زواج محمود فذهبت لأسلم عليه مع شاهر. دخلنا إلى الصالون الصغير، كان طرفه الأخر يؤدي إلى للمطبخ من ناحية، وإلى غرفة ثانية من ناحية. جلس شاهر الذي بدأ يشعل ولاعته ويطفئها دون توقف. وصل محمد ، نحيل، كما عرفناه من قبل، يرتدي قميصاً رمادياً وبنطال جينز. سلم بحرارة ولحق به شقيقه وليد. جلسا برهة وجاءت أمهما. أم محمد. تلبس ثوباً بنفسجياً، وتغطي رأسها بمنديل ابيض. دخلت يدها على صدرها، واليد الأخرى مدتها نحوي قائلة: «أهلا وسهلا يا ميت مرحبا، زارتنا البركة يمه». باركت لأم محمد بالعروس، وقلت لها مازحة : إذاً، جدت مين يساعدك بالبيت !!

ردت: «وإلا كيف. والله شاطرة، إلا مالها، والله محمد ارتاح يا ولدي كان هو اللي قايم بيّي (المتكفل بي) على أكل، على تنظيف، عمّني (لأني) عندي رجلي.. حشاك !» (تعاني من آلام في ساقها). نادت أم محمد على العروس الشابة، دخلت الشابة -صغيرة السن- ربما في الثامنة عشرة من عمرها. بشرتها بيضاء ناعمة، جهها مطوق بمنديل ملون، ترتدي بنطالا اسود

ضيق عليها نوعا ما. في يديها أساور ذهبية كانت الشيء الوحيد اللامع في الغرفة. بدت أساورها الذهبية غريبة في تلك الغرفة المتواضعة الأثاث. جلست الفتاة في منتصف الغرفة وكأنها مهيأة للخروج، طلبت منها حماتها إعداد القهوة لكن ألحقت هذا الأمر بأمر آخر فهمت نصفه، وهو أن تقدم الشراب، وشيء آخر لم افهمه بسبب انتقال شاهر من الولاعة إلى فرقعة أصابعه دون أي مبرر.

لم يكن تبادل الحديث ممكنا، رغم صغر مساحة الغرفة، إذ غطى على الحديث تراتيل آتية من المسجد القريب معلنة عن قرب الصلاة. لاحظت أم محمد عدم إمكانية تبادل الحديث مع الصوت المنبعث من المسجد فقالت لطفلة صغيرة أن تغلق الباب، فركضت الطفلة، وأقفلت الباب الحديدي بقوة فاهتزت الصور المعلقة على الجدران.

سألت أم محمد إذا كانت حفلة الزفاف كبيرة؟ شاهر تبرع بالإجابة :« أنا والله كنت معارض لحفلة فرح ..» قاطعته أم محمد متمسكة بحقها بالإجابة: « والله بالأول تساءلنا على أساس هذا الاجتياح والطوق، بس إحنا كنا طابعين المكاتيب وسألنا محافظ الامعري قال لنا في غزة بيجوزوا لكن دون صوت (دون غناء) عاد والله إحنا دعينا كثير وفي بالنا ما راح حدا ييجي، واجا كثير ناس، نسوان وزلام (نساء ورجال)».

تدخل شاهر مرة أخرى، قال: « الناس بدها تطلع من بيوتها كانت لهم فرصة، الغناني كانت عند النسوان فقط، لكن أغاني وطنية، عند الرجال كانت قهوة وبارد، وهذا هو، كان العرس بكير عشان الناس تروح على الفضا قبل العتمة، وقبل منع تجول، أو اجتياح.. بتعرفي .».

تابعت أم محمد الحديث: « إحنا ما طبخنا أكل، والله محمد راح وصّى على أكل توصاي، أكلة واحدة، قدرة ورز وخلص.»

ارتفع صوت الأذان فسأل شاهر :« من سيذهب للصلاة؟»

سألت شاهر عن سبب الصلاة: خوف، أو فقر، أو إيمان يا شاهر؟

فرد: « والله خوف وفقر أساسا، الإيمان موجود من زمان، لكن زي ما أنت عارفة الموت عم ييجي عنا بدون ما يدق على الأبواب، خلي الواحد ينظف حاله شوية بلكي رحنا على الجنة.»

احمد:« ما هو إذا استشهدت بتروح على الجنة!!»

شاهر: «بيني وبينك مش متأكد، أبصر الواحد شو عامل بحياته؟«

وليد- شقيق محمد ـ ممازحاً: « تعال اقعد احكيلنا شو عامل يا شاهر؟ ومنعرفش عنه؟..فضفض يا خوي فضفض.»

سألت وليد إذا كان يصلي فقال: «أنا مش عامل زي شاهر، واللي عامله بعرفه!.»

شاهر لم يعجبه الكلام فسألني - محاولاً تغيير الموضوع- إذا كنت قد ذهبت إلى بيت لحم بعد فك الحصار؟

-أجبته بلا!

«لازم تروحي تشوفي الأب عطا لله حنا».

ياسر الكسبة يحب رشا

كنا نصعد، على طريق قلنديا مع كمال وشاهر، ونسقط بالسيارة على المطب تلو الآخر، كنت أتفرج على جدران المخيم بين مطب وآخر. شاهر يقول: « هذه شوارع المخيم مغطية بصور تتكلم، إحنا يا جماعة سوق حلال (سوق ماشية)، كل شهيد بيسقط بيتحول لصورة عالحيط . »

امرأة تنظر إلينا من احد الأبواب، وتنقل معلومات لمن في داخل البيت فتقول: « هذول ممكن يكونوا من الوكالة». سألتنا : « في توزيع واللا تسجيل ؟ » فأجابها شاهر : «لا يا أختي مش وكالة». ثم تابع :«حياتنا صارت أكم كيلو سكر، أكم كيلو فول، في الاجتياح الأول كانت الهزيمة، وفي الاجتياح الثاني كان الحساب . زعمائنا انكشفوا أنا يا جماعة بدي احكي ما حدا يسأل عنا، ما حدا.. والله ما في غير الدكتور ماهر يسأل دايماً، يسأل عن الناس ..شو ناقص ؟ عن الأوضاع؟ . »

وفجأة شاهر يتذكر موعداً، قال لكمال : « نزلني هون! عندي مشوار ». ثم التفت سائلاً : « عايزتيني.. رقم تلفوني معاك أي شي قولي لي، أنا رتبت لك مع احمد زيارة لبلاطة ونابلس، وأختي هناك في القصبة » (يلوح بيده ويختفي).

دخلنا بيت الكَسْبة. كانت فاطمة تجلس على أريكة مواجهة للباب، سلمت علينا بيد رطبة. لاحظت فاطمة أن صوت الغسالة يهدر بشكل غريب، فقالت إنها ذاهبة لإيقافها، كمال يقول لي هامساً: « فاطمة فقدت ولدين بينهم بس أربعين يوم، مسكينة مش واعية كثير على حالها، هذه كانت مرّة أجمل بنت في قلنديا ». عادت فاطمة وفي يدها صينية عليها شراب بارد وضعت الصينية وسألت :« صحفية؟ » أجبت برأسي : نعم.

وقالت دون مقدمات : « سامر طلع قدامي ..قلتلو وين ؟ قال هو بالمخيم، سامر يومها راح على الإرسال « (منطقة المواجهة مع الجنود في رام الله) » قلت لسلفي صدري مقبوض كان ياسر ابني صارله أربعين يوم مستشهد. كان صدري يوجعني. كنت ابدي أروح على الدكتور، تمنيت حدا ييجي عندي، يسليني، هيك احكي معاه ... وإلا سلفي الأصغر فايت عليّ، سألني: سامر هون؟ قلت : لا، وحسيت بوجع كبير عم بيهدني، قال: سمعت يا فاطمة انه سامر اجتو رصاصة براسه« !! . قلت خلص صار اللي كنت خايفة منه .. ياسر ..كمان أخوه استشهد برصاصة في الرأس ..طلعت على المستشفى» (فاطمة تضع رأسها بين يديها). «لما وصلت كانوا عم بيجهزوا للعملية، قلت لهم من شان الله نظرة بس، نظرة آخذه على صدري، بدي نظرة، من شان الله يا جماعة، بدي نظرة، كان نص أهل قلنديا صاروا سامعين، وواصلين المستشفى،كان بغيبوبة مش صاحي».

(لم اعرف إذا كانت تتحدث عن سامر أو ياسر، خفت أن أسالها بدت وكأنها تهذي، سكت، وتركتها تسترسل)

«ثاني يوم تحرّك. قالت لي الممرضة هذه حركة لا إرادية. قلت معلش، يعيش مشلول بس

يظل عندي، يمكن يعيش، ثاني يوم حرك إيدو ..ثاني يوم ». (تعض على أصابعها) » أحد، اثنين، كان منيح» (تصمت سارحة ، تعض مرة أخرى على أصابعها) «أربعاء وخميس تغير، حرارته ارتفعت بعدين نزلت، يوم الجمعه استشهد وما كنتش معاه .. ما حدا أجا يوخذني أشوفه ..كنت أودي كاسات الشاي على المطبخ، شفت جوزي وأخوه بتهامسوا، لما شفتهم بتهامسوا قلت سامر راح، هجموا علي، ضموني، أعطوني مخدر وراح. راح . »

تسرح فاطمة وتنظر نحو الباب، كأن سامر سيدخل من الباب الذي تظلله » شجرة المجنونة» (وردة ذات زهور حمراء وأحيانا وردية) ثم يأتي صوت فاطمة:« بتستاهل فلسطين؟ لو الكل يوقف وقفتنا.. بدناش يبعتولنا خبز وزيت، بدنا رجال توقف معنا.

كان الأب يستمع لفاطمة، وكأنه لا يعرف قصتها. عندما سكتت بادر بالحديث:« أنا ما قدرتش (لم استطع) امنعهم، بعثتهم على عمان، ، من هون لهون اسأل معروف هذا وهذاك، وقدرت ابعثهم على عمان، راحو عالمدارس، هناك لما رحت أزورهم، قالوا: يابا إحنا مش مبسوطين هون، قالوا يابا : «وانت زغير كنت تضرب حجارة، ليش بتمنعنا، أقول لهم اليوم بقتلوا برصاص. وظلوا وراي ورجعتهم بعد ما وعدوني ما يروحوش على خط المواجهة في المخيم، ولا في رام الله، والله ياسر قعد شهر ما يروحش انبسطت منه لأنه هو الوحيد إللى ماكنش متصاوب من الأولاد.

بعدين اكتشفت انه بيروح من برة لبرة على الجبل، وبيضرب حجار من هناك. مرة سمعت الخبر روحت على الجنود قلتلهم أعطونا فرصة نرجعهم، قالوا: آه روح رجعهم، وإحنا راجعين اتصاوبت أنا « (فقط حين قال ذلك انتبهت أن يده مربوطة إلى صدره).

فاطمة :«أنا رحت معهم على عمان بقينا ثلاث اشهر، كانوا يقولولي أنت جبانة، كنت أرد عليهم أنا مش جبانة أنا خايفة عليكم، عملت المستحيل عشان أبقى بعمان عند أهلي .. »».

(يقاطع الأب) :« حاولت أدخلهم مخيم صيفي قبل ما يستشهدوا، يعني حاولت انسيهم الحجارة. »

فاطمة :« ياسر كان يكتب على كتبه أنا بدي استشهد!! »

العم أيضا كان جالساً، نهض وغاب لحظات وعاد ومعه كتاب لياسر، فتحه أمامي، هناك جملة تقول: الشهيد البطل ياسر، ثم جملة أخرى، سامي علي الكسبة استشهد على ارض فلسطين، ثم رسم آخر لعين كبيرة كثيرة الرموش قاعدتها جذع شجرة، ثم على صفحة ٦٧ جملة: الشهيد البطل ياسر سامي الكسبة استشهد على ارض فلسطين المباركة. وكان يقول أنا شهيد، ثم رسم عينا كبيرة إلى جانب عين اصغر وعلى اليسار دبابة وعلى صفحة أخرى في كتاب آخر أتى به العم وهو كتاب «لغتنا الجميلة» من كتاب الصف السادس نسخ قصيدة تقول:

« تقدموا، تقدموا !
كل سماء فوقكم جهنم
تقدموا يموت منا الطفل والشيخ ولا يستسلم

وتسقط الأم على أبنائها القتلى ولا تستسلم
تقدموا !
وراء كل حجر كف
وخلف كل عشبة حتف
فخ جميل محكم
وان نجت ساق
يظل ساعد ومعصم
تقدموا!»

سامر رسم دبابة وجعل نافذتين لها تطل منهما كلمتا حتف وموت. ثم على صفحة ١٢٨ كتب: ياسر سامي علي الكسبة يحب رشا !!.

أم محمد

تعرفت بأم محمد في الانتفاضة الأولى، حينها كان لها خمسة أبناء في السجن، وكانت تزورهم الواحد تلو الآخر في سجون مختلفة .. وصلت إلى بيتها الذي كان من طابق واحد حينذاك، أما الآن فارتفع إلى ثلاثة طوابق، صالون البيت مازال على حاله، جدران الغرفة أسمنتية دون طلاء، كل ما هناك أضيفت بعض الكنبات القديمة أو تحولت إلى قديمة.

أم محمد هي أم احمد وعبد الحكيم و بهاء و زياد و سعد لكن احمد ما زال في السجن ، سالت أم محمد اذا مازالت تذكرني؟

فقالت:« إلا بتذكرك كيف لكان؟، بتذكر كل سجون إسرائيل، ومش راح أتذكرك!» ثم استدركت تضحك ، » لا مش كل السجون ما عدا سجن شطة ما كان لي في حدا!. »

سألتها عن احمد، فقالت: «اليوم احمد في عسقلان، طلعوه شوي على سجن جنين وشوي على سجن نفحة، قعد هناك سنتين ورجعوه على عسقلان، سجن نفحة أحسن إشي لأنه اقرب. »

سألتها عن حالها. قالت: « مبسوطة .. ظل لي واحد بالسجن، لكن مش مبسوطة لأنه صار لي ستة اشهر ما زرتش، ما في تصريح، والله على موعد الزيارة ما بنام، كل خمستعشر يوم بقلق لأنه يوم الزيارة! بصير أقول لحالي يمكن أزوره؟، مش ممكن أزوره، يمكن يحطوا حدا يشفق عليّ، من بعد ما طلعوا الأولاد بضل قلقانة، وبشوف هالنسوان رايحات على الزيارة بصير اتبعهم بعقلي .. هاي قربت على سجن مجدُّو، هاي قربت تصل على سجن الخليل، أقول لحالي هاي هسه (الآن) وصلت الشيك، هاي خشو يسجلوا عند الطاقة، قعدوا يستنوا . أنا فتت بالشهر السابع بدون زيارة، احمد صار اله تمنتعشر سنة. »

احمد قتل عميلا مع صديقه عيسى. عيسى خرج مع خروج المساجين، قيل لي إن أم محمد كانت تجري من باص إلى آخر تبحث عن أحمد، وها هو احمد بلغ الواحد والأربعين وما زالت تأمل أن يخرج وتزوجه كما زوجت أشقاءه.

أم محمد منفصلة عن زوجها الذي تزوج مرتين بعدها لكنه لم يطلقها كما طلق الثانية، إذ لا توجد لها عائلة تهتم بها، ولا يوجد لها بيت غير هذا البيت (على حد قولها)، انفصل عنها منذ زواجه الثاني، كان عمر ابنها امجد ٤٠ يوما كما قالت، في ذلك اليوم سجن عبد الحكيم. تقول أم محمد: « هالكيت امجد صار عمره ٢٣ سنة ومن يومه وأنا ازور اخوه. »

-كم عمرك يا ام محمد؟

-« أنا عارف (عارفة) والله ما أنا عارف !! »

- وزوجك ؟

- « لا اعرف وما بدّي اعرف (ضحكت ثم تنهدت) أضافت الرجال ما لهم أمان زي المي بالغربال، الرجال خونة، ما بستاهلوش!!. »

طريق طويل سجون صغيرة

« هل نخرج من حاجز قلنديا أم من حاجز الجوال ؟ » سألني كمال، وأجاب دون انتظار الرد: « خلينا نجرب حاجز قلنديا، وإذا ما زبطت، منرجع عند حاجز الجوال. ».

نذهب إلى حاجز قلنديا نصل إلى نهاية طابور الانتظار الذي امتلأ بالغبار وضجيج السيارات وزعيق طلاب المدارس وذلك في الساعة السادسة صباحاً. نمر أمام المقاطعة.. مجموعة من العمال تعمل على إصلاح جزء من السور ، بدت بقايا إحدى البنايات كومة اسمنت في وسط ساحة المقاطعة.

نذهب إلى منطقة الإرسال – يقول كمال: « هون ساكن أبو العلاء . »

بعد بضعة أمتار، دخلنا طريقا ترابيا مليئا بالصخور، التقينا بسيارة ركاب عمومية ، سأل كمال سائقها: « الطريق مفتوح يا أخي ؟ » رد السائق: « امرق من عند دار سامي!!. ». كمال لا يعرف دار سامي، توجهنا نحو تلة ترابية لا يمكن لحمار أن يجتازها، فما بالك بسيارة كالسيارة التي نركبها وهي سيارة « فورد ترانزيت » تجارية، تفادينا هذا الطريق، اتجهنا نحو « بيت إيل » على بعد مائتي متر، لكن مكعبات الاسمنت الجاثمة في الطريق منعتنا من الدخول، فعدنا أدراجنا نحو التلة الترابية.

رأينا شاحنة صغيرة تحمل ثلاث بقرات، شعرنا بالطمأنينة، وقلنا إذا مرت هذه السيارة فلابد أن نمر نحن ايضاً.

عبرنا طريق الجوال مرة أخرى من ناحية قرية سردا، ثم خرجنا من الناحية الثانية عند مكعبات الاسمنت، كل هذا اللف والدوران من اجل قطع مسافة خمسمائة متر، ممنوع المرور بسبب وجود مستوطنة « بيت ايل » القابعة على تلة اسمها الحلزون عندما كانت فقط للعرب. اتجهنا بعد ذلك إلى طريق نابلس القديمة بمحاذاة قرى « دورا القرع » و« جفنة » ، قرية جفنة سكانها من الإسلام والنصارى، هي قرية قديمة عريقة، تنتشر فيها أشجار اللوز حول المطاعم المغلقة من بداية الانتفاضة الثانية .

« مطعم الوادي الأخضر » ومطعم « الوادي طبيش »، ندخل قليلاً لساحة جفنة القديمة حيث

كانوا يحيون الأعراس في الليالي الملاح الخوالي. و«مطعم البستان» و«مطعم على كيفك» جميعها مغلقة . نواصل إلى طريق «بير زيت» التي كانت تدب فيها الحياة، بينما اليوم تبدو البلدة مسكينة وحزينة.

نقف نسأل اذا كان حاجز «عطارة» مفتوح يقول رجل : «والله اذا راق لهم». درنا حول «بير زيت ». ورغم الساعة المبكرة لا نرى طالباً جامعيا واحداً. التقينا برجل آخر فطرحنا عليه السلام، وسألناه عن طريق نابلس. فاجاب: « والله إذا أدخلوك من عطارة أحسن، واذا لأ، روح على مجدو!. » عطارة قرية مميزة بنسبة المتعلمين العالية فيها.

لا وجود لإنسان، أو سيارة، أو حتى حيوان، مررنا بهذا الصمت البديع حتى عيون الحرامية، عيون الحرامية سميت هكذا لأنها كانت مكانا لقطاع الطرق على طريق نابلس، هنا قتل ستة من الجنود الإسرائيليين برصاص قناص فلسطيني، القصة المشهورة التي حدثت في شهر آذار، ولم تعرف هوية هذا القناص.

مرت سيارات قليلة العدد، وهذا أمر يبشر بالخير، هذا يعني أن الحاجز القادم مفتوح، مررنا من قرية «ترمس عيَّة »، غالبية سكانها يعيشون في الولايات المتحدة، لذا ترى أبنيتها مبنية على الطراز الأمريكي .

نهبط مع الطريق، ثم تقابلنا تلة تعلوها مستوطنة «شيلو» ثم مستوطنة » نحليم» تدور حولها جيبات الحراسة، ثم مستوطنة «لفونة» التي اخذت اسم قرية» لبنة» – تحتها مباشرة– انتشرت فيها رائحة الربيع.

«حوّارة مغلقة ليش ؟» ، يتساءل كمال .

تجولنا بالسيارة في شوارع حوارة القليلة، لا شيء يتحرك حتى المسجد فارغ من الناس رغم أن وقت الصلاة قد حان، زعيق سيارة مرتفع ومخنوق في آن، صوتها أشبه بالجعير، ظهرت سيارة جيش ثم سيارة ثانية، تتوقف الشاحنة، وتعبر سيارتا الجيش، كنا عند سوبر ماركت الحسن. بعد مائة متر قطعت الشارع امرأة تحمل فراشا بالعرض، اختفت في حديقة منزل، لا شيء غير ذلك! نخرج من حوارة الصامتة دون أن نعرف أسباب صمتها.

على مفرق «بورين» اشرنا إلى سيارة تاكسي نسأل إذا كان من الممكن دخول نابلس، قال السائق:«من بورين (اسم قرية) بس (لكن) مشي إذا بدكم تجربوا الطريق العادي روحوا دغري (بشكل مستقيم) على الحاجز بعرفش إذا بمرقوكم ! هذاك هو هناك مش بعيد ..أبو كام مائة متر .»

وصلنا الحاجز، وقفنا وراء سيارتين، مر بنا رجلان مع حقائب، نسأل كيف خرجتما ؟

قالوا: « لأننا مسافرين خلوٌنا، لأننا مش من نابلس، كنا بس زيارة. ».

وصلت مجموعة، ثلاث نساء ورجل يتكئ على عصا، في طريقهم إلى نابلس، وقفوا لينظروا إلى الحاجز بتردد. اسأل :« سيسمحون لكم بالمرور ؟ »

رد الرجل ببرود: « أبصر (ربما) مش عارف ! تنشوف!» (لنرى).

توجه الرجل مع عصاه وكيس بلاستيك نحو الحاجز، سمعت الرجل يقول لهم :«عندي بورتيزا!!» (لا اعرف بأي لغة هذه البورتيزا، ولكنني فهمت انه مرض عظمي في الساق). الجندي لم يلتفت إليه، نظر في الكيس فقط .

تصل مجموعة أخرى، من أين يصلون ؟ لا ادري كيف ينبتون هكذا على الحاجز؟ لا ادري !!. رجلان وأربع نساء يتجهون نحو الحاجز، تعود امرأتان تتمتمان باللعنات على أبوهم. إحدى النساء أمسكت بيد طفل في العاشرة أو في الثانية عشرة، تقف بمحاذاة نافذة سيارتنا، قالت لي : « بدي أروح عند الدكتور عند الولد موعد مع دكتور تقويم الأسنان صار له ستة اشهر بدون فحص، وفتحت فم الطفل، كان الصديد يغطي الجزء الأعلى من أسنانه، لم املك إلا أن أتقزز، تؤمن على تقززي وتقول : شايفه ؟ والله الليلة ما نام من الوجع عمّلوا أسنانه» (أصابهم التهاب) .

سألتها : من أين أنت ؟

-«أنا من حوّاره .»

-ليش حوارة مسكرة ؟

«لأنه حواره فيها منع تجول من ستة اشهر، بفتحوا من العشرة الصبح للساعة ثنتين.»

ثم استطردت المرأة :

-«ارجع، أحاول مرة ثانية، أترجاه ؟»

- شجعتها، حاولي مرة أخرى !

ثم عادت أدراجها نحو الجندي، أشارت إلى أسنان الطفل المتورمة. تمر، تمشي بضعة خطوات تعبر عنها سيارة، تقودها امرأة من المستوطنة، تقف السيارة للحظات تبصق من النافذة على المرأة وتسرع في سيارتها مبتعدة، عادت المرأة تبكي وتقول: بصقت على وجهي ...(امتلأ وجهها بالبصاق) . أعطيتها منديلا من الورق، مسحت وجهاً جميلاً وعينين سوداوين مكحلتين. ثم أضافت: « الله ينتقم منهم»- ترفع يدها إلى السماء .

سألتها : شو اسمك ؟

(قالت بعد تردد): «أم ثائر»

عادت أم ثائر نحو الجنود بثوبها الرمادي ومنديلها الجوتشي(Gucci)، استوقفها الجندي وأصر على استبقائها، لكي يرسل من يأتي بالمستوطنة كي تعتذر لها، قالت أم ثائر وهي تنظر مستنجدة أنها لا تريد أي اعتذار من المستوطنة، تريد أن تذهب إلى نابلس قبل عودة منع التجول .. لكنها وقفت طائعة، ذهبت سيارة جيب غابت لمدة عشرين دقيقة، عندما عادت السيارة فهمنا انه لم يجدها، يوقف السيارة التي أمامه ويطلب من السائق أن يوصل المرأة معه. أما نحن فقال إننا لن ندخل، وانه لا يمكن العبور من هنا، أشار لنا من ناحية عورتا، نسأل مجموعة من المغضوب عليهم أين عورتا ؟

قال أحد الرجال :«خذونا معكم !»

وافقنا، وركبت معنا ست نساء ورجل، سألونا عن المرأة التي كانت تبكي .

حكينا لهم القصة. لا داعي للقلق . سألناهم : من أين انتم ؟

قال الرجل : « أنا من (بيتا)، مرّقوا أربعة منّا وإحنا رجّعونا، عدنا إلى حواره. استطرد الرجل الذي عرف نفسه أبو عرفات:« مساكين أهالي حواره صارلهم في منع التجول فوق الستة أشهر، وهم على هالحالة لا شغلة ولا عملة، بتلصلصوا على بيوت بعض . »

سألته : هل أنت يا ابو عرفات على اسم الرئيس ؟

-«لا والله على اسم عمي».

دخلنا قرية «اودلا» يقول أبو عرفات: « هذه القرية كان ساكن فيها سيدنا يعقوب عليه السلام، يعقوب أبو يَوسف، كان أولاده يسرحوا بالغنم هناك «يشير إلى السهول التي أمامنا، على بلاطة».

سألته : مخيم بلاطة؟

-«لأ، مش مخيم بلاطة هذه منطقة بلاطة موجودة قبل مخيم بلاطة، وين البير اللي زتوه فيه (يقصد الذي رموا سيدنا يوسف فيه) ، جنب قبر يوسف اللي بيقولوا أنه لهم» (أي خاص باليهود). استمر أبو عرفات بالشرح عندما انتبه أني مشدوهة بشرحه فأضاف : « وهون في عورتا في قبر اسمه (العوز) وكمان بيقولوا انه لهم ».

وصلنا حاجز عورتا كانت في الانتظار حوالي عشرين شاحنة، تنوعت حمولاتها بين حديد واسمنت ورمل، قطعنا جميع السيارات لان أبو عرفات قال أننا لا نحمل تجارة، وهذا الحاجز هو حاجز الناس العاديين، اقترب منا جندي سألني من أنتم قلت له صحافة. أشار إلى النسوة اللاتي حجبن وجوههن حتى العينين بوضع مناديل بيضاء: « وهؤلاء صحافيات كمان ؟». نظرت إلى الخلف رأيت مشهد النسوة،لم أتمالك نفسي، وضحكت فضحك الجندي أيضا، ثم أنزلهم جميعاً مع أبو عرفات، همست إحدى النساء بان نحكي معه لكي يسمح لهم بالعبور ، قلت لها: إذا عبرنا نحن ، نسأله وننتظر من الناحية الثانية .

وقفوا على جانب الطريق، بدأت الشمس تُلوِّح بيوم حار وحارق، فتش الجنود سيارة عبرت من الناحية الثانية لصحافيين أجانب، قال أبو عرفات من جانب الطريق : «إذا فتشوكم هذه علامة خير!!»

اقترب الجندي منهم وقال لهم أن يعودوا من حيث أتوا، لم يتحركوا وكأنه لم يقل شيئا ..نظر إليهم يائساً واقترب من سيارتنا سأل عن الهويات، سأل عن الكاميرات. لم تعجبه الكاميرات الصغيرة التي أحملها، قلت له أني اعمل في إذاعة ولا حاجة لكاميرات كبيرة ، وصل رجل يمشي على عكازين، حاذاني الرجل وقال انه مريض .

سألني الجندي:« هل تأخذونه معكم ؟» . فقلت بفرح: طبعاً . هذا يعني أننا سنعبر. ساعدت الرجل على رفع رجليه إلى السيارة، وسألته كيف أتى لوحده؟. أجاب بأنهم لم يسمحوا لزوجته بمصاحبته. سرنا أمتارا قليلة التقينا مع أبو عرفات الذي كان ينتظر مع زوجته، ركبا معنا سألت

أبو عرفات عن باقي النسوة ؟ .
فقال :«لما بيجي على بالهم بيمرقوهم !!»
اعتقدت إنهن زوجاتك!
ضحكت زوجته ولأول مرة يصدر عنها صوت، أبو عرفات ينظر إلى زوجته الضاحكة ويقول : «إحنا بهاي ومش طالعين ببياض الوجه.. أعوذ بالله .. والله والله اللي بيتزوج ثنتين بعذب حاله بحاله، يعني بكون عقله ناقص أو في رأسه وشة (معتوه).»
قطعنا طريق وعرة بمحاذاة قرية (قَلّيل) ثم دخلنا لأول مرة إلى شارع عريض معبد وبعد عدة أمتار وصلنا عمارة مهدمة. قال أبو عرفات هذه العمارة كانت سبع طبقات قصفوها بطائرة ف ١٦ ومن بين أشلاء العمارة برزت يافطة كتبت عليها عبارة» إدارة التدخل وحفظ النظام» . وصلنا سجن نابلس وقد تهدم جداره الشمالي، وامتلأت واجهة السجن بالثقوب بفعل الرصاص، لكن كانت هناك صورة للأقصى معلقة على جدار بقي صامداً. قال أبو عرفات :« هاجموا السجن لأنه كانوا بدهم شخص مطلوب اسمه محمود ابو هول، قبضت عليه السلطة وحطوه بالسجن، ولما اجتاحوا نابلس أجو على السجن ليقبضوا عليه.. هم اليهود من هون ضربوا الغرفة، وهو ما كانش فيها لأنه الشاب الحارس لما حس على الجيش نقله على الغرفة الثانية، وإلا لو اجا فيه الصاروخ كان راح والله..»
وصلنا إلى وسط نابلس. وقفنا. نزل أبو عرفات وزوجته والرجل المعاق الذي نسينا وجوده أثناء الطريق، لكنه ردد أثناء نزوله:« والله أنتم الأصل، الله يبارك فيكم ..»

نابلس

في مدخل سوق نابلس المدينة القديمة إلى مقهى العكر، كاس ماء مثلج وقهوة سكّرها قليل. جلسنا نسترد أنفاسنا هانئين بانتصار الوصول، وصلتنا موسيقى هادرة من بسطة قريبة، تقول الأغنية إحنا شعب الحرية، إسلام ومسيحية، امتنا عربية، ثم لحن طبل وموسيقى قصيرة، ثم صوت متواضع الإمكانيات يقول: دار دور وصواريخ، سرقوا القدس والتاريخ .....
مع وصول أيمن مزهر صديق محمد واحمد الحشاش، دخلنا إلى السوق، مررنا بحلويات الأقصى، افخر أنواع الحلويات النابلسية الشهيرة على حد قول صاحب المحل . طلبنا كنافة، أكل كل واحد منّا أوقية كنافة، واستغربنا من السعر الرخيص، سألنا صاحب المحل إذا كان هذا السعر يكفيه للربح. قال:« إذا كثر البيع بتوفي معي ، إذا ظل الحال هيك لا والله ما بتوفي معي !!»
أخذنا صحون الكنافة، جلسنا وظهورنا متكئة إلى جدار غطته صور الشهداء، أشار احمد إلى أحد الصور وقال: «هذه العائلة استشهدت بأكملها». ايمن يقف وينظر إلى صورة أخرى» وهذا اخوي استشهد قبل أحد عشر شهر بسيارة مفخخة لأنه كان مسؤول في كتائب الأقصى»، أيمن يسحب دخان من سيجارته يرفع يده مع السيجارة في الهواء، يشير إلى صورة أخرى يقول: «هذه صورة عائلة من ثمانية أنفار من دار الشعبة، وهذول من عائلة العسالي في حارة الأريول.»
وصلنا إلى بيت عمر الشعبة الذي يقع في حارة الاريول هدمت نصف البيوت فوق رؤوس

أهالي الحارة، أحد البيوت هدم نصفه وتحولت إحدى غرفه إلى شرفة جلس عليها رجلان، ينظران إلى الدمار، الذي انتشر فوقه دجاج يبحث عن طعام ممكن .

رجل معروف باسم عمبوز تبرع بالشرح، كأن يعمل دليلا سياحيا .. وبدأ يقول : « من هون اخرجوا امرأة وزوجها حية بعد اثنا عشر يوم .. » رجل آخر يقاطعه: «ستة أيام» ، يضيق عمبوز بالمقاطعة ويقول :«قال اثنا عشر أو تسعة ..كله واحد»

من هناك سرنا نحو حي الياسمينة مررنا من تحت قنطرة دمر البيت الذي فوقها . عمبوز كان معنا يقول :« فوق كانوا الشباب يطخطخوا عليهم، عاد والله قصفوها هذه القنطرة ..عمرها فوق الألف سنة ويمكن أكثر ...«يقاطعه احمد :« خمسمائة.. »

عمبوز : « أنا بقول فوق الألف سنة .. »

وصلنا حمام السمرة يقول حازم سعيد صاحب الحمام:« عمر الحمام ٢١٥٠ سنة لأنه بني في عصر السامريين، الحمام لبيت طوقان وأنا مستأجر، لما أخذته كان خرابة، وصار له ببشتغل عشر سنوات، بيجو نساء ورجال، البلاط هون تحته في حطب، الجسم لما بنام على البلاط بيشفيه، بيفكفكه من العقد »، يؤكد حازم أن هذا صحيح عندما رآنا مذهولين من قصة الشفاء بواسطة النوم على البلاط.

«اسأليني أنا ، كنت مصارع وكنت بطل فلسطين في سنة الستين، لعبت تلتميت (ثلاث مائة) لعبة مصارعة، في هديك الأيام كان محمد الهندي وعلي محمد أبو سلطان كانوا أبطال مصارعة، اليوم لا في رياضة ولا مصارعة، أبو مهدي وأنا كنا نهتم بالرياضة بشبابنا وخطر في بالي افتح الحمامات بعدين شغلة مفيدة وصحية، لاني بشتغل في المساج في حين أمارس شغلي في إطار جميل ومريح . »

« أجوا وقطعوا رزقنا لما فاتوا على الحمام، ليش فاتوا على الحمام؟ قلنالهم ليش الحمام؟ فاتوا وهات طخطخة ..شوفي ..شوفي !! « (يبحث عن أثار الرصاص) » عاد كانوا ييجوا يتحمموا هون هم وغيرهم، هون كان ييجي ناس مهمين. أجا عبد السلام المجالي من الأردن، وكل الوفود اللي بتيجي على بلدية نابلس أو وزارة السياحة بيجيبوهم هون، أجا يابانية وفرنسيين ...قال وهذول اليهود أجوا كسروا مالنا ورزقنا وراحوا. »

أيمن يسال امرأة إذا كان هذا هو حي اللولو ردت المرأة بصوت عال : « حارة اللولو؟..هذه حارة لولو؟ هذه لا حارة لولو ولا ياسمين وينو اللولو ؟ وينه ..؟ »

سرنا في زواريب قديمة سألت ايمن أين حي القصبة، يقول مذهولا :« ما إحنا في القصبة بس كل زاوية هون إلها اسم، بس كل هذه الأسماء في القصبة . »

مررنا بنصب تذكاري متواضع يخص الشهيدة عبير توفيق حمدان كتب عليه «الشهيدة البطلة عبير توفيق حمدان ، استشهدت بتاريخ ٢٠٠١/٩/١م» أثناء تأديتها لعملية بطولية. لحقت بنا المرأة المتهكمة مرة أخرى، وقالت : «هون في صواريخ، في شهدا ، مفيش لولو! » (أشارت بإصبعها نحو قنطرة منخفضة ضاعت معالمها من الدمار) «هون استشهد أربعة شباب،

كنت عم بجلي الجليات (تنظف أواني الطعام) ، وإلا هالصاروخ أجا هيك مرق هان وحط على الفرن، شاب استشهد على الدرج وهون استشهد اثنين والرابع نزف !! » . أضاف أيمن :« الرابع هو ذاته الذي رأيناه على شاشات التلفزيون يحاولون جره ثم يفشلون ويموت في مكانه بعد نزف متواصل. »

تستمر المرأة وتقول:« في واحد أخذوه على الثلاجة، عاد هيك قالوا لي، تحرك وطلّعوه كان لابس حطة حمراء وقعت منه، بكون هو ابن العبد، أخذنا هوياتهم وبلفوناتهم ووديناهم لأهاليهم، بس حطة ابن العبد قعدت مدة وبعدين أعطوها للزبال، اللي جرّوه من قوات ال ١٧ ، بمكن قعدوا أربع أيام وهم مرميين هان مخلوناش اليهود نعينهم ..لا إله إلا الله. »

اسألها عن اسمها، تقول: « حلوة »، ثم تبتسم وتنفض ثوبها الكحلي الفضفاض من الغبار وتستطرد : « أنا مش حلوة بس اسمي حلو ! سموني على اسم أم عبد الغني، أنا عندي ولد استشهد – يعلو صوت الأذان– تقول ها بصوت الأذان. »

طلت من فوقها شابة، نادتنا لكي نرى بيتهم (لم يرق ذلك للسيدة حلوة) فتمتمت:« أما أنت فقلبي ما يعشقش. » رغم الحرج من حلوة نصل إلى بيت الشابة .. بدت الغرفة التي دخلناها وكأنها غربال من كثرة الرصاص الذي حط في جدرانها وأثاثها المكون من سريرين وشاشة تلفاز طار زجاجه وناله ما نال الخزانة التي وقع عليها من رصاص رش، قالت الشابة:« كان الرصاص ينزل زي الشتا. »

شعرت بانقباض لا يطاق نظرت عبر النافذة كانت حلوة ما زالت تتحدث مع إحدى الجارات، كانت تقول لها :« والله الأولاد نسوا الجيل القديم وجحدوا المعروف – ثم يعلو صوتها غاضباً دون مناسبة – صدري راح من القهر وين بقولوا بدهم يعمروا ويصلحوا ؟ قال الإمارات بعثت فلوس وينها طيب؟ ما يعمروا فيها!». ترد الجارة عليها :« أنا والله ما عنديش دار هياني بروح عند أولادي كل واحد بنام عنده ليلتين عشان ما أثَقِل عليهم. »

حلوة:« أنا ما عندي أولاد اروحلهم، جاحدين ، وين أروح ؟ هذا الدرج تهدم كيف أفوت، أنا بعمري كيف بدي أفوت عليه؟ ييجوا يصلحوه!. »

شمسه الشعبي

كانت شمسة التي سقط بيت أسلافها عليها وعلى وزوجها ممددة على الفراش في بيت شقيقتها. تلبس قميص نوم زهري اللون. سارعت قريبة لشمسة وناولتها منديلاً لتلف رأسها، وغطاء لساقيها المنتفخين كبراميل صغيرة وقالت لشمسة : « في شباب جايين معها . »

ثلاث أساور ذهبية في معصم شمسة المنتفخ، شمسة قالت:« أهلا وسهلا وكأنها تدحرج الأحرف على لسانها الجاف قبل أن تستعمل حنجرتها تلقي بضع قطرات ماء من إبريق اخضر بلاستيكي موضوع على طاولة في متناول يديها . »

أقول لشمسة:« أصبحت مشهورة . »

تبتسم شمسة وتقول:« صرنا في الدنيا كلها. الدنيا كلها حظ، أنا مريضة وزوجي مريض، وإحنا فقرا وما في عنا أطفال، ومثل ما أنت شايفة صحتي على قدي وهياني عشت وطالوني بالونش (الرافعة) لفوق بعد سبعة أيام، سلافي يا ولدي كلهم لهم أولاد ، كلهم استشهدوا تحت البيوت خنق. لما روحت من المستشفى أول ما سألت عن الأولاد، قالو لي: الله أعطاك عمرهم حكيت لا حول ولا قوة إلا بالله، أنا اللي على حفة القبر الله أعطاني عمر، وهم لا؟ حكمتك يا رب !.».

تصمت شمسة ، تبحث بيدها عن الماء لتبل لسانها من الجفاف الذي أصابها عندما كانت مدفونة تحت الأرض. تصمت لحظات ثم تتابع: « أنا مرضت أكثر من (بسبب) الصحافيين والصحافة كلهم يسألون نفس الشئ ويروحوا! تعبت من الحكي. » قلت لشمسة التي التقطت أنفاسها: طيب يا شمسة أنا سكرت المسجل، بلاش صحافة، وبلاش تسجيل، اعتبريها زيارة عشان نسأل عن صحتك.

-« تسأل عنك العافية، والله فيكي البركة.. عشان ريقي ناشف من الحكي لأنه مكانش مية نشربها وإحنا تحت لأنه خزانات المي فتحت علينا واندلقت علينا ويا لله مية. مية بس شو ما منقدر نشربها لأنه أول شي الدنيا سودا، عتمة كحل والمي نازلة مع التراب تقولي مزراب .. والله كنت اسأل حالي وأقول ليش ما أجوا ينقذونا؟ واسأل شو صار بالدنيا؟ وين أهلي، عندي أخت وعندي أخي من زوجة أبي، فرسهم هذا هون مش بعيد عن بيتنا اللي في القصبة ..أفكر، أسال ايش اللي بيهزنا، بعدين قالوا لي هاي دبابات كانت تمشي فوقنا، عملوا بيوتنا طريق ثلاث طوابق من البنى (البناء) القديم، لما بدا ينزل التراب ما خذناش ولا أعطينا لكن لما شفنا هالطم للنص، أقول شو صار بالدنيا عم بتعتم؟ ، وبعدين لا عنا مطاردين، لا عنا شباب، بعدين انطمينا كلنا، لا عاد يبين باب لا عاد يبين شباك وقعدنا بالطم ليل ونهار»

بلت لسانها بقليل من الماء تصمت لتأخذ أنفاسها ...أدرت عيناي نحو ثلاث فتيات كن يلعبن عند حافة شباك مستطيل، يضحكن دون إزعاج. أعود اسمع شمسة تقول : «زي القبر، أدوّر على شقفة خبزة، كنت طابخة كوسة قبل بيوم بس كانو بالمطبخ الخبزة اللي لقيتها كانت وسخة ومبلولة ورميتها. وعمني (لأني) همتي ثقيلة زي ما أنت شايفة من النفخ هذا وعندي الكلاوي والكبد ما اقدرش أتحرك، كان عنّا شمعة بس الحظ الكباريت انبلت بالمي ! أسال حالي إذا النهار، طلع؟ مطلعش؟ أسال ليش ما أجا حدا يفقدنا، أقول لحالي كلهم ماتوا واتشاهد أقول لا الله إلا الله، ونقول يا رب، جوزي يا ولدي عنده الأزمة، بس كان معنا أكم بخاخة، صار يبخ حاله والله يمكن هي البخاخات اللي عيشته، كنا نقول انه بدو يموت منهم لكن هيا هم عيّشوه (أعانوه) ، سبحانك يا رب! كان عنّا لبن بالثلاجة كنا نحط على لساناتنا ونقول يا رب فرجك إحنا تحتك وشايف لا عملنا شي لحدا لا عمرنا آذينا حدا، وإذا يوم دق هالسقف بعدين نزل حجر من السقف فكرنا خلص ... ما عادت الحيطان تحمل الطوابق اللي فوقها، وسمعنا صوت بقول : يا أبو طلال ! ميت وللا طيب ؟ قال جوزي: طيب! وإذا هم كانوا أخوتي وأهالي القصبة والصليب

الأحمر، كلهم واقفين حوالينا بالحبال، طلعونا بالحمالة وأخذونا بالإسعاف، وعلى المستشفى. فكرك خوفوا مين اليهود لما نسفوا بيت على واحدة مثلي نص عايشه؟ ».

دخلت رنين شقيقة شمسه بحجمها الصغير في نهاية القصة وقالت بعد أن توقفت شمسه: « إحنا حسبنا أنها ماتت، هي وزوجها، لكن لما طلعوها قلوبنا وإحنا طلعنا معها. »

استرسلت رنين شقيقة شمسة بالحديث وحكت القصة مرة أخرى. كانت تعقّب وتشرح كل معلومة تضيفها بلسان طلق وصوت قوي ثابت. » شوفي كيف؟- تابعت رنين: شمسة مقعدة، سلفها ومرته (زوجته) حبلى و أولادها ثمانية ماتوا. قال الله تعالى: (يدرككم الموت ولو كنتم في قصور مشيدة) ، أنا عمري ٧٤ سنة فهمت العبرة ، هم ما فهموا العبرة !. »

نحن أيضا لم نفهم العبرة لكن رغم ذلك شعرنا أنها قالت شيئاً هاما بدليل الصمت الذي خيم علينا. ربطت رنين منديل الرأس البني بلون ثوبها ونعلها، وأضافت:« ما فهموش العبرة !. ». شمسه كانت تنظر بإعجاب لرنين أختها. استطردت رنين: « أنا أم العبد إحنا بنحب السلام ومنحب نعيش معهم بسلام لكن نعيش مع المستوطنين حدانا (بجانبنا) هذا مش سلام! يرجعولنا أراضي ال٦٧ إحنا في حدودنا وهم في حدودهم، نروح على بعض سياحة هذا هو السلام.

بلاطة

أول ما دخلنا قال ايمن مزهر :«هون اغتالوا اخوي عزام فخّخو له السيارة، كان يطلع مع صاحبه معاد، مد يده ..فتح السيارة، انفجرت». أوقف ايمن السيارة أمام القوس الأبيض في شارع الشهيد عزام مزهر، وتحت هذه الجملة صورة عزام يحمل سلاحا بيده، خلفه علم فلسطين، وعلى طرفي القوس انتصب علمان لفلسطين .

في الشارع الثاني طالعنا قوس من قماش كتب عليه «المقاومة خيار والعودة مصير » ووسط القوس صورة لقبة الصخرة. ندخل بيت حسام، تقابلنا أمه تقول :« أهلاً وسهلا. » فأبادرها بالقول : ألا تذكريني ؟

تدقق النظر في وجهي ثم تسأل: «مش أجيتي مع العبد ابني؟ والله هو أنت؟ كيف حالك يا بنية؟ فوتي! (ادخلي) والله ما كنت فاكرة مين أنت، أنت كنت هان قبل ثلاث سنوات بالأقل».

ادخل إلى الصالون الذي لم يتغير سوى بناء جدار يفصله عن البوابة الرئيسية، مما جعل الجلوس فيه أكثر خصوصية، إذ كان في السابق مفتوحاً على درج الطابق الثاني، حيث بيت حسام الذي أصبح اسمه يذكر في الفضائيات العالمية. لا يطول الانتظار ويدخل حسام، قبَّل والدته ثم طبع قبلة على خدها، فأمطرته بالدعاء والتوفيق، يلتفت إلينا يحيينا بحرارة وحب. حسام في الأربعينات من عمره، وجهه مليء بالصحة والحيوية، يتحدث بشكل مباشر دون مواربة .

حكيت لحسام بعد أن طلب من والدته كأسا من المرطبات قبل القهوة، إنني أحاول، فقط، أن انقل الصورة ووجهة النظر كما هي وذلك مع عدد من المخيمات الفلسطينية والضفة ، فقال :« أكيد سمعتي كل شي صار في مخيم بلاطة، وشايفة شو راح يصير في بلاطة ؟ دخل الجنود المخيم

وهم يصرخون في الميكرفون ويعلنون منع التجول ويقولون: اللي بيطلع من بيته سيكون شهيداً، شهيداً، شهيدا. في بلاطة حققوا البعد الإعلامي والبعد النفسي. يضع حسام في حضنه أميرة ابنته الصغيرة عمرها ثماني سنوات. بدت أميرة مريضة ومنهكة كان حسام يقبلها بين الحين والآخر ويحاول تخفيف ألمها دون أن يقطع حديثه . تابع حسام : دخلوا مع هيلوكبتر ويمكن سبعين آلية معهم، الهدف من الدخول القضاء على سمعة بلاطة لأن مخيم بلاطة له سمعه مخيفة وطول عمره بيخوفهم، قعدوا أسبوعين قبل الدخول حاولوا أكثر من مرة يهجموا ونصدهم، لكن استعملوا عملاءهم بشكل مكثف، يعني مرات العملاء كانوا يمشوا وراء الشباب ويقطعوا المتفجرات، خلصت الحملة الأولى بديَت الحملة الثانية وراح تكون ثالثة ورابعة، هون في البيت خلعوا الباب، حشروا أولادي والوالدة في الغرفة أربعة أيام، بدون أكل، بدون كهربا، طلعوا فوق عندي على البيت ،وبيت اخوي فوق بيتي، كّسروا وسّخوا، مزعوا (مزقوا) جوازات السفر وسرقوا كمرتين فيديو».

دخلت أم حسام وورائها ابنتها الشابة وبين يديها صينية عليها كؤوس شراب بارد (تقطع على حسام الحديث) وتقول:« ابني الثاني متجوّز جديد خلّوا (أحالوا) داره زي الشارع، طفوا السجاير بالموكيت (السجاد)، من كثر ما طخوا من قدام دارنا والله قزازة (زجاجة) كولا من الكبار تعبّت فشك. هذه البنت (أشارت إلى أميرة الجالسة في حضن والدها) ماتت خوف وبطلت تحكي لما سمعت الصواريخ، كانت كنتي وبنتي يحكولهم بالإنجليزي: بدنا دوا، بدنا نوكل، في أكل فوق ودوانا فوق، واحد وراها وواحد قدامها بالسلاح، خلوها تجيب بس دوا ومخلوهاش تجيب أكل، إحنا أول بيت دخلوا وآخر بيت طلعوا منه».

دخل احمد الصغير له من العمر أربع سنوات وقال:«بدي اطخكم كلكم!». يجلس ملتصقاً بجدته وراقب والده الذي ضحك لكنه تابع :« شطبوا ٨٠٪ من البنية التحتية شطبوا سيادة السلطة». اقفل حسام هاتفه، في هذه الأثناء نزلت الصغيرة من حضن حسام وجلست بقربي وقالت لي أنها كتبت قصيدة شعر غابت قليلاً ثم عادت ومعها قصيدتها وقرأت:

« سندافع عن أقصانا بالحجر والسكين
ففداك يا قدس ترخص الأرواح
وتحية لمخيم جنين ! »

ثم قالت :« هذه كتبتها لما كانوا الجنود عنّا«

سألتها : ما هو الأسوأ في الاجتياح؟

«أسوأ شي لما كسروا الباب وفاتوا أنا خفت ما غدرت (استطعت) احكي، سكتت بس كنت اسمع «...(احمد الصغير يقاطع) يقول: « قالوا وين الزمن؟ وين المخرب حسام؟ ».

حسام يتدخل ويقول :« قالوا وير از ذا مان ؟ أحمد فهمها وين الزمن !!»

سألت احمد: خفت يا أحمد ؟

«أنا كنت بتغدى لما طبلوا على الباب!!»

قديش عمرك ؟

« ثلاث سنين. »

الجدة تتدخل: «لا أربع سنين. »

أحمد : «وما خلوني أتحمم، وحبسوني في الغرفة مع ستي، وما كنا نحكي ولا كلمة ..وكنت العب بالخرزة وفاتت بمنخاري (انفي)! وقعدوا كلهم يحكوا كيف بدهم يطلعوها وأنا خفت».

شقيقة حسام تقول لأحمد:« فرجيها (أريها) كيف كان الجندي نايم على الأرض ؟ »

ذهب أحمد قرب الباب، وفي يده سلاح وهمي ونظر بحذر إلى الخارج، ثم نهض وقام قائلاً: « أنا بخافش منهم، أنا كنت اغني لهم وأقول لهم » شالوم» يا بياع الفساتين، أعطيني تنورة، وفيها أمورة. »

تحكي أميرة وتقول: «أنا كنت خايفة على شان هاي أول مرة بشوفهم، كنت أشوفهم بالأول على التلفزيون، أما من قريب ولا مرة شوفتهم، هم طوال ولابسين اخضر ومشحبرين وجوههم، وأنا كنت مشتاقة لبابا وكانوا يسألونا عن بابا وهو ما كان بالبيت، وكنا خايفين عليه. أنا زعلانة منهم لأنهم قتلوا عمو ياسر وعمو السنفور، وعمو السنفور ما راح نشوفه لأنه استشهد يعني طلعت روحه (تضع يدها على قلبها الصغير) بتطلع الروح وخلص مات. أنا ما قبلت اخذ منهم شوكولاطة لأنه مرات بعطوا الأولاد شوكولاطة و يسألوهم أسئلة ولما منقولهم يكون الحق علينا، وأنا زعلانة منهم لأنهم طفوا السجاير بغرفتي هيك على الأرض ووسخوها».

ثارت غيرة احمد من أخته عندما لاحظ إصغاء الجميع لها، فأخذ مني آلة التسجيل، فقلت له: أنت يا أحمد بتتشاطر عليّ وما بتتشاطر على الجنود؟

«أنت وجعتي لي راسي !!»

نضحك، ما زلنا نشهق من الضحك فاختلط الضحك وخلت أن ضحكنا هز البيت ولكن اختلط عليّ الأمر. عندما غاب رنين الضحكات مع ارتجاف أميرة على ركبتي، نظرت حولي لأرى شهوداً. رأيت الجميع قد ركض وما رأيت غير ظهورهم تتراكض نحو الباب.

قصف.. قصف .. قصف. أزحت أميرة عن ركبتي، وذهبت نحو آلة التصوير وحقيبتي. أميرة مشت خطوات، بضع خطوات، فانثنت ساقيها وهبطت على الأرض دون صوت، وكأنها مصنوعة من القطن، ركضت نحوها احتضنتها، شددتها إلى صدري وكأني أريد إعادة حرارة الحياة إليها.

قالت مرتعبة: « بدهم يفوتوا عنّا، بدهم يفوتوا عنّا!».

وصلني صوت من الخارج: « ضربوا دار شتيوي ، حموده شتيوي ...». أصوات ركض. صراخ. بكاء. عاد حسام، اخذ أميرة مني وضعها في حضن جدتها واختفى. خرجت مع أيمن وأحمد، سرنا عشرات من الأمتار في خليط من الناس. رأيت نفسي وسط المئات منهم ووسط القبور. سألت: من استشهد؟

أكثر من صوت قال: «استشهد...استشهد.».

امرأة تقول لي: « محمود الطيطي وأصحابه إياد حمدان وعماد الخطيب».

وصوت آخر يعلو:« بس بدهم محمود وهؤلاء راحوا بعروته».

«لا حول ولا قوة إلا بالله» (يعلو صوت امرأة) » كانوا قاعدين ورا دار الحمّامة على هذا القبر».

نظرت نحو المقبرة كان الشباب يبحثون عن قطع من الجثث، في البداية لم استوعب أنهم يبحثون عن قطع من المخ والأصابع. شخص يقول: «هناك، هناك جنب الحجر، كنّها شقفة لسان، والله هناك». يضعها في كيس بلاستيك، و آخر يقول: « ادفنها! ..ادفنها يا رجل !».

«هذاك .. هذاك إصبع !».

«خلص يازلمة غطوه !».

«لا، لا، هذاك إصبع ..هات لهون! هات!»

«أصوات سيارات إسعاف.صراخ. جوه صفراء».

«من وين ضربوهم؟ ».

«الله يعينهم يا زلمة ثلاث أصحاب».

«ضربوهم من جبل جزين».

«عصام، يا .. عصام، وين رايح؟ ».

«على المستشفى ... هذه الشقفة منهم».

«ادفنوها! ادفنوها! ... الباقي خذوه على المستشفى!»

«وين..؟ أم محمود ؟ ».

«مش هون»

«ولكو يا عمي ارجعوا لورا!»

«ارجعوا لورا .. خلونا نشوف شغلنا!! من شان الله».

«اسا (الآن) بضربوا عليكم! انضبوا في بيوتكم!»

«ما عادش يضربوا هالكيت .. اللي بدهم إياه اخذوه.».

أمواج من الناس تتحرك، جميعهم يتحدث بجمل قصيرة سريعة لاهثة، أحاول الخروج، أحاول التنفس، أحاول التقاط صورة. رأيت طفلين متعانقين، تبعتهم بنظري التفت أحدهما، يحرك يده نحوي، ويسأل بعينيه ماذا أريد؟ أحوّل نظري بعد التقاط صورة. اقترب من مجموعة أطفال ونساء، أحد المصورين، يسألني إذا كان معي بطاريات؟ ..أناوله واحدة، التصقُ بالجدار مع مجموعة من النساء والأطفال. اسأل امرأة بجانبي عن بيت محمود الطيطي؟ تضرب على الجدار وتقول:«هذا هو ! البيت مقابل المقبرة تماماً».

البيت مكوّن من ثلاثة طوابق من الأسمنت، ومع أن البناء ليس جديداً إلا انهم لم يفرغوا من طلائه، أو تركيب شبابيكه، مما يدل على ضيق الحال، ترتفع الأصوات مرة أخرى، يقولون: « هذه أمه!».

«لا مش أمه! هذه أخته!».

وصلت شابة متوسطة القامة، منفوشة الشعر، تمسك امرأة أخرى بيدها، وصلت أمام المقبرة. التفتت الأخت حولها، نظرت في عيون الجميع، وركضت مبتعدة بقميصها المنقط بلون البرتقال، انحل شعرها، وهي تقول جملاً لم افهم منها شيئاً، ارتفع صوت الهرج والمرج وعلت أصوات مهتاجة: «هذه المرّة! هذي حياة حياتنا؟ بيتصيدونا زي الأرانب». صوت آخر يعلو: «يا عمي بلاش بلوفونات (الهاتف الخليوي) بلاش!! بتصيدوكوا بالرادرات!». «الموت للعملاء ..الموت للعملاء!».

«يا ربي .. يا ربي وينك؟ .. ليش غايب عن عبادك؟ يا ربي انزل وشوف! ظلم، والله ظلم .. شبابنا انقتلت، ونسوانا ترملت، وأولادنا تيتمت، وأنت شايف .. شو حكمتك يا ربي؟ شو حكمتك؟ يا رب» تقول امرأة وقد عصرها البكاء، وناحت بصوت كالمواء.»

صوت يهددها: «ما تكفريش يا مرة! اتعوذي من الشيطان!»

«الله اكبر، يا جماعة، الله اكبر» (صوت آخر)

«كبير كبير بس خلينا نفهم». (امرأة بصوت باك) «قتلوا كل الشباب المناح، راحوا كلهم». تبكي، تتراجع نحو الجدار، وتصمت. محمود يقترب مني ويقول لي: «أنت وجهك اصفر لأنك بعدك بدون غذاء، شو رأيك آخذك عنّا على البيت نوكل لقمة؟». استغرب سؤاله عن الطعام في هذا الوقت بالذات لكن هاتفي يرن: كويفا... نعم «ماذا حصل في بلاطة؟ سمعنا قصفوا ...؟!». آه قصفوا ثلاثة أشخاص ... وين أنت؟ «في مخيم جنين»، شوفتي حسام؟ نعم هل سأراك غداً؟ أين سنلتقي؟ بجانب مستشفى جنين، لكن قبل أن تتركي نابلس اتصلي بي!.

كويفا

شابة ايرلندية التقيت بها في فلسطين، ولكن سمعت عنها في جنيف، ثم في رام الله وصلت إلى فلسطين لكي تشارك في الدرع البشري، كانت مع ياسر عرفات في المقاطعة في رام الله أثناء الحصار، سمعت أخبارها في أكثر من مخيم، فهي مناضلة عالمية كانت في غواتيمالا، وفي المكسيك، وزمبابوي، للنضال مع المظلومين من غياب العدالة.

وصلنا إلى فندق كريستال في نابلس على شارع فيصل، دخلنا تاركين وراءنا أزيز الرصاص الذي يطلق على لا شيء، وصراخ الشباب الذين نادوا الحوانيت القليلة المفتوحة أن تقفل أبوابها. زحفت العتمة، ولفت وجوه الناس بالحزن والظلام.

صاحب الفندق ينظر إلينا ببرود لكنه يسأل: « شو؟ انتقموا لعملية ريشون لتسيون«

نعم.

«والله ما أنا عارف لوينتة ياجماعة؟ لوينتا؟»

كنت منهكة، جائعة، الغبار يتساقط حتى من أذني. ولم أكن ارغب في أي نوع من الحديث، فسألته عن سعر الغرفة، وأخذت مفتاحي، وصعدت بعد أن سألته عن توفر المياه في الفندق. فقال: «في كثير».

تركت كمال وأيمن ومحمود في قاعة الفندق، طلبوا قهوة، واعتذرت منهم، ودخلت غرفتي.

فتحت الراديو لسماع الأخبار، قال المذيع: «عمر محمود الطيطي ٢٨ سنة التحق بالأمن الوقائي، وكان ينظم عمليات استشهادية، وهو متهم بتنظيم عملية ريشون لتسيون......».

ربما كانت رائحة البيض المقلي بالزبدة المخلوط بزيت الزيتون أطيب رائحة استنشقها في حياتي بعد نهار وليلة جوع، نشرت قطع الفلفل الأخضر الحلو في نصف رغيف على نصف حصتي من البيض، ثم قضمت بشهية أتحدى العالم بها خصوصا بعد رشفة شاي معطرة بأوراق النعناع الخضراء، لم يكن أحد في المطعم سوانا أنا وكمال، باقي النزلاء تركوا الفندق باكراً لكي يبدأوا رحلة الحواجز ومنع التجول.

علمت أن عدد النزلاء يتزايد أثناء منع التجول إذ تنقطع بهم السبل وخصوصا عندما لا يجدوا يوجد أقارب وأصدقاء. يقول مدير الفندق: «في أيام الاجتياح كانت جميع الغرف مشغولة، وأرضية القاعة (اللوبي) أيضا مفروشة، وجميع هؤلاء مسافرين يضطرون للتنقل بين المدن أو لحاجة في المدينة، مصايب الناس فوائد لغيرهم ... حكمته! »(يرفع يديه إلى السماء).

كويفا ابنة جنين الايرلندية

«بوكر طوف» (صباح الخير) أقول للجندي على الحاجز .

– «بوكر طوف مؤار» (صباح خير منوّر) يضحك، ويسأل عن البطاقات، ثم يطلب أن نخلع النظارات! نستجيب. يدقق النظر. اسأله: إلى متى يستمر الحال على هذا المنوال؟

يرفع رأسه ويقول: «ألم تسمعي بما فعلوه في ريشون لتسيون؟»

نعم سمعت وسمعت ما فعلتموه في بلاطة.

«يوقفوا الإرهاب!»

لكن انتم هنا في ارض السلطة ، انتم هنا، إذاً هناك إرهاب!

«أنا أقوم بعملي فقط».

وهل أنت مسرور لأنك هنا؟

(يجيب بجفاف) «أنا مسرور لأني أقوم بعملي، أنا لا أقرر، إذا قالوا لي عد! سأعود ولهذا لن أعارض، إذا قالوا عد وراء الحدود سأكون مسروراً أيضا!»

ما اسمك ؟

«ايتسيك»

امرني بالعودة إلى السيارة، وانتظرنا، مر أشخاص على الأقدام، أعاد فتاة تحمل ثلاثة أكياس بلاستيكية، مر خمسة شباب، أعاد ثلاثة منهم من حيث أتوا، ومر شابان في مثل عمر ايتسيك .

أقول لكمال: أريد الذهاب إلى الحمام، هل اطلب منهم أن يسمحوا لي للذهاب من وراء ذاك البيت؟ (هناك بيت مهجور كتبت فوقه عبارة « أدوات صحية»)

«لا إسا بطّخوكي ! استني بلكي حنوا ومرقونا».

نادونا، فتشوا السيارة، ثم أعادونا، وعبرنا إلى اليمين. سألنا شاب: «لماذا ذهبتم إلى

هناك؟ كان لازم تروحوا على اليمين بالأول لأنه في حاجز ثاني على اليمين، حظكم مش منيح!». توقعنا شراً من قوله، سرنا واقتربنا من الحاجز الثاني، دبابة في الوسط، مكعبات إسمنتية، دبابة على اليمين.

لا أحد .. لا يوجد جندي واحد، عبرنا ، اسأل كمال: لماذا لا يوجد أحد؟

كمال يتحدث من بين أسنانه: « ما تحكيش! ما تحكيش!».

مررنا. لا توجد سيارة واحدة في الاتجاه المعاكس، خفف هذا من توترنا ،ولم نر أي سيارة حتى قرية سيلة الظهر، ولكن أيضا في قرية عجة لا أحد في الطريق! بدت الأرض مهملة والحشائش البرية غطت أشجار الزيتون. بعد قرية المنصورة التقينا بأربعة شباب أخذناهم معنا إلى جنين. سألناهم لماذا لا يوجد أحد؟ ولماذا أهملوا الأراضي؟ قال أحدهم: «اللي بينزل على أرضه بيقتلوه!! من ثلاث أسابيع قتلوا طفلين من«عرّان» كانوا يلقطوا ورق عنب مع أمهم! (أشار بيده إلى جانب الطريق) هذه البامية بتظل تتحوّش لشهر آب، هون قرية الشهداء، هون في نصب تذكاري للشهداء العراقيين اللي سقطوا في حرب ١٩٤٨ سموها هيك عشانهم! ومن هوني دخلوا قباطيا، كان اسمها مثلث الشهداء لكن لما سقطوا في جنين عاد سموها قرية الشهداء العراقيين . «

قاسم ودعنا ونزل في وسط جنين حيث دلقت الكراجات محتوياتها على الشارع الرئيسي الذي زرع رغم هذه المشاهد بالأشجار الجميلة، أحد الشبان الذين بقوا في السيارة شبّه هذا الشارع بشارع المطار لجماله. لولا آلاف العجلات المنتظرة دورها للتصليح.

توجهنا نحو مستشفى مخيم جنين كانت هناك جمهرة هناك لا تبشر بالخير، سألنا عن السبب وبطل العجب عندما قالوا: « شهيد ... شهيد ... خالد محمد زكارنة من دير غزالة، جابوه إمبارح على الثلاجة واليوم جايين ياخذوه (أتوا ليأخذوه)».

كيف استشهد؟

تبرع أحدهم وقال: « استشهد في اشتباك مسلح في سيلة الحارثية، انتم منين جايين كان في كل هذيك المناطق منع تجول». وصلت سيارة تندر صغيرة اعتلتها المكبرات الصوتية والأعلام، وصدحت منها موسيقى وطنية .. الصقوا على السيارة صور لعشرات الشهداء يحملون الأسلحة بأيديهم ويقفون وكأنهم خرجوا من أفلام هوليود الحربية، صورة للشهيد إياد محمد حردا وقف في مواجهة الكاميرا يحمل سلاحين وكأنه رامبو وصورة أخرى لثلاثة شهداء بدوا وكأنهم يمشون في صورهم العريضة وبنظرات ثاقبة يختلج لها الناظر، أما الخلفية فمحجوبة بضباب مصطنع.

وقفت أنتظر كويفا، التي ما أن لاحت بقامتها الطويلة وقميصها البنفسجي وبنطال جينس، حتى اقترب منها شباب ونساء يسلمون عليها، أما الأطفال مع الأعلام فصرخوا لها محيين: «كويفا ..كويفا هالو كيف حالك؟».

وقفت لألاقيها ولكن اعترض طريقها فتيات غربيات عانقتهن بحرارة، تقدمت لأعرف بنفسي وانقل لها تحيات والدها، تبتسم، يمنعها من رؤية ابتسامتي احتضان آخر من طفلة جنينية، بعد جهد أجد ليدها طريقاً ولكن سرعان ما أصبحت جزءاً من المجموعة، نتفق أن أبقى معهم،

صعدنا في تندر وتوجهنا لإحدى المدارس في جنين. تعلّق بعض الأطفال بالتندر، كويفا تقف وتساعدهم على الصعود.

آنا، الشابة الأسبانية، تشرح ما يقمن به من نشاطات مع الأطفال في المخيمات. كنّا نخترق دمار مخيم جنين، صوت أزيز رصاص انطلق من الجنازة، كويفا تعلق على صوت الرصاص وتقول: « سيستهلكوا الرصاص القليل المتبقي ».

منال فتاة من نابلس تتحدث بالهاتف رغم المطبّات التي تعترض السيارة، والرصاص الذي يدوي، والنقاش الدائر بين الخمسة عشر فردا ممن ركبوا التندر. وصلنا المدرسة وما زلت أفكر بالدمار الذي مررنا به مر الكرام، احترت من اللامبالاة هل لأنهم يرونه كل يوم؟ أم انه أصبح جزئاً من مناظر المخيم. وصلنا عند انتهاء اليوم الدراسي أي في الثانية عشرة، هذه هي المدة التي تسمح بها ميزانيات الأونروا لتعليم أطفال فلسطين وما تبقى من ساعات النهار يهيمون في الشوارع أو يبيعون العلكة.

أحاط بنا الطلاب والطالبات بملابسهم الخضراء والزرقاء المخططة التي لبسوها فوق بناطيل الجينس، التصقوا بكويفا وامسكوا يدها، معلنين حبهم الشديد إليها . بيتر بدأ بعرض ألعابه السحرية، تجمع حوله فريق كبير منهم، والجزء الباقي خصوصاً الفتيات الصغيرات تقاسمن منال وآنا وإميلي وكويفا، حتى أنا طالني الحظ بعدد منهن إذ أحاطت بي مجموعة منهن تعرفت على أسمائهن بسرعة: أنعام بسام، ورهام حسين، وعرين حواشين وأريج شلبي، وعاصفة محمد، ابتهال احمد،ووفاء. إنعام تسألني أن أنام عندها. أسألها : لماذا؟ فترد: « عشان نصير صحاب!! »

سألتهم عن الاجتياح، قالت أنعام: « إحنا وصلوا عنّا الساعة ثلاثة على وجه الصبح، طقطقوا عالباب، دفشوه، نزلونا وحطونا بالمطبخ وظلينا هناك». تقاطعها وفاء: « واخذوا الناس وجمعوهم وفتشوهم، كانوا الشباب عريانين (عراه) من فوق وحافيين كان واحد منهم مصاب، ومخلوش حدا يساعدو، حطوا الأولاد الصغار لحال (لوحدهم) والنسوان لحال، والرجال الكبار لحال ... أجا عنا ناس بدهم يشربوا بس ما كان عنّا مية» (ماء).

إيريس تحشر نفسها (رغم خجلها المفرط وتساهم في الشرح) وتقول: « إحنا حبسونا بشقة اخوي ثلاث أيام، مكانوش يخلونا ناكل على راحتنا، وسكروا علينا الباب بالمفتاح .. ولما أبوي سألهم يسمحولو يطعمي الفرس، مخلوهوش ... شكلهم بخوّف، وسرقوا من عنا بلفون ومصاري .. وعجبّوا (دمروا) على الدار وبعدين راحوا ».

عاصفة، اسم على مسمى، تتحدث كالعاصفة وتتحرك كالعاصفة فتقول: « هُمّ هُمّ بخافوا من طيراتهم إحنا منخافش، شو ما عملوا فينا، اللي عملوه فينا راح نعملوا فيهم وأكثر! بيجي يوم والله شاهد لأنه الظالم يدفع الثمن غالي!. ». كم عمرك يا عاصفة ؟

« أنا عمري ثلاثة عشر سنة. »

أنت بتحبي السلام؟

« أنا كنت أحب السلام، هالكيت (الآن) لا، أنا بحبش السلام، لأنهم بيكذبوا، إحنا عملنا

سلام مع رئيسهم الأولاني رابين، راحوا مزعوا (مزقوه) السلام، مزعوا الاتفاقيات واحدة ورا واحدة، وأنا بحبش الدول العربية، إن شاء الله يصيرحرب، وإسرائيل تحتل الدول العربية وهذا راح يصير أكيد عشان يذوقوا من اللي ذقناه، ويذوقوا خوف العذاب، يذوقوا مذلة الاحتلال، ويذوقوا الوحدة كمان».

الوحدة ليش يا عاصفة؟

«لأنه إحنا لحالنا، عايشين بوحدة ما حدا بيساعدنا، كل الناس بتحكي عنّا وما حدا بيتحرك، إحنا عايشين أكثر من وحدة، الفضائيات هذه لو انحلت مشكلة فلسطين غير تسكر (تقفل) من ثاني يوم الصبح، لأنه فش عندهم أخبار غير إحنا، أنا بحبش لما يحكوا عنا بالفضائيات بشعر انه إحنا صرنا بجنينة حيوانات، بزتولنا كشر (قشر) موز وفستق وبيروحوا على دورهم يحكوا عنّا عاملين إسلام ومتشددين في الدين؟؟».

بدأت حبات عرق صغيرة تبرز على جبين عاصفة وتتدحرج ثم تجف في حر جنين، نظرت إلى عاصفة بحب جم شعرت به، احتضنتني وقالت: « بتحكّموا فينا زي ما بدهم، زمان كنا نروح رِحل(رحلات) على منتزهات أريحا لما يكون عيد؛ ولا عمرنا عيّدنا...نسيت العيد»

عاصفة : « لوينتة ؟ لوينتة؟ (إلى متى)، إحنا زهقنا الحرب، بدنا نعيش بدنا نروح رحل، مشاوير، بدنا نعيّد أنا بدي البس فسطان جديد وافرح يوم، بس يوم. » ترفع إصبعا واحدة لتؤكد على اليوم الواحد .

بيتر انتهى من ألعابه السحرية وتجمع الأطفال حول اميلي وآنا ومنال لكي يرسمن فراشات ملونة وورود حول وجوههم، وقلوب حمراء على الأيدي، كنت أقف بجانب إميلي، تتحدث بالعربية، يسألها طفل أن تكتب له سرايا القدس على يده، إميلي تقول:« لا؛ ارسم لك قلب هُب (حب) اهسن (أحسن)». الطفل يقول: « لأ .. لأ، بدي سرايا القدس». إميلي لا ترد عليه، وترسم له قلبا احمر على يده، يغضب الطفل منها، يتناول حجرا من على الأرض ويقذفه نحوها.

تقدمت وأنبّته وقلت له: ليش هيك؟ إميلي توقفني بيدها وتقول بالعربية: « بسيطة، لأ خليه يطَلِّع الشر من حاله بعدين بصير أهسن (أحسن) لازم يطلع الشر عشان هو ملان زعل».

أماني ابنة نابلس جلست في إحدى الخيم التي نصبتها الأنروا للذين تهدمت بيوتهم في مخيم جنين ولكن رفض هؤلاء السكن فيها، لأنهم لا يريدون العودة للخيم مرّة أخرى ليبدأوا من الصفر فتُركَت هذه الخيم مغلقة ما عدا القليل منها تستعمل في تجمعات نادرة من هذا النوع.

أماني شابة تتجول في المخيمات مع بعض شباب نابلس وعدد من الأجانب للترويح عن الأطفال، عندما دخلت كانت تقول: « يا الله كأنهم مش أطفال، كأنهم عواجيز خجلانين يكونوا أطفال ويلعبوا، نسيوا حقهم باللعب نسيوا.. يخافوا أن يقولوا إحنا خايفين». أماني، ربما في الخامسة والعشرين، سمراء تتحدث من وراء نظارات مستديرة وتنظر في جميع الاتجاهات ولكن وجهها يحافظ على هدوء عجيب .

سألت أماني: منذ متى وأنت تتنقلين في المخيمات؟

«إحنا مجموعة من شبيبة نابلس بدأنا بالتنقل بالمخيمات بعد الاجتياح، وكل مرة ينضم لنا ناس جداد بدهم يعملوا شي، إحنا بدناش فلوس، منقدم اللي معنا اللي معنا هو ضحكة وبسمة لعيون هؤلاء الأطفال».

إميلي تضيف: «أنا أجيت أسبوع قبل الانتفاضة، يعني من سنتين تقريباً للتدريس في جامعة النجاح، أنا بحب هؤلاء الناس لأنهم لحالهم، وبعدين ليش لأ؟ أنا شو بعمل في أسبانيا؟ أطفال أسبانيا مش بحاجة لي وأنا بتعلّم عربي بنفس الوقت» (إميلي تستمر في الشرح) بيتر وألعابه السحرية طوّرت الفكرة ووسعت من الاهتمام بمجموعتنا. (بيتر سمع اسمه يتردد أكثر من مرة ولكنه لا يستطيع التعبير بالعربية مثل إميلي وكويفا فقال باللغة الإنجليزية: « أنا لدي نافذة انترنت وأريد أن استعمل المعلومات التي أشاهدها مع الصور التي التقطتها لأقول للعالم كم هو الاحتلال ظالم وأيضا ليبقى عذاب هؤلاء الأطفال في الذاكرة. أنا اعمل مع الأطفال في أسبانيا، ولكني لم أر، ولم اعرف أن الأطفال يختلفون، هنا لديهم نشاط رهيب وقدرة على الحركة، وهم يستمتعون أكثر من الأطفال في أسبانيا بما أقدم لهم، هؤلاء الأطفال يعيشون ظروفاً غريبة ولمدة طويلة يولدون فيها ويتزوجون فيها وينجبون أطفالا مثلهم يحملون ذاكرة آبائهم وأجدادهم ويعيشون من خلالها، أنا لست محللاً نفسياً ولا افهم الكثير في هذا المجال ولكن شيء ما يقول لي أن أطباء العالم يجب أن يدرسوا هذه الحالات».

كانت أماني تصغي باهتمام لما يقول بيتر وقاطعته بالعربية قائلة:

« المشرب ليس بعيداً
أنت كالاسفنجة تمتص الحانات ولا تسكر
يحزنك المتبقي من عمر الليل بكاسات الثملين
لماذا تركوها هل كانوا عشاقاً
هل كانوا لوطيين بمحض إرادتهم
كلقاءات القمة؟ »

يصفق الشباب والاطفال لأماني وأحدهم:« يصيح الله عليك يا مظفر النواب». الأطفال يصرخون :« يا عيني يا عيني ».

سألت كويفا هل أنت معهم؟

فترد آنا: « كويفا حزب لحالها، مشهورة في بلاطة وجنين».

يضحكون من قلب صافٍ بعد أن هدأت الضحكات أماني تنشد :

«سبحانك كل الأشياء رضيت
سوى الذل وان يوضع قلبي في قفص السلطان
وقنعت أن يكون نصيبي في الدنيا كنصيب الطير
ولكن سبحانك حتى الطير لها أوطان
تعود إليها وأنا ما زلت أطير.

(تعلوا أصواتهم جميعا مع أماني)

(فهذا الوطن الممتد من البحر إلى البحر سجون متلاصقة سجان يمسك سجان).

تصفيق حاد وتصفير وضحك، أماني تنظر بفرح إلى المرح الذي خيم على الجميع رغم حقارة المكان الذي نجلس فيه، تقول لي: « المشكلة بدءوا يتعودوا على كل شيء، منتعوّد على الهدم وعلى قطع المي والكهرباء منتعوّد على السجن، منتعوّد ... ليش منتعوّد؟ ليش مصيرنا نتعوّد ؟ وليش الناس بتشوف انه عادي نتعود ؟ إحنا كلنا حالات مريضة جسدياً، مريضة نفسياً، وينتظرنا مستقبل مريض، وقرار سياسي مريض وملغوم.. مريض بسبب ضغوط سرية لا نعرف عنها، ولكن نعاني منها، نضرب، نسجن، نجوع، نموت بسببها. ولكن أثناء ذلك الشباب وأنا راح نشتغل بدنا نساعد لأنه إحنا محتاجين انه نساعد لكن أصحاب القرار بيقرروا لأنهم يحتاجون لممارسة الألم فينا وفي أجسادنا بسبب ضغوط سرية غير مرئية».

وتختم أماني حديثها وإصبعها الشاهد إلى أعلى: « ويهذي راسك بين يديك بشيء يوجع مثل طنين الصمت، ويشارك الصمت كذلك بالهذيان».

|

امرأة توقف كويفا تعانقها بحرارة، تمسك بيدها تقول لها: « نامي عندنا الليلة يا كويفا! ترد كويفا عليها بالعربية: يمكن، مش عارفة!».

تودعها المرأة ثم تواصل كويفا حديثها: « كان الطعام قليل في المقاطعة لكن ليس بندرة الطعام التي عانى منها أهالي مخيم جنين. هنا كان الناس يجوعون لأيام ولا أحد يعرف عن ذلك، سجنوهم في بيوتهم وفي المدارس، ناموا دون غطاء والشباب سهروا ليالي راكعين مربوطي الأيدي إلى الخلف عراة، كنت اشعر أن جسدي سُجِن في المقاطعة لكن روحي كانت هنا مع أهالي المخيم، حاولت الخروج بعد اليوم الثالث لأني أحسست أن هناك لعبة يلعبونها يحاصرون المقاطعة، ولكنهم يقتلون أهالي المخيم، كنت أفكر في الناس في أصدقائي في جمال الذي قتلوه، ليتني كنت هنا لأحميه بجسدي لأن جمال صوت من أصوات فلسطين، صوت مليء بالإنسانية، أنا حزينة لأني كنت شجاعة في المكان الخطأ. أنا لا أخاف الموت أو من الرصاص، لأن الخوف من الموت ومن الرصاص يحد من إمكانية العمل، في أحد الأيام رأيت ثغرة عندما كان الجنود يدخنون السجائر، ركضت، مررت بهم مع علم ابيض وخرجت وسجائرهم ملتصقة بشفاههم، اصطدمت بدبابة، اختبأت وراء سيارة مقلوبة، هددوا بإطلاق النار، ولكن لم يطلقوا النار، وركضت .. ركضت حتى قابلتني سيارة إسعاف أخذوني معهم وخلال يومين كنت في جنين، حيث وجدت أصدقائي قد نزفوا حتى الموت، هذا مؤلم، مؤلم، استمعت إلى قصصهم ... أم ابتعد عنها طفلها راكضاً وضعوا السلاح في فمه وسألوها بأي طريقة تريد أن يقتلوه؟ اشعر بالذنب لأنني لم أكن موجودة هنا وهذا يؤلمني، الشعور بالذنب يؤلمني ويخيفني أكثر من الموت وأكثر من الرصاص، مريم وطفلها نزفوا حتى الموت، حملت طفل مريم وركضت نحو المستشفى ولكنه مات ... ومات جزء مني ومن الصعب أن استمر دون هذا الجزء الذي مات معهم.

لو كنت هنا لما اختبأت كالفأر، لتجولت وصرخت قضية ايرلندا وفلسطين متشابهتان إيرلندا أول مستعمرة بريطانية وفلسطين آخر مستعمرة بريطانية، وفقد الكثير بسبب بريطانيا أولاً والصمت العالمي ثانياً».

هل تحبين الحياة يا كويفا؟

«نعم كثيراً أنا ابحث عن الحياة الحقيقية والبحث عن الحرية موجود هنا كما هو موجود في المكسيك وفي غواتيمالا، وأنا أحب أهلي وأهلي يحبونني، ولكن امتحان هذه الحياة هو الأصعب، أن استمر في العيش مع التفكير أن العديد من أصدقائي ماتوا. لكن عزائي أنهم ماتوا من اجل الحرية».

عندما التقيت مع توم والد كويفا في جنيف حكى لي قصة عن كويفا في زيمبابوي، عادت من المدرسة في اليوم الأول وقالت لوالدها أنها تعرفت على صديق لطيف جداً وأحبته، سألها إذا كان اسود أم ابيض؟ نظرت إليه محاولة التذكر وقالت: «لا ادري! ولكن سأتحقق من ذلك في الغد، وسأقول لك». وعندما لاحظ دهشتي قال لي: «هكذا يجب أن نكون». حكيت لكويفا هذه الحادثة وسألتها إذا كانت تذكرها؟ .

«لا ادري إذا كانت الحادثة معي أو مع أخي الأصغر، ولكن نحن جميعاً هكذا وهذا بفضل والدي وتربيته لنا».

هل تعرفت على الإسرائيليين ؟

«تعرفت على مجموعة من حركة السلام، التقيت بناس طيبين ولكن أحياناً مخيبين للآمال لأنهم افتقدوا الحب، إنهم فقط حركة للسلام دون حب، أنها تشبه الحزب السياسي ولكن السلام لا تصنعه السياسة، السلام يُصنع بالحب لأن الحب هو الدليل على الرغبة الصادقة وللأسف لا يمكن أن نصنع الحب فالحب جزء منا، يجتاحنا ويؤثر على قرارنا وعلى أعمالنا أنا متأكدة لو عرف هؤلاء الحب للآخر لضاعت الفروقات والاختلافات واقتربت الآراء».

«لكن استبدلوا الحب بالعولمة يخلطون المعاناة بالمادة والربح الذي يزيل الحدود وهم مقتنعون بذلك أن لهم قلوب مصنوعة من الصلب والمادة وهذا شيء مخيف ... كيف سيزيلون الفقر أو حتى كيف يقللوا منه؟.»

«هناك جنود أعطوا بعض الحلوى للأطفال وهذه القصة يرددها الناس، ويحبون إعادتها لأنها تعطيهم الأمل ليؤكدوا لأنفسهم بان الوضع غير مظلم تماماً. هؤلاء الجنود هم ذاتهم الذين تركوا آباء هؤلاء الأطفال وأشقائهم ينزفون حتى الموت».

سرنا بمحاذاة شيء يشبه الخيمة .. رُفِعت على عصي مكانس وقطع حديد أُستُخرجتْ من البيوت المدمرة، أما القماش فكان عبارة عن بقايا حرامات مخططة ومربعة، جلس تحتها رَجل في الخمسين من عمره افترش فراشاً أخفى لونه الغبار الذي يصله من الردم المتكوم على بعضه، ومن سيارات الشحن التي تنقل حطام البيوت، وكلما مرت سيارة شحن يتغطى بالغبار حتى أذنيه .

تعجبت من إصراره على التواجد هنا، وسط هذه القذارة والرائحة المتعفنة المنبعثة من جثث

غير مرئية ولكن يثبت وجودها رائحة رهيبة، سألت كويفا من هو؟ قالت :« يحيى الهندي».
اقتربنا منه دعانا للجلوس وقذف لنا بفرشة كانت يوما من الأيام برتقالية اللون مصنوعة من الإسفنج الرقيق، جلست أنا وكويفا متقابلتين، سألته: لماذا أنت هنا؟

«شايفة هذه الطريق وين السيارة بتمرق كان بيتي، طلعنا من البيت مش واعيين على حالنا تركت فيه الخمسة وعشرين ألف دولار، حيلتي وشغل عمري وحياتي ... وقاعد احرسهم لما يصل دور بيتي وينبشوه بلكي على الله لقيتهم، ما أنت عارفة، شغل فش ! ولا راح يصير، ولادي مشردين هون وهون إذا ما لاقيتهم الله يعوض شو بدي اعمل؟ نصيبي هيك !».

كان الرجل يعرف كويفا فقال: « آه والله لو بيدي (لو أستطيع) غير اطلعلها جواز سفر فلسطيني، وأجوّزها لفلسطيني، كويفا لطيفة وطيبة وقلبها مغارة حب، قديش اسمها صعب لكنه قد ما بحبها صرت اعرف اردده (كويفا تضحك) أو بنزوجها أبو عمار!».

كويفا تعترض: « لأ، ابداً مش ممكن، أنا بدي أتجوّز الحاج علي لما يطلع من السجن « (في هذه الأثناء تجمهر حولنا بعض الأطفال وشاركونا ضحكنا).

تابعت كويفا بالإنجليزية – «الناس هنا بسطاء يحبون في بساطة، يستضيفون في بساطة وهم شجعان، لا يحبونني كشخص كويفا، يحبونني لأنني معهم أعيش تعبهم ... الناس متعبة هنا، كل يوم يسقط شهيد، لا يوجد أمان في البيت ولا في المدرسة، لا يوجد مكان آمن يحميهم من الموت لذا ترين تلك الاستهانة تقريباً بالموت لأنه يصاحبهم في كل مكان وهذا شيء مرعب ... جرائم حرب ترتكب واتفاقيات جنيف تخترق والمجتمع الدولي عاجز عن قول كلمة كفاية».
«إسرائيل طحنت مخيم جنين وطحنت الشعب الفلسطيني وسوتهم بالأرض، مثل هذا الدمار ... سوتهم بالأرض، ولا أحد يقول لا ... لا أحد يقول كفى، كفى».

«ذات يوم ادعيت أنني صحفية وسالتُ احد الجنود عن عدد الضحايا في جنين فقال: « ثلاثة وعشرون إسرائيليا واثنان وخمسون فلسطينيا». قلت له: ولكن عدد الجنازات التي رأيتها يزيد عن هذا الرقم! فقال: «يقومون بجنازات مزيفة » ثم طلب مني أوراقي وعندما أخرجت جوازي الايرلندي، قال لهذا أنت لا تخافين منهم لأنك ايرلندية ... إرهابية مثلهم .. واحتجزوني لمدة تسع ساعات».

وماذا بعد؟ هل ستبقين هنا؟ (سألتها)

«لن أعود الآن لأنني اشعر أنهم سيجتاحون بلاطة وجنين مرة أخرى وأخرى وهذه المرة سأكون هنا، لكن عندما اطمأن سأعود إلى ايرلندا ، اعتقد أن ايرلندا ستسمعني لان هناك شعب مر بنفس الظروف، ومهم جداً أن أتحدث مع الايرلنديين لأنهم يتواجدون في كل مكان في الولايات المتحدة، وهم لم ينسوا العذاب والجوع أو الفقر الذي عانوه بسبب الاحتلال البريطاني ... ولدي أمل في شعبي الأيرلندي.»

ودّعنا يحيى وتركناه في خيمته يحمي الخمس وعشرين ألف دولار وأمله بالعثور عليها، واخترقنا أشلاء حارة الحواشين المدمرة عن بكرة أبيها، صعدنا على أكوام الحديد والأسمنت ودسنا

على عجلات مكسورة، سرنا نحو حافة الحارة، أشارت كويفا لبيت وقالت: « بيت أم صبحي » لوَّحت لنا شابة من البيت ودعتنا إلى بيتهم المشرف على حارة الدمار.

أم صبحي من حيفا رحلت عنها في حرب ٤٨ ، كان والدها يعمل في شركة «شل» (شركة نفط قرب حيفا) تقول عندما رحلت عن بيتها كان عمرها سبع سنوات وهي تعتقد أنها الآن في الخامسة والستين، قلت أنها في الستين، فقط. فاستغربت وقالت إن شعرها ابيض بالكامل، ولم يسرُّها الأمر الذي زاد من استغرابي فسألتها عن السبب. قالت: « ما سعدت بيوم واحد في عمري ... من يوم ما تركنا بلد الشيخ جنب حيفا واجينا على جنين، وبعدين رحنا على عمان، لاقيناهم ناصبين للناس خيام ورجعنا وما قبلنا نعيش بالخيام، رجعنا على سيلة الظهر، بتنا ليلتين عند ناس ورحنا على قباطيا وبعدين على مخيم الشهدا ، مش على المثلث لقدام شوي، بقوا العراقية والسوريين مرابطين هناك بأيام حرب ٤٨ ، وبعدين يا حبيبتي أثلجت هناك علينا الدنيا ثلج كثير حتى اسمها لليوم سنة الثلجة الكبيرة، عاد رحنا على جنين وحطُّونا في الجامع (المسجد) ردّوا حَمّلونا على مخيم نور شمس جنب طولكرم، أبوي و أمي ماتوا هناك ... جوَّزوني عمري كان خمسة عشر سنة لواحد زلمة (رجل) كبير كان عمره ثلاثين سنة، جابني هان، كان هان محطة ترين، حطونا فيها وسموها مخيم، وعشان كان جنب جنين سموه مخيم جنين، كان عنّا خشتين (تخشيبتان) وصرت أنا وأبو صبحي نشتغل بالخضرا ، خلفت ولدين وعشر بنات راح منهن أربعة، وهاي دار الزمن يا بنيتي وعادوا اجو اليهود وقعدوا هون في الدار، كان لايذين (محتمين) فيها ناس من الحارة اللي شفتيها مدمرة، كان يحتمي هون ستة وثلاثين شخص واجوا الجنود ، طبوا علينا وعليهم، وحطونا في غرفة المطبخ، على بعض، والله تسعة أيام سكروا علينا وحشاك (أي دون المقام) إذا بدو الواحد يطلع على الحمام ندق لهم يمشوا ورانا بالسلاح ويخلوا الباب مشقوق عشان ما نساوي شي، كان عنا شوال رز وزمان كان ابني يتاجر بصحون الورق، وأقول له يامه من شان الله شوفلك صرفة بكوم هالصحون، ابداً لا يرد ولا يصد، عاد شوفي والله استعملناهم بالتسع أيام».

ابنة أم صبحي تقول ضاحكة لكي تقاطع والدتها: «كان في راس ملفوف...».

لكن والدتها سدَّت عليها المحاولة بنظرة كالسيف جعلت ضحكة البنت تتراجع إلى حلقها واحترقت شوقاً لمعرفة ما هي قصة الملفوف ولكن نظرة أم صبحي الحادة جعلتني أتراجع.

وأكملت أم صبحي الحديث: «بعد تسعة أيام طلعوا من عنا ورحنا سلمنا حالنا في الجمعية جنب المدرسة كان حوالي ألف، ألفين شخص، فصلونا عن الشباب، شلحوهم بناطيلهم وقالوا ديروا ظهوركم فكرنا بدهم يرشونا زي ما رشونا في الثمانية واربعين، لكن الله ستر وحط بقلبهم رحمة، وبعدين هوَّدنا على المقاطعة (مقاطعة جنين) قعدنا وقعدنا ، بعدين قلنا أي هي طويلة، ظلينا نازلين لتحت، وصلنا على روضة ومخيطة فيها كان دكاترة، عشونا سردين ومرتديلا، كنا ميتين من الجوع، قعدنا هناك خمستعشر يوم، كنا ننام إجرين على روس، لما صاروا يطخوا طلعنا » ابنة أم صبحي تقول: « ما هو الحق على الأولاد صاروا يقاهروا فيهم ويرفعوا علامات النصر»، أم

صبحي تتابع بلا اهتمام لما قالته ابنتها: «بعدين سمعنا انه عرب الثمانية وأربعين بيجيبوا أكل على الجمعية، ما قصّروا، وما وقفت عن ذكر الله، أقول يا الله أشفق علينا، امشي والله شاهد أشوف هالاميّات (الأمهات) يسألن عن أولادهن، هذيك تقولي: «مشفتيش خديجة ؟» وهاي: «ما شفتيش رشيد وعايشة؟» .. عاودنا أنا و أبو احمد رجعنا على الدار وقولنا هاي إحنا هون واذا نصيبنا نموت بنموت شو منعمل؟»

صعدت مع ابنة أم صبحي إلى الطابق الثاني والثالث لكي تريني الدمار الذي ألحقوه بشقق أشقائها، بدت الغرف وكأنها مهجورة منذ سنوات إذ حط الغبار في كل مكان وبدا الأثاث آيلا للسقوط. نظرت من شباك الطابق الثالث رأيت حفرة خمسة آلاف منزل تهدمت فوق الأجساد وفوق الممتلكات، قالت لي ابنة أم صبحي أنهم كانوا يبولون على الثياب وعلى الشراشف، الرائحة لا تطاق، كنا نهرب للخارج للتنفس وهناك تطاردهم رائحة أخرى ... رائحة الأجساد المتعفنة. ولكن ما زلت احترق فضولاً لمعرفة ما هي قصة الملفوف فسألتها عن القصة، قالت ضاحكة: وقد نسي وجهها الهم: «هاذا أبوي كان جايب راس ملفوف يوم قبل الاجتياح عاد وأجا ووزع علينا راس الملفوف وكل واحد طلعلوا ورقة ويا دوب، ولكن الملفوف اشتغل شغله بها البطون وهات يا غاز هون وغاز هناك .. عاد شو نتأفف، قسمنا حالنا النسوان الكبار في زاوية، وإحنا البنات في زاوية، ونصير نقول للختايرة أنتم روائحكم أكثر من روايحنا .. عاد هم يصيروا يدافعوا عن حالهم وإحنا نضحك ونضحك والجنود يصيروا يطبّلوا (يدقوا) علينا عشان نسكت، وإحنا مش قادرين، فلت علينا الغاز والضحك، وهذاك ابن عمتي يقول: « ولقد أطلقوا على أهالي جنين قنابل غازية مسيلة للضحك والدموع ... وإحنا تقطعت بطوننا من الضحك، وكل ما ييجي جندي يصيح علينا يزيد ضحكنا بزيادة والله رحنا نموت و إحنا نضحك» – تتلذذ لذة المسرور وتضع يدها على بطنها من الضحك.

نزلت من الطابق العلوي ووجدت أم صبحي تتحدث مع كويفا عن « ثورة » ابنتها البكر التي ذهبت لعمان مع أبو صبحي للعلاج هناك. كويفا تقول لي أن ثورة تعمل قابلة ... وكانت تمشي وراء الجنود وتحاول التقاط الأعضاء التناسلية وتخفيها لكي لا يشاهدها أحد لان هذه عورة، وثورة وجدت جسد طفل ووضعته في صندوق أخفته على السطح إلى أن خرج الجنود وذهبت لتدفنه لأنه ممنوع دفن الموتى في البداية.

نستأذن من أم صبحي التي تقبلني بحرارة وتقول: « أنت ريحتك فيها أهلي، مش عارفة ليش، وكويفا هي الرمق الطيب اللي منبل ريقنا فيه» تدمع عيناها تلوح لنا ونذهب لنخترق زوابع من الغبار.

نذهب إلى زيارة بيت أم قصي وأم شادي، أم شادي جلست أمام بيتها على كرسي خشبي، تقف أم شادي باسمة تفتح ذراعيها لاحتضان كويفا التي لم تتردد في الارتماء في حضن طري دافئ. جلسنا في بيت نظيف، مغرق في نظافته حتى التناقض بما يحيط به من دمار وغبار ورائحة وضجيج. جلست عند حافة الشباك، كانت صخرة بلاط تربض في وسط ساحة الدار

الصغيرة. في فجوة في وسطها نبت النعناع. قالت أم قصي: « إن شاء الله الأحوال بتمرق و منعمر هون ومنقيم (نزيل) هذه البلاطة من هون».

قلت لها : أنها جميلة. تضحك وتقول :« نْسَكِن البلاط وإحنا وين نروح؟ ».

تسمعنا جارتها تطل من فوقنا تماماً وتقول :« تبني لشو؟ للاجتياح؟ ».

أم قصي تحيي الجارة وترفع يدها إلى السماء مستهينة وتقول: «هذه هي الدنيا! »

نعود ونجلس مقابل أم شادي التي تقول: «والله إحنا ما هوَّدوش تَلانا (أي لم يأتوا ناحيتنا) بس شو طبو علينا خمس عِيَل (عائلات) ننام ونوكل ونشرب مع بعض شو بدنا نعمل؟ حتى نقول خلونا ننام مع الناس أحسنَ ما نموت لحالنا ...أنا أولادي الثلاثة اختفوا بالاجتياح بعدين عرفنا انه اثنين منهم انحبسوا والثالث معرفناش له اثر، بعد كم أسبوع شادي راجع».

نشرب القهوة وأم شادي تقنعني أن اذهب واغسل وجهي ويدي واسرح شعري ثم تضيف ضاحكة :« شكلك كأنك طالعة من مغارة في الحواشين».

اذهب معها اسرح شعري اغسل وجهي ونودعها وعند خروجنا تسأل أم شادي كويفا أن تأتي لتنام عندها الليلة ... كويفا تقول :« يمكن، مش عارفة ! »

نتجه نحو حارة الذهب أو جورة الذهب أقول لكويفا: حارة الذهب أم جورة الذهب؟ فترد ضاحكة: «جورة الذهب في حارة الذهب».

في بيت رشدي عبد الخليل يقول لنا رشدي: «ثلاثمائة وستة وخمسون دار، طيب إحنا ثلاث طوابق يعني ثلاث دور بيحسبوها هذه الدار دار واحدة؟ طيب الدار اللي تحتنا مش صالحة للسكن، وفي خلاف على خمسين دار، والعراق بدهم يعوضوا ثلاثمائة دينار ، يعني دور محروقة بيعتبروهاش مدمرة؟ طيب من وين الناس بدها تجيب تصليح أساسات ومنجور ودهان؟» (شاب يتدخل في الحديث) قائلا: «أنا لي دار خلصتها السبت هدوها الثلاثاء، بكيت، كنت بدي (كنت أريد) أتجوز بعد كم أسبوع، امبارح كان عرسي لو ما صار هذا الاجتياح، قال بدهم يعطوني خمسة وعشرين ألف دولار عن الدار، صاحبي إياد أبو فرج أول يوم تجوز كان الاثنين، يوم الثلاثاء الصبح انهد بيته، هو وعروسته تشردوا! قالولهم يروحوا على خيم الأنروا، ماقبلوش يروحوا ... خايفين يروحوا أحسن ما يظلوا هناك مؤبد، هسة قاعد بعمارة الترزي».

«دارنا آخر دار في الحوا شين تلا بيت (قرب بيت) أم صبحي اجو علينا وطلعنا من ورا (من الخلف) وإذا هم قدامنا، أخذونا... أعطيتهم هويتي وقلت لهم أنا بدي أتجوز وعندي شغل، زتوا الهوية، وكلفني اطلع واحدة جديدة ٤٠٠ شيكل، وربطوا ايدينا لورا وقعدنا ليالي وأيام، خمسة أيام، خامس يوم طعمونا شقفة خبزة وزرين بندورة ... قاعدين بهالشمس في معسكر سالم بطلع متين واحد (مائتان) أنا بقيت مع أخوتي الخمسة بس عمنه (لأنه) كان ممنوع نتحرك معرفتش إنهم معانا ... إلا بعد ما زتونا وروحونا التقيت معهم بمخيم رمانة».

رشدي يستعيد حقه في الحديث يقول: « أنا بكيت (كنت) اشتغل بالخضرا من بداية الانتفاضة، وهسه (الآن) كاعد (عاطل عن العمل) مشكلتنا مش الأكل ... في تموين مشكلتنا فش مصاري،

يعني إن طلب مني ولد شيكل معيش أعطيه».

صمت الجميع ، كان إيهاب الصغير يجلس في حضن كويفا ، جلسا على كنبة لونها احمر قان معدة لشخصين، عليها نقوش ذهبية، بدأت الألوان غريبة في مخيم جنين، لا تمت بصلة للناس الذين يستعملونها. رشدي يقطع الصمت ويسأل كويفا: «وين النومة؟» قالت: «عند أم حموده».

سألها عن شيفس مور، التفت اليّ قائلا: « شيفس هي رقم واحد في المخيم، كانت بغياب كويفا قايمة بالواجب تمشي تحت الرصاص حاملة مية وحاملة أكل ولا ترد على الجنود ...» ثم يلتفت لكويفا ويسأل :« من وين هي؟ من راس الحية (الأفعى)؟»

فتقول كويفا: «آه». أسالها ماذا يعني راس الحية؟

فتجيب: « يعني أمريكا»

خرجنا من عند رشدي مع المغيب، سرنا عائدين بمحاذاة الدمار، انتشر الناس على جوانب الطرقات ... ينظرون يهمسون ويحيون كويفا بمحبة. شعرت أن عليّ الخروج من هذا المكان وفي الحال ودون تأخير، قلت لكويفا اعتقد أني لن أنام هنا ... ذهبت إلى السيارة ووجدت كمال في انتظاري، ناولت كويفا علبة من والدها ... قبلتها، احتضنتني بدفء قالت: « افهم انك لا تريدين البقاء ولكن هؤلاء حكوا لك قصص حياتهم فقط أعيدي حكاياتها ... تواعدنا على الاتصال من رام الله، تركت كويفا أمام جدارين يكونان زاوية كانت لغرفة في الأيام القريبة الماضية، انتشرت صور الشهداء على كل سنتيمتر من الجدارين»

سرنا نحو الخط الأخضر لأنه الطريق الأسهل للخروج من الضفة، وأغلقنا نافذة جهنم. كمال يقول:« أفْ...!!».

بدت السهول الخضراء على مرمى البصر، أعادت الطمأنينة والهدوء لقلبي، وبدأت اشعر بالجوع...

الخط الأخضر

التقيت بزياد على حاجز بيت لحم، يضحك زياد كالعادة وكأن هموم الدنيا قصة على ورق. كان آخر اتصال لي مع زياد عند بداية حصار بيت لحم، عندما توفي والده ومنعوه من دفنه في المقبرة فاضطروا إلى دفنه في حديقة البيت، ومنذ ذلك الهاتف الحزين لم اسمع منه.

كان ينتظرني في سيارته ماداً يده ملوحاً، بسمته اقرب إلى ضحكة طفل يشعر بالدهشة، بمحاذاة سيارته سار راهب يحمل حقيبة تتبعه عجوز، طلب منه الراهب أن يوصله حتى الحاجز لان حقيبته ثقيلة، وافق زياد محتاراً بين أن يخرج إلى لمقابلتي أو يدعني انتظر حتى يقطع مسافة الخمسمائة متر التي بقيت على الراهب ليلتقي جنود الحواجز، اعتقد انه فضل إيصال الراهب والعجوز لأنه لوح لي أن انتظره دقيقتين.

هذه أول مرة التقي مع زياد في فلسطين وهو لا يختلف كثيراً إذ ما زال يقدم الخدمات لآخر من يطلب والغريب قبل القريب .

عاد زياد قائلاً: «حرام هذا الراهب بعد عليه (ما زال) مشوار بعد الحاجز حتى المحطة»
يحييني بحرارة ويسأل عن الأصدقاء وعن الجمعية التي كان رئيسها في جنيف، حتى اتخذ قراراً فاجأ الجميع بأن يعود للسكن مع زوجته السويسرية في الدوحة على أطراف بيت لحم. وفي عز دين الانتفاضة.

أفادني زياد بالمعلومات الجغرافية والواجبات الشخصية. يقول: « الليلة مشغول، اليوم عنا واجب في الدهيشة، بدي اخذ بخاطر (يقدم العزاء) شاب استشهد. ثم تابع: « الدوحة تتوسط بيت جالا والدهيشة وبيت لحم، هون كل شي حتى التاسعة مساء، بتشوفيش حدا (لا ترين) إلا بمخيم الدهيشة، لأنهم بيجوا بيت جالا وبيت لحم».

«مقابل بيتنا جبل انطون، من تحت تماماً مخيم الدهيشة، على اليمين هناك مستوطنة «افرات» على اليسار هناك مستوطنة «ابو غنيم». كنيسة المهد هذه في الوسط، الميدنة (المئذنة) الثالثة جامع عمر بن الخطاب اللي احترق، يعني إحنا مركز استراتيجي للقصف».

كنا نقف أمام بيت زياد المكون من ثلاثة طوابق. زياد يسكن في الطابق الثاني ويسكن شقيقاه في الباقي، شقيقه الرابع يسكن في بيت العائلة في الدهيشة. مر عجائز توجهوا نحو قبر أبو زياد وقفوا قرأوا الفاتحة ومروا دون أي حوار ما عدا «السلام عليكم».

زياد يقول :« لأنه أبوي إمام البلد، ودفناه بدون جنازة، وبسبب الحصار الناس ما ودعتش، فبيجوا أهل البلد، اللي ما ودع يقرا الفاتحة على روحه. هذا الرجل في الوسط أبو الوليد من بلد اسمها «جراش» احتلُّوا بيته أسبوعين وطردوه منه، ومن بيته قتلوا ولد من المخيم، ايش اسمه يا ربي (يحاول التذكر) ... ابن زكريا .. راح عن بالي اسمه! بس فكروه احمد المغربي المطلوب الأول في الدهيشة، إسرائيل بتحملوا مسؤولية عملية آيات الأخرس. اللي فجرت السوبر ماركت في «كريات يوفيل» وعملية القدس، وعملية ريشون لتسيون اللي أعلنت عنها كتائب شهداء الأقصى».

سرت وزياد نحو الدهيشة التي لا يبعد مدخلها عن الدوحة سوى مائتي متر.

لا حاجة لسؤال زياد عن شيء فهو إذاعة مليئة بالمعلومات وأسماء الأشخاص والأماكن، يتوقف يحيي الشباب والكبار في السن نساء ورجالا ثم يعود ليسرد لي قصة كل زاوية أو شخص في الدهيشة. فيستطرد: « هذه دار صالح أنحكم خمس وعشرين سنة بس قعد خمسة عشر سنة، نسفوا له داره واتهموه بعملية ضرب سيارة عسكرية في ١٩٧٠ لكنه في ١٩٨٥ طلع بتبادل الأسرى، طلع اخوي الكبير صالح وقتها ،وكمان نسفولنا الدار لما سجنوه ورحنا سكنّا في غرفة من غرف الوكالة (الأونروا) كنا سبع أشخاص في غرفة واحدة. عاد لما طلع صالح من السجن أعدنا تعمير البيت في نفس المكان وسكن فيه صالح. في الاجتياح اللي سبق هذا الاجتياح الأخير دخلوا البيت وكسروا الباب، لحسن الحظ مكسروش شي في البيت».

دخلنا بيت صالح دون قرع الباب كنا في وسط الغرفة زياد نادى ليعلن عن وجوده.

«يا أهل الدار !... صالح هاي في معنا ناس».

جلست في غرفة منخفضة السقف مقفلة النوافذ، في إحد الزوايا اتكأت وسائد مطرزة على

صندوق خشبي قديم، على الجدار الأيمن عُلّقت ست صور من الحجم المتوسط في إطارات بيضاء، جميع الصور كانت لصالح، صالح في حقل اخضر، صالح يمشي أمام مئذنة منعزلة، صالح بين رجل و امرأة، صالح في الشارع مع زوجته وابن زياد.

قال زياد: « هذه الصور انتشرت في لوس أنجلوس تايمز .. هذا البيت القديم بيت جدي .. بعدها الدار موجودة، وقتها اخذوا الصحفي على دارنا هناك واجروا معاه مقابلة عن حياته».

يدخل صالح بهدوء يناقض حيوية زياد ويقول بعد السلام: « بتتذكر لما رحت أنا وفدوى وأمجد مع أمي؟ أمي قالت وقتها لما وصلنا البيت من هان طلعوني عروس بس مكانتش البرندا وقتها، بعدين نزلت أمي على الحكورة وراحت تتفرج على الرمان، أخذت من الرمانة فرع وزرعته في الدهيشة، وهي تزرع بكت وقالت: هذا اللّي بقي لنا من الوطن». صالح يتحدث بصوت منخفض مفتون بالماضي ينقل إصبعه على إطار علق على الحائط المقابل: « هذا صدر ثوب أمي وهذه العروق المطرزة اللّي بتزين الثوب الفلسطيني».

سألت صالح عن العمل الذي يمارسه، يرد عنه زياد: « صالح خريج عسقلاني » (أي من سجن عسقلان) لكنه مقدم في الأمن الفلسطيني، والآن مسؤول في العلاقات العامة في محافظة بيت لحم، واخوي إبراهيم مدرس في السعودية، صادق مهندس زراعي. في هذه الفترة كان قد دخل عدد من الأشخاص عندما دخل الشخص الأخير قال زياد: «هذا اخوي مصطفى مدرس في عمّان، لما توفى أبوي فتحنا عزا (عزاء) في عمان عند مصطفى».

مصطفى يحييني ويقول: « أهلا وسهلاً، اسمك على اسم بنت مريم إبراهيم، هاي ثاني مرة بسمع بهذا الاسم». زياد يقول: « في حدا راح يقول للجماعة انه إحنا جايين نوخذ بالخاطر؟ بس هالكيت الكل نازل على الصلاة، بعد الصلاة منروح نعزي فيهم» (زياد تتغير لهجته عندما يتحدث مع اشقائه).

تجمع الجميع، ووقفنا دفعة واحدة، خرجنا من الباب، كان الليل قد حط بظلامه على هيئة شراذم بسبب الأضواء القادمة من الأبواب المتلاصقة والنوافذ. نظرت إلى أعلى رأيت القمر بدراً فارشاً نفسه في سماء دون غيوم، سرت خلفهم وكنت أتابع قمصانهم الملونة لكي لا أضل عنهم .. كنت أحيي الشباب الذين يحييهم زياد، منهم كان خطيب آيات الأخرس، سالت شادي خطيب آيات، هل يمكن أن نلتقي، قال:«لا مانع ..» واتفقنا على موعد في صباح الغد، سرنا في طريق يلعب فيه الأطفال، بعضهم اعتلى دراجة وأصبح يحذر المشاة ليفسحوا الطريق.

خطوات والتقينا سعيد عطا الله عم أحد المنفيين إلى إيطاليا بعد حصار كنيسة المهد، زياد يقول لي: « شو رأيك تميلي عند دار محمد عطا الله، هذا أخوه سعيد محمود استشهد ابنه جاد في المخيم، ضربوا له سيارته في طيارة أباتشي، وابنه الثاني زيد أبعد إلى غزة، أنت فوتي هون على بيته، وأنا راجع بميل عليكي ومنرجع على الدار مع بعض».

لم أمانع كثيراً أولا لأهمية الأشخاص، ثانياً لأن زياد كان محرجاً من ذهابي معهم إلى العزاء، لأنه سيعزي الرجال، وأنا سأندس بين النساء ويجب أن يشرح لكل سائل من أنا ولماذا أنا

هنا.

دخلت إلى بيت محمود وشقيقه سعيد، دخلت الوالدة، أم خالد، ثم الجدة التي لبست السواد ما عدا منديل ملوّن... ثم دخلت أم محمد وأبو محمد دخلا، وجلسا متقاربين، أبو محمد اخرج مسبحته وداعب حباتها، وخيم صمت ثقيل، لم ينطلقوا في الحديث كالعادة، كنت اسأل السؤال فيجيبون على السؤال بكلمة، عندما طال الصمت همس أبو محمد بعد أن أرخى عينيه وقال: «امرنا لله».

أم خالد: «هم بدافعوا عن أنفسهم و إحنا إرهابيين!»، ثم تصمت.

الجدة تقول: « إحنا إذا متنا منروح الجنة» ثم تصمت، دخل زياد بعد نصف ساعة أو حتى اقل ولكني خلتها ساعات. زياد: مرحبا كيف حالكم؟ يبتسم للجميع يحيي الجميع، يسأل عن أحوال الصغار والكبار، الحاجة تسأل: « هالحين (الآن) رجعت على الوطن؟»

تدخل لارا فتاة في الخامسة عشرة مع صور لجاد الشهيد ومحمد المنفي، تريني الصور وتقول: «جاد كان دايماً يروح هو واحمد إسحاق يناموا على القبر ويشوفوا إذا كان على مقاسهم أو صغير».

الجدة التي كانت مترددة في الحديث تشجعت بوجود زياد .. كانت تعبث بذقنها الموشوم أو تضع خصلات من شعرها الذي تضمخ بالحناء تحت منديلها الذي تزين بأزهار حمراء كبيرة ، بعد أن رمشت بعينيها الصغيرتين عدة مرات قالت: «هذه مش النهاية، مش نهاية الحياة لأنه لا يمكن انه تكون نهاية الإنسان تراب، لأنه لو كانت هيك الآخرة معناها مفش عدل، لا يمكن أن نعيش في ظلم مع ظالمين وتكون آخرتنا واحدة! لا بد نوخذ حسابنا من اللي ظلمونا .. لا بد وأن يكون حساب ونوخذ حقنا يعني هم وإحنا في الجنة؟ لا يمكن مستحيل... مستحيل يروح الشهيد سدى، شهيد يدافع عن وطنه».

ما زالت لارا تمسك بصور جاد ومحمد، عندما سكتت الجدة وتأكدت لارا أن الجدة قد تعبت وعادت إلى طبيعتها الصامتة تعبث يذقنها الموشوم. قالت: « هذه صورة جاد هو قال للمصور صورني صورة الشهادة، محمد بحبش الصور، هذه الصورة الوحيدة له كمان هو راح تصور مع كلا شن».

سلام الصغيرة بنت الثماني سنوات التصقت بلارا لتشاهد الصور ثم نظرت إلي بعينين خضراوين واسعتين تتوسطان وجهاً اسمر أحاط به شعر ناعم اسود، أقول لها: ما أجملك يا سلام.

ترد الجدة: «سميناها سلام على اسم السلام من اوسلو .. شوفي وهذا راح أخوها!.. محمد وزيد أبعدوهم، قالوا انه محمد تعبان في إيطاليا .. بكفهش (لا يكفيه) يا حرام لما كان محاصر في كنيسة المهد أربعين يوم على الجوع يا ولدي، ملعقتين أكل ويظلوا مرميين بالأرض من الجوع، أخوه استشهد قبل ما يفوت على الكنيسة».

الأم تقول: «بعشرة أيام، ما لحقنا نخلص العزا (العزاء) إلا صاروا ييجوا يسألوا عن محمد، لما تحاصر ظلينا في العزا ... لكنه في إيطاليا أهون من الشهادة! بس على الأقل منسمع صوته

بالتلفون ... يظل يمه يا حبيبي يقول: أنا بدي آخذك تزوري «ديربان» هالقيت صار اسمها «بيت شيمش» .. بلدي، حلوة كانت، كان عنّا سهل وزرع وغنم، وبقر وجمال، لبن وزبدة، وزيت، وميّه، هالبيارة تظل ملانة (ممتلئة) .. هان ما فش منه!».

ثم نظرت إلى زياد وسألته: « أنت شفت محمد قبل ما يودوه؟».

زياد: « افطرت معاه قبل ما يفوت على الكنيسة بكم يوم بس كنت أنا و محمد هماش وعمر المغربي افطرنا مع بعض».

الأم: « بقى جاد مستشهد؟».

زياد: « آه جاد استشهد في الاجتياح الأول».

الجدة: « محمد لما فات على الكنيسة كان متصاوب، كان معاه عصاتين لما شفنا على التلفزيون بعد ما طلع كان معاه عصا واحدة».

الأم تقول بصوت نائح: « يمه يا حبيبي الله يسهل عليه، الله يطعمني وأكحل عيني بشوفتك، كان نازل وزنه يا حرام بطلع أكثر من عشرة كيلو، من قلة الأكل، بقولولي عنده التهاب في معدته، الله يحنن عليك أولاد الحلال، الله يطعمك ونشوفك بوطنك (تبكي بصمت ثم تستطرد) والله يمه رحت على الكنيسة عشان اشكر الأب اللي حماهم ما خلونيش، بدي ابوس أيده بذكره بصلاتي كل يوم وبطلب من الله يوفقه مع عباده».

لارا تحاول التخفيف عن والدتها وتقول لها: « المهم يمه عايش ..».

الأم: «أربعين يوم يمه لا حمام لا غيار، يقطفوا ورق اللمون (الليمون) يغلوه ويشربوه بدل الأكل يمه يا حبيبي يا رب أنا ولا ظفر منك».

الجدة تحاول ترطيب الجو مواسية كنتها: « خلص يمه ..خلص، والله بيقولوا إيطاليا منيحة في ومي (ماء وظل أي حياة جيدة) وبيقولوا اللي طلعوا وظلوا هان لساتهم (ما زالوا) شاردين بالوعور والجبال، بكره بتصيدوهم وبعدين مالها إيطاليا؟ هو لولا رئيسهم بقولوا عنه مش منيح وبكره (يكره) الإسلام والمسلمين، وبقول عنهم وحوش ومتأخرين، بس زمان الطليان كانوا يحبونا إحنا الفلسطينية، (ثم تضرب على ركبة كنتها) وتقول: يا خايبة بكره بلكي اشتغل وصار معاه شوية مصاري وقطعلك كرت للطيارة ورحتي بالعسى ما ترجعيش علينا.. ». باءت محاولة الجدة بالتخفيف عن الأم بالفشل.

لارا: « كان الراهب الوحيد اللي يطعمهم أكل، أنا رحت وشفت المغارة وشفت وين اخوي محمد كان».

أشار لي زياد بمجيء وقت الذهاب إلى البيت، ودعت الجميع واقتربت من الجدة التي قالت لي: « قلبي والله حبك . قبلتني قائلة: « سلمي يمه على ولاد الدنيا كلهم». ربتت على ظهري وابتلعنا ليل الدهيشة.

|

كانت الساعة السابعة صباحاً عندما دق جرس الباب، وقفت امرأة بلباس عصري جميل

مستوحى من الثوب المغربي التقليدي ولكن أضيفت إليه لمسات جعلته بقدرة قادر آخر ما قدمته الموضة، تلبس نظارات شمسية سوداء، وأول ما رأتني كشفت عن بسمة عريضة وقالت بألفة ومرح: « أين زياد الخائن؟ » ودخلت على زياد أيقظته، وهي تلعنه كيف وصل منذ اشهر دون أن يزورها .. وعتاب وضحك ومرح وذكريات.

قرع الجرس مرة أخرى وقال زياد: «هذا أكيد شادي! »

هيام تسأل: « مين شادي؟ »

زياد: « شادي خطيب آيات الأخرس».

شادي أطلق لحية قصيرة مهذبة امتدت على وجه شاحب طويل، يرتدي قميصا اسود، جلس قبالة هيام، كنا نجلس حول طاولة المطبخ المستديره. أشعل شادي سيجارة وعزم على زياد بواحدة ... زياد يميل على هيام ويقول: « أيام والله يا هيام.. » ثم ينظر ويقول لي: « زمان لما كان في كل المدرسة أربع أولاد معهم شيكل، كنا إحنا دايرين بالوعور والجبال، نسرق تفاحة من هون شوية عنب من الكروم ».

هيام: «مكناش نقعد في بيوتنا لا تلفزيون ولا راديو، نروح من المدرسة ونروح داشرين ولاد وبنات، اليوم بطلوا البنات زي زمان، صاروا يتحجبوا».

سألت شادي دون مقدمات: كيف تصف آيات يا شادي؟

شادي: « آيات إنسانة محترمة عندها كبرياء، و إنسانة متدينة».

كان في مشاكل بينكم ؟

«خطبنا من سنة وسبع اشهر، هي أخت أصدقائي، كنا متفاهمين على كل شي، على البيت على الأسرة على أسماء الأطفال، على مستقبلها الدراسي، آيات كانت بتحب تكمل دراستها وأنا كنت أشجعها، كان بدها تدرس صحافة».

شو بتذكر منها أكثر شي؟

«بسمتها، لما تشوفني»

زياد يتدخل: « آيات فاجأت الناس بعمليتها، وتأثروا الناس في وصيتها، لأنها أهدت العملية للشهداء لوجه الله، ولامت الحكام العرب».

ليش عملت العملية برايك يا شادي؟

«بعرفش ليش، مكانش ناقصها شي على صعيد شخصي يعني .. بنت حلوة وناجحة في الدراسة، وأنا بريدها كثير».

مكانش شي غريب في الأيام الأخيرة اللي سبقت العملية؟

«قبل بليلة كنت عندها، كانت جداً طبيعية، تضحك، كانت تمزح، كان ثاني يوم عندها امتحان.. قلت لها بديش أتأخر عشان أنت لازم تدرسي، قالت لي: اقعد، راحت عملت قهوة صبت لي فنجانين. بقولها شو زيادة هالمحبة؟ قالت: أنا بعرف أنت بتحب القهوة، ثاني يوم أنا بكون عند دار القصاص. ... بعدين شفت ابن مطلق ناصر، بقولي: بتعرف مين عمل العملية في

«كريات يوفيل؟» قلت له: لأ، مين؟ قال : آيات ... أنا أكلتها صدمة ... صدمة كبيرة .. شو الدافع؟ مش ناقص عليها شي، صحيح انه عمل مشرف، لكن ليش يا آيات؟» شادي كان يتحدث وكأنه لا يخرج كلمات من فمه فهو يطبق أسنانه، تصل كلماته دون أن يحرك شفتيه، يدخن بشراهة نصف سيجارة، ثم يقول: « شي مميت، شي خانق، الدنيا ماشية كالعادة وأنا فقدت اعز إنسانة عليّ».

زياد يقول: « أنا ابدي اطرح سؤال، نفترض انك التقيت مع الشخص اللي فخّخ آيات، شو بتقوله؟ أنا بسألك لأنك في منتصف المسافة بين فلسطين وبين آيات وأنت في الوسط التقيت مع هذا الشخص شو بتقوله؟».

شادي: «اللي ودًا آيات، ما ودهاش (أرسلها) غصب عنها (رغماً عنها) هي اللي قالت بِدي، ما حدا جرها، آيات مش ساذجة، لأنه لو جرها، بعدين هي لحالها، معها المتفجرات ممكن ترجع على البيت، هي كان معها القرار الأخير، فبالتالي مفيش ثأر بيني وبين اللي بعثها، لكن برضه بسألوا ليش ما منعها؟».

لو أنت يا شادي كنت مكانه بتمنعها ؟

«طبعاً بمنعها، هذه بنت ممكن تعمل وتناضل بطريقة ثانية، وهذا مش شرط النضال والدفاع عن الوطن، لو أنا عملتها شو هي بدها تعمل؟».

زياد: « هذا الموضوع معقد جداً، بحيرني الجانب النفسي، يعني لما بيجي الشخص وبيقرر وبعدين ما بين القرار ولبس حزام المتفجرات وما بين الوصول للموقع!! في مسافات زمنية ما بين خطوة وخطوة، شو الواحد منهم بيفكر في هذا الوقت؟. يعني أنا في الانتفاضة الأولى كنت مطلوب واليهود طخوا عليّ ثلاث مرات، وكان عندي تصميم بالاستمرار في النضال، لكن كان عندي رغبة في الحياة، عمره ما انتهى الأمل عندي انه أعيش، مش زي ما أنت رايح والنهاية بايدك وانت بتحددها! تيجيك رصاصة شيء آخر .. وتقول لنفسك هذه لحظة النهاية، أنا هذه بفهمهاش تجربتي بالحياة قالت لي ان الحياة جميلة».

محاضرة

أمريكا ـ إسرائيل، الفلسطينيون وغرب آسيا

نعوم تشومسكي

سأبدأ الحديث بصورة أساسية عن غرب آسيا التي تغطي ما نسميه منطقة الشرق الأوسط أو الشرق الأدنى. والملاحظات التي سأذكرها في هذا الحديث ستنتقد بشدة ممارسات دول المنطقة، بما في ذلك الدول القوية ومن ضمنها إسرائيل وتركيا. وعادة ما يحمل مؤيدو الممارسات الإجرامية لهذه الدول على هذا النوع من النقد ويصفونه بأنه غير عادل، وأنه يتجاهل طبيعة الصراع والتهديدات التي تواجهها حكومات تلك الدول ومجتمعاتها. وأنا أعتقد أن بعضا من هذه الانتقادات صحيح جزئيا. يحمل النقد المذكور بعض الظلم لكن لأسباب أخرى مختلفة. إن الصراعات والتهديدات حقيقية وجدية، لكنها لا تبرر على أي حال الممارسات والأفعال البربرية المستمرة منذ سنوات وهي مسؤولة، إلى حد بعيد، عن التهديدات الموجودة الآن.

لكن تلك الممارسات الشريرة متوقعة، ففي ظروف الصراع واحتمال وجود تهديدات تلجأ سلطات الدولة إلى كل الوسائل الممكنة؛ ومن ضمن ذلك جرائم الحرب الفظيعة، والجرائم ضد الإنسانية. وسوف تستمر تلك الدول في فعل ذلك ما دام الحاكم بأمره في العالم يغض الطرف عن تلك الجرائم أو يساندها أو يشجعها في بعض الأحيان. وإذا قال السيد كفى فإن تلك الجرائم تتوقف. ومن ثمّ فإن النقد الذي نوجهه إلى تلك الدول ينبغي إن نوجهه بصورة أساسية إلى أنفسنا. إن النقمة التي نحملها تجاه الآخرين بسبب جرائمهم سهلة ورخيصة ولا تكلفنا الكثير، وهي غير جذابة على الأخص، بل هي مخزية في بعض الأحيان. لكن النظر في المرآة أهمّ حقا، بل

نعوم تشومسكي، عالم اللغة الأميركي، والمفكر السياسي المعروف

هو أكثر صعوبة. وفي هذه الحالات، وفي أخرى غيرها، فإن مشاركتنا في الجريمة فعلية وهي مستمرة على صعد متعددة ومختلفة.

في البداية علينا أن نلوم سياسة الحكومة لدعمها العسكري والاقتصادي والدبلوماسي المستمر لهذه الجرائم، وهي تعي تماما حقيقة تلك الجرائم، لعقود وعقود من الزمن. ثانيا علينا أن نوجه اللوم إلى المؤسسات: إلى المؤسسات الإعلامية، والمدارس، والجامعات، والمجلات الثقافية، وحتى مؤسسات البحث والدراسات. ويتضمن ما تفعله الحكومة والمؤسسات التملص من الحقائق الفعلية الملموسة أو إخفاءها وطمسها، والعديد من حالات التزييف الصريحة، وفي أحيان كثيرة إبداء الحماسة لتلك الجرائم بلا أي تحفظ.

ثالثا، وهذا هو المستوى الأكثر أهمية، فإن الأمر يتعلق باختياراتنا. وليس ذلك منقوشا بصورة متفردة على الصخر فلا يمكن تغييره، إذ هناك الكثير من الأمثلة الشبيهة التي جرى تغييرها عبر العمل العام. فلنتذكر أنه في هذا الشهر، آذار من عام ٢٠?٢٠٢، تصادف الذكرى الأربعون لإعلان الولايات المتحدة هجومها على جنوب فيتنام، ففي شهر آذار من عام ١٩٦٢أعلنت إدارة جون كنيدي أن سلاح الطيران في الولايات المتحدة سوف يقوم بطلعات حربية ضد الفيتناميين الجنوبيين. ومن ضمن ما استخدمه طيراننا الأسلحة الكيماوية لتدمير المحاصيل الزراعية. وقد سيق مئات الآلاف، وربما الملايين، إلى معسكرات التجميع وأحياء المدن الفقيرة المزدحمة. كما استخدم سلاح الطيران النابالم حسب الأوامر.

استمر ذلك دون أية معارضة تذكر. ولهذا السبب لا نحتفل اليوم بمرور الذكرى الأربعين. لا أحد حتى يتذكر. لم تكن هناك أية معارضة، هنا في بيركلي أو في أي مكان آخر، لفترة زمنية طويلة. استغرق الأمر سنوات لتنشأ معارضة شعبية حقيقية. لقد نشأت تلك المعارضة أخيرا عندما تكلم شخص ما، باربارا مثلا، لكن ذلك أحدث الكثير من الاختلاف في المشهد. ومن بين عناصر الاختلاف التي أوجدتها تلك المعارضة، إلى جانب حركات الحقوق المدنية والجهات الناشطة الكثيرة تلك الأيام، أنها عملت على تمدين هذه البلاد بطرق عديدة. إنني لا أتكلم هنا عن القيادة، كما أنني لا أتكلم عن فئة المثقفين، بل عن الجماهير العامة التي تغيّرت. ولا يستطيع أي من رؤساء الولايات المتحدة أن يحلم اليوم بتغيير بعيد المدى مثل ذلك الذي حصل. وهناك أمور شبيهة حصلت في مناطق أخرى، وهي لم تحصل بطرق سحرية و لم تسقط هديةً من السماء، بل نشأت نتيجة العمل العام الملتزم المصمم لملايين وملايين من البشر. وقد أدى ذلك إلى صناعة بلاد أفضل. هناك الكثير من الأخطاء، لكننا إذا قارنا الوضع الآن بالوضع قبل أربعين عاما فإن التحسن هائل وعظيم.

هناك العديد من الحالات المحددة الشبيهة. مرة أخرى فأنا لا أستطيع أن أسمع بوضوح من يتكلمون في الصفوف الخلفية، لكن أحدا ذكر جنوب إفريقيا، وهي مثال شبيه بالفعل. لنتذكر أن

حكومة الولايات المتحدة كانت إلى عام ١٩٨٨تقريبا تدين حزب المؤتمر الوطني، الذي تزعمه نيلسون مانديلا، وتعده منظمة إرهابية ـ وبكلمات تلك الحكومة كان ذلك الحزب من بين «أسوأ» المنظمات الإرهابية في العالم؛ كما أن حكومتنا ساندت نظام جنوب إفريقيا، وتقبلت ذلك النظام في أسوأ أيام الفصل والتمييز العنصريين بوصفه حليفا مرحبا به على الدوام. في تلك الأيام، وفي زمن إدارتي ريغان وبوش فقط، قتل نظام جنوب إفريقيا، بمساندة الولايات المتحدة وبريطانيا، أكثر من مليون ونصف مليون من البشر الذين ينتمون إلى الدول المجاورة، كما سبب دمارا في تلك الدول بما يوازي ٦٠ مليارا من الدولارات؛ دون أن نذكر في هذا السياق ما تسبب به ذلك النظام داخل جنوب إفريقيا نفسها. لكنه، رغم ذلك، ظل حليفا مرحبا به، كما كان معارضوه الذين يصارعون من أجل الحرية من أسوأ المنظمات الإرهابية في العالم! لكن في غضون سنوات قليلة اضطرت واشنطن إلى التراجع عن موقفها وتغييره. لقد تراجعت بسبب الموقف الشعبي الفعال إذا أردنا أن نتتبع التغيير من أوله. وذلك مثل من الأمثلة فقط لأن المسألة تتعلق بالاختيار في هذا الحالة أو غيرها. إذا لم نقم بالاختيار فإننا نشارك بتلك الجرائم واعين ذلك تماماً.

حسناً، دعوني أعود إلى مثال غرب آسيا واضعا المثال السابق في خلفية كلامي. إن صانعي القرار يريدون منا أن نركز على ما يسمونه «محور الشر»، وهو أمر أعتقد أنه يستحق التركيز عليه؛ إنه أمر يثير الضحك بالفعل. وسوف أعود إلى هذا الأمر فيما بعد. إنهم يفهمون ذلك بالطريقة التي تخدم أغراضهم، وسوف يومئون على الأقل إلى ما يسمى الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني، وهي عبارة تقترح نوعا من التماثل بين الطرفين، رغم أن التغطية الصحفية الحاصلة للصراع تعد إسرائيل ضحية إرهاب فلسطيني لا عقلاني مهووس! حسناً، وبما أن بعض الإيماءات ضرورية لتحقيق بعض الأهداف فقد عمدت الولايات المتحدة إلى الطلب من إسرائيل أن تسحب دباباتها وقواتها العسكرية من البلدات ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين؛ وأطاعت إسرائيل الأمر في الحال، كما يحصل دائما. لقد اقتطعوا بعض المناطق ولم ينسحبوا في الحال، لكنهم استجابوا للأوامر بسرعة. وهذا يوضح ثانية أين تكمن القوة وعلى من تقع المسؤولية. وبالنسبة للآخرين في بقية دول العالم فإنها تؤكد أيضا ما يعلمه هؤلاء علم اليقين: إن الوضع ليس صراعا فلسطينيا ـ إسرائيليا بل احتلال عسكري مستمر منذ ٣٥ عاما ـ احتلال عنيف ووحشي وجائر. وهو احتلال مستمر بسبب الدعم الثابت أحادي الجانب من قبل الولايات المتحدة لإسرائيل على جميع الصعد التي ذكرتها سابقا. ويمثل ذلك، بصورة فاضحة، خرقا للقانون الدولي منذ البداية.

إن الأمر شديد الوضوح في الحقيقة، تدركه الولايات المتحدة التي تتحمل، كما قلت، المسؤولية الكاملة عن تلك الجرائم التي ترتكب. ولقد ردد جورج بوش الأول، عندما كان ممثل الولايات المتحدة في الأمم المتحدة عام ١٩٧١، إدانة واشنطن الرسمية لأفعال إسرائيل في

الأراضي التي تحتلها. وحدث أنه كان يشير في إدانته ذلك الوقت، وبصورة محددة، إلى ما فعلته إسرائيل في القدس المحتلة. وبكلماته هو فإن تلك الأفعال تمثل خرقا لشروط القانون الدولي التي تحكم التزامات الدول المحتلة، وكان يعني بذلك إسرائيل تحديداً. وقد انتقد بوش إسرائيل لفشلها في «الوفاء بهذه الالتزامات التي تقرها معاهدة جنيف الرابعة، ولأفعالها التي تخالف نص المعاهدة وروحها كذلك.»

تلك المعاهدة ليست شأنا عابرا يمكن القفز عنه ببساطة. إنها تمثل قلب مبادئ القانون الدولي. لقد أقرت عام ١٩٤٩ لكي يتم بموجبها محاكمة الأفعال والممارسات النازية في أوروبا المحتلة بصورة رسمية. ومن ثمّ فإن إدانة جورج بوش للممارسات الإسرائيلية بخرقها القانون الدولي، كقوة محتلة، كان يعبر عن السياسة الرسمية للولايات المتحدة في ذلك الوقت. وعلى أية حال، ففي ذلك الوقت، عام ١٩٧١، بدأ يحصل تباعد بين السياسة الرسمية للولايات المتحدة وممارساتها. وفي الحقيقة أنه في عام ١٩٧١ أصبحت الولايات المتحدة توفر الوسائل التي تؤمن الانتهاكات التي كان السفير بوش قد استنكرها. لقد كانت الولايات المتحدة تدعم ما حصل في تلك السنة.

لأذكّركم، أو على الأقل لأذكّر الناسين منكم، ففي شباط من عام ١٩٧١ قامت مصر بعرض مبادرة شاملة للسلام على إسرائيل بشروط تلتقي مع ما تطرحه سياسة الولايات المتحدة الرسمية. لم تذكر تلك المبادرة الفلسطينيين، فلم تكن قضيتهم مطروحة في ذلك الوقت، كما أنها لم تذكر الضفة الغربية. ذكرت تلك المبادرة الأراضي المصرية فقط. ولقد عدّت إسرائيل تلك المبادرة عرضا أصيلا للسلام، وفكرت بقبولها ثم تراجعت عن ذلك ـ ولنتذكر أن من كان يحكم في ذلك الوقت هو حزب العمل الحمائمي (!)، أي حكومة غولدا مائير لا حكومة آرييل شارون، رغم أن آرييل شارون كان يخضع لأوامر تلك الحكومة وينفذ أفظع جرائمه في ذلك الوقت. كان ذلك جزءا من برامج حزبين بالفعل.

إذن، لم يكن هناك ذكر للفلسطينيين، ومعاهدة شاملة للسلام. لكن إسرائيل قررت عدم قبول المعاهدة الشاملة للسلام التي عرضتها عدوتها الرئيسية، مصر، (وقد نوقش الأمر داخل إسرائيل وبصورة علنية في الإعلام والصحافة العبريين) لأنها ظنت أنها بامتناعها عن القبول سوف تربح أراضي أكثر. كان على الولايات المتحدة أن تتخذ قرارها. فهل كان عليها أن تستمر في دعم سياستها الرسمية، تلك التي رددها بوش في الأمم المتحدة قبل شهرين اثنين فقط، وتدعو مصر إلى عقد معاهدة سلام شاملة؟ أم أنه كان عليها أن تتبع سياسة كيسنجر وما سماه «الورطة أو المأزق» stalemate أي مبدأ: لا مفاوضات، بل مجرد تكتيكات مؤجلة، والابتلاع البطيء للأرض التي تسيطر عليها إسرائيل، والتي تمولها الولايات المتحدة وتدعمها في الوقت الذي تقوم فيه الولايات المتحدة بإغلاق الطريق على أية تسوية دبلوماسية؟ حسناً، لقد ربح كيسنجر في الصراع الداخلي، ومنذ ذلك التاريخ بدأ الشق بين السياسة الرسمية والسياسة الفعلية للولايات المتحدة

يتسع ويتسع. ولم يتم تجاهل السياسة الرسمية، بما في ذلك الاهتمام بالقانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة، إلا في عهد كلينتون الذي قام بالفعل بإلغاء تلك القرارات. حتى ذلك التاريخ ظلت السياسة الرسمية كما وصفها بوش، رغم أن الممارسة كانت تتبع خطى كيسنجر.

السياسة الحقيقية للولايات المتحدة

كان لبرنامج سد الطريق على التسوية الدبلوماسية، التي كانت تلقى دعماً دوليا واسعا، عنوان هو «العملية السلمية بخطابة معيارية». ولذلك سنقرأ على الدوام عن دعوة الولايات المتحدة لضرورة السير في العملية السلمية، وتدخل الولايات المتحدة بصورة مباشرة في تحريك عملية السلام. وتعني عملية السلام في هذه الحالة ـ وليس في هذه الحالة وحدها بل في أحوال أخرى كثيرة ـ ما تعنيه الولايات المتحدة بعملية السلام، بما في ذلك سدّ الطريق على السلام.

هذا مستوى من مستويات المشاركة في الجرائم والفظاعات المرتكبة. وعلى كل حال فقد استمرت سياسة الولايات المتحدة، طوال ثلاثين عاما من الرفض المتطرف للدبلوماسية وسد الطريق عليها، في سلوك مسار ثنائي، إلى زمن كلينتون. وقد حافظت على المستوى الرسمي على الموقف الذي أعلنه بوش، في ما فضلت على صعيد الممارسة السير على مبدأ كيسنجر في الحفاظ على حالة اللاسلم واللاحرب، والابتلاع البطيء للأرض، وتكتيكات التأجيل، والتقارب والاندماج بين الولايات المتحدة وإسرائيل. فماذا عن الفلسطينيين إذن؟ لقد جرى الإعلان عن وضع الفلسطينيين في الوقت نفسه. حدث ذلك داخلياً في اللقاءات السرية لمجلس الوزراء الإسرائيلي التي جرى مؤخراً نشرها. نصح موشيه دايان مجلس الوزراء الإسرائيلي، وهو مجلس وزراء حمائمي (!)، بإخبار الفلسطينيين أن عليهم العيش مثل الكلاب وعلى من يريد الرحيل فليرحل، وسوف نرى إلى أين يوصلنا هذا الأمر في الوقت الذي نواصل فيه سياستنا بتثبيت «حكم دائم» للمناطق. ولتلاحظوا أنني لا أقتبس من سياسي متطرف، بل من حمائمي موغل في حمائميته (!). ضمن الطيف السياسي الإسرائيلي كان موشيه دايان من بين القادة المتعاطفين والمتفهمين لوضع الفلسطينيين وحاجاتهم وما كان يحدث لهم(!)

لكن هذه السياسات استمرت، وهي لا زالت مستمرة هذه الأيام. لقد استمرت في مرحلة أوسلو من العملية السلمية. وعلى الصعيد الداخلي في إسرائيل كتب شلومو بن عامي، المفاوض الحمائمي لإيهود باراك كتابا بالعبرية (وهي لغة سرية تضمن ثقة المعلقين الغربيين بعدم النقل عنها)، وذلك عشية دخوله الحكومة عام ١٩٩٨، يشرح فيه عملية أوسلو. وقد أشار بن عامي أن الغاية من عملية أوسلو هي إنشاء تبعية كولونيالية جديدة دائمة لفلسطينيي الأراضي المحتلة. وهذا أمر دقيق تماما، فتلك كانت غاية أوسلو. كان الأمر واضحا في الوثائق الأصلية، وفي إعلان المبادئ الذي وُقّع، وسط ضجة كبيرة، في أيلول عام ١٩٩٣. وقد اختار الفلسطينيون، دون

حكمة، تجاهل الحقائق الواضحة وتصديق عكسها.

بإمكان مرتكبي الجرائم أن يخدعوا أنفسهم، إذا رغبوا في ذلك، أما الضحايا فينصحون بالانتباه تماما، ليس في هذه الحالة فقط. وما أعنيه بذلك أن ما كرره بن عامي عام ١٩٩٨ أن الهدف من عملية أوسلو في المرحلة النهائية هو إنشاء وضع يشبه الوضع في جنوب إفريقيا عام ١٩٦٢ عندما تم رسميا إنشاء ترانسكي Transkei كأول بانتوستان. وأظن أنه في تلك السنة تم إنشاء أول حكومة سوداء يديرها الشعب الأسود. وفي الحقيقة أنها كانت قابلة للحياة أكثر من التبعية الكولونيالية الجديدة التي يراد تطبيقها في فلسطين. لقد زودوها في الحقيقة بالإمكانيات والموارد على عكس ما فعلته الولايات المتحدة وإسرائيل، لا لكونهم أناسا طيبين بل لأنهم كانوا يأملون الفوز باعتراف دولي.

لو أن «سيد العالم» اعترف بذلك البانتوستان لشهدنا هذه الأيام الاحتفالات باستقلال ترانسكي في حال استمرار وجودها. لكنها لحسن الحظ لم يقيض لها الاستمرار. حسناً، لقد كان إيهود باراك، الذي مدح هو وكلينتون للعروض السخية (!) التي قدماها في كامب دافيد منتصف عام ٢٠٠٠، ماضياً في مشروعه الثابت بإنشاء مستوطنات غير قانونية. وفي الحقيقة أنه خلال السنة الأخيرة من فترة وجوده على رأس الحكومة الإسرائيلية وصل مشروع الاستيطان أعلى مستوياته منذ عام ١٩٩٢، وهي السنة التي تسبق بدء عملية أوسلو. كان الهدف هو ضمان أنه مهما حصل فسوف تكون النتيجة تبعية كولونيالية جديدة دائمة، تماماً كما قالوا. إنه سر في حالة اخترنا فقط أن لا نسمع ما قيل بالفعل. وفي ظل اتفاقات كامب ديفيد قامت الحكومة الإسرائيلية (وعندما أقول إسرائيل أعني الولايات المتحدة ـ إسرائيل لأن الحكومة الإسرائيلية لا تستطيع فعل ذلك دون دعم الولايات المتحدة وتشجيعها)، حسب تقارير منظمة العفو الدولية، بتقطيع الضفة الغربية إلى ٢٢٧ كانتونا محاطا بالمستوطنات ومفصولا عن القدس وغزة التي جرى تقطيعها هي الأخرى ـ والكثير من هذه الكانتونات لا تبلغ مساحته أكثر من كيلومترين مربعين، أي شبه حصون صغيرة. وفي الحقيقة أن العرض في كامب ديفيد، الذي يفترض أن نصفق له، تمثل في تحسين هذا الوضع قليلا. فقد جرت إعادة تقسيم هذه الكانتونات إلى أربعة منفصلة في الضفة الغربية: واحد في الشمال، والثاني في الوسط والجنوب، تفصلها خطوط ناتئة فاصلة تقسم المناطق بصورة حادة إلى شمال وجنوب، وتفصلها كذلك عن مدينة القدس الصغيرة المساحة والتي شكلت على مدار التاريخ قلب الحياة الفلسطينية. أما في ما يتعلق بغزة فقد كان وضعها غامضا، ولكنها على الأرجح كان ستلقى المصير نفسه. وبإمكان الواحد منكم أن يسترجع احتفالات كلينتون في كامب ديفيد بنفسه. إنني لا أقرأ صحف كاليفورنيا لكنني بحثت بصعوبة لأعثر على خريطة لحل كامب ديفيد ولكنني لم أوفق. أعني أننا صفقنا للتسوية التي اقترحها كلينتون وباراك، لكن من المستحيل أن نجد في الولايات المتحدة خريطة توضح تلك التسوية. كان

الأمر سهلا لو أننا بحثنا في مكان آخر إذ أن الصحافة الإسرائيلية نشرت الخرائط، وكذلك فعلت الصحافة البريطانية. لكن على حد علمي لم تنشر أية خريطة في الولايات المتحدة، على الأقل في الصحافة القومية.

أظن أن سببا يكمن وراء عدم النشر. فإذا تفحصتم الخرائط فسوف تدركون في الحال أنه ليس باستطاعتكم التصفيق لذلك العرض القادم الهائل والخطير (!) إذ أن ذلك العرض لا يقترب مما فعلته جنوب إفريقيا قبل أربعين عاما. كل الشكر لدعم الولايات المتحدة وتشجيعها على الصعد الثلاثة التي ذكرت سابقا ـ على صعيد السياسة، والصحافة، ومؤسسات المجتمع المدني. ففي الصحافة أظن أن أكثر الأمثلة تطرفا وتعصبا، التي يمكن ضربها في هذا المجال، هو توماس فريدمان معلق النيويورك تايمز. لقد كتب في ذلك الوقت أن الرئيس كلينتون قد تكلم ونحن نعلم، كما قال، ما ينبغي أن تكون عليه النتيجة. بالطبع فإننا نسمع هنا كلمات السيد. علينا أن نعود إلى أكثر الأيام ظلامية في حكم ستالين لنجد شيئا يمكن مقارنته بهذا الكلام؛ فعندما رفض الفلسطينيون رأينا إلى أي حد هم فظيعون (!)

المستوى الثالث من هذا الدعم يتمثل فينا بالطبع. كان هناك احتجاجات، لكن ذلك لا يكفي. حسناً، دعوني أعود إلى اللحظة الحالية. في الأسبوع الماضي فقط أصدرت أكبر منظمتين لحقوق الإنسان في العالم، أمنستي (منظمة العفو الدولية) وهيومان رايتس واتش، التماسين قويين للغاية يدعوان لإرسال مراقبين دوليين إلى الأراضي الفلسطينية. وقد بررت منظمة العفو الدولية طلبها بضرورة حماية أرواح الفلسطينيين والإسرائيليين، أما هيومان رايتس واتش فقال إن طلبها يهدف إلى «إنهاء استخدام إسرائيل القوة المفرطة وغير المقيدة» ضد المدنيين. يبدأ التماس منظمة العفو الدولية بالقول إن الأطفال الفلسطينيين والإسرائيليين يذبحون؛ فسيارات الإسعاف الفلسطينية تطلق عليها النار؛ ومنازل الفلسطينيين يجري نسفها وتدميرها، وبلداتهم وقراهم يجري إغلاقها. إن بقاءنا صامتين لا نبدي حراكا يعادل التغاضي عن عمليات القتل المتصاعدة، وتزايد العنف والرد على العنف. هناك أصوات يهودية تعلو ضد احتلال إسرائيل للأراضي الفلسطينية. وقد نشرت هذه المجموعة إعلانا في النيويورك تايمز، أظن يوم الأحد الماضي، يقول الأشياء نفسها تقريبا. وكما سمعتم فإن ذلك الإعلان يدعو إلى وقف الدعم العسكري لإسرائيل، الذي يستخدم في إدامة الاحتلال، حتى تنسحب إسرائيل من المناطق الفلسطينية، وتقليص الدعم الاقتصادي لها بما يوازي ما تنفقه للحفاظ على المستوطنات غير الشرعية.

هناك جماعات أخرى شبيهة، وكل الالتماسات موجهة للولايات المتحدة التي رفضت السماح بإيفاد مراقبين دوليين. وكلنا نعرف أن هذه هي الطريقة الأقصر والأسهل لخفض مستوى العنف (!) المثال الأقرب، والأكثر صراحة ووضوحا، ما حدث في ١٤ كانون أول الماضي عندما ناقش مجلس الأمن قرارا يدعو إلى تطبيق خطة ميتشل وخفض مستوى العنف وإرسال مراقبين دوليين

ليراقبوا ويسجلوا ملاحظاتهم ويساعدوا في خفض العنف. لكن الولايات المتحدة صوتت بالفيتو على ذلك القرار. ويعني فيتو الولايات المتحدة أن الأمر انتهى. إن ذلك كله يعني الصمت هنا، فنادرا ما تتم الإشارة إليه في الصحافة والإعلام فهو إذن خارج التاريخ مثله مثل ما حدث في شباط من عام ١٩٧١وجرت الإشارة إليه من قبل. وقد نقل القرار السابق إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة في الحال وكانت النتيجة التصويت على القرار بأغلبية كبيرة، بل بالإجماع تقريبا، فيما عارضت الولايات المتحدة وإسرائيل القرار، وانضمت إليهما مايكرونيزيا وجزيرة صغيرة في الباسيفيك نسيت اسمها ولعلها نورو Nauru. ولم تتم كذلك تغطية هذه القصة لأنها لا تمثل القصة «الحقيقية« (!)

حدث ذلك كله في لحظة شديدة الأهمية، في منتصف فترة ثلاثة أسابيع من توقف لإطلاق النار. وفي هذه الفترة قتل جندي إسرائيلي واحد، و٢١ فلسطينيا، من بينهم ١١ طفلا حسب تقرير الصحفي غراهام أشر. ويسمى هذا تقنيا فترة من الهدوء دامت ثلاثة أسابيع وقد تم خرقها بعد أسبوعين، أي في منتصف الفترة في الخامس من كانون أول في الوقت الذي كان يعقد مؤتمر دولي هام يناقش معاهدة جنيف الرابعة في سويسرا. إن سويسرا هي الدولة المسؤولة عن مراقبة بنود هذه المعاهدة. حضر أعضاء الاتحاد الأوروبي جميعهم، حتى بريطانيا التي تعد دولة تابعة للولايات المتحدة هذه الأيام. حضرت ١١٤ دولة هي الموقعة على معاهدة جنيف. وقد أصدر ذلك المؤتمر بيانا رسميا يدين إقامة المستوطنات غير المشروعة، ويحث إسرائيل على التوقف عن خرق معاهدة جنيف، ومن ضمن تلك «الخروقات الخطيرة» القتل المتعمد، والتعذيب، واستخدام سياسة الإبعاد غير المسموح بها في القانون الدولي، وحرمان السجناء من حقوقهم في المحاكمة العادلة، والتدمير التام للممتلكات والاستيلاء على الأراضي دون أن يكون ذلك ضرورة عسكرية، وفعل ذلك بصورة متعمدة وغير مشروعة. وتعني الخروقات الخطيرة لمعاهدة جنيف ارتكاب جرائم حرب خطيرة.

الولايات المتحدة واحدة من الدول الكبرى الموقعة على معاهدة جنيف، وهي لذلك مجبرة، استنادا إلى قوانينها الداخلية والتزاماتها الدولية، على محاكمة مرتكبي خروقات معاهدة جنيف؛ ويشمل ذلك محاكمة زعمائها السياسيين. وهكذا، وحتى تقوم الولايات المتحدة بمحاكمة زعمائها السياسيين فإنها مذنبة بارتكاب خروقات لمعاهدة جنيف، أي بارتكاب جرائم حرب. علينا أن نتذكر في هذا السياق أن هذه المعاهدة ليست حديثة عهد، فهي من ضمن المعاهدات والاتفاقيات التي أبرمت بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ليتم بموجبها محاكمة الممارسات النازية. فماذا كانت ردة فعل الولايات المتحدة على اجتماع جنيف؟ لقد قاطعت الاجتماع هي وإسرائيل واستراليا. كان غياب استراليا مفاجأة، وحسب الصحافة الاسترالية فإن الحكومة الاسترالية غابت بسبب الضغط الشديد الذي مارسته الولايات المتحدة عليها. ثلاث دول قاطعت الاجتماع، وكان لهذا

أثره المعهود بحيث أصبح القرار غير ذي جدوى، وصمت الإعلام. أما فيما يتعلق بنا نحن فعلينا أن نقرر.

حتى إدارة كلينتون، التي سجلت رقما قياسيا في تأييد سياسات الحكومات الإسرائيلية، ما كانت راغبة في إبداء معارضتها على الملأ لتطبيق بنود معاهدة جنيف آخذين في الحسبان الظروف التي تمت فيها إقامة تلك المعاهدة. في السابع من شهر تشرين أول ٢٠٠٠، أي بعد أسبوع من اندلاع الانتفاضة، تبنى مجلس الأمن قرارا يستنكر محاولة آرييل شارون الاستفزازية لدخول الحرم الشريف في ٢٨ أيلول، والعنف الذي اندلع في اليوم التالي ونفذ بقيادة إيهود باراك ووزير أمنه الداخلي شلومو بن عامي. إذ بحضور أعداد كبيرة من الشرطة الإسرائيلية التي أرسلت إلى الحرم، وبينما كان الناس يغادرون المسجد بعد صلاة الجمعة، جرى رشق الشرطة بالحجارة التي أطلقت النار على جموع المصلين وفي مناطق أخرى من الأراضي الفلسطينية ما أدى إلى سقوط قتلى وجرحى كثيرين؛ وهو الأمر الذي أشعل الانتفاضة الحالية.

قرار مجلس الأمن أدان كل هذا، كما أنه دعا إسرائيل، القوة المحتلة، إلى الالتزام دون تردد بالتعهدات التي نصت عليها معاهدة جنيف الرابعة. كان التصويت على القرار ١٤ إلى صفر، مع امتناع دولة واحدة. امتناع الولايات المتحدة عن التصويت يعني الفيتو بصورة من الصور. وفي التقارير الإخبارية جرى تجاهل القرار ما يعني أنه أصبح خارج التاريخ. لكن القرار اتخذ استنادا إلى القانون الدولي، وقد تم تبنيه دون معارضة، وهو يعيد التأكيد ببساطة على ما قاله جورج بوش في أيلول من عام ١٩٧١.

حسنا، هناك أحداث أخرى حصلت بعد أيلول ٢٠٠٠ ، ففي الأول من تشرين أول بدأت المروحيات الإسرائيلية (وعندما أقول مروحيات إسرائيلية فأنا أعني مروحيات أمريكية يقودها طيارون إسرائيليون فإسرائيل لا تصنع طائرات مروحية ولا تنتج طائرات ف ١٦، فالمروحيات والطائرات الحربية الإسرائيلية هي مروحياتنا وطائراتنا) تهاجم الأهداف المدنية والمجمعات السكنية متسببة في قتل عشرات الفلسطينيين. وقد استمر ذلك خلال الأول والثاني من شهر تشرين أول.

حماية اسرائيل من تهمة القوة المحتلة

كان رد فعل الولايات المتحدة أن إدارة كلينتون قامت في الثالث من تشرين أول بإتمام أضخم صفقة عسكرية خلال عقد من الزمن تم بموجبها إرسال طائرات هليوكوبتر من طراز بلاك هوك، وقطع غيار لطائرات الأباتشي المقاتلة التي كانت قد أرسلت للتو إلى إسرائيل. وقد شاركت الصحافة في المؤامرة بتجاهل ذكر الصفقة في تقاريرها. أحد أصدقائي بحث في الصحافة على الإنترنت ووجد إشارة واحدة في صحف البلاد، وهي متضمنة في رسالة بعث بها شخص ما إلى صحيفة رالي Raleigh التي تطبع في كارولاينا الشمالية. وجرت محاولات إقناع للمحررين في

الصحف لنشر ما يعلمونه على الأقل، فليس الأمر سرا على الإطلاق، لكنهم رفضوا. كانوا يعلمون لكنهم لم يريدوا النشر. وهذا لا يعني عدم القدرة على النشر بل رفض النشر. وقد جرت محاولات أخرى للوصول إلى الجمهور بطرق أخرى، لكنها لم تكن ذات جدوى. وإلى هذا اليوم ليس معروفا في الولايات المتحدة أننا قمنا بإرسال أكبر شحنة من الأسلحة وطائرات الهليوكوبتر إلى إسرائيل، خلال عشر سنوات، تماما بعد أن قامت تلك الطائرات باستهداف المدنيين وقتل وجرح العشرات منهم. وتمثل رد الفعل فيما فعلته الصحافة. الصمت.

بعد ذلك بأسابيع قليلة قامت إسرائيل باستخدام طائرات الهليوكوبتر، المصنوعة في الولايات المتحدة، في عمليات الاغتيال المنظمة. وحتى هذه اللحظة نفذت إسرائيل أكثر من خمسين عملية اغتيال من هذا النوع. وهذه بكل بساطة جرائم لا لبس فيها. أعني أن إسرائيل لم تقدم أي دليل، ولم تكن بحاجة إلى أي دليل لتقوم بذلك. هناك أيضا ٢٥ حالة من القتل المصاحب للأشخاص المستهدفين ـ الزوجات، والأطفال، والمارة ـ والأرقام غير دقيقة تماما لكنها قريبة مما ذكرت.

لقد قدم التماس إلى المحكمة الإسرائيلية العليا، إلى محكمة العدل العليا تحديدا، يدعوها إلى منع قتل البشر بواسطة طائرات الهليوكوبتر الإسرائيلية. لكن المحكمة ردت الالتماس قائلة إنها لا ترى أية ضرورة (وهذه كلمات المحكمة) لمنع تلك العمليات. أما رد فعل الولايات المتحدة فهو إرسال المزيد من طائرات الهليوكوبتر والمقاتلات والذخيرة بكميات كبيرة. والهدف (إنه بالفعل هدف لأننا واعون تماما ما نفعل) تعزيز الإرهاب، وأستعير من كلام جورج بوش الابن وهو يعني بعبارته «الأشرار» (!)

لكن ماذا عن الديبلوماسية؟ لقد استمرت الديبلوماسية، ففي الأسبوع الماضي فقط كان هناك قرار مررته الولايات المتحدة، القرار الوحيد الذي تتبناه الولايات المتحدة خلال ٢٥ عاما. ضجة كبيرة أثيرت حول ذلك القرار. لكن لماذا تقترح الولايات المتحدة قرارا يصادق عليه مجلس الأمن فيما يتعلق بإسرائيل وفلسطين؟ حسناً، لقد وضحت ذلك صحيفة محترمة هي الوول ستريت جورنال، التي تقدم في العادة أفضل التقارير الإخبارية. قالت الصحيفة إن سبب ذلك يعود إلى رغبة الولايات المتحدة في قطع الطريق على استصدار قرار من مجلس الأمن، كان فعلا سيتخذ، يدعو إلى وقف العنف ويشير إلى إسرائيل بصورة صريحة بوصفها دولة محتلة، وبحسب الصحيفة فإنه سيكون قرارا معاديا لإسرائيل. ومن الواضح أن على الولايات المتحدة أن تمنع مثل هذه التحركات المعادية للسامية وتوقف اتخاذ أي قرار يدين إسرائيل ويعدها دولة محتلة، وذلك من خلال تمرير قرار تتخذه هي (!)

هكذا تفلت إسرائيل، بالطبع، من الإشارة التاريخية إليها بوصفها قوة محتلة. لكنها قوة محتلة بالفعل، بحسب الرواية الرسمية للولايات المتحدة وبكلمات جورج بوش الأول، وحتى بكلمات كلينتون نفسه، الذي ساند إسرائيل أكثر من أي رئيس سابق. لقد ورد ذلك في القرار

الذي تبناه مجلس الأمن بالإجماع وينص على كون إسرائيل دولة محتلة عليها الالتزام بمعاهدة جنيف. لكن هذا الموقف معادٍ لإسرائيل بحسب الوول ستريت جورنال. ليست غريبة هذه اللغة الطنانة والخطابة التي تتردد على الدوام كلما جاء ذكر إسرائيل. لكن ماذا عن القرار الذي تبنته الولايات المتحدة؟ ببساطة إنه قرار أجوف لا معنى له. وما يقوله هو أن لدينا رؤية مستقبلية تقول بإمكانية وجود دولتين. ولنلاحظ أن ذلك لا يصل حتى مستوى ما حدث في جنوب إفريقيا قبل ٤٠ عاما، ففي تلك الفترة لم تكن لدى عنصريي جنوب إفريقيا رؤية لدولة سوداء لكنهم أنشأوها. ومع ذلك فإننا لا نمضي إلى الحد الذي وصله عنصريو جنوب إفريقيا في أكثر أيام الابارتهايد سوادا، ونطالب في الوقت نفسه أن يمتدح موقفنا المتقدم (!)

مرة ثانية فإن ا لسؤال الذي يجب أن نوجهه إلى أنفسنا هو: هل نتحمل نحن ما يحصل؟ أعني هل تتحملون أنتم ما يحصل، فإذا كنتم قادرين على ذلك فسوف يستمر الوضع على ما هو عليه. هناك حديث بالطبع عن مبادرة لخطة عربية سعودية كان تقدم بها توماس فريدمان بوصفها اختراقا حقيقيا ترافق مع الكثير من تهنئة الذات. إن فريدمان يدور على الدوام في الفلك ذاته، كما يعرف من يتابعون قراءة عموده. وهو الآن معجب بنفسه إلى حد الغرور بسبب التقدم الذي حققه في عملية السلام. وقد كتبت الصحف عندنا أن العرب قد يكونون، وأنا هنا أقتبس، أسقطوا «فكرتهم غير المحتملة أن إسرائيل سوف تزول بطريقة من الطرق»، وأنهم سوف يمنحون إسرائيل أخيرا الهدية التي طالما تمنتها وهي الاعتراف بحقها في الوجود ـ وول ستريت جورنال وصحف أمريكية قومية أخرى.

إن صحفا ذات مكانة رفيعة، مثل وول ستريت جورنال، تقول، وأنا هنا أقتبس للمرة الثانية، إن المبادرة السعودية ليست جديدة فقد تقدمت بها السعودية عام ١٩٨١، لكن الدول العربية «ذات الخط السياسي المتصلب» أسقطت المبادرة في ذلك الحين. لكن بعد عقدين من الزمن يبدو أن تلك الأنظمة قد أصبحت أكثر اعتدالا. كانت المبادرة السابقة قد رفضت من قبل سوريا والعراق ومنظمة التحرير الفلسطينية بزعامة ياسر عرفات. ومع ذلك فلعل إسرائيل ما كانت لتقبل تلك المبادرة. ولا نستطيع في الحقيقة التأكد من ذلك. وهذا اقتباس من صحيفة البوسطن غلوب.

دعونا نعود إلى عالمنا الحقيقي. لقد قبلت منظمة التحرير الفلسطينية المبادرة، ولم تطلق عليها النار. بل إنها أقرتها رسميا مع بعض التعديلات هنا وهناك على كل حال. وتتمثل التعديلات في أن الخطة السعودية عام ١٩٨١ لم تذكر منظمة التحرير. أما بالنسبة لسوريا فقد رفضتها لسبب واحد هو أن الخطة السعودية لم تتطرق لمرتفعات الجولان السورية المحتلة. فيما يتعلق بالبلدان العربية الأخرى فإن رد فعلها كان متضاربا، فهي لم ترفضها بل انتظرت إشارات من الولايات المتحدة وإسرائيل تبديان فيها بعض الاهتمام. فماذا عن رد فعل إسرائيل؟ إن رد

الفعل ليس مذكورا في تقارير الصحف لكنه متوار هناك في مكان ما. لقد أدان شمعون بيرس المبادرة السعودية، ولنتذكر أن ذلك كان عام ١٩٨١، لأنها كما قال تهدد وجود إسرائيل. وقد كتبت صحيفة حزب العمل الرسمية دافار أن سلاح الجو الإسرائيلي قام بعدة طلعات، مستخدما طائراتنا الأمريكية، فوق حقول النفط السعودية. وحسب تقرير الصحيفة فإن ذلك قد يكون لتحذير الولايات المتحدة لكي لا تأخذ الخطة بجدية، أو لسبب آخر. وقد قالت صحيفة حزب العمل إنه أمر لا يستدعي منطقيا قلق دوائر المخابرات الأجنبية التي حذرت من أن إسرائيل قد تقصف حقول النفط السعودية. لكن واحدا من كبار المثقفين الإسرائيليين وهو عاموس إيلون، الذي يحظى بالشهرة في الولايات المتحدة، وصف رد الفعل الإسرائيلي بأنه صادم ومروع ومخيف، إن لم يكن مثيرا لشعور شامل باليأس والمرارة. وحتى في أوساط يمين الوسط أدان الصحفي يوئيل ماركوس ما أطلق عليه رد الفعل المفزع الهستيري على المبادرة السعودية، وهو ما عده خطأ جسيما للغاية.

كان رد فعل الرئيس الإسرائيلي حاييم هيرتزوغ، وهو معدود في صفوف الحمائم، مثيرا للانتباه؛ فقد كتب أن «واضع الخطة الحقيقي»، وهذه كلماته، «هو منظمة التحرير الفلسطينية». ومضى قائلا إن الخطة التي وضعتها منظمة التحرير الفلسطينية هي أكثر تطرفا من قرار مجلس الأمن الذي «أعدته» منظمة التحرير في شهر كانون أول عام ١٩٧٦. وادعّى هيرتسوغ كذلك أن هذه الخطة اقترحتها دول المواجهة العربية ممثلة في مصر وسوريا والأردن. وقد ساند القرار العالم كله في حينه لكن الولايات المتحدة صوتت بالفيتو ليدخل القرار في غياهب التاريخ.

دعا ذلك القرار إلى تطبيق قرار مجلس الأمن ٢٤٢، ومن يتابعون منكم قرارات الأمم المتحدة يعرفون أن جوهر ذلك القرار يتمثل في حق الدول في المنطقة في العيش بسلام وأمن ضمن حدودها المعترف بها. إن القرار يتضمن بالفعل كل تلك الكلمات والعبارات. لكن القرار، الذي صوتت عليه الولايات المتحدة بالنقض، أضاف إليه عبارة تتعلق بإقامة دولة فلسطينية في الأراضي المحتلة. ولهذا صوتت الولايات المتحدة بالفيتو، كما فعلت في سنوات تالية إذ استمرت في إصدار قرارات الفيتو ومنع الآخرين من عمل شيء وصولا إلى خطة عام ١٩٨١ التي تسببت في كل تلك الهستيريا من أصغر موظف في الإدارة الأمريكية وصولا إلى الرئيس نفسه. كان هيرتسوغ نفسه مندوب إسرائيل في الأمم المتحدة عام ١٩٧٦ عندما ظهر القرار الرهيب إلى الوجود. كان هيرتسوغ مخطئا في الحقيقة فيما قاله، فالخطة السعودية عام ١٩٨١ كانت هي نفسها قرار مجلس الأمن الذي صوتت عليه الولايات المتحدة بالفيتو، كما أن الفكرة القائلة بأن منظمة التحرير هي التي أعدت القرار وكتبت الخطة السعودية كلام يرقى إلى السخف، رغم أن المنظمة أيدت القرار والخطة. ما حصل يعكس الهستيريا التي دبت بين حمائم إسرائيل على خلفية طرح الخطة السعودية الواضحة عام ١٩٨١، لكن الولايات المتحدة دعمت الرؤية الإسرائيلية ولم

تأخذ تلك الخطة في الحسبان. ذلك ما حصل بالفعل في ذلك الوقت، لكن التغطية الصحفية مختلفة قليلا عن تلك الحقيقة.

شيء آخر كان يحصل وقت طرح الخطة السعودية عام ١٩٨١. كانت إسرائيل تعد لغزو لبنان وهو ما حدث بالفعل بعد شهرين من طرح الخطة. وقد بدأت إسرائيل في حينها استفزازاتها لترد منظمة التحرير فيكون بالإمكان اتخاذ ذلك ذريعة لاجتياح لبنان. قامت إسرائيل بعمليات تفجير وقتل وإغراق قوارب صيد، وبكل ما يخطر على البال. ومع ذلك لم يكن بإمكان إسرائيل أيجاد أية حجة فاجتاحت لبنان، على أية حال، بدعم من الولايات المتحدة حيث قتلت أكثر من عشرين ألف شخص. وقد مكنها قراران أمريكيان بالفيتو من المضي في فعلتها. فماذا كان الهدف؟ حسناً، أستطيع أخيرا الاقتباس من النيويورك تايمز التي أوردت جوابا دقيقا للغاية. كان هدف الغزو من وجهة نظر الحكومة الإسرائيلية، وأذكركم أنني أقتبس من النيويورك تايمز فيما كتبته في شهر كانون أول الماضي، هو «زرع نظام صديق في لبنان يستطيع تدمير منظمة التحرير الفلسطينية التي يقودها ياسر عرفات.» وتمضي النظرية قائلة إن ذلك قد يقنع الفلسطينيين بقبول الحكم الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة.» كان ذلك هدف غزو لبنان.

التقرير الذي اقتبست منه أعلاه صحيح تماماً، وعلى حد علمي فإنها المرة الأولى في الولايات المتحدة، في وسائل الإعلام أو البحث العلمي أو أي مكان آخر، التي يجري فيها الكشف للجمهور عما كان في الحقيقة واضحا ومفهوما ومعروضا تماما في الصحافة والإعلام الإسرائيليين طوال العشرين عاما الماضية. لقد أعلن عن ذلك للتو (!) ولكنك لو قرأت أدبيات المعارضة من قبل فسوف تعرف ذلك ببساطة. لكن أخيرا وفي ٢٤ كانون أول عام ٢٠٠٢ سمحت النيويورك تايمز لنفسها بنشر سطر في عمود منزو في الصحيفة لتقول لنا الحقيقة التي نعرفها منذ عشرين عاما، وهي أن الغزو الإسرائيلي ـ الأمريكي للبنان أوقع عشرين ألف قتيل. وهو أمر يمكن إدراجه في الكتاب التعريفي للإرهاب الدولي، وفي لوائح جيش الولايات المتحدة، بسبب استخدام العنف المفرط، والتهديد، والقسر والإكراه، وترويع الناس، لتحقيق غايات سياسية.

ربما لا تقع هذه الأمور ضمن بنود الإرهاب الدولي، بل في صلب جرائم الحرب والعدوان المروعة بحيث نحتاج في هذه الحالة محاكمات من نوع نورمبيرغ بدلا من مجرد المحاكمة والتنديد الدوليين. ذلك ما حصل بالفعل عام ١٩٨١ عندما عرضت العربية السعودية خطتها السلمية.

وعلى كل حال فإن الشخص الذي كان مؤثرا وفاعلا في منع الجمهور من معرفة أي شيء عما كان يحدث تلك الأيام هو نفسه صديقنا الطيب (!) توماس فريدمان، وهو نفسه الذي صعدت أسهمه هذه الأيام لكونه حقق اختراقا بإعادة تقديم الخطة السعودية التي أطلقت عليها إسرائيل والولايات المتحدة النار قبل ٢٠ عاما، على عكس ما تقول التقارير. كان فريدمان، في الوقت الذي كان فيه مراسل النيويورك تايمز في القدس خلال الثمانينات، ينكر بوضوح علمه بالحقيقة.

ويمكنكم أن تقرأوا العناوين في الصحف الإسرائيلية السيّارة، التي كان يقرأها، والتي كانت تقول إن «عرفات يعرض الدخول في المفاوضات لكن بيرس يقول: لا.» وبعد يومين تقرأون عمودا في النيويورك تايمز لتوماس فريدمان يقول إن شمعون بيرس وحمائم إسرائيل يشعرون بالألم لعدم وجود شريك عربي للسلام، فكل ما يريده الفلسطينيون هو القتل. إن عرفات يرفض المفاوضات. كل ذلك يحدث خلال أيام قليلة.

استمر هذا خلال الثمانينات. وقد أعلن فريدمان موقفه في مقابلات مع الصحافة الإسرائيلية في نيسان عام ١٩٨٨عشية فوزه بجائزة بوليتزر. كانت نصيحته لإسرائيل أن عليها أن تفعل في الأراضي المحتلة ما فعلته بجنوب لبنان، أي أن تكثف وجودها العسكري وتستخدم جنودا مرتزقة قادرين على ترويع السكان الذين عليها أن تبقيهم تحت السيطرة، وأن تنشئ قاعات كبرى للتعذيب كما في معتقل الخيام، وذلك في حالة فكر السكان بالخروج عن السيطرة؛ وكل هذا يقع ضمن دائرة ما هو شائع ومعروف. هذا ما نصح به فريدمان إسرائيل فيما يخص الأراضي المحتلة، لكنه ولكونه ليبراليّ التوجه (!) قال: عليكم إعطاء العرب شيئا ما، وتذكروا أنني أقتبس منه، لأنكم «إذا أعطيتم أحمد مقعدا في الحافلة فقد يخفف ذلك من مطالبه.»

برنامج الرفض

ولنعد إلى أيام الأبارتهايد السوداء، تخيلوا أن شخصا اقترح قائلا: «أعطوا سامبو مقعدا في الحافلة فإن ذلك سيجعله يخفف من مطالبه»، لكانت حظوظه في نيل جائزة بوليتزر والتعيين في منصب المراسل الدبلوماسي الأول لصحيفة نيويورك تايمز مائة في المائة.

ومع ذلك فقد تحسن الرجل. علينا أن نعترف بالفضل حيث يكون ذلك ضروريا. لقد تحسن فريدمان كثيرا منذ ذلك الوقت. قد يكون من المفيد لو أنه أخبرنا ماذا كان يفعل في الثمانينات، أو لو أن الصحافة أخبرتنا عما كانت تفعله في تلك الفترة. لكننا لا نحصل في العادة على كل ما نريد. لقد تمثل موقف الولايات المتحدة، الموقف الرسمي للولايات المتحدة، في شهر كانون أول ١٩٨٩، في خطة بوش ـ بيكر التي عارضت حرفيا: إقامة «دولة فلسطينية إضافية» بين إسرائيل والأردن. وكلمة «إضافية» تعني أن هناك دولة فلسطينية أخرى، هي الأردن. ولذلك ليس هناك عوامل أخلاقية في الموضوع، فهم لا يريدون دولة فلسطينية أخرى إضافة إلى الأردن. إضافة إلى ذلك فإن وضع الضفة الغربية وقطاع غزة يمكن أن يحل بما يتفق مع سياسة الحكومة الإسرائيلية. الموقف الثالث هو أنه يمكن إجراء انتخابات في الأراضي المحتلة في ظل الاحتلال العسكري الإسرائيلي في الوقت الذي كانت النخب الفلسطينية كلها تقريبا داخل السجون الإسرائيلية ورهن الاعتقال الإداري، وتحت التعذيب. وما سرّب إلى الجمهور في الولايات المتحدة من هذا كله هو أننا نؤيد إجراء انتخابات حرة في الضفة الغربية وقطاع غزة. كانت هذه خطة الولايات المتحدة

في كانون أول ١٩٨٩. وبعد وقت قصير من الزمن اندلعت حرب الخليج حيث تراجع العالم كله لأنه علم أن الولايات المتحدة سوف تدير العالم بالقوة. وهذه نهاية الدبلوماسية الدولية. أما فيما يتعلق بموضوع الضغوطات التي قاومتها الولايات المتحدة فإنها كانت قادرة على إنشاء برنامجها الرفضي الخاص بها والذي يقود إلى التبعية الكولونيالية الدائمة وإلى «الكانتونات الصغيرة» الـ ٢٢٧ التي جرى تعيينها في كانون أول من عام ١٩٩٩، لكي تتوحد هذه الكانتونات في أربعة بالضفة الغربية تديرها إسرائيل. وكان علينا بالطبع أن نصفق لعظمة بيل كلينتون (!)

حسناً، أريد الآن أن أضرب صفحا عن السجل المثير للغثيان لكل من الولايات المتحدة وإسرائيل الذي قام بتطبيق نصائح دايان مدة ٣٥ عاما، لكي أتحدث عن أجزاء أخرى من غرب آسيا. لنعد إلى محور الشر. لكن لماذا محور الشر؟ ما الذي كان يدور في رأس جورج بوش الابن عندما سلّمه كتاب خطاباته تلك العبارة ليقرأها؟ ليس لدينا أية وثائق داخلية ولذا فعليّ أن أحزر ما فكر به بوش. ما يكمن وراء هذا الكلام كله، كما أظن، هو أنه موجه نحو الناخبين الأمريكان بالأساس. وما حدث في ١١ أيلول ترك أثرا في العالم كله، الأثر نفسه تقريبا في كل مكان. وتمثل هذا الأثر في أن ما حدث كان بالنسبة للعناصر الخشنة الضاغطة الموجودة في العالم فرصة من السماء. كان بإمكانهم مواصلة برنامجهم بقسوة وعدم رحمة فيما الشعب خائف ومطيع وصامت، ويؤيد برنامجا وطنيا وحيد الجانب، أي أن علينا جميعا أن نغلق أفواهنا حتى يكون بمقدورهم مواصلة خططهم بقسوة وعدوانية أكثر من ذي قبل. لكن كيف جرى تطبيق ذلك؟ حسناً، إن ذلك يختلف ما بين دولة وأخرى. ففي روسيا والصين وتركيا وإسرائيل، وفي بلاد أخرى كالجزائر، كان ذلك يعني مزيدا من القمع. وقد جاءتنا الفرصة لنرفع وتيرة العنف والقمع. في البلدان الأكثر ديموقراطية مثل الولايات المتحدة عنى ذلك فعل ما تستطيع فعله بتعظيم سلطة الدولة وإخضاع المواطنين وحماية الدولة القوية من النقد، وهنا، بخاصة، بشن حملة محمومة على المواطنين المحليين والأجيال القادمة، وهي حملة شديدة القسوة لن أعرض لها هنا لأنكم تابعتموها فلا داعي لشرحها.

هذا ما يحصل إذن منذ ١١ أيلول، ومن الضروري جدا تشتيت انتباه الناس لكي لا يفهموا ما يجري. لكن كيف تستطيع أن تبقي الناس صامتين ومطيعين؟ كل شخص منا يفهم كيفية تحقيق ذلك، فأفضل طريقة للسيطرة على الناس هي نشر الخوف في صفوفهم، وأسهل الطرق لنشر هذا الخوف هي اقتباس عدة أسطر من كتب الأطفال أو الملاحم القديمة التي تتحدث عن الوحوش الشريرة القادمة لتدميرنا.

عندما حدث ما حدث في ١١ أيلول كنت وقتها في الهند أحاول النوم ليلا. كنت أقرأ بعض الملاحم الهندية المحتشدة بالكثير من الفكاهة. كانت ملحمة الهند الرئيسية، الرامايانا، تدور حول الأمر نفسه تماما. وأظن أن كتّاب خطابات بوش قد انتحلوا ما كتبوه من بعض الملاحم الهندية. إن

صورة الإله فيشنو الأرضية، والتي تجسد الإنسان الكامل، تتنزل من السماء إلى الأرض لتقوم بطرد الشر من العالم، وما يحصل في ما بعد يتمثل في كيفية قيام فيشنو بهذه المهمة. للرامايانا بالطبع بعض القيمة الأدبية بالمقارنة مع صيغة كتاب خطابات بوش المنتحلة، لكن الصورة تظل هي نفسها تقريبا. هناك يكمن الشر، وهذا هو البطل، وعلينا نحن أن نحتشد حول البطل، إلخ. القصد هو أن لا نتحدث أبدا عمّا يفعله البطل بنا، فذلك ليس جيدا. لكن لماذا «محور»؟ أشك أن بوش يدرك ما تعنيه الكلمة، لكن على الناس أن يدركوا المعاني الضمنية التي تحتضنها تلك الكلمة. علينا أن نفكر بالنازية، وإيطاليا، واليابان، إلخ.

فلنعد ثانية إلى العالم الحقيقي. الدول الثلاث التي تشكل محور الشر في العالم هي: العراق، وإيران اللتان دارت الحرب بينهما مدة عشرين عاما، والدولة الثالثة هي كوريا الشمالية التي لا علاقة بينها وبين تلك الدولتين. لكن ذكر اسم كوريا الشمالية ضمن «محور الشر» تم لسببين على ما أفترض: السبب الأول هو أنها غير قادرة على الدفاع عن نفسها، ومعزولة، ومن ثمّ فهي تمثل هدفا مثاليا سهلا، غير مكلف، للهجوم؛ ولذلك لن يعترض أحد. وبالطبع فإن إدخالها في محور الشر سوف يزيد من التهديدات والأخطار في المنطقة. وفي الحقيقة أن الكوريين الجنوبيين، أو اليابانيين، وآخرين، لم يسعدوا بالأمر، لكن ذلك يظل هامشيا بالمقارنة مع هو أهم. السبب الثاني هو أن كوريا الشمالية ليست بلدا مسلما، وسوف يخدم ذلك في حرف الأنظار عن كون سياسات الولايات المتحدة تستهدف العالم الإسلامي.

لكن ماذا عن إيران؟ حسناً، إن في إيران الكثير من الشر بلا شك. هناك صراع داخلي جدي في إيران بين الإصلاحيين، الذين يتمتعون بمساندة شعبية واسعة من أجل تحسين الوضع، والمحافظين ورجال الدين الخطرين. وأن نعد إيران جزءا من محور الشر هبة كبيرة نمنحها للعناصر الرجعية الخطرة في المجتمع الإيراني في ما هي مؤذية للعناصر الإصلاحية. يشرح تاريخ إيران، في الخمسين سنة الأخيرة، بوضوح شديد فكرة الشر. مرة ثانية، فإن على الصحافة ومجتمع المثقفين أن يصمتوا ولا يشيروا إلى ما هو واضح تماما، وهو أمر يدخل في باب العقاب والثواب. ففي عام ١٩٥٣ كان في إيران شر. في تلك السنة انتخبت حكومة وطنية محافظة قامت باتخاذ خطوات جدية لإدارة ثروات إيران التي كانت تستولي عليها بريطانيا. كانت تلك الحكومة شرا يجب التخلص منه من خلال انقلاب رتبت له بريطانيا وأمريكا فنصبت الشاه، وهو رجل قاس شرير دام حكمه ٢٦ عاما، وراكم أسوأ ملف لحقوق الإنسان في العالم. لقد وصفته منظمة العفو الدولية، ومنظمات حقوق إنسان أخرى، بأنه كان على رأس نظام عسكري قوي يعد من أشد منتهكي حقوق الإنسان في العالم، وكان على الدوام في خدمة مصالح الولايات المتحدة. لكن إيران، في ذلك الوقت، كانت دولة خيّرة. ولو أننا عدنا إلى التغطية الصحفية في تلك الأيام لما وجدنا أي ذكر لجرائم النظام الإيراني، وعلى العكس من ذلك سوف نعثر على تقارير في صالح الشاه. لكن

الشر عاد ثانية عام ١٩٧٩عندما تم قلب نظام الشاه واستقلت إيران بسياساتها. ومنذ ذلك الحين عوملت إيران بوصفها دولة شريرة، أي أنها خارج السيطرة. لكن لماذا ظلت إيران دولة شريرة؟ إنه بالفعل سؤال مثير. إن سياسة الولايات المتحدة في تلك المنطقة تتأثر برأي شركات الطاقة، وقد حاولت هذه الشركات، خلال السنوات الماضية، الانضمام إلى بقية دول العالم في تعزيز قوة الإصلاحيين والعودة بإيران إلى النظام الدولي. لكن حكومة الولايات المتحدة تعارض هذه السياسة وتصر على عزل إيران ومهاجمتها ودعم العناصر المتصلبة من المحافظين. وهذا يقودنا إلى السؤال: لماذا؟

في ظني أن هذا أيضا يشكل واحدا من العناصر، وهو عنصر أساسي وحاسم في الشؤون العالمية يطلق عليه في الأدبيات المختصة بالشؤون الدولية «تأسيس المصداقية». ذلك هو السبب الأساسي الذي أعلنته كل من الولايات المتحدة وبريطانيا للجمهور، وكذلك على الصعيد الرسمي، عندما تم قصف صربيا. علينا أن نؤسس مصداقيتنا. لكن ما معنى ذلك؟ إذا أردتم أن تعرفوا معنى ذلك فاذهبوا إلى رئيس عصابة المافيا الذي تفضلونه وسوف يشرح لكم ذلك. فإذا امتنع صاحب دكان عن دفع مبلغ الحماية المترتب عليه فإنك لا تذهب لقبض المبلغ منه بل إنك ستجعله عبرة لمن يعتبر. ومن ثمّ فإن الناس سوف يعرفون أنك لا تعصي أوامر الرئيس. ذلك يدعى «المصداقية»، وإذا خرج أحدهم عن الخط فإن باستطاعتك تأديبه وجعله مثالا للآخرين.

لقد خرجت إيران عن الخط. وحتى لو كانت هناك مصالح اقتصادية، وضرورة للحفاظ على هذه المصالح، فإن هناك حاجة تتجاوز هذه المصالح، حاجة يريد «السادة» أن يتأكدوا منها، وهي أن أحدا لن يفهم عكس ذلك. أظن أن ذلك هو السبب الفعلي وراء سياستنا تجاه إيران، والتي نحب أن نعلنه على الملأ.

والآن ماذا عن العراق؟ لقد صرح بوش وبلير (تصف صحيفة الفايننشال تايمز توني بلير بأنه سفير الولايات المتحدة إلى العالم، أما الصحف الأخرى فتصفه أوصافا تنال من مكانته من مثل: كلب أمريكا الصغير America's little poodle وأشياء أخرى من هذا القبيل) مؤخرا، منذ يومين اثنين فقط، مرددين الجملة المعهودة نفسها وهي أن علينا التخلص من صدام حسين. إنه مجرم من نوع خاص إلى حد إنه استعمل الأسلحة الكيماوية ضد شعبه. سمعتم ذلك في المؤتمر الصحفي الذي عقده بوش قبل يومين. الجزء الناقص من هذا الكلام هو أنه فعل ذلك بقبول جورج بوش الأب الذي استمر في دعمه له لفترة زمنية طويلة، وكذلك فعلت بريطانيا. ظنوا أنه أمر جيد ان يستعمل صدام حسين الغاز ضد شعبه، وأن يطور أسلحة الدمار الشامل، وهو ما كان يفعله بدعم من الولايات المتحدة وبريطانيا اللتين استمرتا في دعمهما بغض النظر عن الجرائم التي ارتكبها لأنه كان مفيدا لهما في تلك الأثناء. إلى هذا الحد أنتم تعلمون أننا لا نستطيع استعمال كلمة «نفاق» لوصف ما حدث، إذ نظلم كلمة «نفاق» التي نفترض فيها أن تصف الوضع الذي

تبدو فيه الجرائم حقيقية ونحن نؤيدها، ونستمر في دعم مرتكبها بعد انتهائه منها. كان دعم بوش الأب باعثا على الغثيان. في بداية ١٩٩٠، وربما بعد ذلك بقليل، أرسل بوش وفدا عالي المستوى، من أعضاء مجلس الشيوخ، إلى العراق قبل شهرين تقريبا من غزو العراق للكويت. كان رئيس الوفد بوب دول الذي ترشح لمنصب الرئاسة فيما بعد. كانت غاية الوفد من الزيارة إبلاغ صدام تحيات صديقه جورج بوش وأمنياته، والقول له إن عليه أن لا يلقي بالا للنقد الذي يتلقاه من حين لآخر في الولايات المتحدة. إن المسألة تكمن في أن بعض المعلقين الأمريكيين خارج السيطرة، ونحن لدينا حرية صحافة وليس لدينا طريقة لنقفل بها أفواه هؤلاء المعلقين. لكننا في الحقيقة نظن انك شخص جيد (!)

لماذا العراق؟

حسناً، لا أظن أن السبب غامض إلى هذا الحد. يمتلك العراق ثاني اكبر مخزون في العالم من النفط، بعد العربية السعودية. وكان واضحا منذ البداية أن الولايات المتحدة تحاول، بطريقة أو أخرى، إيجاد وسيلة لاستعادة السيطرة على تلك الثروة النفطية الهائلة ولن تسمح لمنافسيها بالوصول إلى تلك الثروات. ولقد تسللت كل من روسيا وفرنسا إلى هناك، وهذا أمر لا تستسيغه الولايات المتحدة. لربما يكون وراء خطة الهجوم ديك تشيني الذي يحاول السيطرة على نفط العراق، كما فهمت لكن ليس لدي معلومات محددة حول ذلك. وعلى كل حال فليس مسموحا لفرنسا وروسيا أن يكون لهما امتيازات خاصة فيما يتعلق بنفط العراق، إذ أن الولايات المتحدة تريد السيطرة على ذلك النفط. الآن أو غدا سوف نفعل ذلك، أو أننا سنحاول فعل ذلك. لربما يتعاملون مع القضية بوصفها فرصة يمكن انتهازها. لكن الأمر لن يكون بالسهولة التي يتصورونها، وهناك كلام كثير عن الصعوبات التقنية. على رأس هذه الصعوبات أن أي تغيير للنظام في العراق عليه أن يأخذ في حسابه أن لا يكون النظام البديل ديموقراطيا بأية صورة من الصور؛ فأغلبية السكان في العراق شيعية، وإذا أصبح لهم ثقل في النظام الجديد فسوف يقتربون بالعراق من إيران، وهو الأمر الذي لا تريد الولايات المتحدة حصوله. أما الأكراد فسوف يضغطون للحصول على نوع من الاستقلال الذاتي، وهو الشيء الذي لن يسمح به لأنه سوف يثير جنون تركيا. ومن ثمّ فإن النظام الجديد، بغض النظر عن شكله، يجب أن يكون محكوما من قبل جنرالات السنة. ولهذا السبب تنشط وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في عقد اجتماعات مع جنرالات الجيش العراقي الذين انشقوا عن النظام في التسعينات. ولسوء حظ الولايات المتحدة فإن أفضلهم، حسب ما تقول الصحافة، الجنرال الخزرجي لا يستطيع حضور الاجتماعات لأنه محتجز في الدنمارك للتحقيق معه بسبب ضلوعه في مذبحة حلبجة التي استخدمت فيها الأسلحة الكيماوية ضد الأكراد. ولذلك لا يستطيع المشاركة مع أنه الشخص الذي نريده.

ذلك هو نوع النظام الذي يفكرون بإيجاده في العراق. وأريد ان أذكر ثانية أن ما أقوله هنا

ليس سرا، وعلينا أن نشكر توماس فريدمان لأنه الشخص الذي تولى توضيح ذلك كله. وتتذكرون بعد نهاية حرب الخليج في آذار من عام ١٩٩١ كانت الولايات المتحدة تسيطر على المنطقة كلها، وقد حدث تمرد في الجنوب، تمرد شيعي كبير. لكن الولايات المتحدة سمحت لصدام باستخدام مروحياته وطائراته لسحق المقاومة. كل ذلك حدث والجنرال نورمان شوارتسكوف يجلس هناك ويراقب. ولقد قال شوارتسكوف فيما بعد إن العراقيين خدعوه عندما طلبوا منه السماح لهم باستخدام المروحيات، فهو لم يدرك حينها أنهم سوف يستخدمونها (!) بكلماته هو لقد «استغفله العراقيون»، هؤلاء المخادعون (!) لقد سحقوا المقاومة وهو ينظر إلى الجهة الأخرى.

في ذلك الوقت كان توماس فريدمان المراسل الدبلوماسي الأول في صحيفة النيويورك تايمز، أي أنه بالفعل الناطق الرسمي لوزارة الخارجية في النيويورك تايمز. وهذا يعني أنه يتناول طعام الغداء مع أحد موظفي وزارة الخارجية فيخبره الموظف ما الذي عليه أن يكتبه. وقد شرح فريدمان في عمود صحافي كتبه موقف الولايات المتحدة. قال إن علينا أن نسمح لصدام بسحق المقاومة، وشرح وجهة نظره قائلا، وهي وجهة نظر لا زالت صالحة لهذا الزمان، إن «أفضل العوالم بالنسبة للولايات المتحدة هو أن نوجد في العراق عصبة عسكرية تحكم بقبضة حديدية بطريقة صدام نفسها على أن تحظى هذه العصبة بتأييد العربية السعودية وتركيا والولايات المتحدة بالطبع.» هذا هو أفضل العوالم (!) ونحن نحاول تحقيقه. من الأفضل أن لا يكون على رأس النظام صدام حسين نفسه لكن نسخة منه تفي بالحاجة. إن هذا ما نسعى إليه، لكن الأمر ليس سهلا كما نتصور.

بعيدا عن كل المشكلات التقنية يجب أن يستمر ذلك. إن عبارة «محور الشر» تحلو في عين الناظر، بمعنى أن كل شخص يرى الشر على طريقته. سأنتهي من كلامي بعد قليل. لقد كتبت صحيفة الأهرام المصرية شبه الرسمية قبل أسبوعين مقالة عن محور الشر تعين فيها الولايات المتحدة وتركيا وإسرائيل بوصفها محورا للشر. إنه محور حقيقي على الأقل لأن هناك علاقة تحالف، وليس الحلف ذا طبيعة سرية، بل هو واضح وقوي. إنهم ثلاثة: الولايات المتحدة تدير العالم، أما إسرائيل وتركيا فتمثلان القواعد العسكرية الأمريكية في المنطقة. لقد اصطفت هذه الدول منذ وقت طويل كجزء من نظام يستهدف العالم العربي، أي المنطقة المنتجة للنفط. ولقد دعت إدارة نيكسون هذا المحور «الشرطة المحلية رهن الأوامر» التي تستقر قيادتها في واشنطن لكي نتيقن من أن الدول المنتجة للنفط لن تخرج عن السيطرة.

في ذلك الوقت كان شاه إيران رجلنا الطيب، ولم يكن شريرا على الإطلاق. كان جزءا من النظام، وكان هناك حلف بين إيران وإسرائيل وتركيا والعربية السعودية، والولايات المتحدة في الكواليس، كما كانت بريطانيا تمد يد المساعدة؛ تلك كانت الطريقة في إدارة المنطقة. كان ذلك محور الشر، لكن إيران خرجت منه فيما بعد وأصبحت شريرة من وجهة نظرنا، كما حصل من قبل عام ١٩٥٣.

منذ يومين فقط، حاولت الولايات المتحدة إقناع تركيا، ولربما تكون نجحت في إقناعها، أن تكون جزءا من الحملة العسكرية التي تحارب الإرهاب في أفغانستان. لكن الناس في المنطقة، بما

في ذلك الناس في تركيا (وقد عدت من هناك قبل أيام)، والناس في المناطق التي اجتاحتها تركيا وارتكبت الكثير من الجرائم فيها، يعرفون أن تركيا من الدول الإرهابية الكبرى في العالم، بل قد تكون من بين الأفظع إرهابا في العالم. وأذكركم أنني عندما أقول تركيا أقصد تركيا ـ الولايات المتحدة. في التسعينات، وفي المنطقة التي زرتها قبل أيام في شرق جنوب تركيا، أي المناطق الكردية، ارتكبت تركيا الكثير من الجرائم وعمليات التطهير العرقي. كانت هذه العمليات سيئة للغاية في الثمانينات لكنها أصبحت أفظع في فترة رئاسة كلينتون. لقد أمدت الولايات المتحدة تركيا بـ ٨٠٪ من حاجتها من السلاح، وفي الأعوام ١٩٨٧ ـ ١٩٩٧ بلغ تصدير السلاح إلى تركيا أرقاما غير مسبوقة تزيد عن تلك الكميات أيام الحرب الباردة. نتيجة ذلك بلغ عدد المهاجرين الأكراد أكثر من مليوني شخص، ودمرت المناطق الكردية، وقتل من الأكراد عشرات الآلاف. وهي جرائم تفوق ما فعله ميلوسيفتش في كوسوفو قبل قصف قوات الناتو له. وفي أواخر التسعينات أصبحت تركيا أكبر دولة مستوردة للسلاح في العالم من الولايات المتحدة، بعد إسرائيل ومصر. وما ارتكبته من جرائم وفظاعات وإرهاب وعمليات بربرية يفوق ما يمكن أن يتصوره أي خيال. لكن الصمت استمر، وحذف ما حصل من سجلات التاريخ، وجرى التصفيق لتركيا وتشجيعها. كل ذلك لأننا نحن المسؤولون عن هذه الفظاعات. تنشر النيويورك تايمز، بقلم خبيرتها في الكتابة عن الإرهاب جوديث ميلر، أن تركيا تعد نموذجا يحتذى في الخبرة في مكافحة الإرهاب.

أخيرا، سوف تواجه منطقة غرب آسيا أياما صعبة بالتأكيد، لأن هذه المنطقة هي مصدر معظم الطاقة في العالم. هناك عوامل أخرى كثيرة ذات أهمية، لكن علينا أن ندرأ ما أمكننا النتائج الوخيمة ونمنح الأمل للضحايا.

ترجمة: فخري صالح

وجه تشومسكي هذه الكلمة إلى منظمة إنقاذ أطفال الشرق الأوسط في منتصف شهر آذار ٢٠٠٢.

زيارة

فلسطين في الضمير الثقافي العالمي

١- وولي شوينكا
٢- جوزيه ساراماغو
٣- برايتن برايتنباخ
٤- خوان غويتيسولو
٥- ڤيتشنتزو كونسولو
٦- راسل بانكس
٧- كريستيان سالمون
٨- إلياس صنبر

قام وفد من البرلمان العالمي للكتّاب بزيارة إلى فلسطين، في أواخر مارس (آذار) الماضي، تعبيرا عن التضامن مع الشعب الفلسطيني وكفاحه من أجل الحرية والاستقلال.

وقد ضم الوفد، الذي زار الضفة الغربية وقطاع غزة، نخبة من كتاب العالم من أبرزهم الروائي وولي شوينكا (نيجيريا) الحائز على جائزة نوبل للآداب، والروائي جوزيه ساراماغو (البرتغال) الحائز على جائزة نوبل للآداب، إلى جانب الشاعر والروائي برايتن برايتنباخ (جنوب أفريقيا) والروائي خوان غويتسولو (أسبانيا) والروائي ڤيتشنتزو كونسولو (ايطاليا) ورئيس البرلمان العالمي للكتّاب الروائي راسل بانكس (الولايات المتحدة) والكاتب كريستيان سالمون، سكرتير البرلمان العالمي للكتّاب (فرنسا) والشاعر الصيني بي داو والمؤرخ الفلسطيني إلياس صنبر، المقيم في فرنسا

١
جزيرة بوليفيموس

وولي شوينكا

كانت صورة مرّوعة، مفاجئة وغير منتظرة. لكنها كانت هناك، طافحة للتو. جارحة، قدمت نفسها كمجاز لا يُقاوم عشية ذلك الاثنين، أوّل أيامنا الكاملة في رام الله، على الحاجز حيث الطريق مقطوعة، وحيث يُرغم قاطنو المدينة وزوّارها على الترجل من سياراتهم، وعبور الحاجز مشيا على الأقدام، للانتقال بواسطة نقل أخرى إلى الجانب الآخر من الطريق المليئة بالحفر. مفترق للطرق، فظ، وقابل للانفجار، حيث ينصب الباعة سوقا مرتجلة، أغلبها من الفواكه، والساندويشات، والمشروبات الخفيفة.

لاحظ شاب يرتدي ملابس متنافرة الألوان، يعلّق على كتفه حزاما يطوي فيه أكوابا من البلاستيك لتقديم بضاعته بسرعة، افتنناني فعرض على مشروبا. لم أكن قد استبدلت المال [بعملة محلية] بعد، لذا لم يكن في وسعي شراء مشروب حتى لو أردت ـ كما بيّنت له صابرا. لكن ذلك الأمر لم يزعجه أبدا. قرر أن يمنحني مشروبا، وتصدق به عليّ، بلا مقابل.

لا، لم تكن تلك الصورة التي أوجزت زيارتي الإسرائيلية ـ الفلسطينية، كانت هذه الوجه الحميد لتجربتنا ـ عناق ودود، متحمس وكريم، وفوق كل شئ، رغبة للاتصال ببشر من الخارج، وتجديد الثقة أن العالم لم ينس أرض الاستنزاف المميت هذه. أما الصورة الحاسمة فقد عرضت نفسها في طريق العودة من جامعة بيرزيت.

عند خروجنا من رام الله فعلنا ما يفعله الآخرون ـ ترجلنا من الباصات على الحاجز ـ الذي هجره الجنود الإسرائيليون بعدما أصبح بؤرة للهجمات ـ تلمسنا طريقنا بين الكتل الأسمنتية،

عبرنا الحفرة العميقة المحفورة في عرض الطريق، وركبنا سيارات أجرة أحضرها ضيوفنا. فعلنا الشئ نفسه في طريق العودة ـ سيارات أجرة من الحرم الجامعي، عبرنا الحاجز مع أنواع مختلفة من البشر: عمال، طلاب، أساتذة، أطباء، فلاحون، ممرضون، أطباء، تلاميذ مدارس..الخ ـ ومشينا إلى موقف السيارات الخشن المرتجل لانتظار الباصات التي أوصلتنا إلى المكان نفسه في المرّة الأولى. هناك، تجلّت الصورة بحيوية.

وصلت شاحنة إلى الموقف، وخرج منها بدلا من الكائنات البشرية أو البضائع، قطيع من الأغنام كثيفة الصوف، يحثها صاحبها على التقدم. انتظرنا حتى يسوق الراعي قطيعه ـ لا،لم يقد قطيعه مع الطريق، بل أسفل إلى الوادي الذي ينسلخ عنها في زاوية حادة، وتتناثر في جنباته حجارة وخمائل أشجار صغيرة. هل كان الوادي طريقا مختصرة إلى مبتغاه، حيث المسالك الريفية للوصول إلى قرية أو بلدة أخرى، أم أراد تمكين الأغنام من الرعي لبعض الوقت قبل البحث عن واسطة نقل جديدة على الجانب الآخر للطريق؟

لم نمكث هناك ما يكفي من الوقت لمعرفة السبب. وما حدث في الواقع أن خاطرة برقت في ذهني على الفور ـ عوليس محاصر بين السيكلوبات [كائنات خرافية ضخمة الحجم ذات عين واحدة، حسب الأساطير الإغريقية] في كهف ذي العين الواحدة، بوليفيموس.

فلنسترجع بعض التفاصيل الأسطورية لقصة المغامرات تلك، فقد أخذت جوانب مختلفة منها في التحوّل إلى متوازيات تستدعي النظر. فقد بحث عوليس عن مأوى له ولرجاله في كهف ذلك المضيف العملاق، الذي ما أن أدخلهم إلى بيته حتى بدأ بالتهامهم واحدا فواحدا، بعدما أغلق عليهم باب الكهف بصخرة ملساء هائلة الحجم، عجزت القوة المجتمعة لعوليس وصحبه عن زحزحتها من مكانها. لكن عوليس انتقم عندما غطّ بوليفيموس في النوم، حيث حاول انتزاع حريته بغرس سيخ من الحديد الحامي والمدبب في العين الوحيدة لسجانهم الذي يقتات على لحم البشر. أما السؤال الوحيد الباقي فكان كيفية الخروج من الكهف.

فلنسترجع، أيضا، أن عوليس بدهائه الحذر، لم يذكر اسمه الحقيقي لمضيفه الودود، بل عرّف نفسه باعتباره لا أحد. وعندما نش السيخ المحمى في عين العملاق في غياهب الليل، وصرخ من الألم، سارع صحبه السيكلوبات إلى نجدته سائلين عن سبب عذابه وعن مُسببه. «لا أحد، ذلك الوغد الشرير» أجاب بوليفيموس المرّة تلو الأخرى. لذلك، شعر أصحابه بالانزعاج، ونصحوه بالبحث عن علاج لكابوسه، ثم عادوا إلى كهوفهم. إذا كان لا أحد يعذبك، لماذا تقض مضجعنا؟

ظل عوليس، وأصحابه الرّحالة، محاصرين في الكهف حتى يزيح بوليفيموس الصخرة، التي يجب عليه إزاحتها لتمكين قطيعه من الخروج للرعي. لكن العملاق الذي جننه الألم حافظ على بعض من فطنة جعلته يفتح الباب بقدر يسمح بخروج الأغنام فرادى فقط، مارا بيديه عليها وحولها ليضمن ألا يخرج أحد راكبا على ظهرها. أما عوليس الحصيف فقد ربط أصحابه، بالطبع، إلى بطون الأغنام. تحسس بوليفيموس صوف أغنامه، هامسا إليها بعبارات الود، لكنه أضاع طريدته. نحن أمام مسألة تثقيفية حتى هذا الحد. والآن نأتي إلى الجزء الأكثر خطورة.

لم يستطع عوليس بمجرد ركوب البحر مقاومة السخرية من غريمه، موجها بأعلى صوته إهانات إلى العملاق. وفي غضبة المحبط، ألقى بوليفيموس قطعا ضخمة من الصخور في اتجاه ذلك الصوت النحيل، محدثة موجة فيضانية كادت تودي بمعذبيه. لكن الواقعة وقعت، وطار العصفور. ولو أراد عوليس لعاد مرّة أخرى وطعن بوليفيموس فاقد البصر المرّة تلو الأخرى. ولو حدث ذلك لاقتلع بوليفيموس الصخور كلها ـ وهي سمة بارزة في الأرض الفلسطينية، ذات بياض ساطع ـ وألقى بها على غير هدي في اتجاه مهاجمه، وفشل تماما في إصابة الهدف، دون أن يعني ذلك عدم نجاحه في إثارة فيضان تلو الآخر، إغراق العالم وسكّانه الأبرياء.

إن مجهولية لا أحد ـ هناك الكثير منهم، من كل الأعمار ومن الجنسين ـ هي ما يغضب حكومة إسرائيل، ورئيسها الحالي الذي يبدو استحضار شخصية بوليفيموس في حالته، حتى جسديا، أكثر من مناسب. ففي مسعاها للانتقام من أعدائها، تبنت الحكومة عمليات يمكنها إثارة موجة فيضانية لإغراق العالم، أو بصورة مناسبة أكثر، لإشعاله بالنار. وسبب عجزها عن تحديد عدوها المراوغ، وضربه بطريقة إجهاضية، وتصميمها على تحديد هدف، وتركيز أنظار العالم على هذا الهدف، وضعت اسما ووجها لجسد الشيطان غير المرئي. وقد اختار أرييل شارون أن يشغل نفسه إلى حد العُصاب بهوية ليست أكثر من معقولة ومناسبة، لكنها مختزلة، هوية ياسر عرفات. ولهذا السبب يتجلى الفشل كنوع من المنطق، والإحباط كمعرفة واقعية. نحن نعرف من يُلحق الأذى بنا، يصرخ شارون، وتردد صدى صراخه حكومة الولايات المتحدة: لا أحد غير ياسر عرفات.

عرفات! عرفات! عرفات! حتى قبل احتمال مغامرة الاقتراب من كهف بوليفيموس، شعرت برفض مطلق لفكرة أن يُظهر شخص يمتلك أدنى درجات الذكاء، ودراية ولو محدودة بالنفسية التي يخلقها واقع الإذلال واليأس، هذا القدر من التفاهة ليتخيّل في سياق صراع الشرق الأوسط، أن شخصا بعينه ـ مهما كانت درجة ما يحظى به من احترام أتباعه، ومهما كانت سلطته ـ يمكنه التحكم في نوع من الفعل الناجم عن إحباط وجرح على المستويين الجمعي والفردي. وبالطبع، فإن ياسر عرفات لا يسيطر على الأذرع الكثيرة للمقاومة الفلسطينية. ولا تستطيع حتى الجماعات المختلفة نفسها ادعاء السيطرة على أعمال فردية لا تفتقر إلى التصميم وسعة الحيلة. تيموثي ماكفيه قتل مائتي شخص في ضربة واحدة، ولم يحاول أحد إلقاء المسؤولية الوحيدة على عاتق رئيس اللوبي المؤيد لحق الأميركيين في حمل السلاح، بسبب تصميم ماكفيه على الانتقام لضحايا واكو.

وبالقدر نفسه ـ وقد حرصت على إثارة هذه النقطة أكثر من مرّة خلال زيارتنا ـ لم يُحمّل أحد رئيس وزراء إسرائيل مسؤولية عمل وقع قبل سنوات عديدة، عندما قام طبيب، وهو جندي احتياط أيضا، بإطلاق النار على مصلين فلسطينيين في مسجد، فقتل عشرات منهم قبل إطلاق النار على نفسه. إن لا عقلانية الحكومة الإسرائيلية والولايات المتحدة تحيّر العقل، ستكون مثيرة للسخرية لو لم تكن مليئة بهذا النوع المتوقّع من النتائج المأساوية. وعلى سبيل المثال، من المؤكد

أن إصرارهما، في المراحل الأولى للانتفاضة الجديدة، على التزام الفلسطينيين على الأقل بأسبوع من عدم العنف، قبل البدء بمباحثات للسلام، بدا لجميع الأشخاص العاقلين كطلب يتسم بدرجة غير معقولة من الطفولية، قبل أن يعترف شارون نفسه بلا جدواه.

ما فعلته زيارتي القصيرة بين الفلسطينيين العاديين لم يكن سوى إرغامي على استرجاع هذا الأمر، وكذلك التصريحات السياسية الصادرة عن الحكومة الإسرائيلية، المدعومة بتبلد يثير السخط من جانب الولايات المتحدة. وإذا كنت قد عدت بشئ على الصعيد الشخصي من زيارتنا، فقد كان تكثيف رعبي الخاص من كون هذا القدر من التدخل الحاسم في شؤون العالم، يعتمد في الواقع على قادة كهؤلاء يملكون قوّة عسكرية لا حدود لها.

لا، لم يكن ثمة وحي، لم يحدث ذلك لي. استخدمت قبل أشهر في مقالة لموسوعة انكارتا أفريكانا، تعبير أن الحكومة الإسرائيلية كانت تمزق قلب عرفات وكبده وتطعمهما لأبنائه ـ ومن يستطيع عدم التنبؤ بنتائج هذا العمل! وما حصلت عليه خلال الأسبوع الماضي كان تعزيز ما كان مصدر دهشة، وجعلني أخشى فعلا على الإسرائيليين ـ العديد منهم الذين اعتقدوا أن زعيمهم السياسي يتبع الخط السياسي الصحيح، ولم يتجشموا أبدا عناء التفكير بمخيمات اللاجئين الفلسطينيين، بوجودهم اليومي، حتى إذا لم يتمكنوا من مشاهدة الواقع عن قرب، والتعرّف بطريقة مباشرة على المهانة اليومية، وجراح الذاكرة، التي تسم بكليتها وضع جميع الفلسطينيين تقريبا.

رأينا الحواجز، التي يعبرها آلاف من العرب الفلسطينيين يوميا للوصول إلى مصدرهم الاقتصادي الوحيد، إسرائيل. وجدنا أنفسنا محشورين بين طوابير لا نهائية من السيارات، يمر بينها الفلسطينيون يوميا إلى أعمالهم وفي طريق العودة، أي يعبرونها مرتين في اليوم. ذكرتني تلك الطوابير ببلدي، نيجيريا، بين الانقلاب العسكري الأوّل، والحرب الأهلية في بيافرا، وما تلاها مباشرة. أعادت وجوه الخضوع واليأس، وكذلك الغضب الملتهب لشعب يواجه الإذلال اليومي على يد جيش أرعن.

هذا الإحساس بالمهانة كان ملموسا في فلسطين، أيضا ـ يمكن أن تلمسها لمس اليد، أن تقيسها وتزنها. قد تجلت بطرق مختلفة ـ من الناس العاديين في الشارع، رجالا ونساء وأطفالا، إلى محاضري الجامعة والطلاب، والمنظمات غير الحكومية، والكتّاب وممثلي المجتمع المدني. وأكد عليها أجانب اضطروا لمشاركة الفلسطينيين حياتهم، بما فيهم طاقم وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين.

كانت ثمة قصص كثيرة عن نساء أنجبن على الحواجز، بسبب السيطرة المتشددة الممارسة على حركة الناس العاديين، وعن حالات وفاة في سيارات الإسعاف المحشورة بين طوابير السيارات، أو على الحواجز. ونحن بالطبع مشينا على الحصى، شققنا طريقنا عبر حطام منازل مهدومة، ورأينا بلا تزويق سياسة المستوطنين في تطويق الأرض ـ اهدم، اخلق المنطقة الحرام، ثم انتقل نحو المكان الفارغ بعد إبعاد السكّان الفلسطينيين إلى ما بعد مرمى البندقية. لقد جرى توثيق هذه الأمثلة

عن سياسة التجريد، ومنهجيتها المثيرة للذعر، على يد وكالات الأمم المتحدة، والسفارات الأجنبية، وزوّار من الخارج. الدليل ساحق، ولا يقبل الدحض.

هل كنت متحررا من الواقع بدرجة كافية خلال هذه الزيارة؟ طبعا. ومرّة أخرى، بالطبع لا. فليس من السهل الحصول، فقط، على رؤية سريرية موضوعية للوضع في فلسطين. فعندما تنفجر الكائنات البشرية في المطاعم والفنادق، خاصة مع حاسة توقيت فردية تثير العجب - أثناء احتفالهم بعيد مقدس، مثل عيد الفصح - لا يملك الإنسان سوى الإحساس بالرعب والغضب على الفاعلين.

فالشهادة توظيف سيئ للكلمة في حالة قتل الأبرياء. وإذا كان لا يوجد أبرياء في أي صراع، فلنسقط من حسابنا قضية الطبيعة الإنسانية. أصاب بالقشعريرة كلما سمعت تعبير «الشهادة» مستخدما كرديف للقتل الانتحاري، خاصة القتل الجماعي. وعلى الجانب الآخر للرعب، الرعب الذي تمارسه الدولة، من غير الممكن الاستماع إلى عائلة تصف بالتفصيل كيف اندفعت الدبابات عبر جدران بيتها في الليل، محطمة الجدران على رؤوس أفرادها النائمين، وساحقة الأبرياء في نومهم، والبقاء شعوريا على الحياد، أو عدم الإحساس بلطمة أخلاقية. تلك كانت بيوت أولئك الأبرياء على مدار أجيال، وقد تحوّلت الآن إلى مرتع لنوع جديد من الكائنات تمشي على قدمين - الكائنات التي نُزعت صفاتها الإنسانية.

ما زالت موجات الصدمة المروّعة تتواصل. وقد شعرت قبل يومين بدرجة أكبر من الرعب، الذي أصبح القوت اليومي للطرفين المتنافسين في هذا الصراع المنذر بالشؤم. قرأت، في كاليفورنيا الآمنة نسبيا، في جريدة Easter Sunday أخبار الاعتداء الأخير في تل أبيب. ولمع في ذهني اسم الشارع.

يبدو أن الانفجار وقع في مقهى في الشارع نفسه، الذي مشيت فيه مع راسل بانكس (رئيس البرلمان الدولي للكتّاب) لتناول فنجان من القهوة، أثناء انتظارنا للقاء شيمعون بيريس، بعد سفرنا المباشر من غزة في ساعة مبكّرة صباح الأربعاء، من أجل ذلك اللقاء. ربما كان المقهى نفسه - ما زلت أحاول معرفة الأمر - بيد أن الوجه الحاد القسمات، ولكن المتطلّع، للصبية الودودة التي قدمت لنا القهوة قفز إلى شبكية عيني، صورة ما زالت متشبثة هناك بعناد. هل أصبحت رقما جديدا في عدوانية بوليفيموس التي تمتاز بضعف النظر؟

٢
من أحجار داوود إلى دبابات جليات

جوزيه ساراماغو

تؤكد بعض السلطات الدينية المعنية بالشؤون الإنجيلية أن سفر صموئيل الأول كتب في عهد سليمان، أو بعده مباشرة، أي قبل السبي البابلي الشهير، بينما يؤكد فريق آخر من الباريسيين الذين ليسوا أقل كفاية أن سفر صموئيل الأول، والثاني، أيضاً، كتبا بعد النفي إلى بابل، وان البناء التاريخي والسياسي والديني للنصين يخضع لطريقة تقسيم الأحداث نفسها في سفر التثنية، من حيث التتابع والتسلسل: تحالف اللّه مع شعبه، خيانة هذا الشعب، عقاب اللّه، توسلاتهم ثم أخيراً عفو اللّه عنهم.

إذا كان النص المبجّل ينتمي إلى عهد سليمان فيمكننا القول إنه مرّ عليه قرابة ثلاثة آلاف عام. وإذا كان من قاموا بتحرير هذا النص فرغوا منه بعد عودة اليهود من المنفى، فعلينا أن ننقص خمسمائة عام تقريباً من الثلاثة آلاف عام. إن هذا الاهتمام الشديد بتحري الدقة في تحديد التاريخ والزمن هدفه الأوحد هو لفت نظر القارئ إلى أن الحكاية الدينية الشهيرة التي تحكى عن المعركة بين الراعي الصغير داوود والعملاق الفلسطيني جليات - والتي انتهت قبل أن تبدأ - تروى للأطفال في شكل خاطئ منذ خمس وعشرين أو ثلاثين قرناً على الأقل. فعلى مرّ العصور أخذت الأجزاء المهمة في القصة، تتطور بما يتوافق مع الرؤية غير التحليلية لأكثر من مئة جيل من المؤمنين/ المستعمرين من اليهود والمسيحيين. ويا للتزييف المضلل عن التباين القاسي بين حجم العملاق جليات الذي يصل طوله إلى أربعة أمتار والتركيبة الجسدية الهزيلة لداود الأشقر الضعيف. لكن هذا التباين المفزع يتم تعويضه، بل الإفادة منه، لمصلحة داوود الإسرائيلي، ذلك لأنه فتى ذكي، بينما جليات مجرد كتلة غبية من اللحم.

كان الفتى ذكياً فعلاً حين أخذ معه، قبل ذهابه لمواجهة الفلسطيني، خمس قطع من الحجارة الملساء، وجدها على ضفة نهر صغير قريب، فوضعها في الخرج الذي يحمله، أما الآخر فكان شديد الغباء إلى درجة أنه لم يدرك أن داود أتى مسلّحاً بمسدس. بالطبع سيستاء عشاق الحقائق العظيمة، ويجيبون مستنكرين بأنه لم يكن مسدساً، وإنما مقلاعاً بسيطاً متواضعاً كالمقاليع التي

كان يستخدمها خدام ابراهام لرعي القطيع في الزمان المنصرم.

فعلاً... هذا صحيح فلم يكن مظهر سلاح داوود يشير إلى حقيقته كمسدس، فلم يكن فيه ماسورة، ولم يكن له مقبض، ولم يكن له زناد ولا ذخيرة. كان له فقط حبلان رفيعان شديدا المتانة، مربوطان من الأطراف بقطعة صغيرة ومرنة من الجلد. وقامت يد داوود الخبيرة في تجويف قطعة الجلد هذه بوضع الحجر الذي انطلق بدوره سريعاً وقوياً كالرصاصة قاصداً رأس جليات، فأصابه وأطاح به أرضاً فأصبح تحت رحمة حد السيف الذي أمسك به الرامي الماهر وقتله به.

إذا كان الإسرائيلي تمكّن من قتل الفلسطيني وصنع النصر لجيش «اللّه الحي» وجيش صموئيل فإن هذا لم يتم لأنه أكثر فطنة وذكاء وإنما لأنه كان يحمل معه سلاحاً بعيد المدى، وكان يعلم كيف يستخدمه.

إن الحقيقة التاريخية البسيطة البعيدة من الخيال تخبرنا أن جليات لم يكن لديه الفرصة حتى ليضع يديه على داوود، أما الحقيقة الأسطورية الشهيرة، صانعة الأوهام، فتخدعنا منذ ثلاثين قرناً بهذه الرواية المبهرة التي تحكي عن انتصار الراعي الصغير على وحشية المحارب العملاق الذي لم يحمه في النهاية البرونز الثقيل المصنوعة منه درعه وخوذته. وأياً كانت العبرة التي نستطيع أن نخلص إليها من هذه القصة المسلسلة، فإن داوود في معاركه الكثيرة التالية التي جعلت منه ملكاً على يهودا وأورشليم، بل جعلت قوته تمتد إلى الضفة اليمنى من الفرات، لم يعد أبداً لاستخدام الخرج ولا الحجارة. ففي السنوات الخمسين الأخرى نمت قوات داوود إلى درجة أنه أصبح من الصعب التمييز بينه وبين العملاق الشامخ جليات، بل نستطيع أن نجزم، من دون أن نسيء للوضوح المدهش للأحداث ان داوود تحول إلى جليات جديد، ولكن جليات لا يسير محملاً بأسلحة مصنوعة من البرونز الثقيل ولا نفع لها.

إن داود الزمان القديم ذاك يحلق الآن في طائرات الهليكوبتر فوق الأراضي الفلسطينية المحتلة، ويطلق الصواريخ على الأبرياء العزل، داوود العصر المنصرم ذاك يقود أحدث دبابات العالم وأقواها، ويسحق ويفجر كل ما يعترض طريقه. داوود الملحمي ذاك، أعيد تجسيده، الآن، في صورة مجرم حرب يدعى آرييل شارون يطلق في وجوهنا بكل تبجّح رسالة «شعرية» دقيقة، مفادها أنه يجب القضاء على الفلسطينيين أولاً، ثم التفاوض مع من يبقى منهم ثانياً!

إن هذه الفكرة تلخص تماماً الاستراتيجية السياسية لإسرائيل منذ ١٩٤٨ مع بعض التغييرات التكتيكية فقط في بعض الأحيان.

لقد تسمّمت عقولهم بتلك الفكرة التبشيرية عن إسرائيل العظمى، فتحول حلم التوسع في نشر الصهيونية المتطرفة إلى حقيقة. وهم ملوثون بهذا «اليقين» المفزع المتأصّل فيهم، والذي يجعلهم يرون أنه في هذا العالم المفجع العبثي يوجد شعب مختار من اللّه، ولذا بالتالي فإن كل أفعال هذا الشعب مبررة ومسموح بها أوتوماتيكياً باسم أهوال الماضي ومخاوف اليوم، تلك الأفعال يحكمها في المقام الأول هاجس العنصرية والتعصّب. فقد تربّى هذا الشعب وتشكّل على فكرة أن أي معاناة سببها أبناؤه أو يسببونها أو سيسببونها للآخرين، وتحديداً الفلسطينيين فإنها ستكون

دائماً أقل كثيراً مما عانوه هم أنفسهم في الهولوكوست.

واليهود لا يكفون عن نبش جرحهم بأنفسهم كي لا يتوقف عن النزيف، وكي يجعلوه غير قابل للشفاء أبداً، ويظلون يطلعون العالم عليه كما لو كان علماً لدولتهم.

نصب الإسرائيليون أنفسهم ملاكاً لكلمات الربّ القاسية في سفر التثنية: «لي الانتقام والعقاب»(١). إسرائيل تريد أن نشعر جميعاً بالذنب تجاه الأهوال التي رآها اليهود في الهولوكوست. إسرائيل تريدنا أن نرفض الاحتكام إلى أدنى مستوى من المنطق أو العقل إزاء أفعالها، وأن نتحول كلنا لتابع مطيع، سلس القياد يخضع تماماً إلى إرادتها. إسرائيل تريدنا أن نصدق بالقبول على كل جرائمها التي أصبحت بالنسبة لها أمراً واقعاً واجب النفاذ. إنها تريد الحصانة المطلقة.

ولا يمكن أبداً من وجهة نظر اليهود أن تخضع أفعال إسرائيل للعقل، وذلك بسبب أن أبناءها عذبوا، ووضعوا في غرف الغاز، وحرقوا في معسكر اعتقال أوشفتز.

وإنني أتساءل لو أن اليهود الذين فقدوا حياتهم في مراكز التعذيب النازية تلك، وهؤلاء الذين ظلوا مطاردين على مر عصور التاريخ، والذين انغلقوا على أنفسهم في إحياء «الغيتو» (٢) الفقيرة، ترى لو هذه الجموع الهائلة من البائسين رأت الأفعال الدامية التي يأتي بها أحفادهم الآن، «ألن يشعروا بالخزي والعار؟ أوليست المعاناة الشديدة هي دائماً أقوى دافع كي لا نتسبب في معاناة الآخرين؟

انتقلت حجارة داوود إلى أياد أخرى. فالفلسطينيون هم الذين يلقونها الآن. وأصبح جُليات في الجانب الآخر، كما أصبح مسلحاً ومجهزاً أفضل من أفضل الجنود في تاريخ الحروب أجمع. هذا بالطبع إلى جانب مساندة الصديق الأميركي الوفي. ثم يتحدثون عن جرائم القتل الرهيبة للمدنيين اليهود! الجرائم التي يقوم بها من يسمونهم «الإرهابيين الانتحاريين». وهي جرائم رهيبة من دون شك، ومدانة من دون شك، لكن من المؤكد أن إسرائيل ما زال لديها الكثير لتتعلمه إذا كانت غير قادرة بعد على فهم الأسباب التي تحمل كائناً بشرياً على أن يحول نفسه إلى قنبلة.

١ - ص٣٥٤ الفصل الثاني والثلاثون في سفر التثنية.

٢ - هي أحياء فقيرة منعزلة، اعتاد اليهود التجمع والسكن فيها قديماً وخلق مجتمع مغلق عليهم.

ترجمة سهير عصفور

عن جريدة «الحياة» اللندنية

٣

رسالة مفتوحة إلى الجنرال شارون

برايتن برايتنباخ

سيدي،

أنت لا تعرفني. وليس ثمة ما يدعوك للإنصات لما قد يقوله شخص مثلي. ولا أعتقد أن لديك الوقت للاهتمام بآراء لا تنسجم مع آرائك. في الواقع، أنا مقتنع بأنك لا تصغي لأي شخص لا يقول ما ترغب في سماعه.

وإذا كان الأمر يعنيك، أنا كاتب من جنوب أفريقيا، أعيش وأعمل الآن في الخارج. وقد نشأت وترعرعت لبعض الوقت هناك بين «شعب مختار» تصرّف باعتباره الشعب الأسمى، على غرار غيره من الشعوب التي تعتقد أنها تتميّز عن غيرها بالمعاناة، أو أن الله ألقى على عاتقها مهمة خاصة.

أعتذر إذا كان تلميحي المقارن إلى إسرائيل كشعب أسمى يسبب الأذى، بسبب أصداء من الماضي القريب، في أوروبا، عندما كان عدد كبير من اليهود ضحايا الحل النهائي. ولكن بأي طريقة أخرى يحاول الإنسان وصف تصرفات جيوشك عندما يغمره رعب ما تفعله؟

أوجه التماثل الخشنة هذه لا تصدر جزافا. فأنا مدرك تماما، ككاتب، لضرورة إبقاء الكلمات معفاة من أدنى حافز لتهييج المشاعر الرخيصة. هذا ما تفعله المقارنات السهلة ـ تبطل فهم مدى ما تتسم به الظاهرة موضوع الملاحظة من تعقيد باندفاع غاضب يلهب الحلق، ويلطخ الخصم بقيء مستعار أو إدانة متخيّلة. الأبارتهايد لم يكن نازية، رغم أن هذا القول كان شعارا بارزا. ولا يجب مساواة السياسة التي تتبعها القوات الإسرائيلية تجاه الشعب الفلسطيني بالأبارتهايد. ففي كل واحد من هذه العمليات والأنظمة ما يكفي من الشر ليستحق صفته التاريخية المفردة.

ورغم ذلك، ثمة أوجه للشبه، وثمة أوجه للاختلاف. هذه المنافسة العمياء، على الجانبين، أن

تُرى كضحية أكثر من الآخر، وتخفي أعمالك البشعة تحت عباءة الحق «المقدس » للدفاع عن النفس، الاستغلال الفاضح لمفاهيم بعينها، والكذب البارع، وما يصاحبها من دفع متواصل لمجتمعك نحو التوّحش، والترفع تجاه إنسانية الفلسطينيين ـ في الواقع حرمان شعب معذب ومحاصر من أبسط أنواع المعاملة الإنسانية.

هذه الأشياء جميعها مألوفة إلى حد بعيد. فالافتراضات الأساسية المحركة لأعمالك عنصرية.. وكما كان الشأن بالنسبة لنظام جنوب أفريقيا، فإن الوسائل المفضلة، التي تأمل بواسطتها إخضاع العدو، تتكوّن من القوة وسفك الدماء والإذلال. ومن المثير للسخرية اعتقادك بإمكانية الإفلات طالما كنت تخدم المصالح الحيوية المفترضة للولايات المتحدة.

لا أعتقد أن المصالح الأميركية تهمك. وربما كنت تكره الأميركيين بسبب قوتهم المادية، وجهلهم بما يدور في العالم. صحيح أن قرينك بائع السيارات المستعملة، نتنياهو، يمارس حرفة الدعاية المبتذلة بقدر أكبر من العلانية، كأنه يدغدغ نقطة حساسة في جسد الرأي العام الأميركي، ولكن أنت أيضا ـ من خلال الاستغلال الرخيص لترديد ما يقوله الرئيس الأميركي المشكوك في مهارته اللغوية (ووضع الكلمات في فمه) الرجل الذي يصف كل «آخر »بالإرهابي ـ تتصرف كأن بقية العالم تتكون من حمقى. من المؤكد أننا جميعا لا نوافق على كون أسمى خير في العالم يتمثل في الجشع الأميركي للنفط الرخيص، ولا نوافق على الالتزام بحرمة الأنظمة الفاسدة في المنطقة.

ثمة تضليل أكثر مكرا يستحق لفت النظر. يُقال المرّة تلو الأخرى وبصورة سافرة إن أدنى نقد لإسرائيل يعبّر عن العداء للسامية. ويُفترض بعد هذا الجزم وقف الحجة وإقفال الموضوع. أرفض، بالطبع، محاولة الرقابة هذه التي تبطل السجال من أساسه. فلا قدر من المعاناة ـ سواء معاناة التوتسي، الأكراد، الأرمن، الفيتناميين، البوسنيين، أو معاناة الفلسطينيين، يمنح حصانة من النقد (ويحزنني القول، لا قدر من الاضطهاد يحصّن شعبا بعينه ضد ارتكاب ما تعرض له من ممارسات بحق شعب آخر) ولا إعجاب بغواية وعود مفترضة حول أرض مقدسة أمر بها إله واحد يمكننا من غض النظر عن الانتهاكات التي يمارسها جيش محتل ـ أو المجازر ضد الأبرياء بدم بارد، التي يأمر بها أسياد الحرب باسم المقاومة.

ولا يمكن لأي كلام عن «إسرائيل كبرى »تبدو مقدسة في الظاهر إخفاء حقيقة أن مستوطناتك مستعمرات مسلحة مقامة على أرض سُرقت بلا خجل من الفلسطينيين، تنغل هناك كالشظايا في لحمهم، أو كأنها أوكار للقناصين مهمتها تخريب أدنى إمكانية لقيام دولة فلسطينية. لا توجد طريق إلى السلام بواسطة إفناء الآخر، كما لا يمكن أن توجد جنة «للشهيد ».

أرى أن ادعاء العداء للسامية هذا مثير للشفقة بكل معنى الكلمة، خاصة عندما يصدر عن مثقفين يهود طالما شكلوا العمود الفقري العقلاني والمنطقي والإبداعي للمجتمعات الغربية. لماذا نخضع لهذه الذريعة الخاصة، أو نغض الطرف عندما ترتكب إسرائيل الجرائم؟ ألا ينطبق عليها ما ينطبق على غيرها؟

لا، يا جنرال شارون، مظالم الماضي لا تبرر أو تعفي أعمالك الفاشية الحالية. لا يمكن لدولة قابلة للحياة أن تُبنى على طرد شعب آخر، يملك من الحق في الأرض بقدر ما تدعي. القوة لا تصنع الحق، ستؤدي أعمالك غير الأخلاقية، وقصيرة النظر (والغبية في نهاية الأمر) على المدى البعيد إلى إضعاف شرعية إسرائيل كدولة.

تمكنت في الآونة الأخيرة من زيارة المناطق للمرّة الأولى (نعم، أخشى القول يمكن وصفها بدرجة معقولة من الصواب باعتبارها تشبه البانتوستانات، فكثيرا ما تعيد إلى الذهن الغيتوهات ومخيمات البؤس الخاضعة للسيطرة التي عرفناها في جنوب أفريقيا). وقد رأيت إسرائيل بصورة عابرة، عند الدخول، وفي طريق العودة بعد قضاء ليلة في فندق ديفيد كونتيننتال الباذخ والموحش في تل أبيب. ربما تقول إن وجهة نظري أحادية الجانب بصورة فادحة. ربما. لكن الإنسان لا يجد نفسه بعيدا بالمرّة عن خطوط التماس، والحواجز، والدبابات والمواقع العسكرية الإسرائيلية في الضفة الغربية.

وقد سألت نفسي، هل أنتما أيها الشعبان على هذه الدرجة من الاختلاف في الواقع؟ أنتما مزيج من الثقافات والأصول بصورة متشابهة، كلاكما شعب من الدياسبورا، أنتما على القدر نفسه من الذكاء وسرعة البديهة والانفعال. كلاكما شجاع بطرق متشابهة. وفي الجانبين ثمة عقول إبداعية يتسم عملها بالتماس الخارق. وفي الجانبين، أيضا، هناك أعداد كبيرة بصورة ملحوظة من أصحاب المصالح، من الجائعين إلى السلطة، ومن المتعصبين.

كمحرض - متعنت وعنيف - تقف بين أقرانك، في محاولاتك الدؤوبة، ولكن سيئة التدبير، لتخريب الاتفاقات السابقة، وتعطيل إمكانية السلام - ما عدا سلام القبور والمنافي القائم على «الترانسفير الكامل »أو «اختفاء »الكيان الفلسطيني - أنت تسبب الاضطراب في المنطقة. ربما هذا ما خططت له. وما زلنا ننتظر لنرى ما إذا كان ما دمدمت به من مبادئ في واشنطن سيؤدي إلى تليين حملة الرعب المنظم والاستهتار التي تشنها - أم هي ستارة دخانية لتحقيق تحالف أفضل مع «العالم الحر »في الحرب ضد الإرهاب، وفي سبيل الهيمنة على المصادر، والسيطرة المعولمة على الأسواق، والنفط الرخيص و«الديمقراطية».

لقد تركت الأيام القليلة التي أمضيتها هناك، صحبة وفد البرلمان العالمي للكتّاب، في نفسي جملة من الانطباعات القوية والمتضاربة. كم هي صغيرة فلسطين، وكم يتداخل الشعبان معا بروابط قوية. الحجارة في كل مكان. وطبوغرافيا الأسماء مألوفة من الكتاب المقدس. الضوء الجميل. محاولات جعل المكان يشبه سويسرا، بزرع أشجار صنوبرية غريبة. قسوة الأرض ما عدا السهول الساحلية العامرة بالأشجار. يا لكم هي حزينة القرى، تعيد إلى الذهن البلدات البليدة المفتقرة إلى الحياة في ألمانيا الشرقية. الأضواء الخضراء المنبعثة من المساجد، ومواقع السكن التي لم تكتمل بعد. قبح العمارة في كل مكان - سلاسل المباني المبنية من حجارة رمادية فاتحة.

عبث احتلالك - كل تلك الطرق الالتفافية المضاءة المخصصة للاستخدام الحصري من جانب المستوطنين والمواطنين الإسرائيليين. التفاهة المؤكدة لسيطرتك على الحواجز، غير المفيدة في مجال

الأمن، والمفيدة في إشباع الدافع البدائي لإذلال وإحباط ومضايقة شعب محتل ودفعه إلى الغضب الجنوني - صغر عمر جنودك، وما يبعث على الحزن، من الواضح أنهم أولاد وبنات تلقوا تربية جيدة.

الضراوة القاسية التي تدمر بها إمكانية وجود اقتصاد للفلسطينيين، وتسرق بها بضائعهم. الانتقام القديم - تدمير البيوت بالجرافات، تدمير حقول الزيتون. والمشهد البدائي بالقدر نفسه لمواقع عسكرية تظللها خيام التمويه والراية الإسرائيلية فوق بيوت تم الاستيلاء عليها بالقوة. إعلامك المتبجح «بالديمقراطية »الذي يكذب على شعبه، منكرا جرائم الحرب التي ترتكبها قواتك. جدران برلين حول مستوطناتك في غزة (وخلفها ملاحق لجامعات، ومراكز أبحاث، وفنادق ترتبط بمثيلتها في أميركا، وملاعب غولف) ثم حطام الأحياء الفلسطينية المدمرة، التي تبدو الآن مثل الطابق الأرضي صفر [في مبنى التجارة العالمي في نيويورك] النظرة المباشرة للأطفال في عيوننا، من الواضح أنهم غير خائفين، ولكن قيل لنا أنهم جميعا يعانون من الصدمة ليس فقط بفضل هليوكوبتراتك التي تشبه كلابا محلقة، ودباباتك التي تبدو مثل [حيوانات] ما قبل التاريخ، وجنودك الذين يطلقون النار على كل شئ يتحرك، ولكن بفضل النشاط الزائد للبالغين من حولهم أيضا.

تقول عجائز يضعن مناديل على رؤوسهن في «مخيم للاجئين »بصوت مرتفع أنت يا شارون لن تتمكن من إخافتهن أبدا، يقلن لقد طردن جنودك مثل «الكلاب»، ويطلقن الشتائم ضد الدول العربية الجبانة. حماسة المثقفين والفنانين في ظل الحصار في رام الله - يتناقشون ويسخرون من شقائهم. كيف يقولون بلسان واحد: «لا نريد أن نكون أبطالا ولا ضحايا، نريد أن نكون عاديين». يأسهم المقلوب. ويقول محمود درويش «هناك كثير من التاريخ، وكثير من الأنبياء في هذه الأرض الصغيرة».

زيارة أبو عمّار، ياسر عرفات في مقره المحاصر، يتعلق بشعار «سلام الشجعان »و «ضمير المجتمع الدولي». سيدة برجوازية تنعي انتهاك المشهد الطبيعي الفلسطيني، ويزعم محام ناشط في حقوق الإنسان «نشكر شارون لأمرين - لقد وّحد جميع الفصائل الفلسطينية، وأفشل كل خيار ما عدا خيار المقاومة»، وفي وقت لاحق يلاحظ الرجل نفسه، الذي تنتابه الأفكار، والذي يدخن بلا توقف، ويبدو على محياه عرق الموت، بمرارة إن القمع قد اخترق الآن جلد الناس، وهم لا يملكون في الوقت الحاضر ما يدافعون به عن أنفسهم ما عدا جلودهم، ومن هنا جاءت القنابل البشرية.

وعلى هذا ستكون خلاصتي المتضاربة: أنت لم تكسر عزيمة الشعب الفلسطيني. بالعكس، هم الآن أكثر تصميما من السابق على بناء دولة، ولا يهم كم من الوقت ستستأسد عليهم. وقد توقعوا الهجوم المتجدد، أدركوا أنك تمارس الحيل على الجنرال زيني - ربما بالاتفاق مع ديك تشيني - كما أدركوا طالما جعلتهم أقوى، ستضرب بقوة أكبر وفي العمق، لأنك واقع في لغز من صنع يديك. مثل بوش في حملته ضد الكفرة والعصاة، عليك مضاعفة مزاعمك حول امتلاك أخلاق دولية عامة، والتفاخر بذائقة عامة أكثر مما فعلت في السابق، وعليك التبجح بالأخلاق بعد

الحسابات السياسية الخاطئة. هم يدركون ذلك، ومهما فعلوا فلن تقبل بأقل من زحفهم على البطون. وهم يخافون أن تتمكن بواسطة الجريمة ضد الإنسانية التي تمارسها في الوقت الحاضر من تحطيم آمالهم في دولة ديوقراطية علمانية حديثة، وأن تستحضر الشيطان بينهم. وهم على بيّنة، أيضا، أن هذا سيقسّم إسرائيل ويضعفها.

لكنك لا تهتم، هل تهتم؟

هذا ما يثير الشفقة والرعب.

المحاصرة.

وكما ذكرتُ قبل سنوات، فإنّ منظر الضفة الغربيّة وشريط غزّة مفتّت ومهلهل كمثْل خامة مصنوعة من رقَع عديدة. والأسلاك الشائكة تحيط سواء بسواء بالمستوطنات والمواقع العسكريّة والمناطق المستقلّة نظريّاً والواقعة تحت سيادة السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة. هذه الأسلاك تحمي وتستبعِد، تجمع مناطق مفصولة وتفصل بين مناطق متجاورة، وترسم في خاتمة المطاف متاهة من «الجزر» المتناثرة التي يجتذب بعضها البعض ويقصيه في آنٍ معاً. وإنّ تعقّد نظام الانتقال والحركة هذا، بتشعّباته الملتوية الكثيرة، ليبين عن إرادة المحتلّ في تشظيَة المناطق المحتلّة إلى وفرة من النتَف والشّذرات والجزيئات التي يجهل بعضها البعض ومع ذلك فهي منغرسة بعضها في داخل بعض.

كان الظلام قد أرخى سدوله عندما وصلنا أخيراً نقطة التفتيش المتاخمة لمخيّم «قلنديا» الذي هو معزل (غيتو) مشين. وبعد انتظارٍ دامَ دقائق، سُمح لنا بدخول رام اللّه تتقدّمنا سيّارة للشرطة الفلسطينيّة ونزلنا في أحد الفنادق التي بُنيت في فترة حمّى البناء التي تلت التّوقيع على اتفاقيّة أوسلو. في داخل الفندق كان ينتظرنا محمود درويش وممثّلون آخرون للثقافة الفلسطينيّة. لا داعي للتأكيد على أنّ أعضاء وفدنا والصحفيّين الذين يرافقوننا كانوا نزلاء الفندق الوحيدين. فمَن ذا الذي يأتي لإمضاء عطلته أو للتفاوض حول بعض العقود في مدينة تعيش حالة حصار، مدينة معذّبة تضمّد ببالغ العناء جراحها الحديثة العهد وتنتظر ببالغ الخشية جراحاً قادمة أشدّ هولاً؟

عندما يبزغ الصباح في رام اللّه، التي يذكّرني انقسامها المفاجيء إلى مرتفعات ومنخفضات بجغرافية عمّان، فإنّ هدوءً ريفيّاً يسود فيها. وبعد لحظات فحسب اكتشفتُ من نافذتي أكياس الرّمل التي تحمي نقطة اسرائيليّة للرمي تبعد عن الفندق بمسافة مائتي متر. وللذهاب إلى جامعة بير زيت الفلسطينيّة، على الطلبة والأساتذة وسكّان الأحياء والضواحي المجاورة أنْ يغادروا وسائط النّقل التي جاؤوا فيها ويسيروا على الأقدام مسافة خمسمائة متر في طريق قطعها الجيش الإسرائيليّ ليتكدّسوا بعد ذلك في سيّارات أجرة أو باصات صغيرة تنتظرهم في الجهة الأخرى. ولا يستجيب هذا كلّه إلى إجراء أمنيّ بل إلى عقوبة مفروضة على السّكان أجمعين. فبالوقفات الفاصلة بين نقطتين عسكريّتين يسعى شارون بجميع الوسائل إلى إهانة الفلسطينيّين مدفوعاً بالأمل العبثيّ وغير المعقول في ثلم إرادتهم في المقاومة وكسر انتفاضتهم.

ولقد أعربت روح مقاومة الجور هذه عن نفسها بكامل الألق في المهرجان الموسيقيّ والشعريّ الذي أقيم في مسرح «القصبة» في وسط المدينة. فالحضور الغفير أطلق بكامل العفويّة العنان لعواطف وانفعالات تراكمت في آماد الاحتلال الأخيرة. كانت آثار الحرب مرئيّة في كلّ مكان. وفي مخيّم «الأمعري» للاّجئين رأينا في آثار الهجوم العنيف على مدرسة وفي تهديم عشرين مسكناً بنسف الحيطان الفاصلة بينها صورة أولى عمّا ينتظرنا في غزّة من مَشاهد.

لم يكن مخطَّطاً في برنامجنا البدئيّ لأن نقابل ياسر عرفات. ولذا فقد أبديت شيئاً من عدم الموافقة عندما اقتُرح علينا ذلك. فالاحتكاك برؤساء الدول لم يستهوني يوماً، وأنا أعلم أنّ

لدى عودتنا إلى رام اللّه، ذهبنا إلى مقر القيادة الفلسطينيّة لمقابلة عرفات الذي ظهر في مكتبه بعد وصولنا بلحظات. عرفَ من بيننا سوينكا وساراماغو. أخبره رئيس البرلمان العالميّ للكتّاب، الكاتب الأمريكيّ رسل بانكس، بندائنا من أجل السّلام الذي بُثّ في السّادس من آذار وسأله أيّة رسالة يودّ تحميلنا إيّاها إلى العالم. قال عرفات: «سيحلّ بعد أيّام عيد الفصح اليهوديّ، ذكرى انعتاق الشعب العبرانيّ من عبوديّته في مصر. واليوم عليهم هم أنْ يمدّوا أيديهم إلى العبيد الحاليّين، نحن الفلسطينيّين. قولوا ليهود أمريكا إنّنا نطالب الإسرائيليّين بإعادة الأراضي المحتلّة لأهلها والاعتراف بالدولة الفلسطينيّة. في طفولتي كنت أسكن في القدس، في جوار حائط المبكى. وطوال طفولتي لعبتُ وصغاراً عبرانيّين. قولوا للأمريكان إنّ لديّ هنا، إلى جانب طاولتي للعمل، «مينوره»»، ثمّ نهض وأرانا شمعداناً صغيراً بسبعة فروع. ثمّ ذكّرنا بأنّ إحدى وعشرين امرأة فلسطينيّة قد ولدن في السيّارات أمام نقاط التّفتيش وأنّ اثنتين منهنّ فارقتا الحياة من جرّاء ذلك وأنّ طفلاً قد ولد ميتاً.

كنتُ قد قابلت هذا الرّجل في ١٩٨٢ (قبل عشرين عاما!) في «حمّام-الأنف» بتونس حيث التجأ بعد إخراج الفلسطينيّين من لبنان واقتراف مجزرة صبرا وشاتيلا. كان عدوّه الدائم آرييل شارون هناك أيضاً ليحاول اغتياله. هو الذي ما يزال، في اللحظة التي أكتب فيها هذه الكلمات، يحاصره بدبّاباته وينسف مقرّه ويعتقله في مكتب بحجرتين لا ضوء فيهما ولا ماء. وفي تلك الأثناء يذهب صبْيان وصبايا مدجّجون بالمتفجّرات لينتحروا ممارسين القتل على هذه الأرض المقدّسة التي استحالت جحيماً. وفي تلك الأثناء أيضاً يثير عناد العدوّ شارون وصمت حليفه بوش ردود فعل الدول العربيّة ويدفعان إلى توقّع الأسوأ. أوَ لم يقل البابا في روما في شبه بكاء: «إنّهم يشنّون الحرب على السّلام!».

وهنا، إذْ أنا في أمان، في بلادي ومنزلي، عائداً للتوّ من رحلتي إلى إسرائيل وفلسطين، مع الأنباء المرعبة التي تصلني والمكالمات اليوميّة تأتيني من پيپرا، فتاة إيطاليّة متزوّجة من فلسطينيّ ومعتقلة في منزلها في رام اللّه محرومة من الضّوء والماء، مع هذا كلّه أحسّ بلا جدوى الكلام وبالفارق الهائل بين واجب الكتابة هذا من أجل الشهادة على ما رأيناه ومن أجل مَن قابلناهم، والمأساة الكبرى التي تدور فصولها هناك.

ولكنّ الكتابة واجبة علينا. في اليوم التّالي ذهبنا إلى غزّة، وأمضينا لحظة انتظار طويلة أمام نقطة التّفتيش «إيرتز»، عند الحدود مع شريط غزّة. كانت تنتظرنا هناك سيّارات تحمل علم منظمة الأمم المتّحدة. وفي ما يشبه نزولاً في حلقات الجحيم، وصلنا إلى القريتين النّائيتين خان يونس ورفح اللتين تمّ احتلالهما من جديد وتهديمهما من عهد قريب. رفح خصوصاً، القريبة من الحدود المصريّة والتي محت البلدوزرات أبنيتها من على وجه البسيطة. نصحونا بالبقاء مجتمعين وبألاّ ينفصل أحد منّا عن المجموعة مخافة أنْ يتعرّض لقذيفة آتية من التحصينات المبنيّة بالخرسانة على الحدود. وفيما كنّا نتسلّق أنقاض منزل، وقع إلى جانبي رجل كان يحمل عكّازاً فأصيب بجروح في وجهه ويديه. ساعدناه على النّهوض فشرحَ لنا أنّ هذا كان منزله حيث كان يعيش هو

٦

تأملات في رحلة إلى الأراضي المحتلة

راسل بانكس

بعد رحلة استمرت خمسة أيام، مع سبعة من زملائي في البرلمان العالمي للكتّاب، إلى أرخبيل المعازل المُنهكة التي تشكّل المناطق الفلسطينية، التقيت على مائدة الإفطار في نهاية الأسبوع الماضي ، في فندق الملك داود في تل أبيب، بقائدين شابين لما يُسمى بالرافضين، أي أفراد من الجيش الإسرائيلي عبّروا علانية عن رفضهم للخدمة العسكرية في المناطق المحتلة. هؤلاء الرجال ليسوا أصحاب نزعة سلمية، أو معادية للحرب، وهم ليسوا من معسكر اليسار، ولا من الأعضاء المتمرسين في حركة السلام الإسرائيلية، المحبطة في الوقت الحاضر، وهم بالتأكيد ليسوا جبناء. هؤلاء صهاينة، أصحاب مؤهلات جامعية، يتسمون بقدرة التعبير عن النفس، وأبناء مخلصون لإسرائيل، وقد تحوّل موقفهم في هذه الأيام العصيبة إلى أهم مجابهة لمصداقية إسرائيل الأخلاقية، قام بها أحد من داخل العائلة.

التقينا على انفراد، وبناء على طلبهم. أرادوا مقابلتي بحكم منصبي كرئيس للبرلمان العالمي للكتّاب، ولوفد البرلمان، وفي المقام الأوّل لأنهم عرفوا عن طريق الإنترنت، أنني كنتُ منخرطا في الحركة المعادية لحرب فيتنام في الستينات والسبعينات. أرادوا نصيحة مجرّب من شخص، فكّروا باحتمال تعاطفه في الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي، مع قرارهم بالابتعاد عن السياسة العدوانية لدولتهم ضد الشعب الفلسطيني.

جرت المقابلة بعد يومين من وقوع العملية الانتحارية المميتة أثناء احتفال بعيد الفصح في نتانيا، على مسافة أميال قليلة إلى الشمال من تل أبيب، وقبل يوم واحد من إعلان رئيس الوزراء الإسرائيلي شارون عرفات «عدوا» له، وشن عملية الجدار الواقي، بما فيها الهجوم الوحشي على رام الله.

كان الشابان على يقين، بعد تلك الأحداث، أن الوضع يتدهور نحو الأسوأ بالنسبة للفلسطينيين

والإسرائيليين، وأرادا معرفة ما ينبغي عمله لاحقا. كانت نصيحتي لهما بسيطة: شكّلوا حركة تتمحور حول موضوع واحد فقط، وسعوا قاعدتكم لتشمل رجالا ونساء من مختلف شرائح المجتمع، واحرصوا على إبقاء الحملة داخل العائلة. بعد ذلك قولوا الحقيقة للسلطة القائمة.

يوجد حتى الآن ٣٧٠ من رافضي الخدمة العسكرية، وينضم إلى صفوفهم ما يزيد عن عشرة أشخاص أسبوعيا. وربما أسهمت أحداث الأسبوع الماضي في زيادة هذا العدد، أو أثرت عليه بطريقة سلبية. لا يمكن أن نعرف. وقد سألتهم عن سبب الابتعاد بأنفسهم عن أخوتهم وأخواتهم في الجيش الإسرائيلي، وجلب الغضب عليهم، إلى جانب ما يسببونه من اضطراب لآبائهم وأمهاتهم، وما يعود عليهم من أحكام بالسجن تصدرها الحكومة بحقهم.

ما الذي دعاهم لوضع أنفسهم في موضع يوصف بالساذج في أفضل الأحوال، وفي أسوأ الأحوال يصمهم بالجبن وكراهية الذات. فهذا في الواقع ما يواجهه هؤلاء الشباب يوميا في الصحافة الإسرائيلية، وفي بيوتهم.

لقد تفتحت عيونهم، وتغيّرت عقولهم عندما ذهبوا للخدمة في الضفة الغربية ومناطق فلسطينية أخرى. شاهدوا هناك ما شاهدته أنا وزملائي في وفد البرلمان العالمي للكتّاب في الأيام الخمسة التالية لسفرنا من تل أبيب إلى رام الله، عبر مدن وقرى الضفة الغربية، وانتقلنا إلى قطاع غزة، حيث زرنا مخيمات اللاجئين، وتأملنا بحزن تدمير أحياء وقرى بأكملها، ورأينا للمرة الأولى مدى فظاعة ما تمارسه المستوطنات اليهودية من هيمنة وتطويق.

لقد سافر وفدنا إلى الشرق الأوسط من خمس قارات، جاء من أفريقيا الروائي وول سوينكا الحائز على جائزة نوبل، والشاعر وكاتب المذكرات الجنوب أفريقي برايتن برايتنباخ، وجاء من الصين الشاعر المنشق بي داو، ومن أوروبا الروائي الأسباني خوان غويستلو، وجوزيه ساراماغو البرتغالي الحائز على جائزة نوبل للآداب، والروائي الإيطالي فينسنزو كونصولو، ومن فرنسا الكاتب وسكرتير البرلمان العالمي للكتّاب كريستيان سالمون، وجئت من أميركا الشمالية كروائي من الولايات المتحدة.

جئنا استجابة لدعوة من أحد الأعضاء المؤسسين للبرلمان العالمي للكتّاب، الشاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش، للتعبير عن تضامننا معه ومع زملائه من الشعراء والكتّاب الفلسطينيين، الذين يعيشون ويعملون في ظروف أصبحت تشبه الإقامة الجبرية في البيوت. إن البرلمان العالمي للكتّاب ليس منظمة تختص بحقوق الإنسان، وليس منظمة غير حكومية، بل هيئة فضفاضة من الكتّاب والشعراء الملتزمين بتقديم مساعدة ملموسة لزملائهم الكتّاب، الذين يجدون أنفسهم عرضة للخطر المادي، أو السياسي، بسبب دورهم ككتّاب. وقد عاش درويش وزملاؤه، على مدار عام ونصف العام، في ظل ظروف نعتقد أنها لا تطاق، وتستدعي الإدانة من جانبنا نحن الذين نتمتع بالحرية.

وبالمعنى نفسه، في تعبيرنا عن التضامن مع درويش وزملائه، ومشاهدتنا لما يعيشونه من ظروف لا تطاق، كنّا نعبر عن التضامن مع شعب تحتفي بحياته اليومية وتاريخه أشعار وقصص الفنانين الفلسطينيين. إن الوقوف إلى جانب نيرودا، يعني الوقوف إلى جانب شعب تشيلي،

والاحتفاء بوايتمن يعني الاحتفاء بالشعب الأميركي. يؤسفني القول إن السياسيين والحكومات عادة ما يهتمون بأنفسهم، ولذلك جئنا إلى المناطق الفلسطينية لنرى بأم أعيننا، ونسمع بآذاننا، ما يحدث للشعب الفلسطيني.

لهذا السبب، عبرنا معهم الحواجز، إلى جانب نساء طاعنات في السن يحملن الحاجيات المنزلية، ونساء حوامل، وأمهات يحملن أطفالهن، إلى جانب تلاميذ مدارس خائفين وشاحبين، ورجال ونساء في طريقهم إلى الشغل، أو طريق عودتهم إلى البيت. وقد أرغمنا على السير مسافة نصف ميل، تحت الشمس الحارقة، وأعين جنود إسرائيليين مدججين بالسلاح، وبلا تعبير على وجوههم. دخلنا شوارع ضيقة، وأزقة ذات قنوات مكشوفة للصرف الصحي في رام الله. ورأينا مذهولين البيوت والمباني العامة، التي دمرّت باستهتار بالغ، في مخيمات اللاجئين في الضفة الغربية وقطاع غزة.

استمعنا إلى طلاّب وأعضاء هيئة التدريس في جامعة بيرزيت، الذين يحاولون الحفاظ على جامعة غالية على قلوبهم، ورأينا بفزع مستوطنات تلوح في الأفق وتتوسع بسرعة. رأينا الفقر المدقع للغالبية العظمى من الفلسطينيين وقلة حيلتهم. إحصاءات متجهمة تكتسب ملامح إنسانية. عجز ويأس انتحاري النزعة يكشف جذورها.

وقد مشيت ذات مساء في رام الله، بعد دعوة للعشاء من جانب محمود درويش وآخرين من مثقفي المدينة وفنانيها، مع الروائي الفلسطيني عزت الغزاوي، إلى تلة مرتفعة خلف الفندق الذي نقيم فيه، ونظرت إلى منحدر عريض يسطع فيه نور القمر. أشار رفيقي إلى القدس، تتوهج كأنها مركز الكون، على مسافة لا تزيد عن سبعة أميال، العاصمة المتوهجة للأحلام الدينية في العالم. وما بدا أقرب إلى اليد كان مستوطنة يهودية، تبدو كضاحية لمدينة أميركية، بشوارعها المرسومة بعناية، وحوانيتها الصغيرة، وبناياتها المكوّنة من عدة طبقات وشقق للسكن، كانت ذات بنية تحتية حديثة، تسطع فيها أضواء الشوارع، وتبدو كأن سفينة فضائية هائلة وضعتها هناك، بكامل هيئتها، على المرتفع الصخري بين ليلة وضحاها.

تحت المستوطنة، وليس على مسافة قريبة تماما منها، ثمة معسكر للجيش الإسرائيلي، منصوب بدقة هندسية بالغة، كأنه على لوحة ألعاب، أبراج للمراقبة في الزوايا، ثكنات ومخازن مصممة بطريقة استراتيجية بين الأبراج، وأضواء كاشفة تمسح الأرض داخل المعسكر، وتمسح مناطق وعرة تتناثر فيها الصخور خارجه. وعلى مسافة أبعد، في الظلال اللصيقة برام الله، ثمة كتل من مكعبات مظلمة، عديمة الجدوى، إنها مخيم للاجئين، بينما الضوء الوحيد القادم من هناك، ضوء القمر الشاحب المنعكس على سقوف معدنية مجعدة. القدس، المستوطنة، النقطة العسكرية، ومخيم اللاجئين، أربعة أشياء يغسلها ضوء القمر نفسه، وجميعها ظاهرة من النقطة نفسها فوق جرف صخري في رام الله، لكن الأشياء الأربعة لا تبدو مرئية لبعضها.

التقينا بالرئيس عرفات بناء على طلبه في مقر قيادته المحطم. ورغم إدراكنا أننا قد نبدو في أعين مواطنينا بعد العودة كأننا زمرة من الجين فوندات [إشارة إلى الممثلة الأميركية جين فوندا، المعروفة بمناهضتها للحرب في فيتنام] اللائي يعانقن هوشي منه، إلا أننا لم نشعر بالحرص على

العلاقات العامة، ولا بالحاجة لإظهار «الحياد». وقد التقينا، أيضا، مع كتّاب إسرائيليين، ونشطاء من أجل السلام. قابلنا، وول سوينكا وأنا، وزير الخارجية الإسرائيلي شمعون بيريس، بناء على طلبه أيضا، وسمعنا روايته عن أحداث الشرق الأوسط منذ العام ١٩٤٧. لكن هذه النظرة الإسرائيلية، سواء من جهة اليمين أو اليسار، مألوفة لدينا في أوروبا والولايات المتحدة، ولا نجد صعوبة في الحصول عليها يوميا من وسائل الإعلام، بينما ليس من السهل الحصول على النظرة الفلسطينية.

وقد كان من الطبيعي أن يعالج كل واحد من الكتّاب الثمانية استنادا إلى تجربته الذاتية، ومزاجه، وميله السياسي، ما رأى وما سمع. فنحن لا نلتزم خطا حزبيا بعينه، أو موقفا رسميا. ولكي نتخيّل طبيعة الواقع الذي يعيشه الفلسطينيون، كنّا نحتاج التفاصيل اليومية، خصوصيات الحياة اليومية، التي تسم وضعهم. ولم نكن نحتاج لسماع ابتهالات جديدة حول عملية السلام المعطلة، والاتفاقيات المنتهكة، والرفض والخداع، لنرى الصورة كاملة. فالتشابه والمقارنات المستمدة مما عرفناه كانت كافية لتزويدنا بالبصيرة وإمكانية الفهم.

استطاع وول سوينكا وبرايتن برايتنباخ رؤية أوجه واضحة للشبه مع نظام الأبارتهايد في جنوب أفريقيا، وكذلك أوجه الاختلاف. وكان بوسعي عقد مقارنات مع «المستوطنات» الإنكليزية البيضاء في أيرلندا القرن السابع عشر، وملاحظة أن الأوروبيين في أميركا الشمالية، بعد انتصارهم الساحق عسكريا، على السكان المحليين، مارسوا سياسة احتواء، وإعادة توطين للسكان المحليين، بطريقة تشبه في بعض المناحي سياسة إسرائيل في المناطق المحتلة منذ العام ١٩٦٧. تكلمنا عن أشياء متوازية الحرب في البلقان، واستراتيجيات التطهير العرقي. تكلمنا عن معاملة الصين لسكان التيبت، وأشياء من هذا القبيل. ووصل الحد بأحد زملائنا، ساراماغو، إلى عقد مقارنة مع معاملة النازيين لليهود (وهي مقارنة جرى رفضها على الفور من جانب بقية أعضاء الوفد) ومع ذلك، هذا الوضع فريد في الواقع.

وهذا في الواقع جزء كبير من مشكلة كل واحد منّا، لا يطلب أكثر من السلام، والحرية، والأمن للإسرائيليين والفلسطينيين. لا يمكن مقارنة هذا الوضع مع وضع آخر. وبالتالي، فإن على نشطاء السلام في الجانبين، والمثقفين والأكاديميين والشعراء والروائيين في كل أمة، وخاصة الرجال والنساء الذين يملكون قرار صنع السياسة في الحكومة الإسرائيلية، والسلطة الفلسطينية، وعلينا جميعا الذهاب أعمق في خيالنا إلى حد أبعد مما وصلناه من قبل.

في البداية يجب وضع حد للهجوم الوحشي المجنون الذي يشنه شارون ضد شعب يعيش في المناطق المحتلة، وكذلك الهجمات الانتحارية، التي تحيّر العقل، التي يشنها فلسطينيون ضد الإسرائيليين. فنحن لا نستطيع، كالعادة، الاتجاه نحو الأمم المتحدة أو الولايات المتحدة، أو تجاه طرف ثالث ـ رغم أن جميع من قابلناهم، تقريبا، سواء من الفلسطينيين أو الإسرائيليين يعتقد أن وجود طرف ثالث مسألة ضرورية لإنهاء الصراع، لكن هذا الأمر جُرّب من قبل، وفشل في مرّات كثيرة.

لهذا السبب شعرت بالارتياح في يومي الأخير في الشرق الأوسط، عندما التقيت في تل أبيب بشابين إسرائيليين، يُطلق عليهما اسم رافضي الخدمة العسكرية. فكرّت، هنا توجد الإمكانية الوحيدة للخروج من دوامة الرعب. على الرجال والنساء الذين يشكلون جيش الاحتلال رفض الخدمة العسكرية، وعندما يحدث ذلك، سيبدأ الانتحاريون الفلسطينيون الشباب، خصومهم الواقفون على الجانب الآخر، بطريقة مأساوية يائسة ـ الذين يعتقدون أن لا مستقبل ينتظرهم سوى التحوّل إلى قنابل بشرية ـ في إدراك أن حياتهم تستحق العيش، عندئذ، فقط، يمكن البدء بالمفاوضات.

أبريل، ٢٠٠٢، نيويورك.

زيارة

٧

صابرون

كريستيان سالمون

إبتكر المهندس المعماريّ بوغدان بوغدانوڤيتش Bogdan Bogdanovitch إبان الحرب الأهليّة اليوغسلافيّة مصطلح «الإبادة العمرانيّة» Urbicide للتعبير عن التّهديم الذي تعرّضت له مدن البلقان. وما يلفت النظر باديء ذي بدء في فلسطين هو العنف الممارَس بحقّ الأرض وبحقّ المجال. لا ترى على مدى النّظر سوى أنقاض تنبسط تحت سماء مفتوحة وكثبان «مبقورة» وغابات مقتلعة أشجارها. مناظر مهلهلة كنسيج ممزّق. أحالها عنف يبدو منظّماً متعذّرة على القراءة. لا عنف القنابل والحرب فحسب، ولا وحده التهديم الناجم عن تسلّلات أحدث الدبّابات وأثقلها، بل هو عنف فاعل، نشيط، وبارع. عنف مساحيّ. وإذا بقبح الخرسانة والقار يمتدّ ويغطّي أجمل مناظر التاريخ الإنسانيّ. والكثبان محزّزة بالطرق الالتفافيّة المشقوقة لحماية مداخل المستوطنات الإسرائيليّة. وعلى حوافّها يهدّمون المنازل ويقتلعون أشجار الزّيتون ويمحون مزارع البرتقال... وهذا كلّه بهدف تحسين... الرؤية. في محلّها تنبسط مساحات مهملة، أراضي حيادٍ تعتليها أبراج مراقبة. والبلدوزر الذي نقابله على قارعة الطريق في كلّ حدب وصوب يبدو في الحًرب بمثل استراتيجيّة الدبّابة. قطٌّ لم يبدُ لي جهازٌ بمثل انعدام الأذى هذا محمّلاً بكلّ هذه الشّحنة من العنف الصّامت. يا لفظاظة البلدوزرات! يُقال إنّ الجغرافية تفيد في خوض الحرب. في فلسطين، تعمل الحرب على تفكيك الجغرافية.

طوال أسبوع كامل، لم نقابل في طريقنا من رام اللّه إلى غزّة قرَفح سوى صوَر تهديم: قرى وطرق ومنازل مخرَّبة. يحرقون المحاصيل وينسفون مباني الخدمات العموميّة. منشآت جماعيّة لم يكد بناؤها يكتمل تتعرّض للتدمير بفعل صواريخ تطلقها الحوّامات أو الـ ف ١٦. ميناء غزّة

ومطارها الدوليّ مثلاً، إذاعة «صوت فلسطين» في رام الله، مكتب للنقل البريّ، مختبرات طبيّة ومَبانٍ بلديّة من مدارس وأحياء سكنيّة وطرق ومَجارٍ ومستودعات نفايات. مَن سَيصدّق أنّ جميع هذه المُنشآت كانت تشكّل مخابئ لإرهابيّين؟

زرنا في رفح قرية مُحيَتْ عن آخرها، متاخمة للحدود المصريّة. رحنا نسير على منازل منهارة. ندوس بأقدامنا على دفاتر مدرسيّة وأدوات طبخ وفرَش أسنان. فتات حياة. أفهمتْنا امرأة أنّهم تركوا لهم خمس دقائق لإخلاء المكان. في عزّ الليل. ثمّ مرّت البلدوزرات وعاودت المرور لـ «تنهي العمل». هذه الصيغة هي بصدد التحوّل إلى شعار للجيش الإسرائيلي. في أعلى أبراج المراقبة، رشّاشات مزوّدة بالأشعة تحت الحمراء تحرس مساحاتٍ قفراء. ما من جنديّ. إنّها تطلق نيرانها في اللّيل تلقائيّاً ما إنْ يشتعل ضوء في المدى القريب. الصّفوف الأولى من المنازل منخولة بالرّصاص. السّكان يعيشون تحت طائلة تهديد دائم من لدن الأسلحة الأوتوماتيكيّة. هوذا كيف يصنعون مناطق عازلة أو صمّامات أمن.

ماكنة التّشويه دائمة النّشاط. صبور هي ومتشاغلة كمثْل نحلة. وما تفعل؟ إنّها تجترح حدوداً. تبْذر حدوداً. تنشيء الحدود أنّى طاب لها وكيفما اتّفق. هنا تنتشر الحدود في كافّة الأرجاء. تجتاز كلّ منعطف شارع، وكلّ كثيب، وكلّ قرية، وأحياناً كلّ منزل... أبراج المراقبة تحلّ محلّ الرّياض. وتحصينات تدعّم الحواجز. كلّ حائط ينتصب مُعادياً. كلّ منزل يمكن أنْ يخفي قنّاصاً. وفي كلّ منعطف يمكن أن تفاجأ بنقطة تفتيش. حدث أنْ قابلنا نقطتَي تفتيش على مدى مئتي متر. في الضفّة الغربيّة وحدها ثمّة اليوم سبعمئة نقطة تفتيش. بعض الشوارع ألغتها حيطان مرتجَلة، والدّخول إلى جامعة بير زيت يلزم بانتهاج مسار على مرحلتين، بالباص أو سيّارة الأجرة، يتوسّطهما شوط نقطعه على القدمين، إجباريّ. لقد حوّل الجيش الإسرائيليّ الأراضي المحتلّة إلى سلسلة من التّخاريب المعزولة بعضها عن بعض، يسيطر هو على مداخلها ومخارجها. هكذا تجد مئتين وعشرين «نخروباً» هي مصائد فئران حقيقيّة حتّى لا نقول معازل أو «غيتوات». وعلى الدّوام تجول فيها دبّابات «الميركافا» التي ترافقها من علٍ طائرات «الأپاتشي» المروحيّة المهداة من الجيش الأمريكيّ... هي حدود من نمط جديد. حدود متحرّكة، مساميّة، رجراجة، بل غائمة. حدود لا تني تتحرّك. ذات مساءٍ دعانا محمود درويش في رام الله لارتقاء تلّة صغيرة تُرى منها القدس. كانت القدس تأتلق بآلاف الأنوار على مسافة كيلومترات قليلة على خطّ مستقيم. وبينها وبيننا كانت تنتشر مناطق من العتمة وبعض الأنوار المتباعدة الرّاجفة: بيوت فلسطينيّة. ثمّ أبعد، ناحية اليمين، تبين من جديد منطقة شديدة السّطوع تنطلق منها طريق مضاءة تقود إلى مستوطنة إسرائيليّة. وفي هذه التّماريات أو الانعكاسات المرآتيّة للنّور، ميّزتُ أيضاً الحدود التي تتنقّل متلألئة.

قال الكاتب البولنديّ كونڤيكيّ عن بلاده يوماً: «وطني يتحرّك على عجلات: حدوده تتنقّل على هوى الاتّفاقيّات». في فلسطين، الأمر أسوأ بكثير. تتحرّك الحدود كسحابة من الجراد. تنتقل بطفرة واحدة بمقتضى العمليّات الانتحاريّة، بفجاءة الأمطار أو الرّعود. يمكنها أن تصل إلى

منزلك ذات ليلة، كالبريد، بسرعة الدبّابات.... أو أنْ تنزلق ببطء كما تنزلق الظلال. زاحفة زحفاً هي الحدود. تطوّق القرى ونقاط التموّن بالماء. هي نقّالة كالحيطان المسوّرة المزوّدة بكلاّبات رافعة والتي رأيناها في رفح، قابلة للتّقل أنّى شاءوا، بمقتضى تقدّم الاستيطانات، عوازل مبتذلة لمنزل جوّال. خاطفة أيضاً هي الحدود: شأنها شأن القاذفات، تفتّت الفضاء وتدكّه دكّاً. تحيله إلى فضاء حدوديّ، إلى فتات فضاء. والفضاء الحدوديّ لا ينظّم الحركة في المجال بقدرما يشلّها ويُسمّرها. لا يعود يحمي الأفراد، بل يحيل كلّ نقطة من الفضاء إلى منطقة ملغومة، وكلَّ امرىء إلى دريئة حيّة أو قنبلة بشريّة. لم تعد الحدود هنا هي ذلك الخطّ السلميّ الذي يميّز بين فضاءات ذات سيادة ويحدّد لكلّ منها مكانها. أي ذلك الخطّ الذي يهب الفضاء أشكاله وحواقّه وألوانه. بل تمارس الحدود الكبت والتّهجير والخلخلة... وسواء أكنّا في إسرائيل أم في المناطق المحتلّة، فالفضاء صار معادياً، فضاء بلا محتوى ولا أطُر، وإنّه ليُعمّم انعدام الأمن. كتب رنيه شار: «إزالة المسافة تَقتُل».

نوافذ هي كوى للرّمي، وواجهات صارت أسواراً، وصفوف أبنية هي مدينة-ثكنة. ما نراه من المستوطنات الإسرائيليّة يوحي بمعمار منطوٍ على ذاته، انغلاق ذاتيّ تمليه دواعي الأمن ولا شكّ، ولكنّه يفضح إقراراً بهاجس الفضاء، فضاءٍ مخشيّ، مكبوت، فضاء-خوف. كان هرمان بروخ يقول عن ڤيينا نهايات القرن التّاسع عشر: «إنّ حقيقة حقبةٍ يمكن قراءتها إجمالاً على واجهة معماريّة». فلئن كان ذلك كذلك، فإنّ واجهات المستوطنات الإسرائيليّة لتشكّل شعارات. إنّها تفصح عن علاقة شبه ارتعابيّة بالمحيط. خوف من الخارج. ما يضادّ روح الضيافة الغامرة المكانَ الذي نحن فيه، تماماً. هيلة من الخارج هي معكوس سياق الاحتلال. بقدرما يتقدّمون في المجال المُعادي، يتقوقعون في دواخلهم. صيغة تنطبق على مجموع المجتمع الإسرائيليّ. لا يتعلّق الأمر هنا باستعمار للخارج كهذا الذي يشهد عليه معمار الإسبان المنفتح على المحيط في أمريكا اللاتينيّة، بل باستعمار للداخل لا يكتفي بالاستحواذ على مجالٍ مُعادٍ بل يدلّ على انسلابٍ ذاتيّ. أنموذجه المثاليّ هو «البونكر» [الخبيئة التّامة الانعزال عن الخارج، من النمط الألمانيّ]. وهذا ملمح طالما سكتَ عنه السّجال السياسيّ-الإعلاميّ: فالاستيطان الإسرائيليّ في المناطق الفلسطينيّة المحتلّة ليس فحسبُ جائراً وعديم الشرعيّة، بل إنّه لَمستحيل. إنّه يقوم على استحالة التوطّن هذه التي تميّز «باتولوجيّات» المنفى أو نزعاته المرَضيّة والتي تدمغ سكّان مخيّمات اللاجئين أيضاً. المستوطنات الإسرائيليّة متعذّرة على السّكنى بصريح العبارة. ليست فحسبُ غير مريحة أو خطيرة أو متعذّرة على العيش في المدى الأبعد. بل هي نابعة من استحالة السّكنى هذه التي تمثّل الوجه الآخر للعودة... ومن هنا صورَها المفارقة. مساكن «جاحظة»، فالتة من عُراها، شاذّة بصريح القول. إنّ أمن كلّ مستوطنة مغروسة في قلب فضاءات تسكنها أغلبيّة فلسطينيّة (خمسون ألف مستوطِن مقابل مليون ونصف المليون فلسطينيّ في غزّة بمفردها) إنّما يُلزم بمجهودات أمنيّة دائمة وبسيطرة مُحكَمة على المداخل والمخارج. فمرور كلّ سيّارة لمستوطِن يثير عرقلة للسّير تمتدّ على مسافة كيلومترات عديدة في الطريق المجاورة التي تشغلها نقاط تفتيش متتالية.

ضرب من «الأبارتهايد» المروريّ يتطلّب من هندسة الطرق ابتكاراتٍ متجدّدة. وفي غزّة التي يظلّ مثل هذا الازدحام فيها أقلّ شيوعاً ممّا في سواها، وحيث يتمتّع هجران المستوطنات بالقدر الأكبر من الاحتمال، رأينا جادّاتٍ مفصولة بحيطان تبلغ مترين من العلوّ وجسراً بصدد البناء يعلو مجالات مسكونة. تشكّل البلدوزرات الكليّة الحضور شاهداً على ذلك مُبيناً ومُقلِقاً: فلا يتعلّق الأمر هنا بالعثور على إجابة على سؤال كافكا: «ما العمل من أجل السّكنى؟»، ما دام المشكل لم يعد متمثّلاً في السكنى بقدرما في التّهجير.

لقد انتقل الإسرائيليّون في مدى بضع سنوات من يوتوبيا الكيبوتزات [إذ اليوتوبيا utopie مثال غير قائم من قبل في أيّ مكان] إلى «هوائيّة» المستوطنات [المفتقرة إلى أيّ انغراس في المكان a-topie]. في الستّينيّات من القرن العشرين، حيث كان مشروع الكيبوتزات ما يزال مغرياً، كانوا يعِدون بتحويل الصحراء إلى فردوس، وإذا بهم يحوّلون الفردوس التّوراتيّة إلى صحراء ومساحات جرداء بل إلى ميدان قتال. هي حرب تُخاض بالبلدوزرات. مشروع تهديم. مجهود لا سابقة له في تاريخ إعادة الانغراس المجاليّ. هي حرب قائمة على الارتعاب من الجموع. فالحركة بين اسرائيل والأراضي المحتلّة معطّلة كليّاً. لم يتمكّن محمود درويش من ارتياد اسرائيل منذ دفن صديقه إميل حبيبيّ، الروائيّ والعضو في الكنيست، قبل ثلاث سنوات، ولم يُسمح له حتّى بزيارة والدته الرّاقدة في مستشفى. إعتبروا حضوره في اسرائيل إخلالاً بالأمن. ولقد اشتكى أمامنا كتّاب فلسطينيّون آخرون عديدون من هذه الإقامة الجبريّة المفروضة عليهم. لن تطأ أقدام الأطفال الفلسطينيّين أرض اسرائيل أبداً، وهم لا يعرفون من هذا البلد المُعادي سوى جنود مسلّحين يمارسون تهديم منازلهم وإهانة ذويهم على مرأى منهم. ولدى بلوغهم سنّ الرّشد، لن يكونوا عرفوا سوى القاذفات التي تحوم في السّماء وحوّامات الأپاتشي التي تبصق على مدارسهم ومراكزهم الثقافية سمومها النّاريّة، والبلدوزرات التي تمحو قراهم من على وجه البسيطة... وبالمقابل، لن يعرف الإسرائيليّون من الفلسطينيّين سوى الانتحاريّين الذين يفجرّون أنفسهم في المقاهي. ولقاءات الكتّاب الفلسطينيّين والإسرائيليّين صارت متعذّرة هي أيضاً. بباعث من عوائق التنقّل.

ولكنّ الصعوبة نفسها تمنع الفلسطينيّين من ملاقاة بعضهم البعض. يتعذّر الذهاب من رام اللهّ إلى غزّة. قال لنا كاتب فلسطينيّ إنّ الذهاب من نقطة في شريط غزّة إلى أخرى يمكن أن يستغرق من الوقت أكثر ممّا يستغرقه السّفر إلى نيويورك... لم يعد البعض قادراً على ملاقاة البعض الآخر، ولا على قراءة ما يكتبه. لا ولا على تكليمه. إنّ صمتاً بالغ الإقلاق ينسج حبائله حول كامل فلسطين. ومن جهة إلى أخرى من الحدود غير المرئيّة ما عادت الكلمات تبدو منطوية على المعنى نفسه. بعض الأشياء لم يعد حتّى ممكناً تسميته. صورة الانتحاريّ (الكاميكاز) الفلسطينيّ تسكن المخْيال الإسرائيليّ. والمحتلّ الإسرائيليّ يكمّم المستقبل الفلسطينيّ. دخل الجيش الإسرائيليّ في رام اللّه بعد مغادرتنا بيومين. ومن جديد، احتلّ جميع المنشآت العامّة ووزّع على الطوابق العليا من البنايات قنّاصين متأهّبين لإطلاق النّار على المارّة كما فعل الصّرب في سارايیڤو،

ونسفوا الأبنية التي اعتصم فيها مدنيّون وانتهكوا حرمة مزارات دينيّة بقيت تشكّل منذ القرون الوسطى ملاذات. ولكنّ الأسوأ هو هذا: أوقف الجيش البثّ في قناة تلفاز خاصّة استولى عليها، ومن دون مخاطبة المشاهدين راح يبثّ أفلاماً خلاعيّة متواصلة!

أهذه هي صورة العالم الحرّ التي يزعم شارون تجسيدها؟ إنّ جيش احتلال يقترف مثْل هذه الفعال قد فقد كلّ تبرير. لم يعد ليشكّل سوى قوّة للإهانة. ثمّ إنّ تاريخ الاستعمار قد أثبت مراراً عديدة أنّه ما هكذا تُغنَم الحروب. ولكنّهم يريدون إقناعنا بأنّ هذه ما هي حرب بل ممارسة دفاعٍ عن الذّات! وبأنّ تدمير جميع البنى التحتيّة لدولة فلسطين القادمة ما هي إلاّ إجراءات ضدّ إرهابيّة! وبأنّ اجتياح مجالٍ ذي سيادة ليس احتلالاً! الحقّ، لا يشكّل إغلاق الأراضي المحتلّة وعزلها عن العالم لوحدهما شتيمة بوجه المستقبل، بل هناك العزل البلاغيّ. لقد أصيبت اللغة بالعجز. فلسطين مجال لغة منهارة. أتذكّر خصوصاً شاعراً فلسطينيّاً تكلّم في مركز رام اللّه الثقافيّ عن إساءة الحرب لـ... بناء اللّغة نفسه! قال: «لغتنا أصابتها الحرب بالرّكود. والقصيدة مسحوقة أكثر من شوارعنا. نحن مجبرون دائماً على إسباغ صفة مأساويّة على الشّعر. وعلينا دوماً الاحتراس من الإيقاعات الحربيّة والعثور على إيقاع لا يرنّ كهدير الطّبول». واختتمَ بشيء من السخرية المتعَبة: «عندما نحدّق بالنّجوم نرى حوّامات. والشيء الوحيد المابعد حديث هنا هو الجيش الإسرائيليّ!». وأتذكّر أيضاً كلمات درويش الشجاعة قبل شهور: «لن أكون حرّاً بحقّ إلاّ عندما ينال شعبي حريّته. أي عندما أتحرّر من فلسطين». وإنّني لأندهش من أنّ فلسطينيّين في حالة حربٍ احتفظوا بهذا القدر كلّه من الحريّة. وبهذه العلاقة الحقّ مع أنفسهم ولغتهم. مقاومة اللغة! أكثر ممّا هي لغة المقاومة! بعد ذلك بأيّام، سمعتُ المعاينة نفسها ينطق بها الفيلسوف الإسرائيليّ أمنون راز، المعارض لسياسة شارون: «منذ فشل مفاوضات كمب داڤيد، لم يعد لدينا من مفردات. تلزمنا للتفاوض ولإحلال السّلام لغة جديدة». ولم يكن آرثر كوستلر ليقول قبل عقود من السّنوات شيئاً آخر: «الحروب إنّما تُخاض من أجل بضع كلماتٍ، وعلى أرض دلاليّة». اليوم، يهيمن منطق الحرب على السّجال. من هنا كان الكتّاب ضروريّين. لا ليضطلعوا بدور أصحاب الخوَذ الزّرق بل ليَسمعوا ويُسمِعوا أصواتاً أخرى، أصوات المبدعين والفنّانين والجامعيّين وجميع مَن يهيّئون المستقبل خارج الفئات المتصارعة. هم جميعاً قادرون على مجابهة منطق الحرب لا بقوّة تفصل بين المتطاحنين بل بقوى متعدّدة للتأويل المشترك. دورهم، الهائل والمحدود في آنٍ معاً، يتمثّل في كسر الصّمت وإعادة إنعاش الحكاية. إعادة بناء لغة سلام. السّلام هو دوماً لغة جديدة، منطق جديد، بناء لغةٍ جديد. هوذا ما تكلّمنا عنه، بين حالَتي حصارٍ، صحبة الكتّاب الإسرائيليّين والفلسطينيّين.

عندما اجتاح الجيش الإسرائيليّ مدينة رام اللّه بعد مغادرتنا إيّاها بأيّام، واقتحم مسرح «القصبة» الذي كانت تتردّد فيه قبل أيّام أصداء نصوصنا التي قرأناها بثماني لغاتٍ، من الصينيّة إلى العربيّة فالأفريكانير (لغة أهل أفريقيا الجنوبيّة) فاليوروبا فالبرتغاليّة فالإيطاليّة فالإسپانيّة فالفرنسيّة...، وحيث قرأ محمود درويش قصيدته «حالة حصار»، وهذا كلّه أمام

جمهور من ألف شخص لا شكّ أنّ بعضهم اضطر من أجل الوصول للقيام برحلة دامت ساعات عديدة بسبب من حواجز التفتيش العسكريّة، جمهور راح يصفّق واقفاً لا لمتعصبّين دينيّين تزخر نفوسهم بالحقد ولا حتّى لمقاتلين من أجل القضيّة الفلسطينيّة، بل لكتّاب وشعراء، عندما حدث هذا الاجتياح قلت لنفسي إنّ ما يفصل بين هذين الشّعبين هو أنّ الفلسطينيّين ما زالوا لا يتمتّعون بدولة ولا بمجال ولكنّهم لديهم حكاية. وهو ما بدأت إسرائيل التي تمارس الاضطهاد والإهانة والتّدمير والنّهب تفقده.

سلطة الحكاية وسيادتها. لا السلطة السياسيّة التي يقدر شارون أنْ يزمع مواصلة فرضها بعض الوقت بفضل الدبّابات والقنابل، بل سلطة الشيء المحكيّ، ما يدعوه اختصاصيّو السرّد بـ «كفاءة التخييل». يمكن أنْ يكون شعب بلا أرض ولا دولة، ولكنْ لا يمكن أنْ يظلّ شعب بلا حكاية طويلاً. وهذا هو ما تعلّمته في فلسطين. وهذه الأمثولة إنّما تتلخّص في كلمة واحدة هي «صابرون». كلمة ترنّ كاسم امرأة ولها لون تراب فلسطين. هذه المفردة، لم أجدها في كتاب ولا في قاموس. بل لقد اكتشفتُها في شوارع رام اللّه وعلى الطرقات، بين غزّة ورفح، على أوجه العمّال المتزاحمين أمام نقاط التفتيش والذين ينتظرون صابرين ساعاتٍ من أجل العودة إلى بيوتهم في المساء. وما هي بمفردة للحقد. هي مسحة الكرامة التي تجلّل وجوه النّساء الحوامل اللائي يلدن على قارعة الطريق. هي مرح التلامذة يسلكون كلّ نهارٍ الطرق التي بقرتها جنازير الدبّابات، للذهاب إلى جامعة بير زيت. هي عناد النّسوة يشرن بنظرةٍ إلى حيطان بيوتهنّ المنسوفة في مخيّم «الأمعريّ» للاّجئين. ولقد قلت للفلسطينيّين في ذلك المساء، في مسرح رام اللّه المهدّم اليوم والغائص في الظلام والصّمت، قلتُ لهم: «لأنّكم صابرون فالمستقبل إليكم يعود».

ترجمة: كاظم جهاد

٨

في فلسطين وما بعد الزيارة

الياس صنبر

بدأت هذه الزيارة القصيرة، مع وفد برلمان الكتّاب العالمي، بذكريات الطفولة، ليس لأنني أقوم بزيارة أخرى إلى وطني الضائع، بل لأسباب تتعلق بمشروع الزيارة نفسها. فقد قررنا في الواقع القيام بزيارة لمحمود درويش. ورغم الوضع الصعب، وحقيقة أن الصديق المعني يعيش تحت حصار تفرضه قوات الاحتلال ـ إلا أن لتعبير القيام بزيارة أصداء مألوفة، وهي تتعلق بالعائلة في حقيقة الأمر. بلى، عندما كان أبي وأمي يخرجان، اعتادا القول لي: «لا تقلق، نحن نقوم بزيارة، ولن نتأخر في العودة إلى البيت، ولن تجد ما يسرك، إذا عدنا ولم نجدك نائما». ويجدر القول إن تلك «الزيارات» التي لم أشارك بها، كانت مصدر خذلان بالنسبة لي، ضايقتني بقدر ما حرمتني من القصص التي اعتاد أبي سردها لي في الليل.

سيدرك القارئ بسرعة كافية لماذا غمرتني المشاعر في ذلك الصباح في مطار رويسي. فلم أكن مشاركا في هذه الزيارة إلى فلسطين وحسب، بل كنت ـ وكما فعلت في مرّات سابقة ـ ذاهبا للعودة بحكايات، «حكاياتي».

يعود الإنسان بالحكايات، دائما، إذا اختار لها أن تكون القوة الدافعة في حياته. ولكن ينبغي القول إن الحكايات من بلادي ليست كتلك التي أجمعها وأكنزها في مجمع تجوالي كشخص يعيش في المنفى، تحضه حاجة ماسة إلى الحركة، ويسكنه إحساس عذب بانعدام الوزن. المفارقة أن هذا الإحساس بالحرية، الذي ينطوي عليه التجوال الطوعي، أصبح أشد قوّة منذ ذلك الصباح في أبريل ١٩٤٨ عندما بدأت حياتي بحركة قسرية.

لذلك، للحكايات من فلسطين خصوصيتها لأنها تقع ـ هكذا على الأقل اسمعها وأراها، وهكذا تصطفيها ذاكرتي ـ على حافة الضحك والحزن، على حافة الحياة المستقرة وحياة التجوال، الإنسانية والقسوة، القريب إلى حد مطلق والبعيد إلى حد مخيف، صوتي الخاص، وأصداء

الأصوات كلها التي تعبر الهواء في بلادي.

وبينما أكتب هذه السطور، أسترجع كلمات ليلى شهيد ـ التي عيّنت نفسها دليلا للرحلة، بفضل كرم جارف ـ عندما كانت تصف لنا المشهد الذي نراه من نافذة الحافلة التي تقلنا من القدس إلى غزة، قائلة إن فلسطين بلد صغير الحجم، فاستبدلت التعبير المألوف «كل شئ هنا على مرمى حجر» بالتعبير المدهش «كل شئ هنا بحجم جناحي طائر السنونو».

الحكايات التي سأرويها الآن في نطاق حجم «جناحي طائر السنونو»، بالغة القرب بالنسبة لي، لكنها بعيدة كأنها مخترقة بفوضى دبابات جيش الاحتلال، أذى وغضب جنوده الأشرار، الذين رافقوا عودتنا من فلسطين.

ناولني خوان غويتيسولو، قبل إقلاع الطائرة في مطار رويسي، جريدة مغربية:

«هل علمت أن ما كتبته عن رحلتنا أعيد نشره في الصحافة المغربية؟»، تناولت الجريدة، ولاحظت على الفور أن خوان سوّد صورته المنشورة في بداية المقالة بقلم جاف»

«لا تريد أن يرى الناس صورتك؟»

«هذه ليست المشكلة. أنا صاحب المقالة، لكنهم نشروا صورة لشخص آخر، نشروا صورة أحد الوزراء المغاربة بدلا من صورتي».

«لا تشغل بالك بالأمر، هذه عادة مألوفة في الصحافة العربية، هل تذكر تدشين فرنسا لمركز ثقافي في بيت أقام فيه رامبو في عدن؟ غطت الصحافة العربية الحدث، لكنها نشرت صورة رامبو [الممثل] بدلا من رامبو [الشاعر]، لذلك بدلا من النظر إلى وجه آرثر رامبو، نظر القرّاء إلى وجه مألوف تماما، وجه سلفستر ستالون..».

«هذا لا يشكل مفاجأة بالمرّة. خلال محاكمة كارلوس في فرنسا، نشرت جريدة مغربية تقريرا حول جلسات الاستماع، وزيّنته بصورة لكارلوس فوينتس..».

«هكذا ترى بسهولة أن كون «الأنا آخر» خلاصة واقعية، خلافا لأخيلة النقاد الجامحة».

بعد دقائق، جاء راكب، جلس في المقعد المجاور لراسل بانكس، وشرع على الفور بحديث معه. كان أوليفر ستون. غمرتني ضحكة صاخبة ـ لا شك أنني سأروي الكثير من الحكايات. ثم قال لي كريستيان سالمون، وبرايتن برايتنباخ، إن ستون يعد فيلما عن عرفات، وأن مساعده الأسباني سأل ما إذا كنّا سنقابل الرئيس الفلسطيني.

هناك حوالي مائة من الأشخاص في مركز السكاكيني في رام الله، يعود البيت المبني في القرن التاسع عشر إلى خليل السكاكيني، مصلح فلسطيني ترك بصمته التحديثية على أجيال من مواطنيه، وقد جرى تحويله إلى مركز ثقافي. توجد في المركز مكاتب مجلة الكرمل، التي يرأس تحريرها محمود درويش. وقد كان الصباح الأوّل لزيارتنا مكرّسا للقاء كتّاب وفنانين ومسؤولين عن هيئات مختلفة. كان معظم الحاضرين من النساء، وكان كرم الضيافة بسيطا وممتعا. يصعب التخيل أن مضيفينا الذين يمتازون بالهدوء والوضوح يعيشون تحت الحصار، ويتعرضون للمنغصات اليومية ـ الحواجز، التفتيش، المضايقات المجانية، طوابير الانتظار، وإطلاق

النار ـ الأشياء التي تفسد حياتهم في الواقع.

يتكلم جورج إبراهيم، المسؤول عن مسرح القصبة، يصف الصعوبات التي تواجهها مؤسسته، المصاعب التي يعيشها الممثلون الذين يعيشون خارج رام الله، إذ ينتظرون ساعات على الحواجز العسكرية، للوصول إلى المسرح وإجراء البروفات. مشاكل مجانية، تكلفة الإنتاج، ثم يختم حديثه بالكلمات التالية:

«يشكل حرماننا من الجمهور أهم مصدر للإحباط. كل ما وصفته لكم لا يساوي شيئا مقارنة بعدم تمكن الجمهور من الحضور بعد كل هذا العناء، فالناس لا يستطيعون الذهاب إلى المسرح».

ومع ذلك، بعد كل تلك القوائم الطويلة عن المعاناة، عن مختلف أنواع القسوة المعاشة بصفة يومية، والغيتوهات المفروضة المتزايدة، وانتظار العمال في طوابير طويلة تحت رحمة مزاج الجنود ليسمحوا لهم بالعودة إلى بيوتهم، فإن الإحساس الباقي يتمثل في الحيوية المدهشة التي يتمتع بها الفلسطينيون، إرادة الحياة لديهم مليئة بالصبر ـ ليس صبر الخاضعين، بل صبر يستمد إلهامه من أيوب. وقد وجدت نفسي أردد هذه الكلمات في مناسبات كثيرة خلال الزيارة: «كانت بلادي، رغم كل شئ، وطن أيوب».

وفي المساء، خلال حفل عشاء أقامه محمود درويش وزملاؤه الكتّاب على شرفنا، تكلم الضيوف المائة عن كل شئ ما عدا الاحتلال، تكلموا عن الأدب، الأعمال قيد الإنجاز، الخطط المستقبلية.. وقد شاهدت علامة لا تخفى عن العين حول بشارة ميلاد، ميلاد حرّية صافية.

اقترح صالح عبد الجواد بعد العشاء، وهو صديق وأستاذ في جامعة بير زيت أن نمشي قليلا.

«أريدك أن ترى شيئا ما، وانظر إذا كان أحد يريد الانضمام إلينا».

وقفنا ـ صالح، رسل، كريستيان، فؤاد المغربي، وأنا ـ على تلة في رام الله. فؤاد صديق، أيضا. وقد عاد إلى فلسطين بعد عمر قضاه في التعليم في الولايات المتحدة. وأذكر كم استمتعت بالمراسلة معه في ذلك الوقت، ليس بفضل صداقتنا، أو حسه المتأخر بالدعابة دائما وحسب، وإنما بفضل عنوانه البريدي، أيضا، وتعاطفي الكبير مع Red Skins كان فؤاد يعيش بالفعل في شاتانوغا، وهي مدينة حافظت على اسمها الهندي، وقد أعجبني وضع خط تحت عنوانه على أغلفة الرسائل.

أرانا أصدقاؤنا في هذا المساء أضواء القدس ورام الله، كما تبدو على التلال أمامنا، وكذلك الأضواء التي تغطي تلتين تفصلان بينهما. «هناك» قال أصدقاؤنا «يمكن أن تروا كل شئ، القدس محرّمة، رام الله محتلة، وبينهما الأضواء الساطعة للمستوطنات».

كان المشهد أكثر بلاغة من كل شرح محتمل. فلسطين، احتلال فلسطين، كما لاحظ أصدقاؤنا خلال الزيارة، يتمثل في ما يرى من الأشياء، يكفي أن تنظر، الأماكن هنا لتراها، وهي في الغالب تجعل الشرح غير ضروري.

لم أعرف هذا المنظر بالذات فوق تلال رام الله من قبل، لكنني رأيت في زيارات سابقة «تفاصيل بانورامية» من هذا النوع. كنت أعرف في قرارة نفسي أن هذه الأرض ليست راضية بأن

ترى وحسب، بل تراني وتعرفني، أيضا. وتعجبت هل يدرك الإسرائيليون أن أرضنا تعرفنا من النظرة الأولى، وما إذا كان ضيقهم الشخصي الكبير ناجما عن إدراك لتصميم الأرض على معرفة أبنائها.

وسرعان ما اتجهت أفكاري نحو شئ آخر. تركت الجماعة الصغيرة من الأصدقاء، الذين تطلعوا نحو قمر غير مكتمل ونجوم لا تحصى في هذه السماء الصافية. ليلة متغيّرة وجدت فيها لبرهة من الوقت أبي وأمي مرّة أخرى، قائلا لنفسي قبل رحيلنا وفقدان مدينتنا حيفا، اعتاد أبي وأمي القدوم في الإجازة إلى رام الله كل عام، وقد شاهدا هذا القمر غير المكتمل، والنجوم نفسها، لكنهما لن يشاهداهما مرّة أخرى.

عدت إلى أصدقائي في طريق العودة، على مسافة مئات قليلة من الأمتار عن الفندق، أردت قول شئ ما، وكأنني أعتذر عن غيابي، قلت لصالح:

«الحياة صعبة جدا في هذا الوقت».

«هل تعرف، الأزيز أصعب شئ، أزيز طائرات المراقبة الموجهة عن بعد. لا أحد يراها، والكل يسمعها على مدار ساعات، أحيانا. يعلم الجميع أنها تحدد أماكن معيّنة، وأنهم يستعدون للقيام بعملية اغتيال. بعدها تأتي طائرات الهليوكوبتر، واحدة، اثنتان، ثلاث طائرات أحيانا، تأخذ موقعها بلا حركة في الجو، ثم تطلق الصواريخ على بيت أو سيارة. هذا الأزيز الدائم، تقريبا، ما يتعبنا أكثر من أي شئ آخر».

في صباح اليوم التالي ذهبت في مشوار مع صالح، خوان، فينسنزو كونصولو، وبي داو. أرادوا التجوال في رام الله، وكنت أبحث عن مريمية، ليس أي نوع منها، بل مريمية بلدية. تُنسب المريمية حسب تقاليد إسلامية إلى «مريم»، إذ يُقال خلال هروب العائلة المقدسة إلى مصر، اقتات الحمار الذي يحمل يسوع الطفل على تلك النبتة. وهكذا أسهمت هذه النبتة، إلى جانب تأثيرها الصحي على الجسد، في إنقاذ حياة الطفل يسوع، بواسطة الطاقة التي منحتها للحمار. ومنذ ذلك الوقت يغلي الفلسطينيون شايهم بالمريمية. وجدت بعضا منها، واشتريت حزمتين.

«هذه مريمية بلدية، أليس كذلك؟» سألت الفلاّحة الرابضة أمام حاوية مليئة بالنباتات.

«لم يسقها أحد سوى الله». قالت.

اشتريت حزمتين، وواصل صالح من حيث انتهيت، تحت بصر أصحابنا، الذين استغربوا ما اشتريته. (وما العلاقة بين نباتات طبية وزيارة سياسية إلى الأراضي المحتلة؟)

«هذا شاي النعناع الخاص بنا!».

فهم خوان، الذي يعيش في المغرب، على الفور. وكذلك فينسنزو، الصقلي، بينما ظل بي داو، من الصين البعيدة، شديد التهذيب، يفكر في الأمر المحيّر صامتا. أو ذلك، على الأقل، ما فسرت به ابتسامته الرقيقة.

أحب غزة، خلافا لعديد من معارفي القاطنين في الضفة الغربية. وما زلت في هذا الصباح أحمل الإحساس نفسه، الذي حملته في زياراتي السابقة إلى هذا الشريط الساحلي الضيق،

المكتظ باللاجئين. وأعرف مصدر هذا الإحساس. فرغم البؤس، والمصاعب اليومية، و«ضيق الأفق» الخانق النابع من أماكن كهذه، إلا أن عالم المطرودين من أرضهم ما زال مليئا بإنسانية جياشة. أحب غزة بفضل طيبة أهلها اليائسين، الذي حوصروا فيها لمدة نصف قرن، وبفضل كرمهم، وتعلقهم الكبير بالحياة.

كنا نعرف، عندما انتظرونا من وكالة الغوث على حاجز إيريز، لاصطحابنا في زيارة إلى مخيمات غزة، وخانيونس، ودير البلح، ورفح، أن الوقت سيمضي ضعف السرعة المطلوبة، إذ يدرك الزائر أن الحواجز الإسرائيلية في القطاع قد تُغلق بلا سابق إنذار، وفي أي وقت.

أول ما يرى الزائر في غزة الجدران. تراها في كل مكان: كتل من الاسمنت تطوّقها حلقات من الحديد من أعلى، كأنها لعبة ليغو عملاقة، يمكن رصها وتفكيكها، المرّة تلو الأخرى، لبناء جدران جديدة في أماكن قطعت فيها قوات الاحتلال الطرق، وأحاطتها بالمستوطنات، وحبست فيها المخيمات، وبالتالي خلقت نوعا من الاستيطان الكولونيالي المتحرك، الذي لا يكف عن الحركة، ويقتطع المزيد من الأراضي الزراعية كل يوم، ويطوّق المزيد من مصادر المياه. في غزة، أكثر من أي مكان آخر في فلسطين، الاستيطان الكولونيالي أشد وضوحا للعيان، وطريقته في القطع والتطويق سافرة.

صورة أخرى تفرض نفسها بفضل النظر إلى الجدران، ليست للاستيطان هذه المرّة، بل للمخيمات، وهي ظاهرة تعود، بلا شك، إلى الانتفاضة الأولى، الكتابات على الجدران، كلمات التحذير، الشعارات، والرسائل شخصية، لم تكن بهذه الكثرة كما هي الآن. في غزة، يشعر الزائر أنه يعبر غابة كثيفة من الكلمات. غابة قابلة للقراءة، تروي الثورة، وتهتف بالطموحات، وتعرض الوجوه المخرّمة لشباب جابهوا العدو، وسقطوا. ولكن يجب ألا نخطئ، لا توجد في غزة بوسترات تقريبا، لا شئ سوى كتابات، كأن السكّان قرروا كتابة قصصهم بأنفسهم. قرأت هذا الصباح بلا توقف، من نافذة الحافلة الصغيرة التي تقلنا في غزة، الكتابة التي تمر أمام العينين، ودوّنت في دفتر ملاحظات بعض ما حرّك مشاعري منها. هذه العبارة من خانيونس، مثلا: «لو كنت تعرف كم أفتقدك، يا سميح ـ أمك». أو «بلال وعمر يفتقدان أمهما».

ملاحظة ثالثة تحط على الزائر في غزة ـ المستوطنات مواقع بناء دائمة، ولا يملك الإنسان سوى التساؤل، لماذا تنفق دولة، تؤكد رغبتها في إخلاء جميع المستوطنات في غزة، خلافا للحال في الضفة الغربية، كل تلك الأموال. وهذا يصدق على الطريق العام الفعلي، الذي تبدو أعمدته الكهربائية قيد الإنشاء، ويفترض به ربط جميع المستوطنات التي نراها في كل مكان في القطاع. وهناك منطقة المواصي، التي تكشف بحد ذاتها تاريخ الماضي، والاحتلال المقيم.

المواصي الواقعة على حافة البحر، قبالة مخيم خانيونس، المقام بعيدا عن البحر، منطقة خصبة، ومروية جيدا. وبما أن المستوطنين لم يتمكنوا من ضم المواصي بعد، فقد أقاموا بينها وبين مخيم اللاجئين. حائط مزدوج، مصنوع من كتل الأسمنت الذي ذكرتها سابقا، يحيط بالمواصي من جانب، بينما يجابه الحائط الآخر مخيم اللاجئين، كأنها حركة للخنق، تحوّل المواصي إلى «جزيرة»،

وتضغط على المخيم. المسألة الأكثر خطورة أن الحائط الثاني في حركة دائمة ـ المساكن المحيطة به أهداف يومية للجنود بذريعة الأمن ومخاطر شن عمليات ـ ونتيجة لهجمات لا تتوقف، أصبحت المساكن الأمامية فارغة، واضطر سكانها للبحث عن مأوى في بيوت «الخط الثاني»، مما سمح للحائط بالتقدم، وهذا يعني منح المستوطنة أرضا جديدة، تجعل مساكن «الخط الثاني» مساكن في الخط الأوّل، ثم تعرضها لإطلاق النار، وهكذا دواليك.

قضينا أكثر من ساعة هناك، نستمع إلى شرح المحامي راجي الصوراني، الذي يدير إحدى جمعيات حقوق الإنسان الأساسية في غزة. سمح لنا نوع من الدرس في الهواء الطلق، ومعاينة حالة في المكان نفسه، برؤية كيف يعمل الاستيطان الكولونيالي، وقبل هذا كله مكننا من فهم كيف جرت سرقة فلسطين كلها على مدار السنين، وجرى تفريغها من أهلها.

ثلاث ذكريات ستبقى معي بعد تلك الزيارة القصيرة إلى غزة.

تجمعنا في المساء في مكتب الجمعية التي يديرها راجي للقاء كتّاب غزة. تكلّم الواحد منهم تلو الآخر، عبروا عن سعادتهم بالترحيب بنا، ومدى تأثرهم «لأن أحدا يذكرهم»، حيث يشعر سكان غزة بالعزلة عن بقية المجتمع الفلسطيني نوعا ما، وبأنهم «على الهامش» الذي لا يجذب الوفود الأجنبية. تطوّر اللقاء كالعادة ليصبح بسيطا ودافئا ومليئا بالمودة، حتى جاء دور كاتب شاب ـ لا أعرفه ـ في الكلام، فتوجّه إلى جوزيه ساراماغو:

«استمعت مساء أمس إلى الأمسية الشعرية في رام الله [بث الراديو الفلسطيني الأمسية حيّة من رام الله] وأحسدكم جميعا، أنتم الذين تعيشون على بعد آلاف الكيلومترات من فلسطين، لأنكم التقيتم بأصدقائي من الكتّاب الفلسطينيين، الذين لم أتمكن من الالتقاء بهم منذ عام، رغم أنني أعيش على مسافة قريبة منهم. للتعبير عن صداقتي، أحضرت معي ترجمة عربية قام بها كاظم جهاد لكتاب من كتبك، وهو من أفضل المترجمين. هل تعرف أن كتابك تُرجم إلى العربية؟ لا؟ إذا أرجو أن تقبل مني الكتاب تعبيرا عن الصداقة».

وعندما اقتربت من الشاب للتعبير عن تأثري بكلامه، أتضح أنه شاعر، يعيش في خانيونس، وأنه قضى ست ساعات على الحاجز العسكري، ليتمكن من الالتقاء بنا، وتقديم نسخة، ليس مجموعة شعرية من تأليفه، بل من كتاب لأحد الزوّار.

عدنا جميعا إلى الفندق في المساء لحضور حفل استقبال على شرفنا. ويصعب عليّ وصف بساطة وأناقة ذلك المساء، الذي حضره ما يقرب من مائتي شخص، جاءوا للتعبير عن صداقتهم وتقديرهم لرؤية أصدقاء قدموا من بعيد للإطلاع على أوضاعهم. يصعب عليّ وصف ميزة شائعة بين الفلسطينيين، الذين عندما يجدون أنفسهم في أقسى الظروف، يشرعون في السؤال عن أحوال ضيوفهم، ويقولون القليل، أو لا شئ، عن معاناتهم الخاصة. في غزة، تصرّف المضيفون بطريقة رائعة.

لم يكن ذلك اللقاء العام الوحيد خلال الزيارة. قبله بيومين كانت أمسية شعرية في مسرح القصبة برام الله، حيث قدّم كتّاب فلسطينيون وأعضاء الوفد قراءات من أعمالهم لمدة تزيد عن

ثلاث ساعات، وجرت القراءة باللغات الأصلية للكتّاب، أمام جمهور يشرب، بالمعنى الحرفي، الكلمات باللغات العربية والإنكليزية، والفرنسية، والأسبانية، والإيطالية، والبرتغالية، والصينية، أو لغة اليوروبا، اللغة الأصلية لوول سوينكا. كانت أمسية من أفضل الأمسيات الأدبية التي حضرتها، في لقاء اختلطت فيه اللغات كتعبير عن السلام والأخوّة.

سمعت في وقت لاحق من ذلك المساء أن مئات الأشخاص لم يتمكنوا من دخول الصالة لعدم وجود مقاعد فارغة، وأن أغلب الحاضرين جاءوا من خارج رام الله، وغادروا بيوتهم في وقت مبكر بعد الظهر، وقضوا ساعات طويلة على الحواجز، قبل الوصول إلى المدينة. ذهبت إلى السرير في ذلك المساء وفي ذهني ذكريات مقطع من كتاب جون ريد «عشرة أيام هزت العالم»، الذي يروي كيف في كل مساء من تلك الأيام العشرة، وبينما كان النظام القديم يتساقط، لم تكن مسارح موسكو خالية من الناس. ثم قلت لنفسي: سينام جورج إبراهيم، الذي يعاني من رؤية المسرح خاليا، قرير العين، هذا المساء على الأقل ».

الذكرى الثالثة من غزة، ذكرى العطر. شذى أزهار البرتقال، الذي تحمله الريح، غامر وملح إلى حد السكر، يتبعك أينما ذهبت، رغم كل شئ، تصر أرض الوطن على تذكيرنا بطيبتها وحضورها الأليف.

كانت الإقامة في القدس كئيبة، ممطرة، ومليئة بالهواجس. عزز الهجوم في نتانيا، الأخبار التي سمعناها عن تعزيزات عسكرية، وتحرّك الدبابات في اتجاه المناطق الفلسطينية، إحساسنا بوقوع أحداث خطيرة في القريب العاجل. وكان السؤال الوحيد ما إذا كان الهجوم ـ أتضح لاحقا أنها كانت حربا بكل معنى الكلمة ـ سيبدأ في المساء قبل رحيلنا، أم في النهار بعد مغادرتنا إلى باريس.

الصورة التي بقيت في ذاكرتي عن تلك العشية في المدينة القديمة، خلال جولة قادها ألبرت أغازاريان، أفضل من يعرف المدينة، صورة المستعمر، الذي «ضبطني» واقفا على باب المركز الثقافي السويدي مع أوليفر باي، مر بجانبي، وما أن أصبح قريبا مني حتى غمغم دون إبطاء في خطواته «ادبح، ادبح» قبل أن يبتعد ضاحكا بطريقة خليعة وهستيرية. عندها شرحت لأوليفر باي أن كل الأشياء في فلسطين واضحة للعيان، خاصة البشر، وأن هذا المستعمر المجنون والمتعطش للدماء قد تمكّن من تشخيص الفلسطيني في مجموعتنا.

بقية الرحلة كانت أكثر مثارا للنكد والحزن، فهذه المدينة الحيوية في العادة، كانت تختبئ خلف أبواب مغلقة، كأنها ميتة. غادرنا في اليوم التالي إلى يافا للالتقاء بأعضاء ومسؤولين في معسكر السلام الإسرائيلي. بصيص أمل وسط العتمة. لكنهم لم يكونوا في حالة جيدة. فلا أمنون راز، واسحاق لاؤور، أو ياعيل ليرر، الأصدقاء الإسرائيليون الذين سعدت لرؤيتهم مرّة أخرى، كانوا قادرين على تبديد الكآبة المهيمنة. علاوة على ذلك، كيف كان بمقدورهم أن يفعلوا ذلك، وقد كانوا مشغولين مثلنا بالعد العكسي للعملية الانتقامية، التي تنتظر انتهاء الفصح لتبدأ على الفور.

بهذه الملاحظة الحزينة انتهت رحلتنا. كنّا في يافا وسط بنايات رائعة ومعظمها حطام الآن، رغم أنها ما زالت تتكلم عن فن الحياة التي سادت في هذه المدينة قبل الهجرة، وتحطيم الغالبية من سكانها الفلسطينيين. لكنني سأخدع القارئ وأترك لديه انطباعا زائفا، إذا ختمت بلا ذكر للحادثة الفكاهية التي وقعت في تل أبيب، حيث توّجب علينا قضاء الليلة الأخيرة.

لم أشعر بالدهشة عند الوصول إلى فندق كبير في نهاية المساء ـ كبير في قبحه، الذي يسم كافة الفنادق ذات الفروع الدولية، والكبير بعدد الغرف ـ عندما وجدت جنودا على المدخل يراقبون بصورة منظمة النزلاء وأغراضهم. الأمن في إسرائيل مسألة عُصابية، ولا شك أن الهجمات الأخيرة زادت الأمر سوءا. لكن المفاجأة كانت في انتظاري صبيحة اليوم التالي، عندما شاهدت بعد مغادرة الغرفة عشرات من الجنود المسلحين في الممر المؤدي إلى المصاعد. سرعان ما سادت حالة هرج ومرج: ونحن نهبط من الطابق السادس والعشرين الذي يفصلنا عن الردهة الأساسية في الفندق. لم يكف المصعد عن التوقف لصعود مزيد من الجنود، وبهذه الطريقة وصلت إلى الطابق الأرضي، وسط حوالي عشرين من الجنود المسلحين. ولكن ما خفي كان أعظم.

ما أن غادرت المصعد حتى وجدت نفسي في ردهة تعج بالناس، أمامي مئات ـ نعم، مئات ـ من الجنود. وعندها غمرت المسافر الضائع في غابة من الملابس العسكرية، ضحكة مجنونة. وليعذرني القارئ، ولكن ينبغي الاعتراف أن شيئا واحدا كان في دماغي في تلك اللحظة الصعبة، لم أفكر في قوات الاحتلال، والعسكرة أو الحرب، بل فكرت بوجه بستر كيتون، عندما ينهض في أحد أفلامه محاطا بعشرات من العرائس المرشحات في ثوب الزفاف ـ قبل أن يقف على قدميه ويركض هاربا عبر التلال والأودية.

رأيت ياعيل، التي أدركت على الفور حالتي العقلية، وغمرتها ضحكة مجنونة، أيضا.

«ما الذي يفعلونه هنا؟ أنت معتوهة، لقد وضعتنا في وسط ثكنة للجنود».

«تعرف، في الوقت الحاضر توجد أزمة في قطاع الفنادق، لذا للحفاظ على الشغل والوطنية، قررت إدارة سلسلة الفنادق تقديم عطلة نهاية أسبوع مجانية لجميع الجنود، الذين لم يتمكنوا بسبب استدعائهم للخدمة، من قضاء عيد الفصح مع عائلاتهم».

بعد ساعات قليلة، على متن الطائرة، انتظرني مشهد آخر. أقل إثارة للضحك، بالتأكيد، كأنني حُرمت من حق المغادرة بوهم الخالي من الهموم. فما أن شرع أوليفر باي في الكلام مع جيرانه حول بعض المشاهد التي صدمته بعمق، حتى استنفر غضب عديد من المسافرين، الذين أخذوا بالزعيق، حتى وقفت امرأة فجأة بين المقاعد وصرخت: «نحن، أيضا، نملك حق قتل الأطفال». بعد عودتنا بيومين بدأ الاجتياح.

أبريل ٢٠٠٢

دراسات
١

فرويد وغير الأوروبيين

إدوار سعيد

سأستخدم عبارة «غير أوروبيين» في هذه المحاضرة بمعنيين، أولهما ينطبق على زمن فرويد بالذات، والآخر على ما بعد وفاته عام ١٩٣٩م. وللمعنيين كليهما علاقة عميقة بأية قراءة لمؤلفاته اليوم. يبقى الأول بالطبع دلالة بسيطة على العالم، خارج عالم فرويد الخاص، بوصفه عالماً يهودياً من فيينا، فيلسوفاً ومثقفاً عاش وعمل حياته كلّها إما في النمسا أو انجلترا. فما من أحد قرأ مؤلفات فرويد الخارقة وتأثر بها، إلا وانبهر بالمدى اللافت لتبحُّره، خصوصاً في الأدب وتاريخ الثقافة. غير أن المرء يبقى، ومن المنطلق نفسه، مصعوقاً بواقع كون معرفة فرويد بالثقافات الأخرى خارج حدود أوروبا (ربما باستثناء الثقافة المصرية) «مُدَوْزَنَة»، بل ومصاغة، في الحقيقة، بتعليمه المستند إلى التراث اليهودي - المسيحي، لا سيما الفرضيات الإنسانية والعلمية التي تضفي عليها طابعاً «غربياً» مميزاً. وهذا ليس أمراً يؤدي إلى تقييد فرويد بطريقة مزعجة، بمقدار ما يحدد هويته بوصفه منتمياً إلى مكان وزمان كانا لا يزالان مهووسين إلى حدّ كبير بما يمكن أن نطلق عليه، باللغة أو الرطانة ما بعد الحداثية، ما بعد البنيوية، وما بعد الكولونيالية، اسم الآخر. كان فرويد، بطبيعة الحال، شديد الولع بما هو خارج حدود العقل، العُرْف، والوعي بالطبع: وعمله كلّه هو، بذلك المعنى، عن الآخر، غير أنه على الدوام عن آخر يمكن التعرف عليه من قبل القراء جيدي الاطلاع على كلاسيكيات العصر القديم، الإغريقي - الروماني واليهودي، وما اشتُق منها لاحقاً في سائر اللغات، الآداب، العلوم، الأديان، والثقافات الأوروبية، التي كان جيد الاطلاع عليها في المقام الأول.

كان فرويد، مثله مثل أكثر معاصريه، يعلم بوجود ثقافات أخرى جديرة بالاهتمام والاعتراف. فقد ألمح، مثلاً، إلى ثقافتي الهند والصين، ولكن فقط بصورة عابرة، فقط حين بدت ممارسة تفسير

ادوارد سعيد، استاذ الأدب المقارن في جامعة كولومبيا

الأحلام هناك مؤهلة، مثلاً، للانطواء على نوع من الأهمية النسبية، بنظر الباحث الأوروبي العاكف على دراسة الموضوع. أما ما يتكرر أكثر بكثير، فهو قيام فرويد بإيراد التلميحات والإشارات إلى الثقافات «البدائية» غير الأوروبية - من خلال جيمس فريزر في الغالب - التي دأب على الإفادة منها لصالح مناقشته للممارسات الدينية المبكرة. فهذه الإشارات توفر الجزء الأكبر من مادة الطوطم والتابو، غير أن فضول فرويد الإثنوغرافي يكاد لا يتجاوز النظر إلى، واقتباس، جوانب من هذه الثقافات (بتكرار مدوّخ أحياناً)، كأدلة مؤيدة لوجهة نظره عن أمور معينة، مثل التدنيس، أشكال الحظر المفروضة على سفاح القربى، وأنماط الزواج الخارجي والداخلي. وبالنسبة إلى فرويد كانت الثقافات الباسيفيكية والأوسترالية والإفريقية، التي أخذ منها أشياء كثيرة، ثقافات متخلفة عن الركب أو منسية إلى حدّ كبير، مثل الجماعة الأولى، في مسيرة الحضارة، وعلى الرغم من أننا نعرف أن جزءاً كبيراً من عمل فرويد، مكرس لاستعادة والاعتراف بما سبق له أن تعرض للنسيان أو الإنكار، فإنني لا أعتقد أن الشعوب والثقافات البدائية غير الأوروبية كانت، على الصعيد الثقافي، آسرة له مثل شعوب وقصص كل من اليونان وروما وإسرائيل القديمة. لقد كانت هذه الأخيرة أسلافه الحقيقيين، فيما يخص جملة الصور والمفاهيم العائدة إلى التحليل النفسي.

ومع ذلك فقد كانت لفرويد، من منطلق النظريات العرقية التي كانت سائدة، آراؤه الخاصة حول الغرباء غير الأوروبيين، وحول موسى وهانيبال في المقام الأول. وقد كان هذان، كلاهما، ساميين، كما كانا، كلاهما (وخصوصاً هانيبال) بطلين بنظر فرويد، لما تحلّيا به من إقدام ودأب وشجاعة. لا يسع المرء، لدى قراءة موسى والتوحيد، إلا أن يصاب بالدهشة، إزاء افتراض فرويد شبه العابر (وهذا ينطبق أيضاً على هانيبال) أن الساميين لم يكونوا أوروبيين بكل تأكيد (وفي الحقيقة فإن هانيبال يبدد حياته عبثاً وهو يحاول فتح روما واجتياحها ولكنه لا ينجح)، غير أنهم كانوا بطريقة ما قابلين، في الوقت نفسه، للذوبان في بوتقة أوروبا الثقافية، بوصفهم غرباء سابقين. وهذا مختلف تماماً عن النظريات الخاصة بالساميين، التي يروج لها المستشرقون من أمثال رينان، والمفكرون العنصريون من أمثال غوبينو وفاغنر، ممن دأبوا على تأكيد غُرْبة اليهود، ومعهم العرب بالمناسبة، واحتمال تعرضهم للإقصاء والاستبعاد، بالنسبة إلى الثقافة الإغريقية - الرومانية - الآرية. تبقى نظرة فرويد إلى موسى بوصفه داخلياً وخارجياً في الوقت نفسه، باعتقادي، نظرة بالغة الإثارة والتحدي، غير أنني أريد إرجاء الكلام عن ذلك إلى وقت لاحق. غير أنني مؤمن، على أية حال، بأن من الصحيح القول: ان نظرة فرويد الثقافية كانت مطبوعة بالمركزية الأوروبية - ولماذا لا تكون كذلك؟ فعالمه لم يكن بَعْدُ قد تعرض لرياح العَوْلَمة أو لتأثيرات السَّفَر السريع، أو لعوامل معارك التحرر من الاستعمار التي كانت ستتمخض عن جعل الكثير من الثقافات المجهولة، أو المقموعة سابقاً في متناول المركز الأوروبي. لقد عاش فرويد قبيل عصر التحولات السكانية الكبرى، التي كانت ستجلب الهنود والأفارقة وأهالي جزر الهند الغربية (حوض البحر الكاريبي) والأتراك والأكراد، لتقحمهم في قلب أوروبا، كعمال ضيوف ومهاجرين غير مرغوبين

في الغالب. وقد توفي، بالطبع، قبيل تعرض العالَم النمساوي – الألماني والروماني [اللاتيني]، الذي كان معاصرون عظماء مثل توماس مان ورومان رولان قد قدموا عنه صوراً يتعذر نسيانها، للدمار الكامل، مع تعرض الملايين من أشقائه اليهود للذبح على يد الرايخ النازي. وقد كان ذلك، في الواقع، العالم الذي قام إريك آورباخ أيضاً بتخليده، عبر كتاب المحاكاة التنكرية، ذلك الكتاب الخريفي الخاص بالمنفى، المكتوب خلال سني الحرب في استانبول، التي مكّنت هذا العالِم واللغوي العظيم، من تلخيص عملية رحيل تراث منظوراً إليها بكليتها المتماسكة والمتناغمة للمرة الأخيرة.

أما المعنى الثاني المشحون بقدْرٍ أكبر من الزخم السياسي لعبارة «غير الأوروبيين» الذي أريد أن ألفت الأنظار إليه، فهو المتمثل بالثقافة التي انبثقت تاريخياً في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، أي بعد سقوط الإمبراطوريات الكلاسيكية، وظهور العديد من الشعوب والدول المتحررة حديثاً في كل من أفريقيا وآسيا والأمريكتين [الوسطى والجنوبية]. من الواضح أنني لا أستطيع هنا أن أتطرق إلى العديد من التشكّلات الجديدة، على أصعدة السلطة والناس والسياسة، التي نشأت، غير أنني أريد أن أؤكد واحداً بالتحديد، واحداً يبدو لي فاتحاً أفقاً مبهراً، ويدعّم في الحقيقة من جذرية كتابات فرويد حول هوية الإنسان. إن ما أفكر به هو واقع قيام تلك الكوكبة من الكلمات والمعادلات المحيطة بأوروبا والغرب، في عالم ما بعد الحرب [الثانية] باكتساب معنى أكثر امتلاءً بما لا يقاس، بل وأشد إثارة واستفزازاً، في نظر المتابعين من خارج أوروبا والغرب. فبسبب الحرب الباردة كانت ثمة، قبل كل شيء، أوروبّتان: شرقية وغربية، وبعدهما كانت هناك، في أقاليم العالم الهامشية، الغارقة في بحر معارك التحرر من الاستعمار، أوروبا الممثلة للإمبراطوريات الكبرى، التي باتت تغلي بالثورات وحركات التمرد، التي كانت مرشحة لأن تتطور في النهاية إلى نضالات متحررة من السيطرة الأوروبية والغربية. لقد حاولت في مكان آخر أن أصِف الضوء الجديد الذي بات المناضلون المخضرمون ضد الاستعمار قادرين على رؤية أوروبا من خلاله، وبالتالي فلن أتوقف عنده هنا، إلا بصورة موجزة، للاقتباس من الصفحات الأخيرة لكتاب فانون – وهو الوريث الأكثر مشاكسة لفرويد بالتأكيد – الأخير الذي نُشر بعد وفاته بعنوان معذبو الأرض (١٩٦١م). إن المقطع الذي سأورده مأخوذ من ملاحق الكتاب المعنونة «الحروب الاستعمارية والاضطرابات العقلية»، التي يقوم فيها فانون، كما تذكرون، بتصنيف سلسلة من الحالات التي عالجها، والتي تنشأ، على ما يبدو، في ساحات معارك النضال ضد الاستعمار، وبالتعليق عليها.

يلاحظ فانون، قبل كل شيء، أن العالم غير الأوروبي لا يضم، بنظر الأوروبي، إلا السكان الأصليين، و«النساء المحجبات، أشجار النخيل، والجِمال تؤلف المشهد، الخلفية الطبيعية لوجود الفرنسيين الإنساني» (٢٥٠). وبعد الحديث عن قيام الطبيب النفسي السريري الأوروبي بتشخيص حالة المواطن الأصلي، على أنها حالة قاتل متوحّش يقتل دونما سبب، يورد فانون كلام أستاذ جامعي يدعى آ. بورو كان رأيه العلمي المعتبر، متمثلاً بالقول: ان حياة المواطن الأصلي خاضعة

لسيطرة «حوافز الدماغ المتوسط» التي تكون حصيلتها الصافية نزعة بدائية غير متطورة. وهنا يقوم فانون بإيراد مقطع شديد البرودة، يأخذه من تقرير تحليلي نفسي تقني متبحر، كتبه الأستاذ الجامعي بورو نفسه قائلاً:

ليست هذه النزعة البدائية مجرد نمط حياة من نتاج تنشئة خاصة؛ إن لها جذوراً أعمق بكثير. بل ونفكر ان لها أساساً أعمق، متمثلاً بالميل الخاص للتركيبة الهيكلية، أو التراتبية الهرمية الديناميكية، على الأقل، للمراكز الدماغية .... إننا أمام كتلة متماسكة من الانسجام، وحياة متناغمة يمكن تفسيرها علمياً، ليس لدى الجزائري أي لحاء [أية قشرة دماغية]؛ أو هو خاضع، بعبارة أكثر دقة، لسيطرة الدماغ المتوسط، مثل الفقاريات الدنيا. أما الوظائف اللحائية، إن وُجدت أساساً، فهي ضعيفة جداً، وغير مندمجة عملياً بالوجود الديناميكي» (صفحة ٣٠١).

على الرغم من إمكانية تحري نوع من التحريف الجذري، لوصف فرويد لسلوك البدائيين في كتاب الطوطم والتابو، في مثل هذا النوع من الكلام، فإن ما يبدو غائباً هو رفض فرويد المضمر في النهاية، لفكرة إقامة حاجز يتعذر تجاوزه بين البدائيين غير الأوروبيين من جهة، والحضارة الأوروبية من الجهة المقابلة. فالقسوة الكامنة في ما يقوله فرويد، كما أقرؤها، تكمن، على النقيض من ذلك، في أن ما يُحتمل أن يكون قد بقي بين ثنايا التاريخ، لا يلبث أن يلحق بنا بأشكال كونية من السلوك، مثل الحظر المفروض على سفاح القربي، أو عودة المقموع - كما يحدد مواصفاتها في موسى والتوحيد. يقوم فرويد، بطبيعة الحال، بافتراض وجود اختلاف نوعي بين ما هو بدائي وما هو متمدن، اختلاف يبدو مائلاً لصالح الثاني، غير أن ذلك الاختلاف لا يؤدي، كما في العمل الروائي لمعاصره الموهوب والمتمرد مثله، جوزيف كونراد، إلى تبرير أو تخفيف صرامة تحليله للحضارة نفسها بأي شكل من الأشكال؛ لتلك الحضارة التي ينظر إليها بطريقة ضبابية تماماً، بل وحتى متشائمة.

ومع ذلك، فإن القضية بالنسبة إلى فانون هي أنك، حين تُدْخِل ليس فرويد فقط، بل وسائر الإنجازات العلمية للعلوم الأوروبية في دائرة الممارسة الاستعمارية، تجد أوروبا متوقفة عن شغل أي موقع مبدئي أو معياري، فيما يخص المواطن الأصلي. ومن هنا فإن فانون يعلن قائلاً:

«اتركوا أوروبا هذه التي تكثر من الكلام عن الإنسان، مع بقائها دائبة، مع ذلك، على اغتيال البشر في كلّ مكان تجدهم فيه، في كل زاوية من زوايا شوارعها بالذات، في جميع أركان الكرة الأرضية... لقد اضطلعت أوروبا بقيادة العالم عبر أساليب الحماسة والطلبية والعنف. انظروا كيف تمتد ظلال قصورها إلى أماكن أبعد فأبعد بصورة مضطردة!

إن كّلاً من حركاتها قد أدت إلى تفجير حدود المكان والفكر. لقد نبذت أوروبا جميع أشكال المهانة وصيغ التواضع؛ غير أنها قامت، في الوقت نفسه، بإدارة ظهرها لجميع أشكال العزاء والحنان... فحين أبادر إلى البحث عن الإنسان في تكنولوجيات أوروبا وأساليبها، لا أرى سوى سلسلة متعاقبة من أشكال الإنكار والنفي للإنسان، مع طوفان من جرائم القتل» (صفحات ٣١١ - ٣١٢).

لا غرابة، إذن، أن فانون، وإن كان نثره وبعض أشكال محاكمته معتمداً على النموذج الأوروبي، يرفض ذلك النموذج كليّاً ويطالب، بدلاً منه، بتعاون جميع البشر في عملية اختراع أساليب جديدة، قادرة على خلق ما يطلق عليه اسم «الإنسان الجديد، الذي أخفقت أوروبا في نيل شرف إنجابه» (٣١٣).

نادراً ما يقوم فانون نفسه، بتزويد قرائه بأي مخطط للأساليب الجديدة التي يفكر بها، غير أن غرضه الرئيسي يبقى متمثلاً بمقاضاة أوروبا، لاقترافها جريمة تمزيق البشرية إلى سلسلة هرمية من الأعراق، ما لبثت أن اختزلت الحلقات الدنيا ونزعت عنها الصفة الإنسانية، بالنسبة إلى كل من النظرة العلمية والإرادة لدى الحلقات العليا. من الطبيعي أن عملية وضع المخطط موضع التطبيق، كان على يد النظام الكولونيالي في المستعمرات، غير أن من الصحيح القول، فيما أعتقد: ان الدافع الأساسي لهجوم فانون كان متمثلاً بشمل مجمل صرح النزعة الإنسانية الأوروبية بالذات، ذلك الصرح الذي أثبت عجزه عن تجاوز حدود رؤيته الخاصة القائمة على الحسد والغيرة. وكما أجاد إيمانويل فالدشتاين في الوصف (نيولفت ريفيو ٢٢٦، تشرين ثاني/ كانون أول ١٩٩٧)، فإن نُقّاداً لاحقين لنزعة المركزية الأوروبية دأبوا، خلال العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين، على رفع مستوى الهجوم، عبر الانقضاض على تأريخ أوروبا؛ على مزاعمها الكونية، على تحديدها لمعنى الحضارة، على مدرستها الاستشراقية، وعلى تسليمها غير النقدي بنموذج تقدم، وضَع ما يُطلق عليه هنتنغتون وآخرون من أمثاله اسم «الغرب» في مركز حشد متعاظم ومتدفق من حضارات أدنى عازمة على تحدي تفوقه.

ومهما بلغ مستوى تسليم المرء بما يقوله فانون أو فالدشتاين، فإن ما لا شك فيه، هو أن فكرة التباين الثقافي كلّها بالذات – وخصوصاً هذه الأيام – بعيدة عن ذلك الشيء الجامد الذي يسلّم به فرويد دون نقاش. ففكرة وجود ثقافات أخرى غير الثقافة الأوروبية، ولا بد للمرء أن يفكر بها، ليست هي المبدأ المحرك لكتاباته الذي كانته بالنسبة إلى كتابات فانون، بأي قدر أكبر مما كانته بالنسبة إلى المؤلفات الرئيسية لمعاصريه توماس مان، رومان رولان، واريك آورباخ. ومن هؤلاء الأربعة كان آورباخ هو الذي بقي إلى حدّ ما، حتى الحقبة ما بعد الكولونيالية، غير أنه أصيب بالذهول، وربما حتى بشيء من الاكتئاب والكَرْب إزاء ما استطاع استشرافه مما كان قادماً. ففي مقاله الذي جاء متأخراً بعنوان «فقه اللغة والأدب العالمي» تحدث آورباخ بلغة رثائية عن استبدال لغة روما [رومانيا – اللغة اللاتينية] كلغة بحث نموذجية دأبت على رفد حياته العملية واختصاصه، بحشد فوضوي مما أطلق عليه اسم لغات وثقافات «جديدة»، دون أن يدرك أن عدداً كبيراً منها في آسيا وأفريقيا كانت أقدم من نظيرتها الأوروبية، كما كانت مستندة إلى قوانين وقواعد لغوية عريقة وراسخة، لم يكن باحثو جيله من الأوروبيين عارفين بوجودها قط. غير أن آورباخ كان قادراً على أن يحس بأن حقبة تاريخية جديدة كانت في طور الولادة، كما كان قادراً على إدراك أن قسماتها وبُناها ستكون غير مألوفة، لا لشيء إلا لأن جزءاً كبيراً منها لم يكن أوروبياً، أو ذا علاقة بالمركزية الأوروبية.

أشعر أن عليَّ أن أضافة شيء هنا. كثيراً ما فُسِّر كلامي على أنه هجوم لاحق على كُتّاب عظماء مثل جين أوستن وكارل ماركس، لأن بعضاً من آرائهم تبدو غير صحيحة سياسياً بمعايير زماننا. إنها لفكرة غبية حقاً يتعين عليَّ أن أعلن على الفور أنها غير صحيحة على الإطلاق، بالنسبة إلى أي شيء سبق لي أن كتبته أو قلته. فأنا، على النقيض من ذلك، أحاول على الدوام أن أفهم شخصيات الماضي التي تثير إعجابي، حتى حين أقوم بتسليط الضوء على مدى بقائهم مقيَّدين أو محصورين بآفاق لحظتهم الثقافية الخاصة، فيما يتعلق بوجهات نظرهم عن الثقافات والشعوب الأخرى. أما النقطة الخاصة التي أؤكدها بعد ذلك، فهي أن من الضروري قراءة مؤلفاتهم بوصفها جديرة من حيث الجوهر بالنسبة إلى قارئ اليوم غير الأوروبي، أو غير الغربي، الذي يكون إما سعيداً لرفضها بالصالح والطالح فيها على أنها مهينة إنسانياً، أو غير منطوية على ما يكفي من الوعي بالشعب المستعمَر (كما يفعل تشينوا آتشيبي بتصوير كونراد لأفريقيا)، أو مستعداً لقراءتها بطريقة تسمو «فوق» الظروف التاريخية التي كانت جزءاً لا يتجزأ منها. تقوم مقاربتي على السعي لرؤية أولئك الكُتّاب في سياقهم، بأكبر قدر ممكن من الدقة، ولكن لأنهم، بعد ذلك، كُتّاب ومفكرون غير عاديين، ساهمتْ مؤلفاتهم في إتاحة الفرصة لظهور أعمال وقراءات أخرى، بديلة مستندة إلى تطورات لم يكن بوسعهم أن يعوها، مما يجعلني أراهم طباقياً، أي كشخصيات تقوم كتاباتهم بالسفر والانتقال عبر الحدود الزمانية والثقافية والإيديولوجية، بأساليب غير متوقعة، لتبرز على الساحة بوصفها جزءاً من مجمع جديد جنباً إلى جنب مع التاريخ التالي والفن اللاحق.

وبالتالي فإن من الأفضل، على ما يبدو لي، والأكثر إثارة بما لا يقاس، أن تتم قراءة كتابات كونراد العائدة إلى أواخر القرن التاسع عشر، بوصفها تجسيداً لسائر أنواع التكهنات غير المتوقعة الموحية والمثيرة ليس فقط جملة من التشويهات المأساوية في تاريخ الكونغو اللاحق، بل وسلسلة أصداء الأجوبة المترددة في الكتابات الأفريقية التي تعيد استعمال موضوعة رحلة كونراد كصورة نمطية لإبراز اكتشافات واعترافات ديناميكيات ما بعد الكولونيالية، وجزء كبير منها نقائض مدروسة لكتابات كونراد، مثلاً، بدلاً من ترك صورة كونراد الآسرة لكونغو ليوبولد على رفّ أحد مخازن المحفوظات، بوصفها لا تستحق إلا أن تُدفن في مجمع قمامة الفكر العنصري. وهكذا فإن أمامك زوجين وجيزين من الأمثلة، متمثلين بالردّين المختلفين جذرياً، الموجودين في موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح من جهة، وفي كوع في النهر لـ ف.س. نايبول من الجهة المقابلة، ما من عملين يمكنهما أن يكونا أكثر تبايناً من هذين الكتابين، غير أنهما، كليهما، يتعذر تصورهما دون بنية مَأْثَرَة كونراد الخيالية السابقة دليلاً رائداً أولاً، ودافعاً بعد ذلك، إذا جاز التعبير، إلى مسالك جديدة للمَفْصَلة، تكون مطابقة لرؤيا تجربة عربي سوداني في ستينيات القرن العشرين، كما لرؤيا تجربة هندي ترينيدادي مهاجر بعد بضع سنوات. لا تتمثل النتيجة المثيرة باعتماد كل من صالح ونايبول الحيوي جداً على قراءتهما لكونراد فقط، بل وبأن كتابة كونراد شهدت مزيداً من التحقق واكتساب الحياة، عبر سلسلة من التأكيدات والإضافات التي لم يكن، بوضوح،

منتبهاً إليها ولكن كتاباته تتيحها.

وهكذا فإن التاريخ التالي يعيد فتح، ويتحدى، ما يبدو أنه كان الختام النهائي لإحدى الشخصيات الفكرية السابقة، عبر تمكينها من التواصل مع تشكيلات ثقافية، سياسية ومعرفية، لم يسبق لمؤلفها أن حلم بها، رغم أنها منتمية إليه عبر جملة من الظروف التاريخية. من الطبيعي أن يكون كل كاتب [وكاتبة]، قارئاً لأعمال من سبقوه أيضاً، غير أن ما أريد تأكيده، هو أن آليات تاريخ الإنسان المباغتة في الكثير من الأحيان، تستطيع - كما تشي حكاية بورغيس ذات المغزى بطرس مينارد والكيشوت - أن تُمَسْرِح المكنونات الموجودة في صورة أو شكل سابقين، بما يسلّط الضوء مباشرة على الحاضر. فالحمالون والمتوحشون المرهقون والمظلومون، بصورة مرعبة، الذين يصورهم كونراد بطريقة يجدها آتشيبي مرفوضة تنطوي في داخلها ليس فقط على الجوهر المجمد الذي يحكم عليهم بالعبودية والعقاب، اللذين يراهما كونراد مصيرهم الحالي، بل وعلى ما يشير نبوئياً إلى سلسلة كاملة من التطورات المضمرة، التي يقوم تاريخها التالي بكشف النقاب عنها رغم، فوق وقبل، بل وبسبب، ويا للمفارقة! القسوة الجذرية والعزلة المرعبة لرؤيا كونراد الجوهرية، فأن يكون كُتّاب لاحقون دائبين على العودة إلى كونراد يعني أن كتاباته، بفضل رؤيتها القائمة على المركزية الأوروبية التي لا تعرف معنى المساومة، هي بالتحديد ما تضفي عليها قوتها النقيضة، تلك الطاقة والكثافة الكامنة في أعماق جملها التي تتطلب استجابة مكافئة ومعاكسة تواجهها مباشرة، إما في مجابهة أو دحض أو تطوير ما تقدمه. ففي قبضة أفريقيا كونراد، يكون المرء مسوقاً برهبتها الخانقة المجردة للعمل من أجل اختراقها، للسعي إلى دفعها من الخلف، فيما يقوم التاريخ نفسه بتحويل حتى حالة الركود الأكثر استعصاء، إلى سيرورة ونوع من البحث عن قَدْر أكبر من الوضوح، الانفراج، التصميم، أو الإنكار. ومع كونراد بالطبع، كما مع جميع مثل هذه العقول الخارقة وغير العادية، يبقى التوتر المحسوس بين ما هو موجود بشكل لا يطاق من جهة، واضطرار مُناظِر للهروب من هذا الموجود من جهة ثانية، جوهر المسألة الأعمق، ومجمل الهدف الأساسي لقراءة وتفسير عمل مثل قلب الظلام. تبقى النصوص المتعطلة بأزمانها حيث هي، في حين تكون النصوص الدائبة على مصارعة قيودها التاريخية دون ملل، هي النصوص التي نحتفظ بها، جيلاً بعد جيل.

كان فرويد مثالاً بارزاً لمفكر شكل العمل العلمي بالنسبة إليه، كما قال غير مرّة، نوعاً من التنقيب الآثاري عن الماضي المدفون، المنسي، المقموع والمرفوض. فهو لم يختر شليمان نموذجاً يحتذيه عبثاً. (أنظر ريتشارد هـ. آرمسترنغ، «فرويد: شليمان العقل»، مجلة علم الآثار التوراتي، آذار - نيسان ٢٠٠١م). كان فرويد مستكشفاً للعقل بالطبع، غير أنه كان في الوقت نفسه، بالمعنى الفلسفي، قالباً للجغرافيات والأنساب المقبولة والمحسومة رأساً على عقب، وراسماً لها خرائط جديدة. وبالتالي فهو قابل بشكل استثنائي لإعادة القراءة في سياقات مختلفة، لأن كتاباته جميعاً تدور حول كيفية قيام تاريخ الحياة بتقديم نفسه، عبر أشكال التذكر، البحث، والتأمل، إلى سلسلة لا نهائية من عمليات الهيكلة وإعادة الهيكلة، على الصعيدين الفردي

والجماعي كليهما. أن نكون، نحن القراء المختلفين المنتمين إلى فترات متباينة من التاريخ، والمستندين إلى خلفيات ثقافية متغايرة، ملزمين بالاستمرار في القيام بهذا لدى قراءاتنا لأعمال فرويد، يصدمني كأمر لا يقل عن نوع من التبرير والإثبات لقدرة أعماله على استثارة أفكار جديدة، كما وعلى تسليط الأضواء على أوضاع، ربما لم يسبق له هو نفسه أن كان قد حَلُم بها.

كان تركيز فرويد الشديد على موسى، شاغلاً للأشهر الأخيرة من حياته، وليس ما أنتجه في كتابه الرئيسي الأخير، موسى والتوحيد إلا عملاً مركباً من عدد من النصوص، جملة من النوايا، سلسلة من الفترات الزمنية المختلفة، وكلّها صعبة شخصياً بالنسبة إليه، على صعيد التصدي لها مع المرض، صعود الاشتراكية القومية، وأشكال عدم اليقين السياسي التي أحاطت بحياته في فيينا، مصحوبة أحياناً بآثار متناقضة، بل وحتى باعثة على الاضطراب وعدم الاستقرار. (أنظر جانين شاسغي – سميرغل، «بعض الأفكار عن موقف فرويد خلال الفترة النازية»، مجلة التحليل النفسي والفكر المعاصر ١٨:٢ (١٩٨٨م)، ٢٤٩ – ٢٦٥). وكل من لديه قدْر من الاهتمام بالأسلوب المتأخر [أسلوب الكاتب في المرحلة الأخيرة من حياته] سيجد موسى فرويد نموذجاً كلاسيكياً. فمثل جملة الأعمال التي توقِف شَعْرَ الرأس بصعوبتها، والتي أنتجها بيتهوفن في السنوات السبع أو الثماني الأخيرة من حياته – سوناتات البيانو الخمس الأخيرة، الرباعيات الأخيرة، الميساسولمنيس، سيمفونية الجوقة، ومقطوعتا باغاتيل ١١٩ و١٢١ – يبدو موسى والتوحيد مؤلَّفاً من قبل فرويد لنفسه هو، دون الانتباه إلى الإعادة المتكررة غير المفيدة في الغالب، أو إلى الاقتصاد الرشيق للنشر والعرض. في الحقيقة لا ينجح الكتاب قط في التوفيق الأنيق بين فرويد العالِم الساعي إلى تحقيق نتائج موضوعية في بحثه من جهة، وفرويد المثقف اليهودي المتلمس لعلاقته الخاصة بعقيدته العتيقة من خلال تاريخ مؤسسها وهويته، من جهة ثانية. فكل ما يحيط بالبحث يشي لا بالحل والمصالحة، كما هي الحال في بعض المؤلفات المتأخرة، مثل العاصفة وحكاية الشتاء، بل بقدْر أكبر من التعقيد مع نوع من الرغبة في ترك العناصر غير القابلة للتوفيق على حالها، عرضية، متشظية، ناقصة (أي غير مصقولة).

في مِثالَيْ بيتهوفن وفرويد، كان المسار الفكري المتجلي في المؤلفات المتأخرة، كما آمل أن أبين، تجسيداً للعناد والتشدد، ونوعاً من النزوع الغضوب إلى الانتهاك والمخالفة، وكأن المؤلِّف متوقَّع منه أن يستقر في حالة متناغمة من الهدوء، كما يليق بشخص وصل إلى المحطة الأخيرة من حياته، غير أنه فضَّل، بدلاً من ذلك، أن يكون صعباً ومشاكِساً مثقلاً بجميع ألوان الأفكار والاستفزازات الجديدة. يعترف فرويد صراحة بوقاحته في أحد الهوامش مع بدايات كتاب موسى والتوحيد، حين يشير، بلا حرج، إلى أسلوبه الاستبدادي، المتعسف بل وحتى اللا أخلاقي في التعامل مع الشواهد التوراتية، ثمة أيضاً تلميحات صريحة تذكِّر القارئ بأن المؤلف رجل طاعن في السن، وقد لا يكون مؤهَّلاً للاضطلاع بالمهمة؛ ففي نهاية الجزء الثاني وبداية الجزء الثالث، يلفت فرويد النظر إلى قواه المتدهورة، كما إلى تضاؤل قدراته الإبداعية. غير أن هذا الاعتراف لا يمنعه أو يصرفه، بهذا الشكل أو ذاك، عن التوصل إلى استنتاجات صعبة وغير مقنعة بشكل

يبعث على الحيرة في الغالب. فمؤلفات فرويد المتأخرة، مثلها مثل أعمال بيتهوفن اللاحقة، مهووسة بالعودة ليس فقط إلى مشكلة هوية موسى، التي هي، بالطبع، في صلب الدراسة، بل والى عناصر الهوية نفسها بالذات، كما لو أن تلك القضية ذات الأهمية الحاسمة بالنسبة إلى التحليل النفسي، جوهر العلم بالذات، قابلة لأن تتم العودة إليها بالطريقة التي تعود بها أعمال بيتهوفن المتأخرة، إلى أساسيات معينة، مثل النغم والإيقاع. أضف إلى ذلك أن اهتمام فرويد بما هو معاصر، معَبَّراً عنه أحياناً عبر عمليات تنقيب ملغزة عما هو بدائي وأساسي، يأتي موازياً لقيام بيتهوفن بتوظيف أنماط قروسطية، وألحان طباقية متقدمة إلى حدّ الإزعاج في أعمال معينة، مثل الميساسولمنيس. وقبل كل شيء، يظل تأثير الأسلوب المتأخر على القارئ أو السامع تأثيراً باعثاً على الاغتراب، أي أن فرويد وبيتهوفن يقدمان مادة شديدة الإلحاح عليهما دون كبير اعتبار لتهدئة، ناهيك عن تلبية حاجة القارئ إلى الخاتمة. صحيح أن كتباً أخرى ألّفها فرويد وهو يفكر بتحقيق أغراض تعليمية أو تربوية، غير أن كتاب موسى والتوحيد ليس منها. فحين نقرأ هذه الدراسة البحثية، نشعر أن فرويد يريدنا أن نفهم أن هناك قضايا أخرى مطروحة على بساط البحث، مشكلات أخرى أكثر إلحاحاً وتطلباً للكشف من تلك التي قد يكون حلُّها مريحاً أو موقّراً نوعاً من ساحة الاختبار.

في أحد الكتب العديدة الأكثر إثارة عن موسى فرويد – أعني كتاب موسى فرويد: اليهودية بين الفناء والخلود ١٩٩١م، تأليف جوزيف يِرُوشالمي – يبدي المؤلف قدْراً غير قليل من المهارة على صعيد كشف النقاب عن الخلفية اليهودية الشخصية لغوص فرويد في قصة موسى، التي تشتمل على وعيه الطويل والمؤلم بمعاداة السامية من خلال أحداث معينة، مثل صداقته الفاسدة مع كارل يونغ، خيبة أمله إزاء عجز أبيه عن الصمود في وجه أشكال الإذلال، قلقه بشأن تعرض التحليل النفسي لخطر أن يوصم بأنه علم «يهودي» فقط، وبصورة مركزية، ارتباطه المعقد، وغير المحسوم بصورة باعثة على اليأس، في نظري، بيهوديته الخاصة، ذلك الارتباط الذي بدا على الدوام متمسكاً به تمسكاً قائماً على أساس يجمع بين الكبرياء والتحدي. ومع ذلك فإن فرويد يكرر المرة بعد الأخرى أنه لم يكن، رغم كونه يهودياً، يؤمن بالرب، كما لم يكن من الممكن اعتباره صاحب أية مشاعر دينية فيما عدا الحدود الدنيا المتطرفة. يبين يروشالمي، بدهاء، أن فرويد كان، على ما يبدو، يؤمن، ربما حاذياً حذو لامارك، بأن «النزعات الشخصية المتأصلة في النفس اليهودية، تنتقل هي نفسها وراثياً، ولا تعود بحاجة إلى الدين لإدامتها. حتى اليهود الملحدون من أمثال فرويد، محكومون، بالضرورة، بأن يرثوا حصتهم من تلك النزعات، حسب افتراض لاماركي نهائي كهذا» (٥٢). لا غبار على ما قيل حتى الآن. غير أن يروشالمي يتابع كلامه بعد ذلك، لينسب إلى فرويد قفزة إلهية تكاد أن تكون يائسة أجدها غير مبررة إلى حد بعيد. يقول يروشالمي: «إذا كان التوحيد مصري المنبت أساساً، فقد كان يهودياً تاريخياً» (٥٣) ثم يضيف مقتبساً من فرويد أن «الشعب اليهودي يكفيه شرف أنه حافظ على تراث كهذا حياً، وأنجب رجالاً منحوه أصواتهم، حتى وإن كان الحافز قد جاء في البداية من الخارج، من أجنبي

عظيم» (٥٣) (خط التأكيد من الكاتب).

يشكل هذا موضوعاً شديد المركزية في خطاب فرويد بما يجعله جديراً بالمزيد من المعاينة والتمحيص. من المؤكد، فيما أعتقد، أن يروشالمي قد قفز إلى استنتاجات عمّا هو يهودي تاريخياً، لا يتوصل إليها فرويد نفسه بالفعل، لأن اليهودية الفعلية المقتبسة من موسى، كما سأحاول أن أبين، ما هي إلا قضية مغلقة، وبعيدة عن أن تكون مكشوفة، مسألة بالغة الإشكالية في الحقيقة، يبقى فرويد شديد التمزق حول الأمر، بل وسأتمادى لأقول: إنه متناقض في معتقداته عن عمْد. ستذكرون أن جملة فرويد الافتتاحية تشكل احتفالاً هجيناً، بصورة مذهلة، بما فعله وما سيفعله في الصفحات التالية، وهو أمر لا يقل عن «حرمان أحد الشعوب، من الرجل الذي يعتزون به بوصفه أحد أبنائه المؤسسين»، ليتابع بعد ذلك قائلاً: إن مأثرة من تلك النوعية يتعذر اقتحامها بمرح أو لا مبالاة، «خصوصاً بالنسبة إلى شخص ينتمي إلى ذلك الشعب». وهو لا يفعل ذلك إلا لصالح حقيقة - لا يلوك الكلام قط - أهم بكثير مما «يعتبر [تجسيداً] للمصالح القومية». تكاد السخرية الكامنة في هذه العبارة الأخيرة، أن تقطع أنفاسك، ليس فقط بسبب رائحة الغطرسة التي تفوح منها، بل وجراء التوق الذي تعبر عنه إلى إخضاع مصالح شعب بكامله لما هو أكثر أهمية، لمسألة استئصال جذور الدين من مكانها في تربة أسرة وتاريخ إخوة في الإيمان، ذوي عقول متشابهة.

لن أكرر جميع النقاط الرئيسية الواردة في خطاب فرويد - أنا أيضاً أريد أن أكون مستبداً قليلاً - فيما عدا التذكير بالتأكيدات التي يوردها فيها. تأتي هوية موسى المصرية في الطليعة، بطبيعة الحال، ومعها أن أفكار موسى الخاصة بالإله الواحد، مأخوذة كلياً عن الفرعون المصري، الذي يعتبر في كل مكان أنه صاحب فضل اختراع العقيدة التوحيدية. وخلافاً لما يفعله يروشالمي، مثلاً، ينحرف فرويد عن مساره ليعزو فضل الفكرة إلى أخناتون، مصراً على أنها بدعة لم تكن موجودة قبله؛ وعلى الرغم من أنه يقول: إن التوحيد لم يتجذر في مصر، فإن من المؤكد أن فرويد كان يعلم علم اليقين أن التوحيد ما لبث أن عاد إلى مصر في ثوب المسيحية البدائية (الباقية في الكنيسة القبطية اليوم) أولاً، وعبر الإسلام، الذي يناقشه بإيجاز في مكان لاحق من النص، بعد ذلك. والأعمال الأخيرة في ميدان الدراسات المصرية تشي في الحقيقة بأن قدراً لا يستهان به من الآثار الدالة على التوحيد قبل عهد أخناتون بزمن طويل، قد تم العثور عليها، وهذا بدوره يشي بأن دور مصر في نشوء وتطور عبادة إله واحد، أكثر أهمية بما لا يقاس مما درج الناس على التسليم به في الغالب. يبقى يروشالمي أكثر توقاً من فرويد لطمس جميع الآثار الدالة على التوحيد في مصر بعد موت أخناتون، ويضمر أن عبقرية الديانة اليهودية، هي التي طوّرت الدين حتى أصبح أرقى بكثير مما سبق للمصريين أن عرفوا عنه.

أما فرويد فيبقى أكثر تعقيداً، بل وحتى تناقضاً. يسلّم بأن اليهود استأصلوا عبادة الشمس من الدين الذين أخذوه عن أخناتون، غير أنه لا يلبث أن يختزل الأصالة اليهودية أكثر، حين يلاحظ أن الختان لم يكن فكرة يهودية بل مصرية، أولاً، وأن اللاويين، وهم جماعة يهودية موجودة

منذ الأزل كما يقول التراث، كانوا أتباع موسى المصريين، الذين جاؤوا معه إلى المكان الجديد، ثانياً.

أما ذلك المكان، فلا يلبث فرويد أن يزيد من تجريده عن البقعة الجغرافية المخصصة تقليدياً للإسرائيليين، ويقول: إنه كان مريبات – قادش «في البلد الواقع إلى الجنوب من فلسطين بين الحافة الشرقية لشبه جزيرة سيناء والتخوم الغربية للجزيرة. وهناك أخذوا عبادة الإله يهوه، ربما من إحدى القبائل العربية المديَنية التي كانت تعيش في أماكن قريبة. يفترض أن قبائل أخرى مجاورة كانت أيضاً من أتباع ذلك الإله»(٣٩) وهكذا فإن فرويد يقوم أولاً بإعادة العناصر المكوِّنة لأصل الديانة اليهودية، التي كانت قد تعرضت للنسيان أو الإنكار، جنباً إلى جنب مع اغتيال الأب البطولي المشترك بين سائر الأديان، إلى أماكنها، ثم يبادر، عبر نظريته القائمة على هجوع المقموع وعودته، إلى تسليط الضوء على كيفية قيام اليهودية بالتأسيس لعقيدتها كدين راسخ بصورة دائمة. يبقى الخطاب خارق الدهاء والافتقار إلى الترابط، كما سيشهد كل من سبق له أن قرأ موسى والتوحيد بسرعة. فمشاهد القمع، الرفض، والعودة تمر أمام القارئ بصورة شبه سحرية كما لو كانت تجارب من الفرد إلى الجماعة: مشاهد يصفها فرويد في نسق سردي متبوع بموضوعية كامنة أولاً ثم مكشوفة، بما يفضي في جملته إلى ظهور، ليس فقط الصفة اليهودية، بل ونزعة معاداة السامية الملازمة لها. لعل النقاط الرئيسية التي أريد تأكيدها هي أن فرويد يضع ذلك كلّه في قالب عَلْماني، دون تقديم أي تنازل لما هو سماوي وخارج عن نطاق التاريخ، بمقدار ما استطعت أن أكتشف، هذا أولاً وقبل كل شيء؛ أما النقطة الثانية فهي أن فرويد لا يبذل أي جهد لصقل قصته أو لإعطائها مساراً واضحاً. ربما كان هذا عائداً إلى أن جزءاً كبيراً من المادة التي يتعامل معها، وهو يؤرخ لعواقب تركة موسى، غير متكافئ، نظراً لتناقضه الجذري في تضاربه الحاد بصورة مزعجة، بين الخارجي المؤسِّس من ناحية، والاستمرارية التي أسس لها (وقَتَلَتْه أيضاً) بوصفها الكلمات الأولى التي كان قد درسرها وكتب عنها قبل عدد من العقود.

ليس هذا، على أحد المستويات، أكثر من القول بأن عناصر الهوية التاريخية تبدو، على الدوام، مركَّبة، خصوصاً حين تكون أحداث أولية مثل قتل الأب والخروج من مصر، هي ذاتها وثيقة الارتباط بأحداث سابقة. أما عن إمكانية القول: ان موسى كان «أجنبياً» بالنسبة إلى اليهود الذين يتبنونه باعتباره أبوهم، فإن فرويد واضح تماماً، بل وعنيد في صراحته، إذ يقول: إن موسى كان مصرياً، وبالتالي مختلفاً عن الناس الذين احتضنوه زعيماً لهم، أي عن أولئك الذين ما لبثوا أن أصبحوا اليهود، الذين قام موسى فيما بعد، على ما يبدو، بإيجادهم بوصفهم شعبه هو. من شأن القول بأن علاقة فرويد بالديانة اليهودية كانت ملتبسة، أن ينطوي على المخاطرة بإطلاق حُكْم ضعيف وناقص. فعند بعض المنعطفات كان الرجل صريح الاعتزاز بانتمائه، وإن ظل معادياً للدين إلى النهاية؛ أما في أوقات أخرى فقد عبَّر عن انزعاجه من الصهيونية وعدم اتفاقه معها بصورة واضحة، كما فعل، مثلاً، حين كتب رسالة مشهورة عن عمل الوكالة اليهودية عام ١٩٣٠م، ولكنه رفض أن يوقع نداءً يدعو البريطانيين إلى زيادة الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

بل وقد تجاوز ذلك في الحقيقة، ووصل إلى حد إدانة تحويل «قطعة من سور هيرود إلى أثر قومي مقدّس، واستثارة مشاعر السكان الأصليين» (١٣، Y). وبعد خمس سنوات، إثر قبوله لعضوية مجلس الجامعة العبرية، قال فرويد للصندوق القومي اليهودي: إنه [الصندوق] كان «أداة... عظيمة ومباركة... في سعيه لإقامة وطن جديد في أرض آبائنا القديمة»(١٣). يقوم يروشالمي بسرد حكاية تقلبات فرويد الإيجابية منها والسلبية بمهارة أيضاً، كما يبذل كثيراً من الجهد لتسليط الأضواء على حقيقة أن يهودية فرويد، تخترق حلقات السلسلة كلّها من هويته اليهودية النابعة من المقاومة العنيدة لـ «الأكثرية المتماسكة»، عبر المسيرة الإجمالية لعملية استذكار وقبول التراث الموروث عن موسى (ومنه المصالحة مع الأب المذبوح)، وصولاً إلى الفكرة الأعظم من جميع الأفكار الأخرى، تلك الفكرة القائمة على أن اليهود نجحوا، عبر عملية تصعيد خاصة بالديانة التوحيدية (المأخوذة عن مصر: لا يستطيع فرويد إلا أن يورد تلك العبارة)، في إخضاع إدراك الشعور للروح، في ازدراء السحر والتصوف [النزعة التأملية الغيبية]، في تلبية الدعوة إلى تحقيق «أشكال التقدم على الصعيد الفكري» (أخذتُ هذه العبارة من ترجمة ستراتشي، لأنها محذوفة بلا مبرر من ترجمة جونز، والكلمة الألمانية المرادفة هي Geistigkeit)، وفي الحصول على «التشجيع لتحقيق التقدم في مجال الروح وأشكال السمو». أما باقي ذلك التقدم فسوف يأتي فيما بعد، عبر أشكال سعيدة بصورة أقل تكافؤاً. «إن الشعب السعيد بإيمانه بامتلاك الحقيقة، بات، بفضل وعيه الطاغي بأنه هو الشعب المختار، يثمن جميع الإنجازات الفكرية والأخلاقية عالياً. وسوف أبين أيضاً كيف تمكن مصيره الحزين، مع أشكال الخيبة التي كان الواقع يخبئها له، من تقوية جميع هذه التوجهات» (١٠٨ - ١٠٩).

ثمة تحليلات أكثر تفصيلاً للعلاقة بين هوية فرويد اليهودية، وجملة مواقفه وتحركاته المعقدة والالتفافية تماماً في تعامله مع الصهيونية، نجدها في كتاب جاكي شيموني فرويد والصهيونية: أرض التحليل النفسي، أرض الميعاد (١٩٨٨). على الرغم من أن استنتاج شيموني يقول: إن هيرتزل وفرويد تقاسما العالم اليهودي فيما بينهما، حيث قام الأول بوضع اليهودية في موقع محدد، في حين اختار الثاني ملكوت ما هو كوني، فإن الكتاب يطرح فكرة جريئة عن روما وأثينا والقدس، تقترب كثيراً من وجهات نظر فرويد المضادة حول تاريخ الهوية اليهودية ومستقبلها. كانت روما بالطبع الصرح المرئي الذي اجتذب فرويد ربما لأنه، برأي شيموني، رأى في المدنية تدمير هيكل القدس، ورمزاً من رموز نفي الشعب اليهودي، وبالتالي بداية رغبة في إعادة بناء الهيكل في فلسطين. أما أثينا فكانت مدينة العقل، صورة أصدق عموماً عن مجمل حياة فرويد المكرّسة للإنجاز الفكري. ومن هذا المرصد بدت القدس الملموسة تلطيفاً لنموذج الزهد الروحي، حتى وإن كانت أيضاً نوعاً من الإدراك لإمكانية مخاطبة الضياع عبر العمل المنسَّق الذي كانت الصهيونية تجسده في الحقيقة.

ما أجده مثيراً، سواء قبلنا باسترجاع يروشالمي المتحذلق لفرويد كيهودي، اضطر للتسليم بواقع شعبه في أوروبا الفاشية، وفيينا المعادية للسامية خصوصاً، أم بتثليث شيموني الأكثر تعقيداً

بعض الشيء (شيء من الخيال؟) وغير المحلول إلى حدّ كبير لمعضلة النفي والانتماء، هو أن عنصراً معيناً يبقى مزعجاً، ومصدر ضيق لكل من يفكر بقضايا الهوية هذه من منطلقات إيجابية أو سلبية متناغمة على حدّ سواء. وذلك العنصر هو قضية غير اليهودي، التي يعالجها فرويد بكثير من الوَهن والضعف، في الصفحات الأخيرة من كتاب موسى والتوحيد. يقول فرويد: إن اليهود كانوا على الدوام يثيرون كراهية الجمهور، لا لأسباب وجيهة مثل تهمة صلب المسيح على الدوام. اثنان من أسباب معاداة السامية ليسا في الحقيقة إلا وجهين لعملة واحدة: اليهود أجانب من جهة، وهم «مختلفون» عن مضيفيهم من جهة ثانية؛ أما السبب الثالث الذي يورده فرويد فهو أن اليهود، بصرف النظر عن مدى تعرضهم للاضطهاد، «يتحدون الظلم، حتى أن أقسى أشكال الاضطهاد والملاحقة لم تنجح في إفنائهم. فهم، على النقيض من ذلك، يبدون قدرة على المحافظة على ذواتهم في الحياة العملية، ويقدمون، حيثما يتاح لهم، مساهمات ثمينة لصالح الحضارة المحيطة»(١١٦). وفيما يخص تهمة أن اليهود يبقون أجانب وغرباء (السياق المضمر بالطبع هو السياق الأوروبي)، نرى أن فرويد يرفض الفكرة، لأن اليهود عاشوا فترة أطول في البلاد التي تسود فيها نزعة معاداة السامية، مثل ألمانيا التي جاؤوا إليها مع الرومان. وحين يواجَه بتهمة الاختلاف عن المضيفين، يأتي رد فرويد متعثراً وضعيفاً، إذ يقول: إن اليهود ليسوا «كذلك جذرياً» لأنهم ليسوا «عرقاً آسيوياً غريباً، بل يتألفون بأكثريتهم من بقايا الشعوب المتوسطية ويرثون ثقافتها»(١١٦).

أما في ضوء قيام فرويد المبكر بالعزف على وتَر مصرية موسى، فإن أشكال التميز التي يحققها على هذا الصعيد أجدها هزيلة، غير مرضية وغير مقنعة. أقدم فرويد، في مناسبات عديدة، على وصف نفسه، فيما يخص اللغة والثقافة، بأنه ألماني، ويهودي أيضاً، وخلال مراسلاته وكتاباته العلمية كلّها، يحرص على أن يبدو حساساً تماماً إزاء قضايا الاختلاف الثقافي، مثله مثل الاختلاف العرقي والقومي، على الرغم من أن عبارة «غير الأوروبيين» كانت بالنسبة إلى أوربيي ما قبل الحرب العالمية الثانية، عبارة غير مشبوهة، دالة على الناس الآتين من خارج أوروبا، مثل الآسيويين على سبيل المثال. غير أنني لست مقتنعاً بأن فرويد كان متنبهاً إلى حقيقة أن الإعلان، ببساطة، عن أن اليهود كانوا من بقايا الحضارة المتوسطية، وبالتالي ليسوا مختلفين في الحقيقة، جاء متناقضاً تناقضاً صارخاً مع سعيه الحثيث، لإلقاء الضوء على أصول موسى المصرية. ربما أراد فرويد أن يحشر اليهود، إذا جاز التعبير، تحت العباءة الأوروبية الواقية، متنبهاً بصورة مسبقة إلى تعاظم شبَح معاداة السامية، وانتشاره بشكل مخيف في عالمه خلال العقد الأخير من حياته.

غير أننا إذا تقدمنا بسرعة كبيرة، وانتقلنا مما قبيل الحرب العالمية الثانية إلى ما بعدها، فسوف نصاب بقدْر كبير من الدهشة، حين نلاحظ أن تسميات معينة مثل «أوروبي» و«غير أوروبي» باتت منطوية، بصورة درامية مثيرة، على أصداء أكثر شؤماً مما بدا فرويد متنبهاً. ثمة بالطبع التهمة التي أطلقها الحزب الاشتراكي القومي، والتي صنفتها قوانين نورمبرغ تحت عبارة

أن اليهود أجانب، ويمكن الاستغناء عنهم بالتالي. تبقى المحرقة [الهولوكوست) نُصباً مروّعاً، إذا كانت تلك هي العبارة المناسبة، للتذكير بتلك التسمية وبالمعاناة التي رافقتها كلّها. ومن ثم فإن هناك ما يقرب من عملية إضفاء الصفة الحرفية الكاملة على التعارض الثنائي بين ما هو يهودي من جهة، وما هو غير أوروبي من الجهة المقابلة، في فصل أوج قصة الاستيطان المنكشفة في فلسطين، حيث أصبح عالم موسى والتوحيد، بصورة مفاجئة، مفعماً بالحياة في هذه النتفة الصغيرة من الأرض على الضفة الشرقية للمتوسط. فمع حلول عام ١٩٤٨ ما لبث غير الأوروبيين المعنيون أن تجسدوا بالسكان الأصليين عرب فلسطين، ومدعومين من قبل المصريين والسوريين واللبنانيين والأردنيين، الذين هم أحفاد القبائل السامية المختلفة، بمن فيها المِدْيَنيون العرب الذين كانوا أوائل من التقى بهم الإسرائيليون في جنوب فلسطين، حيث جرى بين الطرفين تبادل غني.

أما في الأعوام التي أعقبت ١٩٤٨م، بعد إقامة إسرائيل كدولة يهودية في فلسطين، فقد حدث، من جديد، نوع من إعادة التصنيف والتبويب والفصل لجملة الأعراق والأقوام والشعوب، التي سبق لها أن بدت لدارسي الظاهرة في أوروبا القرنين التاسع عشر والعشرين، إعادة لعملية تجسيد سلسلة الانقسامات التي كانت فيما مضى ملأى بالدماء والقتل، بين ظهراني من كانوا، ذات يوم، كتلة سكانية متنوعة متعددة الأعراق للعديد من الشعوب. وفي هذا السياق أقدم الغرب الأطلسي على تبني إسرائيل دولياً (علماً أن ذلك الغرب كان قد أعطى فلسطين لإسرائيل عبر تصريح بلفور الصادر عام ١٩١٧م) بوصفها دولة شبه أوروبية، عملياً بدا مصيرها متوقفاً، في تأكيد مرعب لنظرية فانون، على لجم، وإعاقة تطور، شعوب المنطقة الأصلية غير الأوروبية، أطول مدّة ممكنة.

التحق العرب بعالم عدم الانحياز الذي دعَّمه النضال العالمي ضد الكولونيالية كما وصفه فانون وكابرال وسيزار. أما في إسرائيل فقد كان الشرط التصنيفي الأول يقول: ان إسرائيل دولة لليهود، في حين تم اعتبار غير اليهود؛ الغائبين منهم أو الحاضرين مهما بلغ تعدادهم، أجانب حقوقياً، رغم الإقامة السابقة. وللمرة الأولى، بعد تدمير الهيكل الثاني، جرى توحيد الهوية اليهودية وترسيخها في المكان القديم الذي كان، كحاله في الأزمان التوراتية، مأهولاً بعدد غير قليل من الأقوام والأعراق والشعوب الأخرى التي باتت، بين عشية وضحاها، مجموعات من الأجانب، أو طُردت إلى المنافي، أو تعرضت للأمرين معاً.

ربما أصبحتم ترون الاتجاه الذي أسير فيه. بالنسبة إلى فرويد الذي كان يكتب ويفكر في أواسط ثلاثينيات القرن العشرين، كان واقع ما هو غير أوروبي متمثلاً بحضوره التأسيسي، كنوع من الانفصام في شخصية موسى، مؤسس الديانة اليهودية، ولكنه مصري غير يهودي لم تتم إعادة تركيبه في الوقت نفسه. لقد جاء يهوه من الجزيرة العربية، وهو غير يهودي وغير أوروبي أيضاً. ومع ذلك فإن الوقائع المصرية المعاصرة لفرويد، جنباً إلى جنب مع التاريخ القديم بالغ الغنى لمصر – تماماً كما كانت الحال مع فيردي حين كتب عايدة – كانت مثار اهتمام لأنها فُسِّرت وقُدِّمت من قبل باحثين أوروبيين، مثلما كان كتاب إيرنست سلين الذي يقوم عليه مؤلَّف

موسى والتوحيد إلى حدّ كبير، في المقام الأول.

ثمة في الحقيقة نظير يكاد أن يكون مكافئاً مئة بالمئة، أبدعه عبقرية مصر الروائية العظيم نجيب محفوظ، حين كتب رواية عن أخناتون بعنوان العائش في الحقيقة، وهي ليست أقل تركيباً وتعقيداً من سائر القصص التي يكتبها، ولم تأت قط على أي ذكر للوجود اليهودي الأولي المتمثل بشخص موسى، على الرغم من قيام الكاتب باستكشاف العديد من وجهات النظر، سعياً لاحقاً وراء فهم هوية أخناتون. فالرواية مصرية خالصة ومطلقة كما سبق أن تعين على إسرائيل أن تكون يهودية.

أشك كثيراً أن يكون فرويد قد تصور أنه سيكون مقروءاً من جانب قراء غير أوروبيين، أو من قبل قراء فلسطينيين، في سياق معارك الصراع على فلسطين. غير أنه كان ولا يزال. دعونا نلقي نظرة سريعة على ما آلت إليه تنقيباته - بالمعنيين المجازي والحرفي - عبر فيض هذه الحُزْمة من وجهات النظر المضطربة بصورة غير متوقعة، وذات العلاقة والأهمية بصورة باعثة على الرَّهْبة. لعلي أقول، بادئ ذي بدء: إن إقامة إسرائيل، بفعل «مآثر» نزعة معاداة السامية الأوروبية تحديداً، في أرض غير أوروبية، أدت إلى ترسيخ الهوية اليهودية سياسياً، في دولة بادرت إلى اتخاذ جملة من التدابير الحقوقية والسياسية الاستثنائية، من أجل سدّ أبواب تلك الهوية أمام كل ما ليس يهودياً. فإسرائيل حين حددت نفسها دولة يهودية، ومن أجل اليهود، إنما كانت تمنح اليهود وحدهم حقوقاً حصرية في الهجرة وامتلاك الأرض، على الرغم من وجود سكان سابقين، ومواطنين حاليين، من غير اليهود، تعرضت حقوقهم إما للإلغاء الكامل أو الاختزال والتقليص على التوالي. فالفلسطينيون الذين كانوا يعيشون في فلسطين ما قبل ١٩٤٨م، لا يستطيعون أن يعودوا (إذا كانوا لاجئين) ولا يستطيعون امتلاك الأرض مثل اليهود. وفي تعارض واضح مع تذكيرات فرويد الاستفزازية المتعمدة، بأن مؤسس الديانة اليهودية لم يكن يهودياً، وبأن الدين اليهودي يخرج من رحم العقيدة التوحيدية المصرية، غير اليهودية، تصر التشريعات الإسرائيلية على دحض، كبت، بل وحتى إلغاء ظاهرة انفتاح الهوية اليهودية على خلفيتها وجذورها غير اليهودية، تلك الظاهرة التي دأب فرويد على إبداء الكثير من الحرص من أجل المحافظة عليها. بقيت إسرائيل الرسمية مصرة على إزالة الطبقات المعقدة والمركَّبة للماضي، إذا جاز التعبير. وبالتالي فأنا حين أقرأ كتاباته، في سياق سياسات إسرائيل المدروسة والواعية سياسياً، أرى أن فرويد كان، بالمقابل، قد ترك مجالاً لا يستهان به لاستيعاب أسلاف اليهودية ومعاصريها من غير اليهود. بمعنى أن فرويد هذا أصر، لدى قيامه بسبر الأغوار الآثارية القديمة للهوية اليهودية، على أن هذه الهوية لم تبدأ بذاتها، بل خرجت، بالأحرى، من أرحام هويات أخرى (مصرية وعربية)، بما يجعل استعراضه في موسى والتوحيد خطوة متقدمة جداً وعظيمة على طريق اكتشافها، وصولاً إلى إعادة وضعها تحت المجهر. غير أن هذا التاريخ غير اليهودي، غير الأوروبي بات الآن مطموساً، إذ لم يعد قابلاً للعثور عليه، بمقدار ما يكون الأمر متعلقاً بأية هوية يهودية رسمية.

لعل الأهم من ذلك، فيما أرى، هو حقيقة أن غير اليهود - وهم الفلسطينيون في هذه الحالة -

قد تم، بفعل إحدى العواقب المُغْفَلة عادة لإقامة إسرائيل، نقلُهم إلى حيث يستطيعون، بروح تنقيبات فرويد، أن يسألوا عما آلت إليه آثار تاريخهم التي كانت متضمنة بعمق في واقع فلسطين قبل إسرائيل. يتعين عليَّ، التماساً للجواب، أن أتحول عن عالم السياسة والقانون، إلى دنيا تكون أقرب بكثير من رواية فرويد لقصة نشوء العقيدة التوحيدية اليهودية. أعتقد أنني على صواب حين أخمِّن أن فرويد قام باستنفار الماضي غير الأوروبي لتقويض أية محاولة مذهبية، يمكن أن تُبذل على صعيد إرساء الهوية اليهودية على قاعدة أساسية سليمة، دينية كانت أم علمانية. لا غرابة، إذن، أننا سنجد أن علم الآثار هو الذي جرى، لدى تكريس الهوية اليهودية عبر تأسيس إسرائيل، تكليفه بإنجاز مهمة ترسيخ تلك الهوية وتثبيتها في الزمن العَلْماني؛ أما الحاخامات، ومعهم الباحثون المتخصصون بـ «علم الآثار التوراتي»، فقد تم منحهم ملكوت التاريخ الديني مزرعة لهم. (أنظر كيث و. وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة: إسكات التاريخ الفلسطيني، ١٩٩٦م). لاحظوا أن عدداً كبيراً من المعلقين وممارسي العمل الآثاري بدءاً بوليم أولبرايت وإدموند ولسُنْ وانتهاءً بإيغال يادين وموشي دايان وحتى آرئيل شارون، يتنبهون إلى أن الآثار هي العِلْم الإسرائيلي المفضل بامتياز. فقد قال عالم آثار إسرائيلي مرموق يدعى ماغِن بروشي:

لا يوجد للظاهرة الإسرائيلية التي هي ظاهرة أمة عائدة إلى أرضها القديمة – الجديدة، أي نظير. إنها أمة عاكفة على تجديد تآلفها مع أرضها الخاصة. وهنا بالذات يلعب علم الآثار دوراً مهماً. ففي هذه العملية يشكل علم الآثار جزءاً من منظومة أكبر، تُعْرف باسم يديعات هاآرتس، معرفة الأرض (من المحتمل أن تكون العبارة العبرية مأخوذة من كلمة لانديسكونده الألمانية).... ومن المفارقات أن المهاجرين الأوروبيين جاؤوا إلى أرض تملّكَتْهم إزاءها مشاعر القُرب، جنباً إلى جنب، مع أحاسيس الغُربة. لقد اضطلع علم الآثار في إسرائيل، وهي دولة ذات نوعية فريدة، بدور أداة تبديد اغتراب مواطنيها الجدد (الحاج، ٤٨).

وهكذا فإن علم الآثار لا يلبث أن يصبح الطريق السلطاني المُفْضي إلى الهوية الإسرائيلية، حيث يقال ويُزعم بصورة متكررة أن أرض إسرائيل التوراتية الحالية تتحقق بفضل علم الآثار، التاريخ الذي تم إكْسابُه لحماً وعظماً، الماضي المستعاد والموضوع في سياق السلالات الحاكمة. من الطبيعي أن مثل هذه المزاعم تعيدنا بكثير من المَكْر ليس فقط إلى الموقع المحفوظاتي (الأرشيفي) للهوية اليهودية كما استكشفها فرويد، بل إلى بقعتها الجغرافية المكرسة رسمياً (علينا أيضاً ألا ننسى أن علينا أن نضيف عنوة) المعروفة باسم إسرائيل الحديثة. ليس ما نكتشفه إلا محاولة خارقة للعادة وتنقيحية لإحلال بنية إيجابية جديدة للتاريخ اليهودي، محل جملة الجهود المعقدة أكثر، والقائمة على أسلوب المرحلة الأخيرة من الحياة المتقطع والمشتت، تلك الجهود التي بذلها فرويد بكثير من العناد في سبيل معاينة الموضوع نفسه، ولو بروح غارقة في بحر مزاج حياة المنفى والشتات، وبنتائج مختلفة لا علاقة لها بالمركزية.

إنها لَلَحْظَة مناسبة لأعترف بأنني مدين كثيراً لكتابات باحثة شابة تدعى ناديا أبو الحج،

يحمل كتابُها الرئيسي عنوان حقائق على الأرض: الممارسة الآثارية وصياغة الذات الإقليمية في المجتمع الإسرائيلي، وقد نشرته جامعة شيكاغو أوائل عام ٢٠٠٢م. ما تقدمه قبل كل شيء، هو تاريخ لعملية استكشاف آثارية استعمارية منهجية في فلسطين، تعود إلى الأعمال البريطانية منتصف القرن التاسع عشر. ثم تتابع القصة في الفترة التي سبقت تأسيس إسرائيل، رابطة بين الممارسة الفعلية لعلم الآثار والإيديولوجيا القومية الوليدة، وهي إيديولوجية ذات مخططات تستهدف استعادة حيازة الأرض وامتلاكها عبر سلسلة من عمليات إعادة التسمية وإعادة التوطين، المبررة آثارياً في الكثير من الأحيان بوصفها استخلاصاً مبرمجاً لهوية يهودية، رغم وجود أسماء عربية وآثار موروثة عن حضارات أخرى. وهي تقول بصورة مقنعة: إن هذا الجهد يمهد الطريق معرفياً لبروز إحساس مكتمل بوجود هوية إسرائيلية – يهودية فيما بعد ١٩٤٨م، هوية قائمة على تجميع نُتَف آثارية خاصة – على بقايا مبعثرة من الأحجار، الألواح، العِظام، القبور، وإلخ، وصولاً إلى نوع من السيرة المكانية التي تنبثق منها إسرائيل «بوصفها الوطن القومي اليهودي، من حيث المظهر واللغة»(٧٤).

لعل الأهم من ذلك هو أنها تقول: إن هذه السيرة الروائية الزائفة لبقعة من الأرض تمكن لِـ، إن لم تكن تتسبب في، وتسير يداً بيد مع، أسلوب خاص من أساليب الاستيطان الكولونيالي، أسلوب يتحكم بممارسات ملموسة، مثل استخدام البلدوزرات، العزوف عن استكشاف التواريخ غير الإسرائيلية (أي تواريخ المكابيين والإشمونيين)، وعادة قلب حضور يهودي متقطع ومبعثر عبر أطلال وآثار متفرقة، ومُزَق دفينة، إلى استمرارية سلالية، رغم الأدلة المناقضة ورغم وجود أدلة على أن هناك تواريخ غير يهودية نابعة وأصيلة. فحيثما توجد أدلة يتعذر الهروب منها وطاغية تشير إلى نوع من تعددية التواريخ الأخرى، كما في لوح القدس لهندسة العمارة البيزنطية، الصليبية، الإشمونية [المكابية]، الإسرائيلية والإسلامية، تقضي القاعدة بتأطير هذه الآثار، وتحمُّلها كأحد وجوه الثقافة الإسرائيلية الليبرالية، ولكن للتأكيد أيضاً على تفوُّق إسرائيل القومي عبر توجيه الضربات إلى الاعتراض اليهودي الأرثوذكسي على الصهيونية الحديثة، عن طريق جعل القدس موقعاً يهودياً – قومياً أكثر فأكثر. (أنظر في هذا السياق مقال غلن باورسوك الأساسي المكتوب عام ١٩٨٦م عن علم الآثار الإسرائيلي؛ من الغريب أن هذه الدراسة ليست مذكورة من قبل أبو الحج العميقة جداً في بحثها فيما عدا ذلك).

يشكل تفكيك أبو الحج بالغ الدقة لعلم الآثار الإسرائيلي أيضاً، تاريخاً لنفي وطمس فلسطين العربية، التي لم تعتبر قط جديرة بدراسة مماثلة. غير أن مواقف الأسلوب التراثي لعلم آثار توراتي حصرياً، ما لبثت أن باتت تحدياً مع ظهور التاريخ التنقيحي ما بعد الصهيوني في إسرائيل، خلال أعوام ثمانينات القرن العشرين، والمتزامن، مع الصعود التدريجي لعلم آثار فلسطيني كإحدى ممارسات النضال التحرري، خلال الفترة الماضية القريبة من عشرين سنة. ليتني كنت أملك الوقت هنا لأتوقف عند هذا الموضوع، ولأناقش كيف بدأت الأطروحة القومية القائلة بوجود تاريخين، إسرائيلي وفلسطيني، منفصلين، تشكل الجدالات الآثارية في الضفة الغربية،

وكيف ساهم الاهتمام الفلسطيني، مثلاً، بالترسبات الفنية جداً لتاريخ الأرياف والقرى والموروثات الشفهية في توفير احتمال إحداث تغيير مكانة الأشياء من نُصُب وآثار ومصنوعات ميتة موجهة إلى المتاحف، ومفضلة كحدائق موضوعات تاريخية، إلى بقايا ومخلفات حياة محلية وطنية على قدم وساق، وممارسات فلسطينية نابضة بالحياة لبيئة إنسانية قابلة للدوام والاستمرار. (أنظر أيضاً القصة الدرامية المثيرة التي يرويها كتاب إدوارد فوكس غسق فلسطين: اغتيال الدكتور ألبرت غلوك وعلم آثار الأرض المقدسة).

غير أن البرامج القومية تميل إلى أن تتشابه فيما بينها، خصوصاً حين تكون أطراف متباينة في صراع إقليمي معين، ساعية إلى اكتساب صفة الشرعية في نشاطات قابلة للطَّرْق والصياغة، مثل إعادة هيكلة الماضي واصطناع التراث. وبالتالي فإن أبا الحج محقة تماماً حين تقول: إن تلك البرامج غير موحدة حقاً على صعيد الممارسة، رغم سيادة التزام متنور مضمر بوحدة العلوم. يمكن للمرء أن يلتقط مباشرة جملة الأسباب التي تجعل علم الآثار، في الإطار الإسرائيلي والفلسطيني، بعيداً عن أن يكون العلم نفسه. فعلم الآثار بالنسبة إلى أي إسرائيلي يؤكد الهوية اليهودية في إسرائيل، ويُعَقْلِن نمطاً خاصاً من أنماط الاستيطان الاستعماري (نمط خلق الوقائع على الأرض)؛ في حين أن علم الآثار، بالنسبة إلى أي فلسطيني، أن يواجه بالتحدي وصولاً إلى فتح تلك «الوقائع» والممارسات، التي أضفت عليه نوعاً من النَّسَب العلمي أمام وجود تواريخ أخرى وأصوات متعددة. لا يؤدي التقسيم (كما جرى تصوره في عملية أوسلو منذ عام ١٩٩٣م) إلى استئصال الصراع الدائر بين الروايتين القوميتين المتنافستين: بل ولعله يميل إلى تأكيد استحالة التوفيق بين الفريقين، بما يزيد من الإحساس بالضياع، ومن طول قائمة الشكاوى والمظالم.

اسمحوا لي أن أعود أخيراً إلى فرويد واهتمامه بغير الأوروبيين، لتأثير ذلك على محاولته الرامية إلى إعادة هيكلة التاريخ البدائي للهوية اليهودية. فما أجده شديد الإلحاح حول الأمر، هو أن فرويد كان، على ما يبدو، قد بذل جهداً خاصاً للحيلولة، مرة وإلى الأبد، دون شطب أو إضعاف حقيقة أن موسى كان غير أوروبي، خصوصاً لأن اليهودية الحديثة واليهود كانا يعتبران ظاهرتين أوروبيتين في المقام الأول، أو منتميتين إلى أوروبا بدلاً من آسيا وأفريقيا على الأقل، طبقاً لمنطلقات خطابه. علينا أن نسأل: لماذا؟ من المؤكد أن فرويد لم تكن لديه أية فكرة عن أوروبا على أنها تلك القوة الاستعمارية الشريرة، التي وصفها فانون ونُقّاد المركزية الأوروبية بعد بضعة عقود، وفيما عدا تعليقه النبوئي عن إثارة غضب العرب الفلسطينيين عبر إيلاء النُّصُب اليهودية قَدْراً لا تستحقه من الاهتمام، لم تكن لديه أية فكرة على الإطلاق، عما كان يمكن أن يحدث بعد عام ١٩٤٨م، حين بدأ الفلسطينيون يرون، تدريجياً، أن الناس الذين جاؤوا من الخارج لاحتلال أرضهم واستيطانها لم يكونوا، على ما بدا لهم، مختلفين في شيء عن الفرنسيين الذين جاؤوا إلى الجزائر؛ لم يكونوا إلا أوروبيين متمتعين بحق امتلاك الأرض أكثر من السكان الأصليين غير الأوروبيين. كما أن فرويد لم يتوقف، إلا بصورة موجزة جداً، عند مدى القوة، والعنف في الغالب، اللذين قد يتصف بهما رد فعل عرب غير أوروبيين بالتأكيد على التجسيد القسري للهوية

اليهودية في عملية قيام الحركة الصهيونية بإضفاء الثوب القومي على الديانة اليهودية. صحيح أن فرويد كان معجباً بهيرتزل، غير أن من الصحيح القول، فيما أظن، إنه ظل معظم الوقت، متردداً، مشوَّشاً في الحقيقة، إزاء ما تعنيه الصهيونية نفسها. فمن وجهة نظر نفعية أو غائية، كان يتعين على موسى أن يكون شخصاً غير أوروبي حتى يحصل الإسرائيليون عبر اغتياله على شيء يكبتونه، كما على شيء يتذكرونه، يُجِلّونه، ويُلْبسونه ثوب الروح على امتداد المسيرة الطويلة لمغامرتهم الكبرى في عملية إعادة بناء إسرائيل فيما وراء البحار. إنها الطريقة الوحيدة لتفسير ما يطلق عليه يروشالمي اسم يهودية فرويد اللامتناهية، بالقول: إنها كانت محكومة بتذكّر ما لم تستطع نسيانه بسهولة، ولكنها دأبت على جعل إسرائيل أقوى وأكثر جبروتاً.

غير أن ذلك ليس هو الخيار التفسيري الوحيد فيما أظن. ثمة تفسير آخر، أكثر كونية (كوزموبوليتية) يوفّره مفهوم اسحاق دويتشر لليهودي غير اليهودي. يقول دويتشر: إن تراثاً معارضاً كبيراً داخل العقيدة اليهودية يتشكل من عدد من المفكرين المرتدين [الهراطقة] مثل سبينوزا، ماركس، هاينه وفرويد؛ فهؤلاء كانوا أنبياء ومتمردين تعرضوا في البداية للاضطهاد والنبذ والملاحقة من قبل مجتمعاتهم بالذات. كانت أفكارهم انتقادات شديدة للمجتمع؛ كانوا متشائمين مؤمنين بأن قوانين علمية كانت تحكم سلوك البشر؛ كان تفكيرهم جدلياً [ديالكتيكياً] بما مكنهم من رؤية الواقع ديناميكياً متحركاً لا ساكناً مصاباً بالجمود، وكان الواقع الإنساني بالنسبة إليهم (كما في حالة فرويد) متمثلاً بإنسان الإحساسات المتوسطة «الذي تكون رغائبه وتطلعاته، وساوسه وكوابحه، هواجسه ومآزقه، هي هي من حيث الجوهر، بصرف النظر عن العرق، الدين، أو الأمة التي ينتمي إليها»(٣٥)؛ إنهم «متفقون على نسبية المعايير الأخلاقية»، دون إعطاء أي عرق أو ثقافة أو إله حق احتكار العقل أو الفضيلة؛ ويقول دويتشر أخيراً «كانوا مؤمنين بالتضامن النهائي بين البشر» وإن قامت أهوال زماننا في العقود الأخيرة من القرن العشرين، بإجبار اليهود على احتضان الدولة القومية [الدولة – الأمة] (التي هي «الذروة المشحونة بالتناقض للمأساة اليهودية») على الرغم من أنهم كانوا ذات يوم، بوصفهم يهوداً، يبشرون «بالمجتمع الدولي [الأممي] القائم على المساواة، مثلما بات اليهود متحررين من جميع أشكال الأصولية والقومية اليهودية منها وغير اليهودية»(٤٠).

ليست علاقة فرويد المضطربة بالتشدد في جماعته بالذات، إلا جزءاً من جملة الأفكار المعقدة التي أجاد دويتشر، الذي ينسى أن يأتي على ذكر ما أعتقد أنه أحد عناصرها المكوِّنة الجوهرية، ألا وهو طابع الابتلاء بالشتات واللااستقرار، في وصفه. وهذا موضوع دأب جورج شتاينر على الاحتفاء به بقدر كبير من الحماس، على امتداد العديد من السنين. غير أنني أميل إلى تعديل رأي دويتشر بالقول بعدم وجود حاجة لرؤية الأمر وكأنه سمة يهودية فقط، لأن من الممكن تلمُّسُه في الوعي الشتاتي، المتنقل، غير المحسوم، الكوزموبوليتي لشخص يكون داخل جماعته وخارجها في الوقت نفسه، في عصرنا الزاخر بالتحركات السكانية الواسعة وبأفواج اللاجئين، المنفيين، المبعدين، والمهاجرين. لقد أصبح هذا ظاهرة واسعة الانتشار نسبياً، وإن كان فهم ما يعنيه ذلك

الوضع بعيداً جداً عن الشيوع. أرى أن توسطات فرويد وإصراره على غير الأوروبيين من وجهة نظر يهودية صورة جديرة بالإعجاب، لما ينطوي عليه ذلك الوضع، من خلال رفض إغراق الهوية في بحر بعض القطعان القومية والدينية التي تريد أعداد كبيرة جداً من الناس، مدفوعة بكوابيس اليأس الثقيلة، أن تلوذ بها. أما ما ينطوي على قدْر أكبر من الجرأة، فهو تمثيله للنظرة الثاقبة التي تقول بوجود قيود كامنة ومتأصلة تمنع الهوية الجماعية الأكثر تحديداً، الأكثر قابلية للتعرف، والأشد عناداً – وهي الهوية اليهودية بنظره من الاندماج والذوبان في بوتقة هوية واحدة، هوية واحدة ووحيدة.

كان رمز فرويد الدال على تلك القيود، متمثلاً بحقيقة أن مؤسس الهوية اليهودية كان هو نفسه مصرياً غير أوروبي. وبعبارة أخرى، يتعذر التفكير بالهوية والتعامل معها من خلال ذاتها وحدها، فهي لا تستطيع أن تؤسس أو حتى تتخيل ذاتها دون ذلك الانقطاع أو الخلل الجذري والأصلي العميق الذي لن يتم كَبْتُه واضطهاده، لأن موسى كان مصرياً مما أبقاه على الدوام خارج الهوية التي ظل داخلها عدد كبير جداً من الناس فعانوا، ثم ربما حتى ما لبثوا، لاحقاً، أن انتصروا. تكمن قوة هذه الفكرة، فيما أعتقد، في أنها قابلة للتطوير ولمخاطبة هويات أخرى محاصَرة أيضاً، لا عبر توزيع الوصفات المهدّئة مثل التسامح والتعاطف، بل، بالأحرى، عن طريق الدأب على متابعة علاجها بوصفها علّة عَلْمانية مُزْعجة، باعثة على الشلل وعدم الاستقرار، هي جوهر ما هو كوني، علّة يتعذر شفاؤها، يستحيل الخروج منها إلى حالة من الاطمئنان الرواقي، من المصالحة الطوباوية حتى داخل ذاتها. يقول فرويد: إن هذه تجربة نفسية ضرورية، غير أن المشكلة تكمن في أنه لا يشير قط إلى المدى الزمني الذي يجب تحمُّلها خلاله، أو، بعبارة أصح، إلى ما إذا كانت ذات تاريخ حقيقي، نظراً لأن التاريخ هو الذي يأتي لاحقاً على الدوام، ويقوم في الغالب بتجاوز العلة أو قمعها وكبتها.

وبالتالي فإن الأسئلة التي يبقينا فرويد مشغولين بها هي: هل هناك أية إمكانية لكتابة تاريخ غارق في مثل هذا البحر العميق من الشك واللاحسم؟ أولاً، وما طبيعة اللغة ونوعية المفردات التي يتعين استخدامها لكتابة مثل هذا التاريخ؟ ثانياً، وهل يستطيع [هذا التاريخ] أن يرقى إلى وضعية سياسة تخص حياة الشتات؟ ثالثاً، وهل يستطيع أن يصبح ذات يوم ذلك الأساس غير المبتلى بهذا القدْر الكبير من الهشاشة في وطن اليهود والفلسطينيين القائم على دولة ثنائية القومية، تشكل فيها إسرائيل وفلسطين جزأين متكاملين، بدلاً من أن تكونا خصمين لدودين كل منهما لتاريخ الأخرى وواقعها؟ رابعاً، إن هذا هو ما أعتقده شخصياً، خصوصاً لأن شعور فرويد غير المحسوم بالهوية مثال مفيد جداً، ولأن الوضع الذي يَجْهَد كثيراً في سبيل تسليط الضوء عليه، أكثر شيوعاً مما يُظَن، في الحقيقة، في العالم غير الأوروبي.

ترجمة: فاضل جتكر

الرواية وتأويل التاريخ:
حين يصحح نجيب محفوظ رواية بأخرى

فيصل دراج

«لا بدّ من تفسير التاريخ الكوني ورفضه»
-قول قديم-

بعد أفول النظام الملكي ووصول نظام مغاير، انتظره نجيب محفوظ طويلاً، ابتعد الروائي عن الشكل الروائي القديم وقضاياه، وكتب رواية جديدة: «أولاد حارتنا» -١٩٥٩- عالج فيها قضية غامضة، إن لم تكن لغزاً كان فيها بعض وجوهه، هي: قضية العدالة، التي تفصح عن طبيعة السلطة، وتشهد على أن السلطات المتغيّرة متماثلة. أصدر محفوظ بعد حوالي عقدين من الزمن تقريباً، وفي عام ١٩٧٧ رواية قريبة من الأولى: «ملحمة الحرافيش». أدارت الروايتان حديثيهما في موضوع مشترك يوحّد بين الظلم والسلطة، دون أن تصلا إلى نتائج مشتركة. ابتعدت الثانية عن التشاؤم المغلق الذي انتهت إليه الأولى، واطمأنت إلى «الحركة»، قوام الوجود، التي تبني صروح الظلم وتهدمها.

تأمل محفوظ السلطة طويلاً، ورأى فيها مبتدأ للشرّ وتتويجاً له. وضع الروائي سؤاله في صيغة الماضي، ملتمساً الأمان والوضوح، ومتطلعاً إلى «نموذج سلطوي» يلبي جميع العصور. وفي ابتعاده عن الحاضر المعيش وبقائه فيه، أخبر محفوظ، أن الماضي بعد من أبعاد الوعي البشري، وأن الماضي هو ما اصطفاه الوعي منه، وأنه المحكمة النزيهة العاجزة، التي تدين الحاضر

فيصل درّاج، كاتب وناقد فلسطيني يقيم في دمشق

ولا تفعل شيئاً. بقي محفوظ في زمانه، مطمئناً إلى الكتابة، ومروعاً من خبرة جماعية تستمر في الحاضر، ولا يكترث بها أحد.

نظر محفوظ إلى وجوه الشرّ المتعددة، وأفزعه شرّ السلطة الذي لا ينتهي. ففي زمن مضى رأى الشرّ في الموت والطمع والزمن، إلى أن جاء زمن لاحق أعاد طرح السؤال، ووضع في الإجابة شراً ثانوياً وشراً يسيطر على غيره. ظهر الشرّ الأول في الفعل الإنساني، الذي يبني مسرات إنسان على آلام آخر، وتجلّى الشرّ المسيطر في «الفتوّة» الخالد، الذي يفعل ما فعله أسلافه، رغم تغير الألقاب وتبدّل الأزمنة. عالج محفوظ قضية الشرّ في روايتين، تتشابهان ولا تتشابهان، ذلك أن الثانية تستأنف أسئلة الأولى، وتصحح منظورها في آن.

١- «أولاد حارتنا»: زمن السلب المطلق:

تأمل محفوظ في «ثلاثيته» الزمن الذي يبدّد الإنسان، والإنسان المتضائل المنفتح على العدم. فالزمن اختبار غريب، يخطئ الإنسان فيه ما أراد، ويقع على ما لا يرغب به. ولا حقيقة إلا أسى الإنسان الذي يخطئ الحقيقة، ولا يقين إلا ضياع الإنسان الباحث عن اليقين. لم يهجر محفوظ في روايته اللاحقة «أولاد حارتنا»، وجاءت بعد سبع سنوات، أسئلة الإنسان المغترب، فعاود تأمّل لغز الزمن، المستقر في غرفة محكمة الرتاج، وهو يتأمل لغزاً آخر يضارعه تعقيداً هو: لغز العدالة. تلحق العدالة بالزمن الملغز، ويلتحق العدل المنشود بالحقيقة الضائعة. فالزمن لغز ظالم والظلم المنتصر على العدالة لغز أشد ظلماً.

اقترح الظلم المتأبّد على الروائي شكلاً رمزياً، يقيس المسافة المتجددة بين الواقع المعيش والمُثُل الفاضلة، ويرى إلى انحطام المثل في فراغ التاريخ. كأن في جوهر الإنسان ظلماً لا يرحل، يَعِد التاريخ بإصلاحه ولا يُصلح منه شيئاً، مساوياً بين إنسان الزمن السحيق وإنسان الأزمنة اللاحقة. أملى الزمن الإنساني الفارغ على الروائي شكلاً روائياً متحرراً من الزمن. فالزمن في «أولاد حارتنا» متسيّب بليد، يضارع فيه الماضي الشرير حاضراً أشد شراً، وملامح البشر غائمة متماثلة تشهد على بوار الزمن الإنساني وفساده. والشكل الروائي طليق، يردّ إلى زمن الرواية التاريخي وإلى الأزمنة جميعاً، معلناً أن بوار الأزمنة يحرّر الرواية من زمنها المفترض، ويردّها أماماً ووراء، طالما أن الظلم يوحّد الأزمنة ويجثم فوقها. فلا ما يبشر بعدالة قادمة تسدّد خطوات الروائي، ولا ما يقول بعدالة منقضية تضيء دروب الروح. يجول الروائي، وهو ينقّب عن العدل المفقود، في فضاء سديمي لا بدء له ولا نهاية. وبسبب زمن مفتوح في امتداده ومنغلق على شرّه، بنى الروائي روايته من مواد الأسطورة والحكاية والملحمة، مؤكداً تماثل الأزمنة، ومحتجاً على زمن «حديث»، يساوي بين زمن الرواية وزمن التقدم، وبين أسطورة التقدم وأسطورة الفضيلة.

احتج محفوظ على زمنه المعيش بشكل روائي جديد، يرى تماثل الشرّ في أزمنة شاسعة متماثلة، ويعيّن التماثل الذي لا زمن له مبتدأ للقول الروائي ونهاية له. ركن الروائي إلى فكرة التماثل ومحا الأزمنة، فالتاريخ فراغ كابوسي سديمي، وألغى ملامح الشخصيات الروائية، فمن

يجيء لا يختلف عمن جاء، وترك اللغة باردة متثائبة، تردّد حكاية قديمة عمياء الشر مبصرها الوحيد. يُخبر التماثل، الذي لا شفاء منه، عن انحطاط قرين. يتكشّف الانحطاط في زمن راكد لا جديد فيه، وفي شخصيات تستأنف وعداً قديماً، وتأتي بوعيد أكثر قدماً، وفي رسالات فاضلة تعيش أزمنة قصيرة وتنقضي. أدار محفوظ حديثه في فضاء «التفسّخ الكوني»، إذ الواقع المقوّض يقوّض ما لا يأتلف معه، وإذ الكتاب الذي ينكر التقوّض يحصد الهزيمة. كأن محفوظ، وهو يحتج على زمن لا جمال فيه، استولد معايير «جمالية» جديدة ووضعها في شكل روائي جديد، لم يأخذ به سابقاً، ولم تعرفه الرواية العربية على أية حال. بهذا المعنى تتضّح جملة الروائي الومضية: «تركت الواقع في «أولاد حارتنا» ينقد الكتب». فقد اعتاد القرّاء، الذين صاغ لهم الروائي رموزاً لصيقة بثقافتهم، على فكرة «الكتب التي تنقد الواقع». قلب محفوظ الفكرة، تاركاً الواقع الذي لا يتغير ينقد الكتب التي وعدت بتغييره. لكنه وهو يترك الواقع ينقد الكتب، كان ينقد بدوره الشكل الروائي المطمئن، الذي يرى في زمنه فضائل لم يعرفها الزمن الذي سبق، ويعد بفضائل لاحقة في أزمنة آتية.

في احتجاجه على ما كان وما سيكون، يذهب محفوظ إلى «البدء السحيق»، حيث الزمن شفاف والأحوال عارية. كل شيء نظيف في وضوحه، وبعيد عن دنس قادم. يبدأ الروائي بـ«النموذج الأصلي»، قبل أن يقرأ نماذج لاحقة، انفصلت عن الزمن الأصلي، وسقطت في الخراب. وزمن البدايات، وهو ضيق، زمن النعمة والوئام والعدل المكفول. والمكان على صورة زمانه، يانع الخضرة ومجلّل بالشذى. والإنسان – الأصل سويّ، كما خلقه الله، لا اعتلال فيه ولا مرض. تبدأ «أولاد حارتنا» بالكلمات التالية: «كان مكان حارتنا خلاء. ولم يكن بالخلاء من قائم إلا البيت الكبير الذي شيّده الجبلاوي، كأنما ليتحدى به الخوف والوحشة وقطاع الطرق». قبل البيت كان الخلاء والخوف والخشية، وبعد البيت استمر الخلاء وما كان فيه. ومحفوظ كعادته، يأخذ بالواضح ويُقلقُه، يستولد سؤالاً ملتبساً، وينتهي إلى جواب فيه ظلال الجواب. ففي «النموذج الأصلي»، نظرياً، نقاء أصلي مبرّأ من الدنس، آيته «بيت كبير» ينقض الخوف، و «سيّد جبار» ينقض «الفتوّات» اللاحقين: «لم يفرض على أحد أتاوة، ولم يستكبر في الأرض، وكان بالضعفاء رحيماً.. ..». بل أن «الجبلاوي»، وهو الإنسان – الأصل، له من الصفات ما يميّزه عن غيره: «يبدو بطوله وعرضه خَلقاً فوق الآدميين كأنما من كوكب هبط. جبار في البيت كما هو جبار في الخلاء. عمّر فوق ما يطمح الإنسان أو يتصوّر حتى ضُرب المثل بطول عمره.. ..». والإنسان – الأصل مبارك ولا تناقض فيه، علّمته الفطرة وحافظ على فطرته البريئة. ولهذا يبقى «الجبلاوي» ويموت حيث وجد في المرة الأولى، كما لو كانت فطرته قد منعت عنه التيه والضلال. بيد أن محفوظ يضع التناقض في الزمن الأصلي الذي لا تناقض فيه: فالزمن الأصلي عادل يتحدى الخوف والوحشة، وعن الزمن العادل صدرت بذور الشر اللاحقة، التي رعاها أولاد «الجبلاوي» وأحفاده. وبسبب مقولة التناقض، التي لا يتخلى عنها محفوظ، تغادر البراءة «البيت الكبير» الذي يتحدى الخلاء، ويتحوّل البيت، بعد موت صاحبه إلى رمز مستعصٍ على الحل. كأن البيت

قلعة مسكونة بالأشباح، تجود بأمطار تكاثر العطش.

ليس «النموذج الأصلي»، كما شاءه محفوظ وقدّره، إلا «الحلم الإنساني» المجهض. ففي «البيت الكبير» حديقة غناء وإرادة عادلة، وإنسان له من الطول والعرض ما لا يعرفه الآدميون. وزمن الحلم سريع الانقضاء، وكوابيس اليقظة متينة الأزمنة. ينطوي عهد «الجبلاوي»، بالمعنى الإشاري، سريعاً، ويأتي زمن الانفصال، الذي يطرد الأولاد خارج «البيت الكبير». ذلك أن حكاية «الجبلاوي» تقوم في أقل من أربع صفحات، قبل أن تعقبها حكايات طويلة، كما لو كان الحلم - الأصل هامشاً في صفحة الكابوس اللامتناهية. يخبر الحلم عن زمن الوصال، الذي يوحد الأصل وفروعه، وينبئ الكابوس عن زمن الانفصال، الذي يجعل الفروع تبحث عن أصل جديد. بل أن الانفصال يبدّل من معنى الحلم والكابوس معاً، لأن تنائي الأصل العادل يستقدم أصولاً مغايرة.

وصل محفوظ، وهو يرجع إلى زمن لا زمن قبله، إلى زمن الأسطورة، لأن الأصل المهيمن مبدأ الأسطورة بامتياز. وفي ركونه إلى زمن أسطوري سعى الروائي إلى غايتين: تأمل الظلم والعدالة في أصولهما الشفافة الأولى، واشتقاق الأزمنة السديمية اللاحقة من الزمن الأصلي. فبعد أن غدا الحاضر ثقيلاً ومبهم الإجابة، أجبر السائل المغترب على ترحيل سؤاله إلى «زمن البدء»، التماساً للوضوح واستنكاراً للحاضر في آن. كما لو كانت الأسطورة، وهي زمن الحلم، قائمة في حاضر توهّم التحرر من الأساطير. نقرأ في الصفحة الأولى من الرواية: «سمعت مرة رجلاً يتحدث عنه فيقول: «هو أصل حارتنا، وحارتنا أصل مصر».. .. ». والأصل مبتدأ الأسطورة وعليه تنبني، له زمنه المضيء البعيد الذي يحدّد بداية الأزمنة، ويعين الأسباب المتعاقبة التي تجيء بالمخلوقات وتحدد مصائرهم. تتحدث الأسطورة، نظرياً، عن زمن الأصول الجليلة، الذي يؤمّن غبطة المخلوقات ويمنع عنها الاغتراب. ولهذا ينطوي الأصل، لزوماً، على حكايتين: حكاية بدئه، وحكايات المخلوقات التي انبثقت عنه. يقبل الأصل بـ «ما بعد»، بما تلاه وصدر عنه، ولا يحتاج إلى «ما قبل»، فلا شيء سابق عليه.

أسْطَرَ محفوظ الواقع حين وضع مفرداً - أصلاً في الخلاء، تناسل منه جمع غفير، وجعل الخلاء شاهداً أبدياً على حماقات البشر. يواجه الخلاء «الحارة» مثلما يعارض الطهر الرذيلة، طبيعتان ثابتتان، تشهد احداهما على ثبات الشر في الطبيعة الأخرى. وما الصخرة الثابتة التي وضعها الروائي على مشارف «الحارة» إلا الرمز الشاهد - الثابت، أو القلعة الثانية التي تقابل «البيت الكبير» - القلعة، وتقاسمه لغز الوجود. يتأسس الواقع المؤسطر على القدم والثبات والمغايرة، وتعييناته خلاء موحش وصخرة ترى الشر الإنساني، وسيّد له من العمر ما ليس لغيره. تؤسطر المغايرة «البيت الكبير»: فهو الموقع العالي المشرف على مكان خفيض، والبناء المكين المختلف عن أمكنة هشة تتطلع إليه، والأخضر الأنيس الذي يباين الأغبر الكالح، والمحوّط بالصمت والأسرار والإجلال. يباطن المكان المؤسطر زمنٌ من طبيعته، فراغ متجانس قوامه التكرار، يستمر ولا يتغيّر ويتوالد ولا ينمو، كأنه توقف في لحظة وغفا.

عبّر محفوظ، وهو يستهل روايته بفضاء أسطوري، عن يأس صريح من صلاح المجتمع الإنساني، فلا اختلاف بين «الآن» و «الزمن السحيق»، في الزمن الأول عادل مهزوم، وفيما تلاه من الأزمنة شرير منتصر. استدعى محفوظ الأسطورة ونفاها في آن، ذلك أنه، وقد تملّكته فكرة الشر الجذري المنتصر، استولد الشر من البيت الأخضر الأنيس، عابثاً بالأسطورة وبالتصوّر الأسطوري للعالم. فمن المفترض، نظرياً، أن زمن الأصول نقي مبارك، لا تناقض فيه ولا خصام، ثابت ولا تبدّل فيه. بيد أن محفوظ يكسر التصور الأسطوري مرتين: مرة أولى حين يلقي الأب بأبنائه خارجاً، مانعاً عنهم غضبه الشديد التوبة والغفران، ويكسره ثانية حين يميت الأب ويستبقي بيته الكبير، في عملية استبدال مأساوية، تنصّب الشر أصلاً جديداً لكل البشر. يظل «البيت الكبير» - القلعة، في الحالين، لغزاً، يوحي بالزمن الأسطوري وبنقيضه: فهو الموقع الخيّر الذي لا يبرهن عن خيره دائماً، وهو الثابت القديم الذي تجتاحه الشيخوخة والذبول، وهوالشاهق العالي الذي يتسلّل إلى أرجائه البشر. أكد محفوظ الزمن الأسطوري ونفاه:أكده وهو يقبل بمبدأ الأصول، ونفاه حين دفن الأصل ومنع عنه عودته المظفرة المنتظرة.

أوهم محفوظ في «الثلاثية» بكتابة التاريخ، وانتهى إلى تأمل الزمن مذيعاً، في ألف صفحة ونيف، حيرة الإنسان أمام الوجود. وأوهم في «أولاد حارتنا» بالاطمئنان إلى الأصل الأسطوري، ودفن الأصل طارداً الأسطورة ومستبقياً اللا يقين. كان بديهياً، في تصور لا يتفق مع الأصل الخالص المتجانس، أن يضع محفوظ مع الأصول الخيّرة شراً أصلياً، وأن يضع في الأسطورة ملامح حكائية. مازجاً البيت الأخضر الأنيس بغبار الخلاء وأنفاس البيوت الخفيضة. أخبر الروائي في «الثلاثية» عن كابوس الزمن، وأعلن في «أولاد حارتنا» عن كابوس التاريخ. بهذا المعنى، فإن أسطرة الواقع تصريح عن أزمة القيم في الواقع المعيش، وإعلان، في الوقت ذاته، عن أزمة إبداعية تنقد الشكل الروائي المألوف، وتبحث عن شكل فني جديد، يندّد بالواقع معاشاً وكتابة وقراءة. لم يكن محفوظ، وهو يرى إلى أزمة قيمية - إبداعية شاملة، بعيداً عن روائيين أوروبيين عاشوا، وفي سياق مختلف، أزمات موازية، تنفر من الحاضر المتداعي وترتد إلى أزمنة بعيدة، وهو حال توماس مان وجيمس جويس ود. هـ. لورنس وآخرين.

يتلو الاستهلال الأسطوري المحدود، ويحدّث عن زمن الاتصال، زمن حكائي ينفتح على الاغتراب، والفرق بين الأسطورة والحكاية، ولا ينفصلان تماماً، فرق بين زمنين مختلفي الدلالة والماهية. يلتحف موضوع الأسطورة بالمقدس، ويحيل على مقدس شَهد ولادته، على خلاف موضوع الحكاية، الذي انفصل عن المقدس والتحق بماهية أخرى. بل أَن الفرق بين الأسطورة والحكاية هو الفرق بين المقدس والمدنس، وبين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية، إذ لا أسئلة في الأولى، وإذ الإجابات واهنة في الثانية. تنكر الحقيقة المطلقة التباين والاختلاف، وتؤوي جماعة تعادل روحها الجماعية، فلا أصوات تغاير غيرها، ولا مصائر فردية لمخلوقات لا فردية لها. لهذا تكون الجماعة هي «العائلة»، وتكون الأخيرة هي الأب - الاصل، أي «الجبلاوي»، الذي يختصر الجميع إلى إرادته الطيبة القاهرة. تتضاءل الجماعة مع الحكاية، تذوي الروح الجماعية وتتحلل

الأواصر، ويذهب الأفراد في مصائر متصادمة. يسقط «إدريس»، الابن الأول، في لعنة التمرد ويسقط إلى أرض خفيضة، ويقع «أدهم»، الابن الثاني، في لعنة الغواية ويتلقّاه خلاء لا يرحم. تروي الحكاية، التي ورثت آثار السقوط، مصير فرد تنآى عن المقدس، وسقط في «خلاء» ملتبس الجهات. بهذا المعنى، تنقض الحكاية الأسطورة وتكون امتداداً لها: تنقضها وهي تتعامل مع فرد غادر مقدّسه الأصلي، وتتعين امتداداً لها وهي «تُعَلمِنها» وتعطيها مضموناً دنيوياً. يأخذ الأب المتضائل موقع الأب القديم، ويستمر الأبناء وقد انحسرت فضائلهم، وتحاكي بيوت كثيرة بناء «البيت الكبير» ولا تحاكيه طهراً ونقاء. كأن الحكاية أسطورة فقدت قداستها، وارتضت بالدنيوي والمعايير الدنيوية، أو «أسطورة أخرى» نسيت الأصل واكتفت بفروعه المتدهورة. ينعم «الجبلاوي» ببيت عالٍ تحرسه الغبطة، ويؤوي أحفاده إلى بيوت خفيضة توازي «البيت الأول» ولا تلتقي به أبداً، فإن التقت به مرة، وهو ما قام به «عرفة»، الذي فتنته المعرفة، انفتحت على «الكارثة».

بنى محفوظ روايته من «رموز ثقافية» كثيرة، تتضمن البيت - الأصل والخلاء، زمن الوئام وزمن السقوط، الغضب المبارك والقتل الأعمى، الخضرة والبوار.. ترد الرموز جميعاً إلى الرمز - الأصل، الذي يتمظهر في رموز لاحقة. فلا شقاء دون سقوط، ولا سقوط بلا إرادة عليا تقرّره وتقرّر معه أقدار المعاناة والاختبار. تحتل «عتبة البيت الكبير» بين هذه الرموز موقعاً خاصاً، يفصل بين النعمة والنقمة، النظام والسديم، كما لو كانت رحماً غريباً يعطي الإنسان الملعون ولادة جديدة. «العتبة» حدّ فاصل بين زمن قادم متدهور وزمن سويّ تولى لن يعود، ذلك أن الحكم الذي يقول به «الأب» حكم أخير، يُخفَّف ولا يُلغى ويُلَطَّف ولا يُمحى. يخرج «إدريس»، كما «أدهم»، إلى الخلاء مرة واحدة ولا يعود. لا فرق بين الأول في رذائله الكبرى والثاني في أخطائه الواهنة. تترجم «العتبة» معنى «السيد الكبير»، وهو ما يجعل الأولى حداً مكانياً بين عالمين، وحكم الثاني حداً زمانياً بين ولادتين. فكلاهما حد نهائي أخير، يصرّف أمراً لا رجعة عنه، لأن ما يتلوه يلتحق بماهية جديدة.

ما يتلو «العتبة» هو الحكاية، التي تسرد أحوال الساقط في الأرض الخفيضة. غير أن معنى السقوط لا يستبين إلا بإدراك «الفكرة الكبرى» التي بنى عليها محفوظ روايته وهي: العدالة المغتربة، التي كلما أقبلت تم طردها من جديد. يبقى الروائي، وهو يوهم بـ «رواية ميتافيزيقية»، متمسكاً بسؤال السلطة، وإن كانت «لا زمانية الحكاية» أملت عليه بتعبير: «الوَقف»، الذي ينتهي إليه معاش البشر، ويشرف عليه من يستبيح الحقوق جميعاً. لم يكن محفوظ، وهو يكتب «روايته الرمزية»، يهجس بالمقدس، بل كان يستتبع سؤاله القديم عن السلطة، وإن كان احتجاجه المرير على السياق الذي كان يكتب فيه، دفعه إلى تحرير السؤال من زمنه الضيق، والبحث عن إجابته في فضاء زمني واسع، لا بدء له ولا نهاية. ولعل مرارة الانتظار وخيبة الوصول حوّلا سؤال العدالة - السلطة إلى لغز، وصيّرا «اللغز السياسي» جزءاً من لغز الوجود. وهو ما دفع الروائي إلى رمز ثقافي، يعرفه القارئ والكاتب، مجلاه «الأب - السيد»، الذي يوزّع العدالة على أولاده ويلغيهم معاً، معتبراً الإلغاء شرط العدالة، والإلغاء العادل نبراس الأبوّة. لا غرابة هنا، أن يتحرّر

القارئ من الأزمنة الروائية المختلفة، وأن يرى إلى «الجبلاوي» و «أحمد عبد الجواد» في مرايا متقابلة.

يتلو الخروج من «البيت الكبير» حكاية الجوهر الإنساني. والحكاية، التي تسرد أحوال المدنّس، حكايتان، تتشجّران وتتفرّعان وتحتفظان بأصلين ثابتين، لا يقبلان التكاثر. الأولى منهما حكاية الشر الإنساني الأصيل، الذي استيقظ طليقاً في الخلاء، بعد أن حضن «البيت الكبير» بذوره ورعاه. كما لو كان الشر قوة طاغية، تتوزّع على الأزمنة الأسطورية والحكائية معاً. والثانية منهما حكاية الضعف الإنساني، الذي يقود الإنسان إلى تطامن لا هرب منه أمام ألوان الفتنة والغواية. تتجسد الحكاية الأولى في «إدريس»، الذي عصى الأب وتطاول عليه قبل أن يلفظه خارجاً، وتتمظهر الثانية في «أدهم»، الذي أطاع أباه وخذله ضعفه الإنساني. يحايث الشرّ الأصيل الإنسان، فإن نجا منه وقع في شر ثانوي، عناوينه المرأة والمتعة وشغف المعرفة. وقد يقال مباشرة إن هناك حكاية ثالثة عن الخير الإنساني الأصيل، أقر بها محفوظ في صفحات طويلة من روايته. غير أن حكاية الخير، كما يرى محفوظ، عارضة وسريعة الزوال، تشرق مع الشمس وتتلاشى في الظهيرة، كأنما لم تكن. حكاية مفقودة هي، وأقرب إلى الأحلام، تترا ءى للإنسان قريبة، ثم تطويها اليقظة.

حين تتحدث الرواية عن «الجبلاوي» في صفحتها الثانية تقول: «كان فتوّة حقاً، ولكنه لم يكن كالفتوات الآخرين، فلم يفرض على أحد أتاوة، ولم يستكبر في الأرض، وكان بالضعفا ء رحيماً». تنفي صفات الرحمة والتواضع والعدل السلبَ ولا تنفيه؛ تنفيه وهي تحيل على عالم المُثُل العليا، ولا تنفيه وهي تتهم «الفتوة في ذاته»، كما سنرى، لأنه مفرد لا شريك له، والتفرّد يداعب الرذيلة وهو ينهرها. وما «التفسّخ الكوني»، الذي رد عليه محفوظ بـ «علم جمال مفكك»، إلا أثرٌ لنظام إنساني قديم – جديد، قوامه «الفتوة»، أي: السلطة الأحادية، الذي تباطنه رذائل الجشع والأنانية والاستبداد، أو تلازمه رذيلة «التفرد»، التي تظل رذيلة وهي تبشر بالفضيلة. تحضر مقولة الشر مرةأخرى، قائلة بشرّ أصيل، يحايث «الفتوة» المستبد، وبشرّ ثانوي يلازم «الفتوة العادل» ويحيط به. يشي نص محفوظ بسياقه وبما يزيد عليه، ذلك أنه يستنكر عسف السلطة القائمة، ويقوّض فكرة «المخلّص العادل» في آن، الذي يؤسس لشر ثانوي، يستطير ويتأصل بعد رحيله.

بنى محفوظ روايته على مجاز: «الفتوة»، الذي يتناتج في الزمن الاسطوري والحكائي والملحمي، رغم اختلاف في المقاصد والصفات والأقدار. لكل زمن «فتوّته» ولكل «فتوة» زمنه، تختلف الأحوال ولا يختلف المرجع – المفرد، الذي يمثّل مرتبة ويبارك المراتب التابعة. ولذلك تتضا ءل المسافة بين البيت العالي والبيت الخفيض، ويجسد الأب – الأصل الفتوة – الأصل، رغم عدالته، ويكون أصلاً للفتوات اللاحقين، ولمن يلقاهم الفتوّات بالعصا والنار. وبسبب الأصل والدلالة القائمة فيه، يصير الزمن المتدهور زمن «الفتوّة» الذي لا نهاية له، ويصبح الفتوّات مرايا مختلفة للفتوة – الأول. يكرر المفرد المتسلّط حكاية المفرد الذي سبقه، الذي كرّر بدوره حكاية ماضية. يعكس النسق الحكائي، في هذه الحدود، نسق الفتوّات المتواتر في حكايات متناظرة. يفصح

التكرار عن فراغ الزمن، ويفسّر تداعي الملامح وامّحاء الوجوه، ويضيء الأسماء الرثيثة والممزقة مثل «جلطة، دعبس، زقلط، قدره، زنفل، خنفس..» يأخذ محفوظ بقانون التكرار الفارغ، ويشتق منه تماثل الأدوات البليد. يسخر من التكرار بتكراره ومن التماثل بأسماء بائسة رثيثة، مطابقاً بين التكرار والرثاثة، وبين الرث المتكرّر والسخرية السوداء.

يصف النسق المتكرّر الظلم ويفسّره: يصف الظلم وهو يكشف عن أقنعة متلاحقة متناظرة متجانسة الوسائل والغايات، ويفسّره وهو يرد الأقنعة المتوارثة إلى قناع وحيد قديم. يقوم الشرح على تفسير اللاحق بالسابق، وعلى تطابق الحكاية الأولى والأخيرة، فما هو حاصل حصل مثله، وما سيحصل عاشه البشر منذ زمن. دفع التصور، الذي يفسر اللاحق بالسابق، الروائي إلى الحكاية المتقشفة المتواترة، التي تتكاثر في حكايات كثيرة تقبل الاختزال، لزوماً، إلى حكاية وحيدة. التزم محفوظ، وهو يتأمل أزمنة الظلم، بمعنى الحكاية، نسبها إلى زمن مدنس ودعاها إلى الإفصاح عنه. بيد أن التزامه لم يأت كاملاً، لأنه سكب فيها حقيقة مطلقة، تعبّر عن الشرّ المطلق الانتصار.

ينطوي زمن الحكاية على ملحمة «الأجداد العظام»، الذين هزموا شراً عاد بعد رحيلهم منتصراً. بعد المقدس يأتي المدنس، وبعد «الفتوة» الظالم يجيء «الفتوة» العادل، وتأتي معه ملحمة «دعاة الفضيلة». في مقابل نسق لا ينتهي من الأقنعة المستبدة، عيّن محفوظ نسقاً ضيقاً ومحدوداً من «رسل الفضيلة»، ينشدون العدل ويبشرون بالمثل العليا، وهم: جبل، رفاعة، قاسم. ومع أن إنسان الفضيلة يحيل على زمن الطهر والنقاء من ناحية، وعلى زمن السقوط والاغتراب من ناحية ثانية، فإن محفوظ يضيّق ما استطاع وجوه الميتافيزيقا، وينصّب داعي الفضيلة «فتوة» جديداً. يستقدم الروائي، كعادته، السؤال ويصيّره إلى آخر مغاير. فهو يوهم بشخصية تتوسط بين العالي والخفيض، والمغفرة والتوبة، والاختبار والإشراق، ويكتفي، لاحقاً، بـ «فتوة» خيّر يهزم غيره، ويُهزم بعد رحيله. بل أنه يخلق من «الأجداد العظام» نسقاً متناظراً، لا يساوي النسق الشرير قوة ولا امتداداً.

يغاير النسق الفاضل النسق المستبد في أقواله وغاياته، ويدعو إلى العدل بوسائل عادلة. بيد أن المغايرة تتكشف ناقصة، لأن مبدأ المرجع - المفرد يقرّب بين النسقين. بمعنى آخر: يختلف «الفتوات» الأخيار عن «فتوات» الشرّ على مستوى المضمون، فلكل منهم خطابه المنكر للخطاب الآخر، ويتفقون معهم على مستوى البنية، ذلك أن «الفتوات» جميعاً يمارسون «التفرّد» واحتكار الأحكام، ويتناسلون من بنية تقبل بالمفرد ولا ترضى بالجمع. يقلب محفوظ معنى الخطيئة، ويعطي السقوط دلالة جديدة. فإذا كان السقوط، ميتافيزيقياً، من مقام النظام إلى أرض السديم عقاباً على معصية لا تغتفر، فإن محفوظ يرى السقوط الأصلي في السلطة الظالمة، ويرى في وجودها المستمر عقاباً على خنوع أصلي. يصدر السؤال عن أحوال البشر، ويعثر على جوابه في لا مكان. يتحوّل سؤال السلطة المستبدة إلى سؤال ميتافيزيقي بامتياز، قوامه الشر الجذري، لا الثورات والثورات المضادة. تأخذ «العتبة»، في هذه الحدود، دلالة جديدة، قوامها «الانتقال» من

ارادة المجموع إلى إرادة واحدة، تلتهم المجموع الذي تتحدث باسمه.

تمثّل الفضيلة، في رواية محفوظ، حالة طارئة على زمن إنساني ظالم، يضارع في ثباته ثبات «صخرة هند»، التي شهدت خروج الإنسان المخطئ من «البيت الكبير». يتغيّر كل شيء ويبقى «الفتوّة» الثابت الوحيد، يعايش «الجبلاوي» ويستمر بعده. وإذا كان «الجبلاوي» الإنسان – الأصل في زمن النعمة، فـ «الفتوة» هو الإنسان – الأصل في زمن النقمة. يُنسى الأول، كما تشير الرواية، ولا يجرؤ أحد على نسيان الثاني. كما لو كان الإنسان الرحيم ذكرى ماضية أو أبعاضاً من حلم شتيت. وهذا ما تفصح عنه الرواية وهي تقارن، بصوت هامس، بين «البيت الكبير» المدثّر بالمهابة و«بيت الناظر» الغارق في الفجور، مدللة أن البيت الثاني يغتصب البيت الأول ويسقط مضمونه. وبهذا المعنى تكون الحكاية أسطورة «تَعَلمَنَت»، تحكي أحوال مدنّس التبس بالمقدس.

تتكوّن حكايات الشر والخير في زمن خاص بها. يوهم الزمن الحكائي، بداية، بالانقسام، إذ محدوديّة الخير تميّزه من لا محدودية الشر. يتناتج الشر في حكايات متتابعة لا تقبل الانغلاق، مجسداً زمناً خطياً متجدداً، حاضره في أمسه ومستقبله في الزمنين معاً. لكن مصائر الحكايات المتناظرة تطويها إلى حكاية واحدة فارغة الزمن. وقد توهم حكايات الفضيلة بزمن مختلف انقسم إلى زمنين: زمن دائري يعلن شروق الحكاية الفاضلة وغروبها، كأن يأتي «جبل» وينشر رسالة منتصرة ويمضي، وزمن مستقيم متقدم يستولد حكاية فاضلة جديدة من حكاية سابقة، كأن تستمر رسالة «جبل» في رسالات «رفاعة» و «قاسم». غير أن عودة «الفتوة» المتجددة تمحو الرسالات جميعها وترمي بالزمنين معاً إلى زوايا النسيان. يبقى الزمن، في الحالين، فارغاً، فما لا يقوّضه التكرار يهدمه النسيان.

ينهي محفوظ روايته بتفاؤل مراوغ، يطمئن القارئ أن الزمن مفتوح، وأن في زمن الشر المنتصر من يترصد بالشر ويبعث الرسالات الخيرة. يتفاءل محفوظ مراوغاً، متناسياً المبدأ الشامل الذي حكم روايته: قياس اللاحق على السابق، الذي يقول: كل رسالة خيرة يسبقها مستبد مكين، ويعقبها ظالم أرسخ بنياناً. لذلك ينتشر تفاؤل الروائي في أقاليم «النكتة» السوداء، التي تحتفي بالعبث.

وطّد محفوظ يأسه الصريح في «أولاد حارتنا» بوسائل أربع: أولها: ترحيل سؤال العدالة إلى «الزمن الجوهري»، أو إلى زمن البدايات الجليلة، الذي يطلق السؤال واضحاً شفافاً، ويقلقه بـ «خطيئة»، أولى، تضع «الفتوّة» المفرد في الزمن السحيق. بعد البدء الخاطئ، اطمأن الروائي إلى مبدأ التكرار الفارغ، الذي يوّحد الحكايات كلّها، فالمستبدون أقنعة متساوية، ورسل الفضيلة يمحو بعضهم بعضاً، ويمحو الزمن الداعية الأخير. غير أن الوسيلة الأكثر تميزاً وإيحاءً تكشفت في شخصية «عرفة»، الرسول الجديد الذي ينفي ما سبقه من الرسل، ويحظى بحكاية كاملة، تساوي ما سبقها من الحكايات، وتعيّن «عرفة» رسولاً لا ينقصه من مقام من سبقه شيء. صاغ محفوظ إشكال القادم الجديد بعناية لا مزيد عليها: فهو الإنسان الدنيوي الذي لا أصل له، لا يباهي

بأصل مقدس ولا يطمع بذلك، انبثقت رسالته من فضوله واجتهاده الدنيويين، لا بلاغة ولا تعاليم، بل تجارب عملية وقياسات علمية، تنتهي إلى أسلحة تسخّف التعاويذ وتسخر منها. لم يستلهم «عرفة» رسالته من صوت خفي، يأمر بالخير وتشييد العدالة، فدعوته تفجّرت من فضول متّقد، غذى فيه رغبة اكتشاف «البيت الكبير»، حيث التقى بزمن عابق بالقدم وبقامات شائخة متيبّسة. لم ينتم العارف الوليد إلى الأصل ورسالته، ولم يحلم بنشر عدل قديم، يحتفظ بقدمه ويصادر كل الأزمنة، بل أن في فضوله، الذي ثقب جدران «البيت الكبير»، ما يوحي بالاستهانة بـ «الأب – الأصل» وقتله. لكن «عرفة» المشتق من المعرفة، يحتقب شراً ثانوياً يفضي به إلى أقاليم الشر الجذري، مجدداً حكاية الأزمنة المنقضية: فهو أولاً، وكما خلقه الله وسواه، ضحية جوهره الفقير، يأنس إلى النعمة ويستأنسه البطر، وهو ثانياً، وبسبب ضعفه الجوهري، باع روحه لـ «الفتوة»، الذي يقهر الغير بتعاليم الرسالات القديمة المزوَّرة و«أدوات العلم» المستحدثة. يرسل الشر الثانوي بـ «المعرفة» إلى «السلطان»، ويرسل المستبد القديم بـ «عرفة» إلى المقبرة. أراد «عرفة» أن يقطع مع من سبقه من دعاة الفضيلة وأخفق، ناسياً أن الأساطير كلها معمورة بالحكايات. تستولد الأساطير حكاياتها، ويستولد داعي الخير شراً يهزمه.

ينزع دارسو محفوظ، وهم يقاربون شخصية «عرفة»، إلى تأويل يضع المعرفة في مواجهة الإيمان، أو العلم في مواجهة الدين، ويضع محفوظ في مكان قلق مائع الحدود، ينقض فيه العلم بالدين تارة، ويصالح بينهما تارة أخرى. ذلك أن الروائي، وفي نهاية «أولاد حارتنا»، يجعل العارف الجديد ينصت إلى صوت الحكمة القديمة، ويتخذ من الأحلام موقعاً يبارك فيه «الأب القديم» ابنه المسكون بالفضول والتمرد على البلاغة. وهذا التأويل، الذي لا يشجع عليه روائي يحتفي بالمعرفة وتكسير الأصنام، لا صحة فيه ولا اتساق. فحكاية «عرفة» انتهت إلى ما انتهى إليه غيرها، هزمه «الفتوة» وأذاقه موتاً بطيئاً، وبرهن له أن مبدأ قياس اللاحق على السابق متأبّد وسرمدي الحقيقة. ومع أن «عرفة» ترك وراءه من يتابع غايته، سابغاً على النهاية الروائية تفاؤلاً بيناً، فالمعنى النهائي ثابت لا تغيير فيه. فقد ترك «جبل ورفاعة وقاسم» وراءهم خلقاً كثيراً، لم يجيروا العدالة القتيلة. بمعنى آخر: إذا كان «عرفة»، على مستوى البنية السطحية يمثّل عنصراً إيديولوجياً ينقض اللغة الفاضلة بالتجربة العملية، فإنه يمثّل، على مستوى البنية العميقة، عنصراً فنياً يعيد إنتاج اليأس الصريح ويوطّد مواقعه.

أعاد محفوظ توطيد التشاؤم بمقولة رابعة هي: النسيان، الذي يفضح ذاكرة الإنسان ويفضح فيها وجوداً هشاً أقرب إلى التداعي. تأتي الحكاية العادلة وتُنسى، وتأتي الحكاية الظالمة ويُنسى ما سبقها. يهزم النسيان التذكر بقدر ما يهزم الظلم العدالة، مما يجعل النسيان ظلماً وزمن الظلم حاضراً مطلقاً. لهذا يغلق محفوظ الحكاية العادلة بالنسيان الذي ينتظرها. تنتهي حكاية «جبل» بالكلمات التالية: «ولولا أن آفة حارتنا النسيان، ما انتكس بها مثال طيب. لكن آفة حارتنا النسيان». وتنغلق حكاية «رفاعة» على قول مشابه: «وعلى أية حال، استبشر الناس خيراً، واستقبلوا الحياة بوجوه مشرقة، وقالوا بثقة واطمئنان أن اليوم خير من الأمس، وأن الغد خير من

اليوم. فلماذا كانت آفة حارتنا النسيان؟». وتردّد نهاية الحكاية الرابعة ما سبقها: «وقال كثيرون أنه إذا كانت آفة حارتنا النسيان، فقد آن لها أن تبرأ من هذه الآفة، وأنها ستبرأ منها إلى الأبد. هكذا قالوا.. هكذا قالوا يا حارتنا». هكذا «قالوا»، وما قيل ينسى، والنسيان موت وولادة بائرة. يروي الراوي الحكاية الأخيرة، ولا يشير إلى التذكر والنسيان. مكتفياً بانتظار مصلوب على أرض اللايقين.

تُكرر الحكايات المخفقة النسيان، وتتكرر السخرية العابثة. فالتكرار يسلب القول المهيب مهابته، ويحوّل الناطق المترصّن إلى «شيء» بين الأشياء الأخرى، فلو لم يكن «شيئاً» لما كرّر أقواله غير مرة، ولما التقى بمن يسخر من أفعاله المتكررة. والساخر على صورة من سخر منه، يجتاحه النسيان ويسقط في ضحك رتيب. ولعل هذا التكرار، الذي يستظهر ضحكاً فارغاً، هو ما يذيع مأساة «الكتابة الصالحة»، التي تتجلّى وقورة وهي تحذّر من النسيان، وبائسة طواها ما حذّرت منه. واجه الإنسان النسيان بالكتابة، وواجه النسيان الإنسان بالذاكرة الضعيفة، فلا «أرشيف» بلا كتابة وغبار. يقول الراوي في «الصفحة الثالثة»: «وكنت أول من اتخذ من الكتابة حرفة في حارتنا، على رغم ما جره ذلك علي من تحقير وسخرية». يأتي التحقير من الفرق بين «الكاتب» و«الفتوة»، وتصدر السخرية عن سلطة النسيان على الكتابة.

من حكايات خمس واستهلال مؤسطر، صاغ محفوظ رواية رمزية، يسردها راوٍ حزين، يتأمل العدالة الغائبة في زمن ظالم مستقر. والسؤال المتوقع هو: ما معنى التاريخ؟ وما معناه في زمن تمحو نهاياته بداياته، ويستعصي على التغيير؟ تقول بداية الجواب المستمرة: التاريخ هو التجرؤ على اليقين، والجرأة على التجريب وارتكاب الخطأ. ففي الفعلين ميلٌ صريح إلى الحرية ونزوع إلى الانتقال. وفي هوى الحرية وشهوة الانتقال يتراءى معنى التاريخ. يتلامح التاريخ في رواية محفوظ، إذن، مرتين: مرة أولى حين يتمرد «إدريس» على أبيه، معبراً عن فردية طليقة تضيق بالخنوع والمطاوعة، ومنتقلاً من نعمة الخضوع إلى شقاء التمرد. ومرة ثانية حين تجرأ «عرفة» وتسلل إلى أركان «البيت الكبير»، قاتلاً في ذاته خوفاً قديماً وملبياً فضول المعرفة الذي لا يقاوم. يستيقظ التاريخ مرتين ويغفو، منذ أن اقترن اسم الأول باللعنة ووئد الثاني في قبر مهجور. تُضمر «أولاد حارتنا» فكرة «الكارثة»، التي تحدّث عن إصلاح تواتر في العصور ولم يصلح شيئاً. تصدم الفكرة الفكر اليقيني وتصطدم به، ذلك أنه يرى الكارثة في فشل إعادة إنتاج الماضي والرحيل إلى زمن الأصول، وتراها الرواية في فشل القطع مع الماضي والتحرّر من سلطة الموروث. والفرق بين التصورين هوالفرق بين الايديولوجيا اليقينية والرؤيا الفنية، فالفن يحاور الإنسان المفتوح على الرغبات والأزمنة الطليقة، وإيديولوجيا اليقين تحتفي بالكتب وتضيق بما هو خارجها. هناك، أبداً، «جاذبية الأسلاف» المرتاحة إلى تواتر الكتب، وهناك الإنسان المبدع المفتون بفضول المعرفة.

خلق محفوظ، وهوالمبدع الحر، تاريخاً معيّناً، حين تجرأ على الأشكال الروائية المسيطرة وانتقل، حرّاً، إلى شكل روائي جديد. اعترف الروائي بالتاريخ داخل الشكل الفني وأنكره خارجه، مؤكداً

الفرق المستمر بين ركود الزمن السلطوي وانطلاق الأشكال الفنية. أسطرت الحرية المبدعة التاريخ و«أرخَنَت» الأسطورة. أسطرت التاريخ وهي تلتمس له أصلاً، ووضعت في الأسطورة بعداً تاريخياً، وهي تمحو الأصل العائد الذي تقول به الأسطورة. وما كان محفوظ، الذي تمثّل الحداثة الأدبية بلا ضجيج، بعيداً عن توماس مان في رواية «يوسف وأخوته» وكافكا في «قلعته» ووليم غولدنغ في «ملك الذباب»، إذ الرواية تواجه أزمة القيم بحداثة أدبية غير مسبوقة، وإذ الحداثة سؤال قبل أن تكون جواباً. فأسطرة التاريخ مضاعفة له، وإدراجه في الأسطورة والملحمة والحكاية إشارة إلى التباسه وتعقّده وعماه. كما لو كان التاريخ، وقد تحرّر من زمن التقدم البسيط والبريء، بنية متعددة الطبقات، تنتهي إلى بنية مضاعفة من العماء والأحلام، كلما ألقى عليها الإنسان سؤالاً، أمطرته بوابل من الأسئلة.

يقول د. هـ. لورنس: «الرواية هي كتاب الحياة. والكتاب المقدس بهذا المعنى رواية نمطية مختلطة، يمكن القول: بأنها عن الله. ولكن الحقيقة أنها عن الإنسان الحي. آدم، حواء، وساراي، وابراهيم، واسحق، ويعقوب، وصموئيل، وداود، وباسشيبا – وراعوث، واستير وسليمان، وأيوب، واشعياء، ويسوع ومرقص ويهوذا وبولس وبطرس: وما هذا الإنسان الحي، من البداية إلى النهاية؟ الإنسان الحي، وليس مجرد أجزاء منه. حتى الإله، رجل حيّ آخر، في شجيرة مشتعلة، يلقي بألواح من الحجر على رأس موسى». «الرواية كتاب الحياة» يقول لورانس، و«الرواية كتاب الحياة التي غزاها الموت»، يقول محفوظ في «أولاد حارتنا»، بعد أن تمسك بحياة الفن، ورمى بما هو خارجه إلى يقين التشاؤم.

٢- «الحرافيش»: توليد الزمن المفتوح:

في لغة مصاغة من أناشيد وأرق، ولج محفوظ كهوف القدر الإنساني، وخلق عشر حكايات طويلة، عنوانها: «ملحمة الحرافيش». تتحدّث الحكايات عن مراوغة الزمن، إذ الأمس القريب ليس له رجوع، وعن عدل هارب لا يقبض عليه أحد. وما جاء به الروائي في عمله الجديد، قال به في «الثلاثية» و «أولاد حارتنا»، حين تأمل معنى الزمن في الرواية الأولى، والعدل المستحيل في الثانية. كأن «الملحمة» تركيب فني جديد لعملين سابقين، أو كتابة أخرى لهواجس مستمرة.

تبدأ «ملحمة الحرافيش» بما بدأت به «أولاد حارتنا»، مستأنفة انفصال المدنس عن المقدس، والطلاق بين الموجود والمنشود. تأخذ الأولى، كما الثانية، بأسطورة الأصل، وتضع في الأصل حكاية، يختلط فيها النور بمأساة الميلاد. فما يولد مباركاً تنتظره لعنة. والسطور الثلاثة التي تعقب العنوان الأول: «عاشور الناجي»، تعرف ما جرى و «تنتظر» قادماً مختلفاً، مساوية بين الانتظار والاحتمال: «على مسمع من الأناشيد البهيجة الغامضة، طرحت مناجاة متجسدة للمعاناة والمسرّات الموعودة لحارتنا». كلمات عن بهجة غامضة ومعاناة لا تعرف الغموض، وعن مسرات في جيوب الغيب.

يستهل الراوي، الذي لا اسم له، حكايته الأولى، بطفل لقيط وعجوز ضرير عاقر الزوج، وولد

سيء القلب تسكنه الأبالسة. حكاية مفزعة ملقعة بالغموض، قوامها العقم والعماء والشر والصدفة، وزمنها فجر غامض يهيمن على مكان رحيم. التقى العجوز الضرير باللقيط وهو يسعى إلى صلاة الفجر. تنطوي الحكاية على الخير والشر والصدفة. إنه بدء الحكاية المفتوح على عجوزين متداعيين، لا ذرية لهما، وعلى لقيط هو مبتدأ الحكايات اللاحقة. ومع أن مبتدأ الحكاية يحيل على شخصيات أربع وفجر رحيم، فتأمل الحكاية يستولد الإنسان الأصلي وحيداً، ويذيب ما تبقى في عالم الرموز. فالعجوز الضرير، كما زوجته العاقر، مجاز للعماء الخلاق، إن صح القول، الذي «يحوّل الطفل إلى رجل»، وينقله من العجز إلى الوقوف. شيء يشبه الانتقال من السديم إلى النور، ومن العماء إلى العادات والتقاليد. كما لو كان للطفل، الذي لا أب له ولا أم، أكثر من أب لا مرئي وأكثر من أم محتجبة. لذا يمّحي الوالدان حين يستطيع الطفل الوقوف. أما الولد الشرير، وهو أخ الضرير المتداعي، فرمز لخطيئة تلازم الإنسان كظله، تتسع وتنحسر وفقاً للأزمنة. فقد وفد اللقيط إلى «البيت الأول» وسبقته خطيئته. فلا نقاء مكتمل حتى في أزمنة النقاء. يأتي الطفل وتنتظره الخطيئة، يتلازمان ويتصارعان ويساكن بعضهما بعضاً. ولهذا يصحب الولد الطيب قرينه المتأبلس، ويختفيان معاً. ذلك أن أحدهما لا يوجد إلا بوجود الآخر.

يضيء التلازم بين الطفل - البداية وقرينه المتأبلس مفتتح الرواية، مردداً ما قال به محفوظ أكثر من مرة: كل بدء إنساني مشوب بنقص، وكل إنسان - أصل يعرف «ما بعده» ويجهل «ما قبله». على هذا، وركوناً إلى دلالة الاستهلال الأسطوري، يكون «عاشور الناجي»، الذي رعته أسرة لا ذرية لها، إنساناً أصلاً، سوّاه الله في عتمة الفجر وترك له من يلوذ به، وإنساناً مباركاً موزعاً على الأسطورة والحكاية في آن. والإنسان - الأصل، كما تقضي الأسطورة، مليء بالزمن المبدع الذي جاء منه، قوي متجدد القوة ولا يضارعه أحد، يحتجب ولا يموت وعودته أكيدة، وإن رأى البعض في الاحتجاب موتاً. وبسبب ذلك يحتجب «عاشور» في بداية الحكاية الثانية ولا يموت، لا يعثر أحد على أثر له، وينتظر البعض عودته المظفّرة. في الإنسان - الأصل ما يوزّعه على ماض مبارك ومستقبل حلّت فيه البركة من جديد، وفيه ما يمدّه بنعمة البصيرة ونور الأناشيد، فيرى ما لا يراه غيره ويبصر المهلك، الذي غفت عنه القلوب الآثمة. و «عاشور»، الذي احتجب، رأى الهلاك دون غيره ونجا منه، وظفر بلقبه الشهير: «عاشور الناجي».

استأنف محفوظ في «ملحمة الحرافيش» موضوع الأب المهيمن، الذي يوزّع الأعراف والقوانين والمقادير. فبعد «أحمد عبد الجواد»، الذي سيطر على عائلة، جاء «الجبلاوي»، الذي حكم «البيت الكبير» ورأى إلى الخلاء، وجاء بعدهما «عاشور الناجي»، الذي هيمن على حارة وأجيال لاحقة. يبدو الأب في الروايات الثلاث، المركز الذي قامت عليه العائلة، قادراً زاجراً، مكتفياً بذاته، لا أم ولا أب ولا إخوة أو أخوات، كما لو كان قد انبثق من ذاته، قبل أن ينبثق منه خلق كثير. وهذه الوحدة. المرتكنة إلى روح مفردة، تجعل الأب عنواناً للإبداع الملتبس، يتناسل منه إبداع لاحق، لا يكفّ عن التدهور. يأخذ الأب، البدء المبدع، بلغة الأسطورة، موقع المكان - الأصل، الذي يقع عليه أول شعاع للشمس، مزكياً بناء المنازل المباركة. لكن المكان - الأصل،

الذي استنبت عائلة ورعاها، يصطدم لاحقاً، وكما يقول جدل البدء والنقص، بما يثلم إرادته، لا بمعنى «صراع الأجيال» الثانوي، بل بمعنى الخروج من المقدس إلى المدنس، والانتقال من السواء إلى الفساد. يبدأ «أحمد عبد الجواد» مسيطراً ومهيمناً، تحرّر من الأم والأب في سن مبكّرة، إلى أن يلتقي بمن يتمرد عليه. ويظهر «الجبلاوي» سيداً متعالياً، لا أب له ولا أم، ويعترضه عقوق الأبناء. ويبرز «عاشور الناجي» قامة لا تضارع. ويجرّه أولاده إلى موقع الرجس والرذيلة. يتعيّن الأب، في الحالات الثلاث، أصلاً قوياً. والأولاد تدهوراً، والأحفاد احتمالاً غامضاً.

يحيل الأب في «رواية الأجيال» على النهر البشري الذي انبثق من إنسان وحيد. ففي «الثلاثية» اخترق الزمن الأب والابن والحفيد، إلى أن انطوى الأب الأول وانتسب الأحفاد إلى جدّ جديد. وفي «أولاد حارتنا» صاحب الزمن الجدّ الأول والأبناء والأحفاد، وعمّر الإنسان الأصلي وأمعن في العمر، حتى رأى أحفاداً نسيوا اسمه. وفي «ملحمة الحرافيش» يشهد «عاشور» أولاداً أهلكهم الوباء، وولداً وحيداً، قريباً من زمن البدء المبارك، تناسلت منه أجيال مدنسة. هناك دائماً بدء ينزف إبداعه، قليلاً قليلاً، مستبقياً الأسى وأطياف الاحتمال. تنطوي «رواية الأجيال» على «نموذج روائي»، يركن إلى تصوّر عضوي، يرتاح إلى «بذرة مزهرة» ويضطرب أمام الأغصان اللاحقة. تصوّر عضوي يقول بالميلاد والموت المتجددين، ويضيف إلى الميلاد نقصاً جوهرياً.

تحقّق «رواية الأجيال»، عند محفوظ، وظيفتين: حضور الأب القادر، الذي يسمّي الأولاد ويمحق ذاتيتهم، ذلك أن التسمية خلق والمسمّي خالق. وحضور الزمن القادر، الذي يحسم الأب والأبناء معاً. كأن محفوظ، وهو يواجه الأب القادر بزمن أكثر قدرة، يعلن عن جدل الحضور والغياب والتداعي والتجدّد في آن. ينبثق «أحمد عبد الجواد» قادراً ويمسحه الزمن، ويصل الاضمحلال إلى «الجبلاوي» المهيب، ويخبر الزمن عن «انتهاء صلاحية» «عاشور الناجي». يمسح الزمن الإنسان، يعلن عن عطب ماهيته ويختبره جسداً وروحاً. ولهذا تكون «ملحمة الحرافيش»، وهي تتضمن عملين سابقين وتتجاوزهما، فضاء رحباً يمتحن عدل الأجداد، وينشر معنى الزمن، ويسرد مآل «المسرات الموعودة».

اختبر محفوظ، في الثلاثية، مقولاته الكبرى في زمن محدّد معروف البداية والنهاية. ووضع المقولات، في العمل اللاحق، في زمن ذهني، يزهد بالتاريخ ويسخر من فلسفة التاريخ المتفائلة، فالعدالة التي تجيء رحلت قبل مجيئها. أما الرواية الثالثة، أي «ملحمة الحرافيش»، فتؤالف بين الزمنين، مؤنسنة الأسطوري ومؤسطرة الإنساني، ومرتكنة إلى «تواتر الأجيال»، الذي يجعل الماضي قائماً في الحاضر، والماضي – الحاضر معطى متأبياً على الترويض. فلا أحد من الحاضر أسهم في صياغة الماضي، ولا أحد من الماضي استولد زمناً غير مسبوق. مع ذلك، فإن في زمن الأجيال مثالاً ماضياً يزجر الزمن المعيش ويندّد به. وعن الصراع، بين الزمن المعيش الرخو والزمن الماضي المتخيّل، يصدر زمن حكائي متواتر، يحيل على الزمنين معاً. واذا كان الزمن في «اولاد حارتنا» دائرياً عقيماً، يولد وينتهي متماثلاً، فإنه في «ملحمة الحرافيش» متوالد، حاضره في

ماضيه وماضيه مختلف عن مستقبله. يعود ذلك إلى اختلاف في المنظور الروائي الذي يساوي، في «أولاد حارتنا»، بين الدائرة المغلقة المتلاشية والخواء، ويستولد، في العمل الثاني، الأمل من الحكايات المفتوحة. استبدل محفوظ الزمن المفتوح بالزمن المغلق، والإنسان العادي اليومي بالنموذج الرسولي الجاهز، ونزوعات الطبيعة الإنسانية المختلفة بثنائية الخير والشر المجردة. لذلك، فإن مبدأ قياس اللاحق على السابق، الذي سيطر على العمل الأول، غدا صعب التطبيق على العمل الثاني. ينوس الفعل الحكائي مغلقاً، في العمل الأول، بين نموذجين جاهزين، «الفتوّة» و «رسول الخير»، يتصارعان ويتنافيان ويحتفظان بمركز مفرد أو بمفرد مركزي، ولا يأتيان بجديد. ولعل تناظر بنيتهما، رغم اختلاف المضمون، هو ما يوزّع المقدس على الطرفين، لا فرق إن كان المقدس حقيقياً أو زائفاً. وعلى خلاف ذلك، يتخفف العمل الثاني من صيغة المركز والمركز المقلوب، ويأخذ بصيغة المركز والهامش، إذ مَن تَمركز صعد من الهامش، وإذ مَن تهمّش سقط من المركز، متطلعاً إلى صعود جديد محتمل.

فصل محفوظ، في «أولاد حارتنا»، بين المقدس والمدنس فصلاً باتراً. تجلّى ذلك في التوسط المتجدد بين زمن الأسطورة وزمن الحكاية، فداعية الخير يستلهم دعوته أبداً من الزمن – الأصل المتعالي، وفي داعية العلم «عرفة»، ملتبس الأصل الذي قطع مع الأصل القديم. كأن المقدس، رغم نقاط عمياء كثيرة، يوازي مدنساً خالصاً لم يتعرّف على المقدس أبداً. في «ملحمة الحرافيش» يتأنسن الأسطوري ويتأسطر الإنساني، يساكن الخير الشر ويتعايش المدنس والمقدس، ولا تبتعد الخطيئة عن أرواح طاهرة. يعيش «عاشور الناجي، الأب – الأصل، زمن البراءة وزمن الخطيئة، ويتعايش معهما، ولا يحتاج داعية الخير المتأخر إلى أصل جديد، بل يتابع أصلاً واحداً منسوجاً من الفضيلة والرذيلة. وبهذا المعنى، يتقدس البشر ويحملون الدنس، ويكونون أجداد ذواتهم، إذ الإنسان الفاضل حفيد لجدّ داعر سبق، وجدّ لحفيد قادم لا يقل دعارة. كتب محفوظ في «ملحمة الحرافيش»، عن هوامش بشرية متمردة في كل الأزمنة، ولم يكتب عن «ملحمة الأصول»، لأن المتمرد أصله في ذاته، وزمنه المقدس متجدد التعيين.

أقام محفوظ «ملحمته» على مجاز التكاثر، الذي يفصح عن ذاته في مستويات متعددة. يأتي، في البداية، التكاثر البيولوجي، الذي يصيّر الإنسان المفرد أجيالاً متعاقبة. في البدء كان «عاشور»، الذي لا أصل له وسوّته الطبيعة، وفي النهاية تكاثر الأصل وخلق مجتمعا. يأتي، لاحقاً، التكاثر الاجتماعي، الذي يعيّنه الفقر والغنى ويحدّده الضعف والقوة. في البدء كان التجانس، أو شبيهه، أعقبه الاختلاف الصادرعن سلطة تنكر التجانس. يتلو المستويين السابقين التكاثر الثقافي، الذي يملي الممنوع والمسموح وقواعد الطاعة والامتثال. فبعد إكبار الآباء واحترام الأجداد، ويحيلان على أشخاص، تشخصنت العادات والتقاليد، وفرضت المحرم والعقوبة والمحلّل والثواب. تأسس الاجتماعي على البيولوجي، وأعاد الثقافي تأسيس البيولوجي والاجتماعي من جديد، مثلما قامت الثقافة على الطبيعة وأنتجتها بشكل جديد.

يرد التكاثر، في مستوياته الثلاثة، إلى مقولات محددة، أولها: المرأة، شرط التكاثر ودورة

الحياة. فلكل حكاية، من الحكايات العشر، أنثى يقترن بها رجل، أو أكثر، ورجل يقترن بأكثر من أنثى. يتكشّف في فعل الاقتران الإنجاب والإخصاب والتوالد والمنبع، وحكمة الطبيعة التي تمقت العقم والموات. ولعل المقدس الذي يحايث الإنجاب هو الذي يحوّل الزواج، كما تشير الرواية في إيقاع ثابت، إلى فعل طقوسي، يحتفي بالأصل القديم وهو يحتفي بأصل قادم من عروسين جديدين. تستظهر المقولة الثانية في «الفتوة»، أي: السلطة، التي تتدخل في التكاثر البيولوجي سلباً أو ايجاباً. ومثلما أن لكل حكاية أنثى يتناسل منها أفراد لاحقون، فلكل حكاية، من الحكايات العشر، «فتوّة» يتناسل منه الضعف والقوة والظلم والعدالة. بل أن التلازم، على مستوى البنية الحكائية، بين الأنثى و«الفتوة»، يعطي الأخير، وبشكل مجازي، صفات الإنجاب والاقتران والتوالد. وهو ما يجعل «التحوّل إلى فتوة» طقساً وفعلاً طقوسياً، تخبر عنه الرواية في إيقاع ثابت، كما لو كانت «الفتوّة» ولادة جديدة، أو اقتراناً مقدساً بأنثى لا ترى. تبدو الأم أصلاً لابنها القادم و«الفتوة» أصلاً لمجتمع جديد. تشير المقولة الثالثة إلى «الحرافيش»، أي الفقراء، الذين يتكاثرون عدداً وحرماناً ويكاثرون قلق السلطة، وهم يحلمون بمجتمع بديل.

ولأن وصولهم إلى «المركز» احتمال لا أكثر، فإنهم يلوذون بـ «الهامش»، معلنين عن تكاثر الحرمان والأحلام. يكشف «الحرافيش» عن الفرق بين التاريخ المتحقق، الذي أضاع مثاله، والتاريخ المرغوب الذي ينتظره مثال مشرق في مكان ما. بل أن دلالة «الحرافيش»، في أزمنتهم المتغيّرة، هي التي تؤمّن «ملحمية الرواية»، إن صحّ القول، ذلك أن فعلهم يفجّر بنية دورية منتظمة، أي: بنية أسطورية، ويستولد زمناً متنوعاً ومعقداً ينحو إلى التغيير، ويخبر عن تبدّل «الجوهر الإنساني».

يستبين التكاثر في حكايات متوالدة تعيّن التكاثر الحكائي تعبيراً عن تحولات البشر في الأزمنة المتحولة: الولادة والموت، النمو والاضمحلال، الاقامة والرحيل، اقتراب الهدف وابتعاده، مجيء الأبناء وتكوّن عقوقهم.. تولد الحكاية مع الإنسان وتنمو معه وتفضي، وقد توالد الإنسان وشاخ، إلى حكاية جديدة تتناسل منها حكايات أخرى. تحضر مع «عاشور» حكايته، التي يصيّرها حضور «شمس الدين» حكاية مغايرة، إلى أن يحوّلها «سليمان» إلى حكاية مختلفة. تتوالد الحكاية وتنمو ولا تنطفئ، تستقر دائماً في علاقات حكاية وليدة. وقد تنمو الحكاية الوحيدة وتتشجّر منتهية إلى فضاء حكائي، قوامه وحدات حكائية متوالدة. تقدم الحكاية السادسة، وعنوانها «شهد الملكة»، مثالاً واضحاً على التشجُّر الحكائي، إذ الأنثى الأولى «زهيرة» تستقدم ذكراً، له حكاية، يتلوه ذكور وحكايات، وصولاً إلى قتل «زهيرة» التي تنطوي ولا تنطوي حكاياتها، ذلك أن «الأم الولود» تنجب الأطفال والحكايات معاً. يعيّن الإنجاب العلاقة بين الموت والعقم، وبين الحكاية الخصيبة والحكاية العاقر، فالعقيم هو الوحيد الذي يموت وتموت معه حكايته. ولهذا تنطوي حكاية الشيخ الضرير، في الحكاية الأولى سريعاً، وتتلاشى حكاية «درويش»، الذي اقترن بالشر ولم يقترن بأنثى. يحسم الموتُ العقيمَ وتندثر أسراره، على خلاف الإنسان الولود، الذي يترك وراءه أسراراً متجدّدة. تنطق الحياة بحكاياتها والموت أبكم له حكاية وحيدة.

بنى محفوظ روايته على مجاز التكاثر، الذي تعيّنه متواليات حكائية، معروفة البدء ومجهولة النهاية. ومع أن في عمل محفوظ ما يرد إلى حكاية في حكاية، فإن قياس الزمن الإنساني، في وجوهه المختلفة، هو المرجع الذي يحدّد ميلاد الحكاية ودورتها. يشتق الروائي، وقد ارتكن إلى «رواية الأجيال» الموسّعة، حكاياته من دلالة الزمن الإنساني، ويعبّر عن دلالة الزمن في الحكايات المختلفة المفتوحة. يخلق السرد الحكائي إنسانية الزمن، ويؤمّن الزمن المسرود دلالة الحكاية. ومحفوظ، في سرده، يصرّح بالزمن ويضمره: يصرّح به وهو يعطي لكل جيل حكاياته، ويلمس الفرق بين الأجيال، ويضمره وهو يضع في الحكايات خبرة زمانية. ففي الزمن الحكائي، وهو معقد، ظل التاريخ أو ظلاله، أو آثار من التاريخ، نظّمها السرد وهو ينظّم زمانه. وبسبب هذه الظلال، يكون الزمن الراهن المعيش قائماً في الحكاية، تتكئ الحكاية عليه وتخلقه، أو تتخلّق فيه قبل أن تخلقه من جديد. ولعل التوتر بين الزمن كفضاء للسرد والزمن كخبرة معيشة، هو الذي فصل «عاشور» عن العماء الخلاق ونقله، لاحقاً، من صيغة المفرد إلى صيغة المجموع. فبعد أن كان الزمن يستقبل «مفرداً» ويودّع «مفرداً»، لا فرق إن كان أحدهما فاضلاً والآخر نادر الفضيلة، يصير المستقبل زمناً جديداً، لا يقبل بـ «المفرد» ولا يرحب به، ولا يرتضي أن يكون امتداداً لزمن قديم.

بنى محفوظ «ملحمة الحرافيش» على متواليات حكائية، فلكل إنسان حكاية تحدّث عنه، ولكل حكاية إنسان يبرّر وجودها. تنطوي الإحالة المتبادلة على مقولة: التناظر، التي تستدعي زمناً خطياً متجانساً، زمناً ميتاً بمعنى ما، تتوالد فيه الحكايات، كما البشر، متناظرة وقابلة للتجدّد الى ما لا نهاية. بل أن مبدأ الحكاية التي تنبعث في حكاية تالية يمكن أن يضع عمل محفوظ في موروث أدبي عربي شكلاني، يرد الحكايات جميعها إلى حكاية-أم، تنشر الحكايات وتستعيدها. تصبح «ملحمة الحرافيش» في هذا الافتراض، تنويعاً على سيرة شعبية مضاءة بسير أصحاب الكرامات، وبإمكان الافتراض أن يوطّد مواقعه بالإحالة على الإنسان الطيب الأول «عاشور»، الذي هزم الآخر الشرير، وعلى الإنسان الطيب الأخير «عاشور»، الذي هزم الشر في الحكاية العاشرة والأخيرة. «عاشور» أول ينتصر في الحكاية الأولى وحكاية أخيرة تضع النصر في يد «عاشور» الأخير. دورة من الزمن مغلقة، تعطف «الأصل» الأول على «الأصل» الأخير، وتئد الشر النهائي في قبر لا رجعة منه. بل أنها تلغي «عاشور» الأخير، لأنه مجرد موقع لـ«الإنسان-الأصل»، الذي بعث من جديد، بعد أن احتجب. هكذا يمسح الزمن الشريف الأول ما تلاه من الأزمنة المتداعية، ويقف على الأرض مضيئاً مثلما انبثق في المرة الأولى.

ليس في تصوّر محفوظ ما يتفق مع زمن شكلاني ميت، يستولد حكاية من أخرى، وما ينسجم مع زمن ديني مغلق، تحقّق حكايته الأخيرة ما شاءته الحكاية الأولى. ذلك ان محفوظ، الذي يتأمل التاريخ ولا يثق بعدالته، يبني الحكايات جميعاً على خبرة جماعية زمنية. فهو يؤول التاريخ ويعيد تأويله، ويضع التاريخ المؤَوّل في نموذج روائي يكثف معناه ويوطد دلالته. ولعل هذا النموذج هو الذي اقترح على الروائي الحسوب شكل البداية والنهاية، بداية تلغي معنى

البداية. لأنها بداية لاحقة أو وجهة نظر في البداية. بهذا المعنى، تأخذ السطور الثلاثة التي استهل بها الروائي عمله دلالة خاصة، وهو ما حمله على أن يعطي السطور هذه رقماً خاصاً بها-١-، مؤكداً أنها استهلال مستقل بذاته و«مدخل واسع» إلى البناء الحكائي كلّه: «في ظلمة الفجر العاشقة، في الممر العابر بين الموت والحياة، على مرأى من النجوم الساهرة، على مسمع من الأناشيد البهيجة الغامضة، طرحت مناجاة للمعاناة والمسرات الموعودة لحارتنا». لا تشير السطور إلى بداية، مهما كان لونها، بل إلى وجهة نظر في البداية، تبصر المعاناة وتهجس بالمسرّة، وتضع الشرط الإنساني في مجموعة من الحكايات. ومثلما أن حكاية البداية هي وجهة نظر في بداية الحكاية، فالحكاية الأخيرة وجهة نظر في الحكايات جميعها. ولهذا يقف الروائي عند الحكاية العاشرة، موحياً بأن الحكايات العشر عبّرت عن وجهة نظره. يبقى الروائي في حقل التكاثر الذي لا ينتهي، متمسكاً بزمن مفتوح، لا ينغلق في الرواية ولا في خارجها. والترقيم الذي يوزع كل حكاية إلى فقرات محدودة، كما الإمتداد من حكاية إلى عشر، تبيان للزمن المفتوح وإعلان عنه، يُذَكِّر «الرقم العاشر» بما سبقه وبما يتلوه في آن، وتؤلف الحكايات العشر مقطعاً زمنياً محدوداً، حاوره الروائي كما شاء، وأضاف إليه حكاية أخيرة موعودة.

تأمل محفوظ في «المقطع الحكائي» ظلال التاريخ المعتمة، وتقرّى آثار «التكاثر الإنساني» المفتوح على المجهول. لا مكان لليقين المطمئن ورذاذ اليقين متباعد المسافات، والحلم مكان اليقين الذي ليس له مكان. يعبّر «المتكاثر» عن فداحة الشك، لأنه وجه آخر لـ«المتعدد» الذي لا يسيطر عليه. ينقض التكاثر-التعدد «الحكايات المتناظرة»، وهو ينقض الزمن المتوالي المتجانس القريب من الموات. نفى محفوظ التناظر في أكثر من مكان: نفاه وهو يمنع عن الحكايات المتوالية فقرات متساوية: تمتد الحكاية الأولى من الواحد إلى التسع والخمسين، والثانية من الواحد إلى الست والخمسين، والثالثة من الواحد إلى الثماني والأربعين،.. ..، والأخيرة من الواحد إلى الواحد والخمسين، بل أن «شهد الملكة»، وهي عن الفتنة والأنثى والنفوذ، تمتد من الواحد إلى الست والسبعين، أي أنها تجاوز في فقراتها فقرات الحكاية-الأصل. لكل حكاية فقراتها المرقّمة التي لا تساوي غيرها، كاشفة عن اختلاف المصائر والمقادير. ونفى محفوظ التناظر مرة أخرى وهو يعطي الحكايتين الأولى والثانية اسمي بطليهما عنواناً، متحرراً في الحكايات اللاحقة من ضرورة الأسماء. فبعد «عاشور الناجي»-الحكاية الأولى-و«شمس الدين»-الحكاية الثانية-يمّحي الإسم ويأتي عنوان مغاير هو «الحب والقضبان»، «المطارد»، «شهد الملكة»، «الأشباح»، «سارق النعمة»، «التوت والنبوت». وإذا كان محفوظ قد استأنف الإسم في الحكاية الخامسة «قرّة عيني» وفي الحكاية السابعة «جلال صاحب الجلالة»، فليقول من جديد: إن القاعدة المطلقة لا وجود لها، وإن المتغيّر اللامنتظر قائم في كل مكان، وأن التناظر المتواتر يُخطئ حقيقة الحياة.

يصرّح محفوظ بالتناظر المستحيل في نهاية الحكاية الأولى، التي تنغلق على «خاتمة»، لن تتوفر للحكايات الأخرى. تسرد «الخاتمة» مآل الإنسان-الأصل، الذي ولد في الأسطورة وعاد إليها، وأنجز في فضاء الأسطورة ما لم ينجزه غيره في أزمنة الحكايات. جاء في «الخاتمة»:

«وكما توقّع الحرافيش أقام فُتُوَّتهُ على أصول لم تعرف من قبل،.. .. ...، وأضفى على حارتنا مهابة لم تحظ بها من قبل، فحف بها الإجلال، كما سعدت بالعدل والكرامة والطمأنينة». تلخص الخاتمة حكاية العدل المنتصر وتفصلها، إشارياً، عن الحكايات القادمة، التي انتصر العدل فيها، ربما، مرة واحدة – الحكاية الثانية –، قبل أن يسقط ولا يحسن الوقوف. تضع «الخاتمة»-الإشارة، وهي تفصل بين زمنين، العدل في زمن الحلم وتعيّن العادل رغبة انبثقت من الحلم وأغدق عليه زمن الحلم صفات غريبة عن زمن اليقظة. فقد ولد في العتمة ورأى النور بفضل عجوز أبدي العماء، رأى الوباء قبل وصوله وفرّ منه ونجا، متجدّد القوة، كلما زاد عمراً زاد شباباً، يختفي ولا يموت. تستأنف «الخاتمة»، سطور الاستهلال الأولى، وتؤكد الحكاية الأولى استهلالاً مغايراً للحكايات اللاحقة، تحكي زمن الحلم، قبل أن تنفتح الحكاية الثانية على زمن اليقظة.

إن كانت سطور الاستهلال الأولى تذوب في «الخاتمة» محوّلة الحكاية الأولى كلها إلى استهلال حكائي عن زمن البراءة و«التوت» المقدس، فإن الاستهلال يضاء من جديد بالحكاية العاشرة، ذلك أن «عاشور» الأخير إشارة إلى «عاشور» الأول. فالعادل الأول، كما العادل الأخير، رغبة أيقظها الحرمان. تضيء الحكاية الأخيرة الحكاية الأولى وتعطيها معنى جديداً: يصبح العادل القديم حلماً ملهماً، إن آمن الإنسان بانطوائه وانطواء زمنه القديم، ويغدو كابوساً ثقيلاً، إن اعتقد الإنسان بعودته المظفّرة. تتوالد الأحلام كما تتوالد الحياة، وتخرج الحياة المتجددة أحلاماً جديدة. تستأنف الحكاية الأخيرة الحلم وتدفن الكابوس، وتنتهي بلا خاتمة، لأن تحقق حلمها مجرد احتمال، على خلاف الحكاية الأولى وحلمها القديم، الذي رحل وأعلنت «الخاتمة» عن رحيله. توصد الحكاية الأخيرة أقوالها بالكلمات التالية: «قبض على أهداب الرؤية فغاصت قبضته في أمواج الظلام الجليل. وانتفض ناهضاً ثملاً بالالهام والقدرة، فقال له قلبه: لا تجزع فقد ينفتح الباب ذات يوم تحية لمن يخوضون الحياة ببراءة الأطفال وطموح الملائكة..». قد ينفتح الباب على أرض تتدثر بالعدل ولا تلتحف بالخراب، تنتشر فيها أناشيد سماوية يعتنقها أطفال يشرحون كلماتها المبهمة. وكلمة «قد» الصغيرة تعطف الحكاية الأخيرة على الأولى، وتعطف الحكايتين على زمن الأحلام الذي لا يموت، تاركة لأرض تهمّش فيها الخير حكايات ثمان. دار محفوظ في زمن «الرؤيا» وكتب حكايتين، واستبقى لزمن اليقظة ما تبقى. واحتفظ، في الحالين، بأجيال بشرية موحدة الأصول، مستولداً التفاؤل من التنوّع الإنساني الذي لا يقبل الاختزال، ومن نشيد غامض كتبته الصدفة وحفظه ضرير له براءة الأطفال. فمن يحلم من أجل الإنسان يصوغ أحلامه من آثار إنسانية. ذلك أن حكايات الأحلام والرؤى جزء من الحكايات الإنسانية. تظل الحكايات العشر موحّدة، رغم أزمنتها المختلفة، ويبقى الإنسان حيث هو، يتأسطر ويتأنسن بلا تناقض.

يؤدي نفي التناظر إلى نفي التكرار الثابت، الذي حكم رواية «أولاد حارتنا» وقيّد علاقاتها. والتكرار، كما أشرنا، سخرية من زمن متجانس أقرب إلى الفراغ، وهجاء لقول قديم يوهم بالجدة. يعود التكرار متغيراً في «ملحمة الحرافيش»، يلازم الحكاية المفردة والمتواليات الحكائية معاً. وقد يبدو تعبير التكرار المتغير ناشزاً ومليئاً بالمفارقة، يقول بالشيء وبنقيضه. لكن مبدأ التكرار

المتغيّر، على ضوء منظور محفوظ، يبدو سوياً تماماً، ذلك أن الروائي يلمس «الأخلاق» سريعاً، ويتوقف طويلاً أمام معنى التاريخ. أخذ الروائي بمبدأ يحايث، لزوماً، الحكاية، وغيّر المبدأ وهو يغير منظور الحكاية. يلازم التكرار حكاية أخلاقية المنظور، تنوس بين الوعد والوعيد، وتعطي المفردات المتفائلة ضماناً متعالياً، لا يحتاج الزمن ولا يتعرّف الزمن عليه. وقع محفوظ على خيار آخر يحتاج حكاية أخرى، لأنه زهد بالثنائيات المجردة والتفت إلى «تاريخ العالم»، الذي يسرد المجموع الكلي للشر المشخص كما يقول هيجل.. ولأنه استأنس بـ «المشخص» رأى ما يولد ويتكرّر ورأى، أكثر، المتكرّر في تغيراته الكثيرة. وضع الروائيُّ المتكرّر في الزمن المتغيّر، وشيّد عليه «ملحمة»، تقتفي آثار الشر الكوني واحتمال هزيمته. حرّر «المشخص الكلي» النص الروائي من الثنائيات المجردة الثابتة، وفتحه على «جوهر إنساني» متباين النزوعات وعلى «شر متعدّد»، وجوهه: السلطة والجشع والغيرة والتآمر والفتنة والقتل..، ووجوهه أيضاً الزهد والقناعة والصبر والأمل ومقاومة الخراب. يلبّي التكاثر الحكائي، بهذا المعنى، تعددية العالم الإنساني، فردياً وجمعياً، كما لو كان محفوظ يرصد وجوه الطبائع الإنسانية، ويضع كل وجه في حكاية، دون أن يساوي بين الوجوه المتعددة، ولا بين الشرور الثانوية وشر السلطة الأصيل. يظهر «المشخص الكلي» في عشر حكايات متفاوتة المقاطع: «٥٩ . ٥٦ . ٤٨ . ٦٣ . ٥٨ . ٧٦ . ٧٠ . ٥٥ . ٣٧ . ٥١»، أي في خمس مائة وثلاثة وستين مقطعاً، تعبّر عن عوالم الإنسان الداخلية والخارجية والمحتملة.

اطمأن محفوظ إلى مبدأ التكرار المتغيّر ودلل عليه بأشكال مختلفة: أولها تباين المسمّى، الذي يذيب الاسم في السياق، ساخراً من الاسم ومحتفياً بالسياق. وآية ذلك اسم «شمس الدين»، الذي توزّع على الحكاية الثانية والسادسة والثامنة، وأخذ دلالات مختلفة، تتضمن الخير والصمت والقتل. يظهر الشكل الثاني في التحولات المتعارضة، التي تنقل الإنسان من طبيعة إلى أخرى نقيضة، حتى ينتهي خارج نفسه مبدداً في الفراغ، وهو ما تقول به الحكاية السابعة، حيث ينقلب «جلال صاحب الجلالة» على ذاته غير مرة، وينتقل من شهوة الخلود إلى موت مهين، والحكاية الثامنة التي تعطي لـ«جلال بن جلال» ولادات متكرّرة، تقلّه من الزهد والتقوى إلى العربدة والفجور. تتكرر الأسماء والمصائر والنهايات ولا يأتي تكرارها متماثلاً، يتدنّس من سعى إلى المقدس ويقترف الإثم من بدا فاضلاً. يكثف محفوظ دلالة الشكلين في مجاز الأشقاء، الذي يستولد الخير والشر من أم واحدة، ويستولد من «الأخوة الأعداء» ما يثبت التكرار ويمحوه. والحكاية الخامسة، كما الحكاية العاشرة، تفضح طبيعة إنسانية لا يراهن عليها، وتُبطل أسطورة الجوهر الإنساني الثابت: يولد الشقيقان ويتنافسان، ويدفع أحدهما بالآخر إلى الموت. ويولد الأشقاء متساوين، وتوزّع عليهم المقادير فضائل غيرمتساوية، تقنع أحدهم بالقناعة وتحض غيره على الجشع. في هذه الأشكال وغيرها، لا يكون الإنسان على ما كان عليه، ولا يلبث الشقيقان على حاليهما، ولا يجيب «الأخوة» عن أسئلة الحياة بطريقة متساوية. يختار الإنسان إجاباته بعد أن فاته أن يختار الأسئلة، ويختار إجابات لا يقبل بها غيره. يحتفي محفوظ، وهو ينفي التكرار الثابت، بالحياة المتجددة، التي ينكر تعدّدها التماثل، ويستنبت من التكرار المستحيل آفاق

الدهشة واحتمالات اللا متوقع.

تتعرّف الطبيعة الإنسانية، وهي مجلى الحياة، بالمتعدد والمتباين والمتبدّل، لا تعترف بالنموذج الساكن، ولا بالنمط القابل للاختزال. وكما تكون الحياة يكون زمنها، متدفقاً لا انقطاع فيه، ومتنوعاً يحتمل الموت والحياة والموات. وإذا كان جوهر الإنسان الساكن، وهو ما يرفضه محفوظ، ينقسم إلى خير وشر يلفّهما السكون، فإن جوهر الزمن، أو الزمن الجوهري، المنقسم إلى بداية ونهاية، بعيد عن تصور محفوظ وغريب عليه. ولهذا، فإن فساد الأزمنة، الذي توحي به «أولاد حارتنا»، لا مكان له في «ملحمة الحرافيش». وقد توهم «الملحمة» بمقولة فساد الأزمنة في أكثر من مكان، كأن يعقب «الفتوة» الفاسد آخر أكثر فساداً: «لم تعد الفتوة - بصرف النظر عن هوية الفتوة-إلا بلوى قائمة. ص:٤٦٧». وكأن يتدهور جمال وقوة ونزاهة «الفتوات»، المنحدرين من أصل جليل. ومصير من انحدر من «عاشور» برهان على ذلك: «شمس الدين» الابن، في الحكاية الثانية، أقل قوة ومهابة من أبيه، و«سليمان بن شمس الدين»، في الحكاية الثالثة، «دون أبيه في الجمال والرشاقة»، وحفيد الحفيد في الحكاية الخامسة «متوسط القامة وسيم رغم عوره».. يتدهور الأحفاد قوة ووسامة وخلقاً، يُصيبهم «العور» وتنزل عليهم العاهات، ويبتعدون عن جَدّ سوي مضى. ينقض محفوظ ما أوحى به في مكانين على الأقل: ينقضه في الحكاية التاسعة، التي تضع في مقابل «الفتوة» الفاسد والقبيح أخاً له «فتح الباب»، ضئيل القامة، المسالم والمدافع عن الخير، وفي «الحكاية العاشرة»، التي تجعل «العاشور» الأخير يستلهم قيم «عاشور» الأول. لا يقبل الروائي بزمن مُبَرَّأ الخطأ، ولا بزمن أول تقاس به الأزمنة، فالأزمنة الإنسانية غير متجانسة، وزمن البداية النقي مشوب بغيره.

يتعيّن الجنس الروائي، نظرياً، بالتناقض القائم بين مثال أخلاقي قوامه الثبات وتاريخ متغير، يهمّش المثال ويحيله حلماً. يرى محفوظ إلى التاريخ المتغيّر، وإلى ثبات اغتراب المثل في التاريخ المفترض. لكن محفوظ الذي يواجه تغيّر التاريخ الزمني بثبات السلب القيمي، ينقذ معنى التاريخ في «ملحمة الحرافيش» مرتين: مرة أولى حين لا يعتبر التاريخ شراً كله، ففي هوامش الحكاية دائماً خير مهمّش تتمدّد مساحته في بعض الأزمنة، ومرة ثانية حين يؤمن بتعاقب الأجيال وبتواتر الأزمنة المختلفة. يأتي المعنى، في الحالة الأولى، من استمرارية الهامش، من عجز الشر عن الانتصار انتصاراً مطلقاً. ويصدر المعنى، في الحالة الثانية، عن استمرارية الصراع المجزوء، عن عجز الجيل الفاسد المنتصر عن تأمين انتصار أجياله اللاحقة. لا يقول الروائي بارتقاء التاريخ، ولا بما هو قريب من الارتقاء المتدرج. إنما يقول بأن «التاريخ الحقيقي» لم يولد بعد، وبأن ما «قبل التاريخ» يستمر منذ زمن سحيق، وهذا ما تشير إليه «الحكاية العاشرة»، وهي تشير إلى تاريخ وليد، قوامه الحلم ومفاجآت «الأجيال» المتعاقبة.

يقسم محفوظ التاريخ إلى «ما قبل» وهو زمن السوء، وإلى «ما بعد»، وهو زمن الأمل. يتمثّل جديد القسمة في رفض الماضي والإعراض عنه، وفي اعتبار المستقبل الزمن السوي الوحيد، الذي قد يقبل الاشتقاق من العقل والأخلاق والتجربة الزمانية، فإن لم يتكفّل «المشخص»

باشتقاقه، استنجد الحالم الفاضل بـ«اليوتوبيا» وبقوة الأحلام. وقد يقال: إن محفوظ استولد الحكاية الأخيرة من الحكاية الأولى وبقي في زمن الأصل، وهو يوزع على إنسان الحكايتين اسماً مشتركاً هو: عاشور. والمقايسة عجولة وينقصها التأني، بسبب اختلاف أصل الرجلين وتباين مآليهما. فالأول لا أصل له، باركه العماء الطاهر وعاش «مفرداً» واحتجب، وورثه «أفراد» توزعوا على الحكمة والجنون، والثاني جاء من عائلة ملوثة، باركته الجماعة المقهورة وبقي معها ودبّر شؤون الخلق بشكل «جماعي». كان «الفتوة» في الحكاية الأولى فرداً، وأصبح في الحكاية الثانية تتويجاً لإرادة تتجاوز الأفراد. مرة أخرى يساوي محفوظ بين الحكم الفردي وبين «قبل التاريخ» ويرى مبتدأ التاريخ في زمن تحرّر من سلطة الأفراد، وتحرر أكثر من سلطة «المنقذ» و«الملهم» و«المخلص» و«البطل الموعود». إن البطل، على مستوى الفكرة حلم، وعلى مستوى الواقع نكبة وكابوس. وخير الأبطال مجهول الاسم، والبطل الوحيد أمل لا ينقصه اليأس، ويأس لا ينقصه الأمل. احتجب «عاشور» الأول مفرداً وعاد «جميعاً»، حجبه «المفرد» الذي فيه وبعثه «تكاثره». وهو ما يلزمه بالانعتاق من أصله الماضي، والبحث عن أصل يتكوّن في الحركة الأبدية.

مثلما استولد محفوظ التناظر ونفاه، استقدم الأسطوري وصرفه أيضاً. ولهذا يأخذ «عاشور الناجي» دلالتين: دلالة على مستوى المنظور العام، تقول بفرضية الأصل واحتجاجه وتوهم بعودته المظفرة، ودلالة على مستوى المنظور النصي، وهي دلالة إشارية، سوّت بين احتجاب الإنسان-الأصل ورحيله الأخير. وآية ذلك أن «عاشور» الأخير ليس ابناً للإنسان-الأصل، بل هو أخ لإنسان معطوب فاسد وقاتل. إن «عاشور» الأول منقطع عن الحاضر ومضاف إليه، بُقيا هو من الزمن السحيق، يختلط فيه الحلم بالكابوس، كما تقول الرواية في أكثر من مكان. ولعل الفرق بين الحاضر والماضي، كما بين عادل الماضي وعادل المستقبل، هو ما يملي على محفوظ الذهاب إلى الملحمة وإعادة تأويلها. فإذا كان في الزمن الملحمي، نظرياً، بطل تنصره القيم الكبيرة التي ينصرها، وأجداد جبلوا من عدالة ونور، ففي «ملحمة» محفوظ، المصاغة روائياً، ما ينقض الملحمة الأخرى: فالأبطال بسطاء، «حرافيش»، أغفال أو «عفوش» بلغة الجبرتي، بطولتهم الوحيدة البقاء على قيد الحياة ومقت المستبدين، بعيداً عن زمن غنائي يحتضن الأرواح المتحققة. أصولهم دنيوية تتخلّق في الحاضر والمستقبل، غريبة عن ماض عرّفها على الظلم أكثر مما عرّفها على غيره. يخلق «الحرافيش» ذواتهم وأجداداً عادلين لم يولدوا بعد. أوهم محفوظ بالماضي وتحدّث عن كل الأزمنة، مصيّراً الماضي حاضراً والمستقبل زمناً جديداً ليس له أصول. بل أنه وضع الحاضر والماضي في شكل ملحمي، والملحمة تسرد سيرة «الأجداد العظام»، ليقول بتفسخ الزمنين وانطواء زمن الملحمة. وهذا ما يعيّن الشكل الأدبي في «ملحمة الحرافيش» شكلاً نقدياً بامتياز، ينقد الأزمة وأشكال التعبير عنها، ويؤكد الإعلان عن موت الملحمة عنصراً ملحمياً وحيداً في زمن تداعي الأصول.

ترى الرواية «خارجها» تاريخاً انقسم إلى «ما قبل» و«ما بعد»، وتصوغ داخلها تاريخاً

رغيباً مقموعاً. ينتظر أزمنة تحرّره. تنطوي الرواية، التي تنقض الملحمة، على تاريخ مضاد محتمل، يتنفس في الكتابة ويختنق في التاريخ المشخص. وهذا ما يؤكد «عاشور الناجي» زمنا ملحمياً اندثر، وزمناً روائياً لا يكفّ عن التخلّق. يكتب محفوظ: «ماذا يخبئ الغد؟.. لما اختص عاشور وحده بالرؤيا الهادية؟ ص: ٢٠٣»، «لا أحد مثل عاشور، لقد انتهى عصر المعجزات.. ص: ٣٠١». ينتهي زمن الأصول مع انتهاء زمن المعجزات، ويُنهي الزمن المنتهي الأحلام التي اقتاتت به، وتظهر أحلام إنسانية من زمن إنساني لا بداية له ولا نهاية: «لا دائم إلا الحركة. هي الألم والسرور. ص:٢٤٧»، يقول محفوظ، مقوّضاً فكرة الهادي الأبدي، ومنصباً الحركة الدائبة مرجعاً وحيداً للسلوان. فالحركة الماكرة الدؤوب هي اليقين الماكر الوحيد، تمر خافية لا تُرى، ويمدّ مرورها الخفي الإنسان بالألم والسرور. يترجم الروائي حوار الألم والمسرّة بأناشيد فارسية متناوبة، يردّدها بعذوبة دراويش اعتصموا بـ«تكية» ظليلة، ولا يراهم أحد. تنبعث أصواتهم هادئة رضيّة، في جريان لا عاصم له، وتظل وجوههم خفية، إن لم يكونوا أرواحاً خالصة، كانت أناشيدهم خلاص الأرواح. فضاء مفعم بالرضا يتصادى غموضه سرمدياً ومطمئناً. ولعل الاطمئنان السرمدي المجلّل بالغموض، هو الذي وضع في الرواية أبياتاً من الشعر باللغة الفارسية، تأتي متناوبة وجميلة الإيقاع، ناطقة بهواجس الروح التي تصدّ الترجمة الواضحة.

٣- التاريخ المختلف بين روايتين مختلفتين:

ينهي محفوظ الحكاية العاشرة في «ملحمة الحرافيش» بالأناشيد والحلم المنتصر. تختلف نهاية الرواية عمّا انتهت به «أولاد حارتنا»، التي انغلقت على خواء بدأت به، معالنة بخواء الزمن. ومع أن نهاية الرواية «تجاور» وعي الروائي الأسيان، فقد شاء محفوظ أن يعيد صياغتها وأن «يصحّح» تصوره الأخير للتاريخ، فيندّد بشرور العالم التي لا تنتهي، ولا يرضى القول بـ«نهاية التاريخ». «أولاد حارتنا ابن غير شرعي»، صرّح محفوظ، مرة، كما جاء في ملاحظة سريعة للأميركي روجر ألن. يأتي القول ملتبساً، يرد إلى موقف بعض القوى الدينية، أو إلى عمل لا يرى الروائي فيه تعبيراً دقيقاً عن تصوراته. وقد يحتمل القول الاحتمالين معاً، ويقترح «ملحمة الحرافيش» «ابناً شرعياً»، ذلك أنها إعادة كتابة للرواية الأولى وتصحيح للمنظور الذي قامت عليه. تنزع الرواية الأولى إلى القول بـ«نهاية التاريخ» وتبشر الثانية باحتمال «بداية التاريخ».

تنهض الروايتان، كما أشرنا، على عناصر مشتركة كثيرة: الأب والأبناء والأحفاد، المكان والزمان المجازيان، أسطرة الواقع، التكرار والتناظر، تواتر «الفتوّات»، العدل المهزوم والظلم المنتصر، فساد الزمان وفساد الإنسان، وذلك «السَحَر الغامض»، الذي ينبئ ببدء الخليقة.. يضع التصور الروائي العناصر المشتركة في روايتين مختلفتين في البنية والمنظور، أو في بنيتين مختلفتين تنتجان تأويلين غير متشابهين لمعنى التاريخ. ترتكن البنية الروائية في «أولاد حارتنا» إلى مبدأ «السابق الذي يفسّر اللاحق»، الذي يوصل إلى يقين التشاؤم، المؤسس على «شر-أول»، يتناتج منتصراً. بينما تتكئ البنية الثانية على مبدأ مغاير: «اللاحق الذي يفسر السابق»،

منتهية إلى اللايقين، أو إلى يقين الاحتمال، الذي يوحد المتوقع واللامتوقع، وينتظر الدهشة من إتجاه مجهول. يلغي تفسير اللاحق بالسابق معنى الزمن في «رواية الأجيال»، ويرحّل إلى المستقبل كوابيس الماضي، على خلاف «الزمن الطوباوي» الذي يئد «التاريخ الشرير»، وينفتح على زمن مفتوح على الأمل.

على خلاف «أولاد حارتنا» تستبدل «ملحمة الحرافيش» التكرار المتغيّر بالتكرار، والحلم بالكابوس وزمن الأجيال المفتوح بزمن المقولات المغلق، والملامح الإنسانية الواضحة بالملامح المبهمة، والأزمنة المتتابعة بالزمن الجوهري، والفردوس المفقود بالجحيم الموجود.. .. يخيم اليأس على الروايتين، ينفتح على اليوتوبيا في رواية وعلى اللاشيء في الرواية الأخرى. ليس غريباً، والحالة هذه، أن تكون «الصخرة» عنصراً ثابتاً في «أولاد حارتنا» تشهد على القتل والوأد والمعاناة، وأن تكون «تكية» الدراويش عنصراً ثابتاً في «ملحمة الحرافيش»، حيث الأرواح تعالج أوجاعها بالأناشيد. فسر الروائي التاريخ، مرتين، بشكلين مختلفين، ورفضه، مرتين، بطريقتين مختلفتين. فسّره في المرة الأولى وأعلن موته، بعد أن أعلن التحقق الشيطاني لـ«زمن الأصول» عن أفول «الأصول»، وبعد أن استأنف «عرفة»، الذي لا أصل له، سيرة «المستبد المفرد» وتحالف مع السلطة المفردة. وفسّره في المرة الثانية واستجار باليوتوبيا، دون أن يرى في اليوتوبيا فضاء اجتماعياً يقوم وراء التاريخ، بل ممارسة تاريخية «يسردها» أفراد، يتميّزون بـ«الرؤية» والمعرفة وطاقة الانتظار المقاومة.

في «العائش في الحقيقة»، العمل الذي أغلق به محفوظ تصوره للعالم، يخرج «الباحث عن الحقيقة» من رحلته بالإعجاب بـ«الجمال الفاضل» والانجذاب إلى الأناشيد الغامضة، مؤمناً بأن الحقيقة تعاشر النار ولا تحترق.

مراجع الدراسة:

١- نجيب محفوظ: أولاد حارتنا، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٧ (الطبعة الثامنة).

٢- نجيب محفوظ: ملحمة الحرافيش، مكتبة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٧٧.

٣- ميشيل زيرافا: الأسطورة والرواية، دار الحوار، سوريا، ١٩٨٥، ص: ٦٩

٤- امبرتو إيكو: التأويل بين السيمائيات والتفكيكية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٠، ص: ٣٥.

٥- سعيد يقطين: قال الراوي. المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٧، ص: ٢٠٨-٢١٦.

٦- روجر ألن: الرواية العربية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧، ص: ١٦٦.

7- Evil: Edited by J.L. Geddes, Routledge, London, 2001, P:97.

8- P. Ricoeur: temps et recit. T: 3. Seuil, Paris, 1983, P: 189.

9- E. Honig: Dark Conceit, the making of allegory, Oxford University Press, 1966, P: 155-158

10- E. Melitinsky: the Poetices of myth ,Routedge, London, 2000, P: 235.

11- Remo Bodei: Geometrie des Passions. P.u.f. Paris, 1997, P: 19.

١٢. نجيب محفوظ: صفحات من مذكراته، رجاء النقاش، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٩٨.

١٣- نظرية الرواية في الأدب الإنجليزي الحديث: هنري جيمس، د.هـ. لورنس ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤، ص: ٢٠٥ - ٢٠٦.

شعر
١

قصائد

سعدي يوسف

الفصــول (١)

مثل قشــرةِ تفّــاحةٍ غيرِ صالحةٍ للتناول ، غادَرنا الصيفُ
والآنَ تبدو ســماءُ الصباحِ أشــدَّ رماديّــةً
وأقلَّ امتلاءً ...
كأنّ على العشبِ منها ، الســوادَ ؛
النوافذُ مغلقةٌ ، شَــأنُها أبداً
والرذاذُ الذي لا يُــرى يستحيل بصدري هــواءً ،
....
....
....
أ تأتي الفصولُ ،إذاً ، وتغادرُ ، كالصيفِ ؟
إنْ كان أمْـرُكَ هذا ، ففيـمَ السؤالُ عن الوقتِ ؟
فيمَ التساؤلُ عمّـا يجيءُ ...

انتهيتَ ؟
أم الليلُ ، ذاكَ الذي قد بلغتَ نهاية أوهامِـهِ
بَـلَـغَ الإنتهاء ؟

لندن ٣٠ / ٨ / ٢٠٠٢

سعدي يوسف، شاعر عراقي يقيم في لندن

الفصــول (٢)

لَـكأنني في صَـرِّ موسكو   ، أكســحُ الثلجَ الذي غطّـى مَـمرَّ البابِ ...
لكني هنا ، في لندن الكبرى، أُقطِّـرُ ما تبَقّـى من رماد الصيفِ في قنّـينـةٍ .
لَـمّـا يزلْ ايلولُ في كُتب الأغاني ناعساً . عيناي متعَـبتان مـمّـا اشتَـطّتِ
امرأةٌ طوالَ الليل. قُـلْـتُ : ألامِـسُ الأوراقَ في النبْت الذي ذاقَ النــدى
وتَسـلَّـقَ الأعماقَ . قلتُ: سأهتدي من نبْضِ أنـمُلةٍ ونُـسْـغٍ .
قلتُ : ألتجيءُ الصباحَ إلى قميص الخِضرِ ، أو خضـرا ءِ » لوركا« ، أو إلـى
هذا النباتِ الـمُعتَـلي بابي ...

فتحتُ البابَ :
ضَـوءٌ من رذاذٍ في حدائق مَـن أحاطوا بي ، وذكرى من شـموسٍ في دفاتــرَ
مَـدرسيّاتٍ ،و عَـرفٌ لا يزال معلَّقاً بي من غصــون الليلـةِ البيضا ءِ ...
كان نباتُ بابي مثلَ ما كان ؛ التمَـستُ وُرَيقـةَ أولـى ... تهاوتْ ، ثم ثــانيةً،
تهاوتْ ... ثم أخرى إثرَ أخرى . أصبحَ الـمَـمشى خريفاً ، بغتـةً . من أيــنَ
جا ءت صُـفرةُ الأوراق ؟ كيفَ اسّـاقطَ المعنى؟ تُـرى ، ما نفْعُ أن ألقـي
على ما في الأعالي نظَرةً ؟
إني أردتُ ، فلم أجدْ بابي ...

لندن ٣٠ / ٨ / ٢٠٠٢

الفصــول (٣)

مـن أين هذي الرجفةُ ؟
انسَـلَتَ اللحافُ الصوفُ ريشـاً
مثلَ ريشِ البطِّ مبْتَـلاً
وتَـلغَـلَ في عظامي الثلجَ ...
عبْرَ زجاجِ نافذتي أرى شـمسـاً وأشجاراً
وشُبّاناً وشابّاتٍ عراةً في الحديقةِ ؛
غرفتي ، كالحصن ، مغلقةٌ
وكالزنزانةِ انطبقَتْ عليَّ ...
فأيُّ عاصفةٍ أتتْ بالثلج ؟
أيُّ ثعالب قطبيّـةٍ دخلتْ مبللة الفـراءِ علَيَّ ؟
وأيُّ زوبعةٍ تُـدَوِّرُنـي ، أنا ، الخذروفَ ...
....
....
....
كنتُ أغوصُ ، أعمقَ ، في فـراشي
دائخاً ، متصبِّـباً عَـرَقاً
ومُـثـلَّجَ الأعضـاءِ ...
كنتُ أغوصُ بين المـاءِ والنارِ .

لندن ٣١ / ٨ / ٢٠٠٢

الفصـــــول (٤)

الأزهـارُ البيضُ من النبتِ المتسلِّقِ
تَسـّاقـطُ ، طولَ اليومِ ، على المشَـى ، في طابـقيَ الثاني ؛
هذي الأزهارُ البيضُ مكوّمـةٌ
تلمعُ ذابلةً
مثل تراب نجومٍ ظلّتْ تتهاوى طولَ الليلِ ...
أحاولُ أن أتفادى الوطءَ
أخففَ من أعبائي حين أسـيرُ على المشــى ،
لكنْ ... عبَثاً
فالأزهارُ البيضُ تدورُ ، وإنْ كانتْ ذابلـةً
تُمسِـكُ بي
تأخذني من شِـسْـعِ حذائي
كي تبلغَ شَــعري ...
متناثرةً ، متألقةً فوقَ قميصي الصوفِ .
....
....
....
الليلة جاءتني الأزهارُ مع الحلـمِ
لتـأخذني معها ...

سـأكونُ سـعيـداً !

لندن ٢ / ٩ /
٢٠٠٢

تبدأ الحــربُ..

من عواصمَ باردةٍ ، تبدأُ الحربُ
من غرُفاتٍ بلا مَعْلَمٍ
من شـوارعَ لم تستضفْ شـجراً
من مَخابيءَ تعرفُها الذبذباتُ التي لن تُـرى
من جهازٍ يضيءُ
لحظةً ثم أخرى ...
من مقالٍ رديءٍ .
هكذا تبدأُ الحربُ :
يستَبِقُ الحربَ مَن لم يَذُقْ طَعْمَها
هو مَن يَعْلَمُ :
الحربُ أصلُ ...
....
....
....
هنا ، ظلَّ شبْهُ الرذاذِ يُرطِّبُ أزهارَ آبَ ، ولم تزل الشرفةُ
اليومَ شـرفةَ أمسِ . الشوارعُ تلك الشوارعُ . مَسْمَكةُ الحيّ
تُفتحُ في التاسعةْ . ربّما سَبّبَ الطّلْعُ ضِيقَ التنفّسِ .
أحْ...أحْ...
غداً سوف تغلق كلُّ المَصارفِ أبوابَها . أنتِ لن تُغلقي.
فلْنَقُلْ: ذاهبانِ إذاً نشهدُ الأوبرا . لا! أنتِ فضّلْتِ
أنْ نَصحبَ الكلبَ .

والحربُ تبدأُ ...

لندن ٢٠ / ٨ / ٢٠٠٢

ثلاث محاولات لعلاقة

أنا أقدرُ أن أفتحَ جَفنَيَّ دقائقَ
لكني لا أقدرُ أن افتحَ عينيّ...مساءَ البارحةِ التفّتْ كلُّ وشائعِ أيامي
حولَ عروقي. ظلّتْ تلتفّ وتضغطُ ، تلتفُّ وتضغطُ ، حتى سالتْ شمسٌ
بين يدَيَّ . على أُصُص الأزهار بدا الطُّحْلُبُ أخضرَ في لونٍ مائيٍّ. ماذا
سيُغَنّي صُعلوكُ الحَيّ؟ ستندَفعُ الزيناتُ مُفرقِعةً من جهةِ
الغربِ . الشّمسُ تسيلُ . وآخِرُ قنّينةِ خمرٍ شِيلِيٍّ رحَلتْ.

أنا أقدرُ أن أفتحَ جَفنيَّ دقائقَ
لكني لا أقدرُ أن أفتحَ سمعيْ ...الشارعُ مكتومٌ ، لَكأنّ السيّاراتِ على
عشبٍ تَدْرُجُ . والموسيقى من بئرٍ تخرجُ . أهجِسُ صلصلةً في الحنفيّةِ ...
سلسلةً من ذهبٍ تسقطُ من رفٍّ كي تتكوّمَ في طرف السجّادةِ . هل يتكلمُ
هذا المصباحُ ؟ البابُ المؤصَدُ صَرَّ صريراً ... أعرفُ أنّ ينابيعَ ، ينابيعَ
مُغَلْغَلةً ، تترقرقُ بين السبّابةِ والإبهامِ ؛ تُرى ... هل أسمعُها ؟

أنا أقدرُ أن أفتحَ جَفنَيَّ دقائقَ
لكني لا أقدرُ أن أستافَ ...و في بستان البيتِ ، قديماً وبعيداً ، في البصرةِ ،
كانت أزهارُ الخشخاش . وعندَ مُسَنّاةِ الماءِ تفوحُ روائحُ من سَمكٍ وطحالبَ.
كنا أحياناً ننهلُ من ماءِ الطَّلْعِ .أتعرفُ كيف تكونُ القيلولةُ تحتَ غصون التينِ ؟
وكيف تكونُ بَواري المَدْبسةِ ؟ الليلُ سيهبطُ مثلَ ضبابٍ أزرقَ في »حمَدانَ« .
سيمتدُّ اللبلابُ المُزْهِرُ في الدمِ ... سوف يكونُ شميماً .

لندن ٢٦ / ٨ / ٢٠٠٢

شعر

منمنمات أليسا

محمد القيسي

رقعةُ البَارحَة

كيفَ لا نَبْرَحُ البارحةْ
كيفَ لم نَنْتَبهْ
لِهدير الزمانْ
للقطارَاتِ تعبرُ أو
عَبَرتْ باتجاه المُدنْ.

والصحارى الوَسيعة في غفلةٍ،
تحت قوسِ الرَّحيلِ الثَّقيلِ،
وعادت لناَ
لنَرى ما نَرى الآنَ منْ غامضٍ،
ونرى هذه الفادحَةْ!

محمد القيسي، شاعر فلسطيني يقيم في عمان

رقعةُ القطيعة

وَصَلنا إلى
برزخِ الأنبياءِ الوحيدينَ،
كيفَ انطوَيْنا إلى وجهةٍ،
لم تكنْ أيّ يومٍ بحسباننا،
كيفَ طالتْ يداكَ الزهورَ الوجيعة،
كيفَ بدأنا القطيعةَ،
حتى مَلكنا معاً
كلّ هذا الفراغْ!

مقام عراقي

دُقَّ الحديدَ على الحديدِ،
تئنُّ أضلاعي
وتَحضرُ لي هنا بَغدادُ

دُقَّ الحديدَ إذنْ
باللّهِ يا حدَّادُ

ضاعتْ تواشيحي كَما
ضاعتْ مَفاتيحي
ونأيُ أحبَّتي يَزدادُ

دُقَّ الحديدَ إذنْ
باللّهِ يا حدَّادُ

شحَّ الصَدى
وَخَلتْ مَنازلهمْ
وتعوَّدوا بُعدي، ولا أعتادُ

ما أوحشَ الليلَ الذي
وَحدي هُنا أرتادُ

لا الرّاحُ فوقَ الرّاحِ عادَ ،
ولا الذينَ تَفرَّقوا
عَادوا

دُقَّ الحديدَ على الحديدِ،
ودُقَّ عظمي
أَيُّها الحدَّادُ .

عمان ٢٠٠١/٢/٢٥

ساحة بيكاديليّ

في ساحةِ بيكاديلّي
يَتناثرُ لَيلكُها الليليُّ،
يُرفرفُ فوقَ الشفتيْنِ فَراشُ الضوءِ،
وَيَتبعُ ظِلّي

في ساحةِ بيكاديلّي
لوّنتُ لها الأدراجَ بمشتقّاتِ الأزرقِ،
لوَّنتُ يديها بتُويجاتِ اللوزِ،
غمسْتُ أصابعَها
بحنينِ الأوتار،
وزَيَّنتُ الصَّدرَ بأغنيةِ الأبيضِ،
حتى اكتَمَلَتْ
بين يَديْ خالقِها
واختَصَرَتْ
ليلي

في ساحةِ بيكاديلّي

لندن – عمّان ٢٠٠١/٣/٤

الوديعة

أمرُّ عَلى كلّ شيءٍ هُنا
أمرُّ عَلى غاردينيا المساء،
أمرُّ على البارِ قربَ الكنيسةِ،
في مغربٍ لا يجيءُ،
أمرُّ بعينيَّ لمحاً
وأودعُ قلبي على ناصيةْ
وحيداً
وأغمضُهُ يا أبي
تحتَ نخلتِكَ العاليةْ.

عمّان ٢٠٠١/٣/٥

القطا

بعيداً نأيْنَا
بعيداً عن النَّهرِ حتى ظمِأْنا
وغابَ القطا
القُرنفُلُ ما زارَ طاولة البيتِ،
منذُ ثلاثينَ يوماً، ونامَ المغنّي
على بُعد قوسَين من دمعةٍ،
تحتَ شُبّاكِهِ المتوسَطِ،
وانسلّ منّي
بعيداً، بعيداً
فمنْ يبحثُ الآنَ عنّي!

عمّان ٢٠٠١/٣/٦

مُوشَّحُ توت

على جيتارهِ غنَّى الصبيَّة ، واصطَفى
وتراً يليقُ

برعشَةِ الياقوتْ

على جيتاره أسرَى رهينَ أسىً
وسالَ على نَوافذِها
مُوشَّحَ تُوتْ

على جيتاره أغفَى،
وفي بلّورِهَا

لمحَ المساءَ كأنما
يطوي شراشفَهُ،
ويذهبُ عنهما ليموتْ

لماذا أيُّها الملكوتْ!

عمّان ١٠/٤/٢٠٠١

حرير ناعم

حريرٌ ناعمٌ شفّافْ
يُطوِّقُ عُنقَها
ويسيلُ دفّاقاً على الأكمامِ،
رَقراقاً على الأكتافْ

حَريرٌ في تَهدُّلِها
على الصدر الغزيرِ يهفُّ باسمِ اللّه،
مُنسكباً إلى الخصرَيْنِ،
والأردافْ

يُعلِّمُني القراءَةَ
والشَجى
ويسوقُ قُطعاني إلى التطوافْ

حريرٌ ناعمٌ شفّافْ

لماذا لا تَرِقُّ الريحُ هذا الصيفَ،
أو تَحنو
على الصفصافْ!

عمّان ٢٠٠١/٤/١١

وجهُ أليسا

منْ أيِّ رُواقٍ،
تنسابُ هُنا موسيقى البَيتِ،
ومن أيِّ الأبراجْ
يَغشاني وَجهُ أليسا
مَلكةِ قرطاجْ!

ألمحُها تختالُ هلالاً منحُوتاً
في صحنِ الزُرقةِ،
في صفحةِ كُوبِ الشايْ
ألمحُها في الصَّمتِ،
وألمحُها في صوتِ النايْ

تلمعُ عيناها اللؤلؤتانِ أناجيلَ،
ويَسلُسُ لي هذا الوقتُ الوهّاجْ

يسلُسُ إبريقُ العافيةِ بماءِ يَديها
تسلُسُ أسْرَةُ فضَّتها
عقدُ الصدرِ،
القُرطانِ،
الإسورةُ الموشُومةُ بالآياتِ،
خواتَمُها الخمسةُ،

تَسلُسُ صَمتاً ، وأنا
أنحلُ مزمارٍ في عائلةِ النسيان،
يُضيءُ مخيَّمَ أضلاعي عشرونَ سِراجْ

يا مَلكة قرطاجْ
منْ أيِّ رواقٍ تنسابُ الموسيقى
بينَ يَديكِ،
ويَخطفُني هذا العاجْ!

عمّان ٦/٥/٢٠٠١

أليسا على حصان

ودونَ خليلةٍ تتقصَّفُ الأيامُ،
مثلَ تقصُّفِ الذُرةِ البعيدةِ،
في حقولِ أبي
ومثلَ الريحِ، وهي تَشقُّ بابَ الريحِ،
نحوَ بَياتها الأبيضْ
ودونَ خليلةٍ أمرضْ

أليسَا يا ابنة الخُوذيِّ
لا تمضي إلى بيروتَ،
يومَ الأربعاءِ على حصانٍ،
يا أليسَا
ثم لا تمضي إلى بَيروتَ،
في مَقعدْ

تَعاليْ عنْ عيونِ الدارِ،
نَخطفُ وقتنا
وندورُ بين كُرومِ جدَّتنا الكريمةِ،
أو نُغيرُ على خوابي الزيتِ تحتَ قِبابنا
ونَنامُ في المعبدْ

تَعاليْ
لا تكوني مثلَ حمدةِ في الضُحى
إذ لا تُداوي
حَيْرتي إلاَّ
بعودِ نَشيجها الأبعدْ

تعاليْ
كمْ
أنا
مُفرَدْ.

عمّان ٨/٥/٢٠٠١

حديقة الأعمى

شَفتان شاحبتانِ منْ تَعَبِ الكلامِ،
وثمَّ في الألبومِ،
شُبّاكٌ تظلّلهُ الغُصونُ،
ونَخلتان تُزيِّنان الدارَ،
قرِميدٌ كخطِّ الأُفْقِ،
أو شفقِ المساءِ يلوحُ،
وجهُ ربّماً هوَ
وجهُ حمدةِ،
أو أليسَا
آه، منْ يَدري
ولَكنّ الحمامَ،
هُوَ الحمامُ الزاجلُ النَّواحُ.

وأنا أدقُّ البابَ منذُ دقيقتين،
لعلَّها خمسونَ عاماً أو يزيدُ،
فهل أكونُ الطفلَ في الألبومِ،

لكنّي أدقُّ،
ولا يردُّ عليَّ هذا البابُ،
أو أرتاحُ!

بَينا يدورُ هناكَ
في باحاتها الغرباءُ، والسوّاحُ
كل النقوش على الصواني،
والمكاتيبِ الّتي حبَّرتُ عندَ البحرِ،
أو حَمَلتْ بها الريحُ الخفيفةُ،
حارَ في طبقاتها الشُرّاحُ:

مَوسوعةُ الأحجَار،
في شُرفاتِها الأُولَى
وَفقةُ الصمت في جنّازها اليوميِّ،
هذا الياسمينُ الأبيضُ الفوّاحُ

عشرون أُغنيةً
وأُخرى مثلَها عشرونَ،
حتى بُحَّ في الصحراءِ مزماري
ولم يُثمرْ
على أسوارِها التفاحُ

الليلُ صندوقُ الغريبِ،
حديقةُ الأعمَى
ولا مفتاحُ!

عمّان ٢٠٠١/٥/٢٤

عصافير بيت لحم

أربعةُ عَصافيرَ تُغنّي في المزرعةِ،
وتلعبُ بين الأغصانْ

أربعةُ عَصافيرْ
تلعبُ في الجنةْ
أربعةُ عَصافيرْ
كانتْ تلعبُ

أربعةُ عَصافيرْ
لمعتْ في الضَوءْ

أربعةُ عَصافيرْ
كانتْ قبلَ قليلٍ أربعة عَصافيرْ

أربعةُ عَصافيرْ
تتناثرُ تحتَ النيرانْ

أربعةُ عَصافيرْ
لُفّتْ بملاءاتِ الكتّانْ

أربعةُ عَصافيرْ
لن تلعبَ بعد الآنْ

أربعةُ عَصافيرْ
عبرَ الشاشةِ في الأكفانْ
أرْ
بَ
عَ
تُ
عَ
صَا
فيرْ

عمّان١٧/٧/٢٠٠١

شعر

كأنه ليل

طاهر رياض

- ١ -

... وكأنّه ليلٌ أرشّ به الهواءَ..

كأنني أفسدتُ أحجية الظلام فقلتُ
كان الليلُ أسودَ ذاتَ ليلٍ،
ثم صار الليلُ من فرط الحنين غمامةً
زرقاءَ، قلتُ شربتُه حتى ثمالتِهِ،
وعلّمتُ السكارى خلف حانتِهِ
أن يقنطوا
فالكأس دائرةٌ
ولونُ الريح من لونِ الغناءِ
وصحوُها من بعضِ سكرته..
وسمعتُه يُلقي ظلالاً من نهاراتٍ وأرصفةٍ
وينفذُ مثل رائحةٍ إلى غيبِ الجسدْ
شبقاً
خفيّاً

طاهر رياض، شاعر فلسطيني يقيم في عمان

خائفاً
بردان

أبيضَ
سادراً..
ترغو به أوقاتُه
وتفور فوق شفاهه
زبداً، ويعرفُ أنه زَبَدٌ
ويعرف أنها نجوى زبدْ
وكأنه الرجل الذي نسي الحكاية كلّها،
وتحكّه عيناه كي يبكي.. فيضحك،
كلما اشتبكتْ بشهوته يداه
تخفّفتْ روحٌ لتحمله بعيداً؛
كلما حملتْه روحٌ
شدّه نحو البداية جوعُهُ
واثّاقلتْ قدماهْ!
أليفاً كان، يذكره الرعاة الطيّبون إذا
اختلوا بجرودهم، وتحبّه امرأةٌ لتؤنسَ نصفَ
ليلتها الأخيرَ، حنينُه أبداً لأول كل شيءٍ،
والغيومُ فِخاخُهُ في الأرض، يصطاد السماء
بها، ويولِمُها لأنحلِ عشبةٍ... وتُمِضُّه الأشباهْ:
شبه الليل
شبه الحب
شبه حبيبة
شبه احتراقٍ
شبه دفءٍ
شبه موتٍ
شبه أوطان
.. وشبه اللهْ!

- ٢ -

وكأنّه لعبٌ بزهر النرد

لا بحجارة الشطرنج،
يا رملُ استكنْ تحتي، يقول الموجُ،
كن سجادةً لصلاة مائي،
كن حدوداً لينات، لا تعاندْ
حين أدفع شهوتي في حدّك المرسوم،
كن يا رمل أطيب نيّةً، وارجعْ إلى الصحراء
أمكِ، لم يعد بيني وبينك غير أن تبتلّ
بي، وأجفّ فوقك؛
عد إلى الصحراء منفى أهلك الأحياء
منفى أهلك الموتى، يقول الموج،
واصعدْ في الرياح كما تشاء
وعمّر الكثبانَ،
واستسلمْ إلى صبّارةٍ عمياء،
واحضنْ قطرة المطر اليتيمة..
أيها الرمل
استكنْ، هذا نصيبك، لا تعاندْ
وارع أطفال الجفاف ليحملوا
ميراثك الرمليّ..
يلغو الموج.. يهذي الموج.. يُزبد..
ثم يَشرق بانتباهته
ويدفع مرّة أخرى حدود الرمل..

- ٣ -

من سيفكّ طِلّسْمَ المكان
غرارةُ التوت المدلّى فوقَ ساقيةٍ
تمرّ بقرب بيتٍ؟
حقلُ نعناعٍ وطرخونٍ خؤونٍ؟
قبلةٌ مسروقةٌ أولى على درج البناية؟
.. أمْ صراخ الآدميّ من العذاب الآدميّ؟

/ الدمع مثل الدمْ
في القبو،

والكلماتُ نملٌ لاسعٌ
في الفمْ/
تعلّقُ الأمُ القوية فوق حبل الشمس
عقدَ الباميا ء،
يعلّق الشرطيُ مشطَ رصاصهِ،

/ لا تعترفْ بسوى جحيمك.
لا تبحْ بالسرّ إلاّ للرياح
تهبّ عاتيةً
ولا تهتمْ/
يعلّق الطفل القصيدة خلف نافذةٍ
ليقرأها الهواءُ
ويبتني حلماً ببعض حصى
ويرفعُه..
يراه الله
يبني فوقه قبراً،
ويرسل من لَدُنْهُ شجاعَه الأقرعْ!

يا رب لا تسمعْ!
أنا لم أقلْ، أو قلت، لا فرقٌ
فكل كلامنا من بعض صمتك،
نحن مَن حَمَل الأمانة
حين أشفقتِ الأمانةُ منك.. لا تسمعْ!
كن طيباً ومسالماً
واصدعْ بأمر شقائنا الأبديّ
واخلعْ نعلك القدسيّ قبل دخول
وادينا المدنّس،
وارفع الكفين
واخشعْ!

- ٤ -

هو هذه العثرات في المعنى،

وينسى أن موتاً واحداً في العمر لا يكفي،
وينسى أن أغنية تردّدها ضفافُ النهر
لا تكفي لتغيير اتجاه النهر،
ينسى أنه لا يذكرُ الأشياءَ
إلاّ وهي تسرُبُ من أصابعه
وتترك ظلّها وشماً على الكفّ

والعمرُ، كلُّ العمر، لا يكفي لينسى
أن حبّك وحده يكفي!
هزّي إليكِ بجذعي المكسور اسّاقطْ ثماراً
في يديك، وتحمليني في غَيابَةِ رحمك العذراء
ذكرى رجفةٍ، حتى إذا جاء المخاضُ ولدْتني
من غير اسمٍ، كي أكونَ خطيئةً أولى

لي منكِ ما لكِ من فمٍ يُغمى عليه أمامَ
ضحكته، ولي نهرٌ صغيرٌ منك أحمله بعلبةِ
تبغيَ البَيضاء، لي منكِ انتظارُك أن يصيرَ
الليلُ دمعاً مالحاً، وتصيرَ هذي الريحُ منديلا
لي مثلُ ما لك: شهوةٌ مسجورةٌ، ومراوحٌ
بيضاءُ من ريش الملائك، تنفضينَ الرملَ
عن كتفي، وأجمعُ فستقاً من سفح خصركِ،
جمرُنا عارٍ، ونرفع خاشعين إلى مقام الليل
طرفاً باحتضار الليل مكحولا

كم مرّةً ولدتْكِ أمُك في فراشي؟ سوف
تختارين من أنثى القرنفل شهوةَ الذكرِ
الخفيّة، كي تكوني طفلتي، وتتمَّ فيكِ
مشيئتي، ولِتُصْنَعي امرأةً على عَيني..
فكن متهتّكاً يا نهدُ، كن يا شعرُ محلولاً
والحب اسمٌ ساذجٌ للحب، لا تصغي إلى
عظَة البنفسج، هذه روحٌ تبلُّ بلحمها روحاً،
ونَحلٌ طائشٌ نحو المليكة، يلدغ الأبدَ السميكَ

وينتهي، إذ ينتهي، متهالكاً في الوصل مقتولا

- ٥ -

ولأيّ شيء تَنبتُ الدفلى على طرف اللسانِ
كمفردات لا تقول سوى رنين حروفها؟
تتساءل امرأةُ العزيز، وتُشعل النيران
في آناء ليلتها،
وتكتب بالدخان رسائلَ الهذيان،
ذاك زمانها العاديُّ، من نومٍ تقوم
إلى منامٍ خاثرٍ،
تتفقدُ الأشواك قرب سياجها،
وتُعدّ مائدة العناكب،
تُطعم الفوضى،
تُفلّي شعر حورتها،
وتدعوني بنصف إشارةٍ
لتكنّ في صدري
أنا لست يوسف، لو ترى امرأة العزيز،
وليس لي حتى قميص شبابه،
لا علم لي بالحلم أو تأويله،
لا أقرأ الأبراج،
والسنوات في نظري عِجافٌ كلُّها
لكنها
تحتاجني لتقطّع الفتياتُ أيديهن
حين يرينني،
وتحبّني لتقول: يشغف مهجتي حباً
... وتُفلتُ فيَّ مسْكَ غزالِها
أنا لست يوسف آخرَ الأمرِ!
والأمرُ لامرأة العزيز،
لكأس خمرتها الخلاء،
إذا اقشعرّ زجاجُها ملأته بالشعرِ

لحنينها النقّاذ، ليلة شدّها من شعرها

أرختْ ضلالتها له
ورمت إليّ بشالها..

- ٦ -

كنا ثلاثة أشقياءَ
والوقت خادمنا العجوز، الوقتُ قوّادُ اشتهاءاتٍ
نقشناها قصائد في بخار الخمر،
نوقفه على بعد،
ونأمره فيرقص، ثم نأمره فيقفز،
ثم نجعله يقلّدنا..

ما كان أجملنا!
جعلنا الليل قِدراً
واحتملناه أثافيّاً ثلاثاً،
ثم أجّجنا جحيم الخمر.. ماذا سوف نطهو؟
قال أكثرنا هذاءً:
نطهو جداراً مائلاً فينا،
نُتبّلُه بحبة خردلٍ وبشمّة عذراء..

قال الآخر: امرأةً سنطهو
نقضم التفّاح عن أكتافها
ونقشّر الصدفَ المكوّم حول سرّتها،
ونعدّها لاثنين:
ينفخ واحدٌ كثبانها
ويصبها الثاني على شفتيه ماءً!

ويدير ثالثة الأثافيّ الكؤوسَ
ـ كبيرةً، صفراء، مزبدةً،
كأن حبَابَها شفةُ الكلام ـ
يقول: لن نطهو سوانا!
نحن جوع ثلاثة في واحدٍ،
نحن اختلال الكائنات وموتها لتصير أجملَ،
نحن لون القمح، غربال المرايا، رفرف الريحان

ململة الندى،
ونشيج كل الأرض
حين نعيدها كرةً
وندحوها سماءً..

ما كان أجملنا!
ونحن نسيل من كأس إلى كأسٍ
ومن حلم إلى حلمٍ
ومنّا نحونا،
ضجرين ممسوسين بالمعنى الجزاف
ونملأ الدنيا هُراءً!
كنّا ثلاثة راحلين إلى الغواية
باختناقٍ كاملٍ،
والوقت كان دليلَنا الأعمى،
وكان الليل أكثرنا لهاثاً خلف شهوته
وكان الليل أكثرنا نساءً!

- ٧ -

لَعِبٌ بزهر النرد
لا بحجارة الشطرنج؛
يعترف النهار بأنه ظِلٌ لذاك الليل،
ثم يجول في الطرقات
أعرج
ناحلاً
ويلمّ قوتَ نهارهِ

والطفل يمتحن الغواية
في حواري الشيخ محيي الدين،
يحرس ظلّه غيمٌ خفيف الظلّ،
يحمل كذبة خضراء فوق جبينه،
وتلوب حول المشربيات ارتعاشة ناره الأولى
فيركض عارياً، متعثّراً بشرارهِ

ويمر بالسوق القديمة، تغتلي،
وتقود غفلة حسّه بين الروائح
والملامس والنداءات القصيّهْ

سوق الجنان، يقول شيخ الحيّ
متكئاً على لغةٍ عصيّهْ

فلكل حيّ أن يعود بأي شكل شاءه
وبأي لونٍ شاءه
وبأي ما انعجنت به شهواتُه..
والسوق لم تفرغ ولم ينفدْ مداها
والطفل يذكر أنّه ابتدأ الرؤى من منتهاها
فلأيما جهة يوجه وجهَه الممحوَّ هذا اللغزُ؟
من سيقول إن الرمز معنى أوّلٌ للشيء،
والأسماء قمصان ممزقة
على فزّاعة في الحقل؟

مات الطفل وهو يعيد ترتيب الوجود
برمية النرد التي من غير رامٍ
لم تعلّمه الحمامةُ كيف ينقذ ماءه السريَّ
من تخريفة الطوفانِ
مات كأنه ما كان
وانتظرتْه أنثى الليل ساهرةً
على أسف المكانْ
مرّت جنازتُهُ أمامهْ
عشرون طفلاً من شيوخ الحيّ
كانوا يحملون النعش،
فاتحة الكتاب تطير نحو مصيرها العالي
بأجنحة الأكفّ؛
ومرّ بهلولٌ
جميع متاعه في كمّه،

ألقى تحيته على الموتى
وراح يعدُّكمْ يبقى إلى يوم القيامةْ!
مرّت ملائكة الخضار، الزنجبيل، حشيشة الدينار،
قرفة زنجبار، النرجس البلدي، ورد الشام،
مرّ اللوز أخضر، مرّ عطر اليوسفيّ، وشتلة الآس
النديّة... مرّت الفتياتُ.. واحدة تقيس بكفّها
حمّالة الثديين، أخرى تنتقي بلحاً وتيناً، واثنتان
تكركران أمام بائعة الخيار..

وفي مقام الشيخ كانت طفلة تبكي وترمي
قرشها اليومي كي تنجو من الإثم..
انتبهْ يا ليل!
لستَ سوى حديث عابر بين المساء وصبحه،
يا ليلُ لستَ سوى المسافةِ بين ما يمضي وما
يأتي وما يأتي وما يمضي ولستَ سوى الجنونْ
يا سيدي الليل، الحقيقة أرنبٌ
في كمّ ثوبك،
فاحتملني إن رميت سؤالي العبثي
في هذا السكونْ:
إن كنتَ أنتَ
فمن أكونْ؟!

– ٨ –

هو ليل مثل كل الليل،
قال الرجل الجالس خلف البار
وامتدت بكأسٍ يدُهُ ترفع نخبي

أنجمٌ تخرج للنزهة، أحلامٌ نيامٌ،
أسقفٌ عشّش فيها البصرُ الأعمشُ،
خوفٌ وعظاءات، وبومٌ ترصد الأحياء
والموتى يلمّون هواءً شاغراً
ويصيحون به ملء الهواءْ

مثل كل الليل..
لم يرجع رسولُ الماء، قيل انكسرت جرّتُه
وهو يحتّ الرملَ عن جنبيه
وامتد إلى آخرة الأرض جفافُ الماءْ
مثل كل الليل
لولا أنّ ريحاً تعْفرِ الظلمة في الأوجُه،
لولا أنّهُ تُلمَحُ تحت الخطو..

نخبكْ!
أنت لا تشرب خمراً يا نديمي
إنّما تشرب قلبك!

بعد كأسين ستنسى غبشاً ضجران
في البار، وتنسى فتعدّ الوقت لاثنين
وتنسى أيّنا أنت..

خذ الليل إذن من آخر الليل
وأوقدْ نارك السوداء،
كن طفلاً على مهلك
كن شيخاً
وخَلِّ امرأة البار تُعلّمْك البكاءْ

حكمة الليلة:
لا شيء جديد تحت شمس الليل
لا شيء جديد تحت شمس الليل
لا شيء...

شعر

فتوحات اللحظة

أميرة الزين

نحن أرواح العائدين
زماننا شيخ يلعب بكرة القدم
وراء الخيام
ومكاننا نول
ينسج الفضاء.
نحن عصا الأعمى
حين يسير في أرض المنام.
مَن غيرنا يسدل أجنحة النهار
فوق البحر العاري؟

نحن أرواح الشهداء العائدين
نقطّع لكم الحلوى
مدنا من الغيب
وحين يرتاح العسل في جراره
نوشّحه ببركتنا.
ننتظركم لندير مفاتيحكم
حين تضعونها في الأقفال.
وحين تكتبون قصائدكم

أميرة الزين، شاعرة لبنانية تقيم في بوسطن

نسرقها
ولقمة لقمة
نطعمها لأيتامنا .

نرتدي أغلفة الكتب
وعندما تفتحونها
نقفز منها كالمجانين.

جائعون
ننافس النمل
على فتات الخبز.
خفافا ، خفافا
نطير بها حين تتساقط
من أطراف شفاهكم.

حدقوا في النوافذ.
كلما حل المساء
نخلق طفولتكم من جديد
قطة تهرب إلى حديقة الجيران.
وساعة تخرجون للسهرة
نرافقكم في مماشي الجنائن
ونحملكم إلى أفق من ماء.

دائما معكم
نسافر في غبار شهادتنا
ونشرب هديل الحمائم
لعلنا نعود إليكم
من غيب الألم.

نسكن منازلكم
وحين تعودون إليها
من منفاكم الطويل

نخرج منها وبأيدينا عرائس صغيرة
نحشوها بخفيف أشيائكم
ونلفها بقماش الوهم.
لنا نشيد الطمأنينة
لأننا لا نغادركم

نعرف أن الأزهار الصفراء
رسل من الشمس
تعلمنا سيمياء الذهب.

وحدنا نسمع أنين الليمون
حين تنسونه ليعفن فوق الطاولة،
نسمع صفير النحل
بعد أن يرتوي من ورد حدائقكم
ونشرّع نوافذكم على أشكالنا
لعلكم تشرعون
أبواب قلوبكم.

لنا نشيد الشهادة
لنا ماء الحياة الأبدية
نمطرها على أشجاركم
فلماذا لا تبرعم
بغير الأوهام؟
وحين نمسح أجسادكم بطيب حركتنا
تنطوون على أنفسكم كزهر اللوتس.

نحن أرواح الشهداء العائدين
أصدقاء الكون
نهذي معه حين يجمح كالحيوان
راكضا باتجاه الإله.

لنا النشيد الأزلي

نختزله، بعونه ورحمته
ما من كف تصافح كفّا
إلا وننسلّ بينهما
ونوسوس بالمستحيل.

وحدنا الخالدون
نشهد هباء الأحياء.
وحدنا العشّاق
نعرف سلطان الصدى
حين يتنادى الاحبّاء.

حين تستلقون في فراشكم
مثل دببة القطب المستسلمة للثلج
نعرض أمامكم خيالات تحولاتنا.
نعريكم متى نشاء
مثل عناقيد فقدت عنبها
أو نُلبسكم فرو القط المذهب
وذيل الثعلب الأحمر حين يهتز
وراء الستارة.

نحن أرواح الشهداء العائدين
نرقص فوق انتفاخ جفونكم حين تنامون
وننهض قبلكم
لنخط طريق صباحاتكم
نغسل أجسادكم
نهيىء قهوتكم
ونشرب معكم رائحتها.
نأتيكم بصحن الكون
ونأدبُه على موائدكم
وحينَ تمتلأون نضحك عميقا
من ضوضاء الجسد
ثم نقبّل جباهكم قبل أن تمضوا إلى أعمالكم.

نزور الأجنّة في الأرحام
ونغسلها بنولنا الذهبي
ثم نصحبها إلى غابات لها شكل النوافذ المعشّقة
وهناك، نهيىء الأمّ للمخاض
نلقمها حبة سكر
فتسخر من ألم الولادة.

نحن أرواح الشهداء العائدين
نصوغ حياتكم من دخان كسول
فيشحب بعضكم حين يرى المداخن
كأن عنده علم الغيب.

فوق الكراسي الهزازة
نريح أشواقكم ونعزف لبعضكم موسيقى الأبواب
ونحيطكم بعماليق النمل
عساها تنذركم بقيام الساعة.

ما أكثر من يأتي منكم متأخرا
عن مولده
فيقلب كفيه أسفا
ثم يحلق في اتساع الكون
خفيفا كورقة يابسة.

هذا الظل الذي خلقه الله
كل على قياسه
نوسعه لترتعوا فيه
ونبسطه ملعبا
لأرواحكم المقبلة.

نحن دراويش الجوع والعطش

من مادة وجودكم نأكل ونشرب
ونوقد نارنا من حرارة أجسادكم.
لنا وحدنا دوائر لا تحترق
عند السدرة
ووحدنا يحملنا الكون إلى جلاله
عندما يرميكم في سلال المهملات.

بيننا وبينكم حجارة مضيئة
تلفظها الأحصنة
وهي تعبر بكم جسر الألم.
ولنا وحدنا
خلق الله زغبا من نعيم
ليسكننا في ظلال الحضرة.

حين يسطع الفجر بنور وجهه
نضعه في مزهرية قرب النافذة.

برحمته نختزل الكون
ونلتحق بموكب حياتكم.
تفسرون الأشياء فنواكب حركات ألسنتكم
وحين نشوشها تتعثرون بالكلمات..
تفسرون الأشياء فنكون وشوشة الطيف في الأحلام
ونكون الجنة عند أطراف الشفاه
ونكون طعم الحقول المغتبطة.
جاذبيتنا من أجسادكم
سرقناها وأنتم تخلدون إلى الراحة
بتعبكم نسمّم الأعداد
وبطَلعِ الدقائق نصمّغ الحدود
في وجه العابرين.

عندما نختلس ضحكاتكم
نزرعها تحت نافذة الجار--

يطل برأسه ويلعن الظلام
وعندما نحشو وسائدكم بقطن الطلاسم
يتقلب العجوز في سريره
ويحك الطفل رأسه ويبكي
أما الأم فتنهض لتشرب الماء.

لنا كالعصافير مساكن معلقة في الهواء
نستودع فيها أسراركم
ونحملها إلى الإله
في طبق من قمر.

نحن الذين نملأ أبداً جيوبكم بالغيوم
ونأخذ بأيديكم بعيدا عن ظلال الكهف.

نحن من يقرع أجراس منازلكم
ونحن من يفتح الأبواب.
من يعرفنا غير الأم
تلبس ثوب العرس لشهيدها
وحدها تصغي لعزف موسيقانا
تطرب وتضحك وأنتم تلطمون الخدود.

أبداً ينساب الماء من ظنونكم
وتشتعل حول أشكالكم هالات الشوق
بألوان السجاد المنشور على الشرفات.
وكمن يمشي في منامه تعرّجاً إلينا.

أبدا نراكم كلوحة في غرفة الجلوس
وأعلى من عرف الديك نسمع شجاركم.

نحن بين مائكم وزيتكم ننتظر البعث
نساؤنا يتحجبن بفراشات حقولكم
وأطفالنا يُسبّحون برمل شواطئكم

حاشية: تتخذ الصور الشعرية شكل اللصوص. ترتل الفاتحة على أنغام الجاز. الليل يدخن سيجاره بعيدا عن أعين الشهداء. وآلهة اليونان تلعب الورق و تدبّر مؤامرتها.

نحن أرواح الشهداء العائدين
نندف قطن الشهادة في سماء المدينة
ونعصر زيتا يضيىء كهالات القديسين.
وحدنا نعرف كيف تعشق شجرة النخيل ظلها
وكيف تجر الساقية سيلها وراءها كما تجر العروس ثوب زفافها.

حاشية: يداي مريضتان بالكتابة، لكن أرواح الشهداء راضية عني.
حاشية: رفعت الصورة وسادتها ونزلت على الدرج.
حاشية: كتفاها مبللتان دائما بحبر الملاكين.

نحن أرواح العائدين
نرسم طرقنا على قشر الجوز
وفي قاعات لبه نجلس كالكهنة
نصوغ مرسوم القدر
نسعى مع النمل حين يسعى
ونخط معه حروفه المسمارية
وفي صلاة الغائب نشيع شهداءه
إلى جبانة الأفق.

من نوافذكم نشرف على ثلج القطب
وفي قاعاتكم نرى كيف تتقابل كراسي الذاكرة
وكيف تسير صفوف العسكر بينها
مشيعة بالتصفيق وبهتاف جمهور من وهم.

نحن أرواح العائدين. نعرف قصة الكون قبل أن يكون: «كان البحر بابا ضاعت مفاتيحه. وكان البر وحشا يخبط عليه. لا كائنات تترقب. ولا نوافذ للظلام. وليس من يعبر جلد السماء بمركبته التي تجرها الأسود. الفكر يتأوه حنينا لأدمغة قادمة، والعدو ثلج لا يذوب. كان الزمان يتشمّمُ رائحة الصلصال المهيأ لكل الأشكال، والخضر ينتظر خلق العصفور ليسكنه. وكان اللوتس يحلم بأن يُخلق على شكل النوم، وساحات المدارس تنتظر الساعة الرابعة لعل الأولاد

يقفزون من بطون الكتب التي لم يقرأوها ».

تهرول الصورة إلى الحديقة حيث يصدح طائرها المفضل
وعندما تدير مفتاح قلبه يطيران معا إلى ظل الحضرة

نحن أرواح الشهداء العائدين
نسكن المرايا قبل أن تصقلوها
ونتوغل في صور العابرين
ولأجل أن ينكسر قوس الضوء فوقها
تشرح لنا الأشكال لغتها القرمزية
و يشهق مصباح اللغة.

هل تعرفون ما يقع من السماء
على الإيقاع
حين يعزف الأعمى
وحين يدير اللحن ظهره لأخيه اللحن؟

ندروش في قلوبكم كلما ضعفت
وتأوهتم بحرف الميم كأنه محشو بالأرز.

ماذا ينفعكم أن تدخلوا الصحراء من بابها السابع
حيث تتأمل ذاتها ؟
حين تفقدون الأمل
يطوي شيخكم التاريخ
كما يطوي الإله سجل السماء.

على باب الإغماء سرب من أرواح الشهداء. أسمع رفرفة أجنحتهم في غابة القصيدة. وأرى رؤوسهم معصوبة بشرائط الضفائر الملونة. أقدامهم أحواض الورد ، وبين شفاههم عباد الشمس. أسمع نشيدهم كأنه الرذاذ على زجاج نافذتي.

يتصلب الوقت، ويهب هواء الخلود من جهة العائدين.بماذا تمتلىء رئة السرير وأنا أفتح ملء يدي لأرواح الشهداء. يقبلونني فتحمرّ وجنتي حبيبي، ويغلق النافذة.

يتمطى الغيب الآن في جسد قطتي السوداء حين تخدش بمخالبها زجاج الصباح، وأخرج من القصيدة.

مختارات

سافو

لا العسل تشتهيه نفسي ... ولا النحل

«عندما تمرُّ أيها الغريبُ على المقابر، لا تقل إنني شاعرةٌ ميتةٌ من ميتيلين. فالأيدي البشرية قد بنت هذا وأعمال البشر تتلاشى، لكن إذا حكمتم عليَّ من قبل الموزيات التسع، والتي أعطيتُ كلاً منهن زهرةً، فأنتم تدركون تماماً أنني قد هربتُ من كآبة هيدز (Hades) عالمِ الموتى، ولن يُشرقَ يومٌ أبداً دون أن يُذكرَ فيه اسمُ سافو الشاعرةِ الغنائية».

سافو

وُلدت سافو في جزيرة ليسبوس، ما بين (٦١٠ - ٥٨٠ق.م)، ونالت شهرة واسعة في عصرها، وفي العصور التي تلت، بما اكتنف حياتها من جرأة وغموض، وما اتسم به شعرها من عذوبة وقوة في العاطفة، حتى قيل: إنه لم يضاهها أحد من معاصريها، باستثناء ألكيوس (Alcaeus) وأركيلوكس (Archilochus).

مدحها كثير من الكتّاب الاغريقيين والرومانيين، ووصفها افلاطون بالحكمة قائلاً:

«يقولون: إنه يوجد تسع موزيات. هذا استهتارٌ! انظروا - سافو من ليسبوس هي العاشرة». وتأثر بأسلوبها العديد من الشعراء، مثل كاتولس (Catullus)، الذي ترجم لها قصيدة غنائية مستخدماً أوزانها نفسها. كما أشار إليها هوراس (Horace)، في قصائده، وكتب أوفيد (Ovid) على لسانها رسالة تخيل أنها كتبتها لحبيبها فيون (Phaon) وقيل: إن علاقتها بهذا الحبيب جاءت نتيجة قصيدة كتبتها سافو عن حبّ أدونيس (Adonis)، وقد ترجم ألكسندر بوب

(Alexander Pope) هذه القصيدة العام ١٧٠٧م.

ولم تقتصر أهميتها على شعراء عصرها، بل امتدت حيّة على مدى عصور تلت، حتى أن فرجينيا وولف، وفي معرض مدحها للشاعرة الإنكليزية كريستينا روسيتي، تقول: إن روسيتي تعتبر أفضل شاعرة منذ ظهور سافو».

أُثير حول سافو، شخصيتها وحياتها، لغطٌ كثير، لا سيما في عصرها، فهي تكرّم حيناً، فيضع الميتيليون (مواطنو ميتيلين المدينة التي قضت فيها معظم حياتها) صورتها على عملتهم، وتُلعن حيناً آخر بسبب ما أشيع من حبّها للنساء، حتى أتهمت بالسحاقية، لحميمية علاقتها بثلاث من رفيقاتها، وهن: أتيس (Atthis)، تيليسيبا (Telesippa) وميجارا (Megara).

ويتحدث هوراس عن «سافو المسترجلة»، وكتب عنها أوفيد قائلاً: «ماذا علمت سافو فتياتها، سوى أن يمزجن الحب بالنبيذ؟ ماذا علمت سافو، من ليسبوس، الفتيات سوى الحب؟».

عُرف عن سافو أنها لم تكن جميلة المظهر، بل ربما كانت أقرب إلى القبح ببشرتها السمراء وقامتها القصيرة وملامحها الخشنة. ونعرف أنها تزوجت من رجل ثري يدعى سركولاس (Cercolas) وأنجبت منه ابنة سمّتها على اسم أمها كليس (Cleis). وقد نُفِيت في سنّي شبابها إلى جزيرة صقلية عدة سنوات، بسبب نشاط زوجها السياسي على الأرجح. وبعد عودتها من المنفى راحت تتعهد في بيتها مجموعة من فتيات العائلات الكريمة من جزيرتها، ومن الجزر المجاورة، وتلقنهن فنون الرقص والعزف والغناء، وتدرّبهن على آداب اللياقة والأناقة وإعداد الأكاليل وعقود الورد، وتشركهن في حفلات الزفاف، وفي الأعياد التي كانت تتقرب بها المدينة من الآلهة، وفي مسابقات الجمال التي كانت تقام تكريماً لأفروديت، في المعبد المقدس، على شاطئ الخليج الكبير في الشمال الغربي لمدينة ميتيلين.

ولم يكن هذا «المعهد» الذي أسسته سافو ورعته بدعاً في ذلك العصر، بل كانت هناك معاهد أخرى منافسة، ذكرت سافو عدداً من القائمات عليها بشيء من الغضب، مثل أندروميدا (Andromeda) وجورجو (Gorgo). ولم تكن الغاية من هذه المعاهد تخريج راقصات أو مغنيات، أو حتى كاهنات للمعابد، بل إعداد فتيات يتمتعن بالجمال والرقة والذكاء والمهارة، ليقمن على خدمة ربات الجمال. وقد قيل الكثير عن طبيعة العلاقة التي تربط سافو بتلميذاتها، وأنها قد تتعدى، كثيراً أو قليلاً، علاقة المعلم بتلميذه. نلحظ ذلك في الأشعار التي كتبتها، المفعمة بمشاعر الحب والغيرة والشوق. وربما كان هذا ما دعا عدداً من الكتّاب المعاصرين لها لرواية الأقاصيص عن شذوذها الجنسي، وجرأتها في الإعلان عن ذلك.

لا يُعرف كيف كانت سافو تنشر شعرها في حياتها، ولكننا نعرف أنه تم في القرن الثالث والثاني قبل الميلاد، جمع ما تبقى من شعرها، ونشره في تسعة كتب، أحتوى الكتاب الأول على ألف وثلاثمائة وعشرين بيتاً من الشعر. لكن هذه الكتب فُقدت مع حلول القرن الثامن والتاسع الميلادي، ولم يبق من شعرها سوى إشارات متفرقة حول هذا الشعر. وفي العام ١٨٩٨، تم العثور على مقتطفات من شعرها مكتوبة على أوراق البردى، هي كل ما وصل إلينا.

تُرجِمت بعض أشعار سافو إلى العربية بتوقيع د. عبد الغفار مكاوي، قبل حوالي أربعين عاماً، وصدرت عن دار المعارف في مصر. ولكنها كانت ترجمة حرفية، تركت في النص العربي النقص وفقدان الكلمات، ملتزمة بالأصل وفق أوراق البردى المهترئة. وقد أعتمدت هذه الترجمة مرجعين رئيسيين: الأول لديفيد كامبيل، الذي ترجم النصوص ترجمة حرفية عن الأصل المتبقي، والثاني لماري برنارد، التي نجحت في إعادة صياغة قصائد سافو ومنحها الغنائية اللائقة بها.

١- لِيعلَمَ الجميع
أنني اليومَ والآن
سأغني غناءً بديعاً
كَي أُبهجَ صديقاتي

٢- لسوفَ نَستمتعُ
أمّا مَنْ يَعيبُ علينا ذلك
فلعلّ الحَماقة والأسى
يَتَوليّانه

*** الجزءُ الأول:**

٣- واقفةً كانت* إلى جِوارِ مَخدعي
بخفيّها الذهبيين
في تلك اللحظة بالذات
أيقظني الفَجرْ

٤- سَألتُ نفسي
ماذا يُمكنكِ، يا سافو، أن تَمنحَي
من في يديها كل شيء
مثل أفروديت؟

٥- وَقُلتُ:
سوف أحرقُ عِظام نعجة بيضاء
مُكتنزة الفَخذينِ
في معبدها

* المقصود هي أفروديت.

٦- أعترفُ
أنني أحُب ذلك الذي يُداعبني
وأؤمن
أن للحبّ نَصيباً
من ألَقِ الشمسِ
وعقّتها

٧- في وَقت الظهيرة
حين الأرض مشتعلةً بالحرارةِ الملتهبةِ
التي تَسقطُ مباشرةً عليها
يرفع صرار الحَقل عَقيرتَهُ
بأغنيات جَناحيه

٨- تَناولتُ قيثارتي وقلت:
هيّا الآن، يا ترس سُلحفاتي
المقدسة: كن آلة ناطقة

٩- على الرّغم من أنهّا
ليست سوى أنفاس،
فإنّ الكلمات التي تصدر عنيّ
أبدية

١٠- الأرض مُطرزة
بألوان زُهورها

١١- في تلكَ الظهيرةِ
أخَذتْ الفتياتُ الناضجاتُ للزواج
ينسجن عقوداً
من بَتَلات الوَردْ

١٢- أنصَتنا إليهنّ يترنّمن

الصوتُ الأول: *يكادُ الموت*
يَخترمُ أدونيس الفتى
فماذا نحنُ فاعلات يا سيثريا؟
الصوت الثاني: *إلطمن صُدوركنَّ*
بقبضاتكُنَّ، يا فتيات -
وَمزّقنَ الجيوب!

١٣- *لا جَدوى يا أمي العزيزة*
لَم يَعد بمقدوري أن أُتمّ نسيجي،
وعلى أفروديت ضعي اللوم
فهي برقّتها البالغة
كادت تَقتُلني
شَغَفاً بذلك الفتَى

١٤- *يُطلق الناس الشائعات*
مثرثرينَ عن ليدا
زاعمينَ أنهّا عَثرت ذاتَ مرة
على بيضةٍ مخبّأة
تحت الزنابق البرّية

١٥- *السماء سادها السّلام*
طَعامُ الآلهة كان مهيئاً
وَمَمزوجاً في الدنان
وكان ذلك هيرميز
مَنْ حَمَل الإبريقَ
وَصب النبيذ للآلهة
رَفعَوا الكؤوسَ جميعاً
وشربوا نخبَ العريس
وَدَعوا لهُ بالبرَكة

١٦- *حينما رأيتُ أيروس*
هابطاً من السماء

كانَ يرتدي عَباءَةَ جنديٍّ
بِلَونِ الأرجُوانْ

١٧- أنتَ راعي المَساء
يا هيسبيروس
أنتَ تُعيد إلى بيته
كلَّ ما شتتهُ ضوءُ الفجر
تعيدُ الأغنام، وتعيدُ
الماعز، وتعيدُ الأطفال
إلى أمهّاتهم

١٨- نامي يا حبيبتي.
لي ابنة صغيرةٌ
تدعى كليس، كأنهّا
زَهرةٌ ذهبية
بكُلِّ مملكةِ كروسوس
وَما فيها من حبّ لا أستَبدِلُها

١٩- على الرغم من رُعونَتِها
فإن لمنا سيديكا جسداً
أكثر فتِنةً من جَسَدِ
جيرينو اللدّنْ

٢٠- يَجدُرُ بكِ يا ديسا غداً
أن تضفري بيديك الناعمتين
إكليلاً من براعم الشبت
تنوطينَ به خصلات شَعركِ
فوحدها المكللةُ بالأَزهار
تلفتُ انتباه ربّات البهجة
أما الرأس العاري فيُشحنَ عَنه

٢١- على ظَهرِ السفينة وَضعنا الجرّة

منقوشاً عليها:
هذا رَماد تيماس اليافعة
التي اقتيدت، دونَ زَواج،
إلى مخدع بيرسيفون المُعتِمْ

ولأنها غَدَتْ بعيدةً عن بيتها،
فإن لداتها الفتيات أَخَذنَ شفرات
حادّة وجززنَ، حُزناً عليها،
خُصلاتِ شعورهنّ الناعمة

٢٢- في حُلُمي رأيتُ يا سيبريان
ثنيات وشاحٍ أرجواني
تظلّلُ وجنتيكِ - الوشاحُ ذاته
الذي أرسَلتهُ تيماس ذاتَ مرّة،
هدّية خجولاً، من فوسايا البعيدة

٢٣- في شَفَقٍ رَبيعي
قمرٌ مكتملٌ يتلامع:
أما الفتياتُ فيأخذن أماكنهُنّ
متحلّقات حَولَ المذبَح

٢٤- ثُمّ تشرعُ أقدامهنّ
في رَقصٍ إيقاعي، كما رَقصَتْ
أقدام فتياتِ كريت
حَول مَعبد الحبّ، مخلفّاتٍ
أثَرَ دائرةٍ في العشب الغضّ
العشبِ الناعِمِ والمُزهِرْ

٢٥- خاشعاتٍ أمامَ بهائه
سَتَرت النجوم وجوهَها المُتوامِضَة
حين ظَهَر القمر الفتان
مُكتَمل الاستدارة، وراح يضيئ الأرض

بأشعته الفضّية

٢٦- *الآن، وفيما نحنُ نُرقُص*
تَعالين إلينا يا ربّات البَهجةِ
والمَرحِ والتألّقْ
وأنتُنّ أيضاً أيتها الموزيات
ذواتِ الشَعر الخلاّب

*** الجزء الثاني :**

أغاني الزفاف (أبيثالميا)

٢٧- *هيسبيروس، يا نَجمة المساء*
يا أكثرَ النجومِ
جمالاً

٢٨- *لقد حانَ الوقتُ الآن*

الصوتُ الأول: *لَكُنَّ أيتّها البارعاتِ*
الجَمال والفتنة
لتُشاركَنَ في الألعابِ
التي تقيمُها الموزياتُ
ورديات الكعوب
بصحبةِ أفروديت الذهبية

آهِ مُستحيلْ!

الصوتُ الثاني: *لَسوفَ أبقى*
عَذراء أبداً

٢٩- *كُرمى لَها*
نَسألكنَّ القُدومَ
أيتّها الموزيات
يا كمالاً ورديَّ الذّراعَين

يا بَناتَ الآلهة

٣٠- هايمن هيمينوس*
(أنشودةُ الزَواج)

الصوتُ الأول: علّوا عَوارض السقف - أيّها البناءون
هيمينوس!
إرفعوها أعلى فأعلى
هيمينوس!
ها هُو العَريسُ قادمٌ
بقامةٍ تفوق قامَة إيريزَ طولاً

الصوتُ الثاني: هيمن هيمينوس

الصوتُ الأول: إنهُ يُطاولُ أعلى الرجّال
كما يُطاول شُعراءُ ليسبوس
كلَّ مَن عَداهُم

الصوتُ الثاني: أنشِدوا هيمن هيمينوس

٣١- *إننا نَشربُ نَخبَكَ*
أيهّا العَريسُ المَحظوظ!
لقدَ تَم لكَ الآنَ الزواجُ
الذي كُنتَ تأمَلهُ
وأصبَحَتْ زَوجةً لَكَ
الفَتاةُ التي طالَما تَمنيّتَها ،
العَروسُ الساحرةُ الطَّلَعة
بعينينِ في حَلاوةِ الشّهدِ
وَوجهٍ في وضاءَة
جَمال الحُبّ ذاته
لقد تَفوّقتْ أفروديتُ،
بالتأكيدِ، على نَفْسِها

* لازمة كانت صديقات العروس يرددنها في أغاني الزفاف.

بِمنحكَ هذا التكريم!

٣٢- لَسوفَ نُغنيّ طوالَ الليل
لحبِّكُما أنتَ وَعروسكَ ذاتَ الرداءِ الأرجواني
وأنتنَّ يا فتيات، هيّا انهَضنَ
واذهبنَ للبحثِ عن عازبينَ من أعمارِكنّ،
وليَكُنْ لَيلنا مَديداً،
ونَومُنا أقلَّ مِنْ نوَم كَرَوانٍ صَدّاح.

٣٣- أنشودةُ وَصيفاتِ العَروس١

يا عَروساً مُفعَمةً بمشاعرِ
الحبّ الوَرديّة!

يا أشَدّ جواهرِ مَلكةٍ
بافوسَ لَمعَاناً!

أدُخلي الآنَ إلى غُرفة
نَومِك إلى مَخْدَعكِ
وَمارَسي ألعابَك العَذبة
الرَقيقة مع عَريسكِ

فعسى هيسبيروسَ أن يَأخُذَ
بَيدك وَفقَ مشيئتكِ

إلى أن تَقفي ذاهلةً
أمامَ العرش الفضيّ
لإلهة القِرانِ هيرا

٣٤- أنشودة وصيفات العروس ٢

الصوتُ الأول: عُذرّيتي آه
يا عُذريّتي!

إلى أينَ سَتَمضينَ
حينما أفقدُك؟

الصوتُ الثاني: *إنّي راحلةٌ إلى مَكانٍ*
لا أعودُ منه أبداً
يا عزيزتي العَروس!
أنا غَيرُ عائدةٍ أبداً إليكِ
أبداً!

٣٥- *في الداخل هُم مَحبوسونُ، آه!*
للحارس قدمَان تَبلغان
أثنتي عشَرةَ ياردةً طولاً!
إسكافيون عشرة استخدموا
جلودَ ثيرانٍ خمسةٍ ليصنعوا
لَهما خُفّين!

٣٦- *بماذا أشبّهُكَ أيها العريسُ العزَيز؟*
بغُصنٍ أهيفَ سأشبهّك.

٣٧- مرثية البكارة

الصوتُ الأول: *مثلَ تفاحة تَنضجُ*
على الغُصن الأعلى
لأكثرِ الأشجارِ علوّاً

لَم يَنتبه لهَا القاطفون
لاَ بل انتبهوا وَلَم يَبلغُوها

الصوتُ الثاني: *مثِلَ زنبقةٍ بريّةٍ في الجبِال،*
دَاستها أقدامُ الرعاة
فلَم يَبقَ منها غَير بُقعةٍ
أرجوانيةٍ على الأرضْ

٣٨- تَرتدينَ زيّها المُشعّ بالذهب
أنت، أيضاً، يا هيكيت،
يا مَليكة الليالي،
يا وَصيفة أفروديت

٣٩- على مَ بُكائي؟
أما أزالُ حزينةً
على فُقدان بَكارَتي؟

*** الجزء الثالث:**

٤٠- أنت تَعرفين المكانَ: إذن هيّا
أهجري كريت وَتعالي إليَنا
نحنُ اللاتي ننتظرك في بُستاننا
اللطيف، في الفناءات المكرّسة لك،
المعبدُ عابقٌ برائحة البخّور،
وَجَداولُ الماء البارد
يتخللُ خريرُها أغصَانَ التفّاح،
أيكَةُ الورد تُغطي الأرضَ
بظلالها، فيَما حَفيفُ أوراق
الشَجر يَسكُبُ النعاسَ الهانئ،
وفي المَروج تَرعى الخَيلُ
بَشعرها الصَقيل وَسطَ أزهار
الربيعَ، وَيتعطّر الهواءُ برائحة الشبت.
مَليكتُنا يا سيبريان! اترعي
كؤوسَنا الذهبيّة بالحبّ
المداف بالرّحيق الرائقْ

٤١- ابتهالٌ إلى مولاتي إلهةِ بافوس

أيْ أفروديتُ ذاتُ العرشِ المُزركَش

يا إبنة الإله الخالدة،
يا مُحكمة الأحابيل! أبتهلُ إليكِ
ألاّ تقهَري بالأسى قلبي!
بَلْ تعالي كما فعلت مرّة حينَ بَلغَكِ
على البُعد ندائي، فأصغَيتِ ثُمّ هجرتِ
منزلَ أبيكِ، ممتَطيةً عربَتكِ الذهبيّة،
بعدَ أن رَبطتِ إليها زَوجاً من الطيور
بأجنحةٍ كثيفةٍ زاهيةِ الألوان،
فراحت تُرفرفُ بكِ من أعالي السّماء
عَبرَ طَبقات الهواءِ لتهبطِي بخفّةٍ وسُرعةٍ
على الأرض المُظلمَة،
ولتَسأليني، أيتها المُباركة، وَعَلى وَجهكِ
ابتسامَتُكِ الأزليّة، عَمّا عَساهُ ألمَّ بي الآن
حتى استدعيكِ من جَديد، وماذا يَكونُ ذلك
الذي يَتَمنّاه، أكثر من غيره، قلبيَ الملوّع؟
«مَنْ تلكَ التي عليَّ إقناعهَا بحبّكِ هذهِ المرّة؟
مَنْ، يا سافو، تُضنيكِ بجورها؟
دَعيها فلئن كانت تَتَجنّبكِ
فعمّا قريبٍ ستُلاحقُكِ، والهَدايا
التي تَرفضُ قبولَها الآنَ لَسَوفَ يَأتي
يومٌ وَتقومُ هي بتقديمِها،
وإذا كانت راغبةً عن حُبّكِ
فسرعانَ ما سَتقعُ فيه
على الرغمِ منها ....»
إن كُنتِ سَتأتينَ فليكُن الآن!
أريحيني من هذا العذاب الذي لا يُطاق!
أكثرُ ما يتمنى قلبي تَحقيقَهُ
حقّقيه أنت،
ولتَكُن قوّتكِ حَليفَتي!

٤٢- *فيبوس، يا ذا الشَعر الذهبي،*
يا مَنْ حَملَتْ بكَ ابنة كويوس

بعد مضاجَعَتها ابن كرونوس، إله السُحُب العالية،
ليتمجد اسمُه،
لكن أرتميس أقسَمت أمامَ الإله الأعظم:
«أقسم برأسكَ، لأظلنّ عذراء بلا زَواج،
أقضي حَياتي في الصيدِ على قِمَمِ الجبال المتوحّدة،
فلتُحقق لي هذا».

هكذا تَكَلَّمت، وأومأ أبو الآلهة المبارَكينَ مُوافقاً،
ومذّاكَ والآلهة والبشرُ يلقبونها بالعَذراء،
صائدة العزلان، الصيّادة، وَيا لَهُ من لَقَب.
أما الحَبُّ، مَرخَيّ الأوصالِ، فلن يمسّها أبداً.

٤٣- ليسَ مجرّد بَطلْ
إنه شبيهُ إله في نَظري -
الرجُلُ الذي سُمحَ لَهُ
بالجلوس إلى جانبكِ -
الذي يُصغي بحميميّة إلى تَهدّجاتِ
صَوتكِ العَذْبْ، وإلى ضحكتكِ
المُغوية، مهيّجة خَفقانِ قلبي.
لو أنني أصادفُكِ على حين غرّة،
لانحبسَ صَوتي وانعقدَ لِساني،
وَلَسرى لَهبٌ واهٍ تَحتَ جلدي
ولَعَشيَت عيناي، وَلَما سَمعتُ
سوى طَنين أذني، ولتصببتُ عَرقاً،
ولأخَذتني الرجفَةُ من كلّ أعضائي،
ولعدتُ أكثرَ شحوباً من عُشبةٍ يابسة.
في لَحظةٍ كهذه ما أقرب الموتَ منيّ.

٤٤- أجَل يا أتيس، كوني على يَقينٍ
حتى وَهيَ في ساردِيس فإن أناكتوريا
سوفَ تذكُرنا كثيراً، وتذكرُ الحياةَ التي
عشناها معاً هُنا، حينَ كنت تَبْدينَ لها

إلهة متوَّجَة، وكان غناؤكِ أكثرَ ما يُمتعها

وها هيَ الآنَ بدورها تفوق
نساءَ ليديا جَميعاً، كما يتسيّدُ القمرُ ذو الأصابعِ القرمزيّةِ،
مع غُروب الشمس،
على النُجومِ المحيطَةِ به،
ناشراً أشعّته بالتساوي عَلى البحر
المالحِ، والحقولِ المفعمةِ بالبراعِم.

وكالنّدى الذي يَهْطلُ فتنتعشُ الورودُ
والزّعترُ الرقيقُ ونبتاتِ البرسيمِ المزهرة،
فإنها تَتجولُ على غير ما هُدى، متفكرةً بأتيسَ الناعمة،
يتدلى قلبها مُثقلاً بأشواقِه
في صَدرِها الصّغيرْ

إنهّا تصرُخُ عالياً، تعالي! ونحن نَسمعها،
الليلُ ذو الألف أُذنٍ يرددُ صرخَتَها
عبرَ البحر المتلامع بيننا

٤٥- كانَ هذا كلامك يا أتيس:
«إذا أنت لَم تنهَضي، يا سافو،
وتُمتعينا بمرآك
فلن أحبّك بَعد الآن!

إنهَضي، حرّري ليوئَتَك
واخلعي عَنكِ قَميصَ نومكِ،
ومثلَ زنبقةٍ تنحني على الينبوعِ
أغتسلي بالمياه
ستُحضرُ كليس ثوبَكِ الأرجوانيّ المفضّل
وقميصكِ الأصفرَ من خزانة ملابسِك،
بعباءةٍ فضفاضةٍ ستُحيطُ جَسَدكِ
وبالأزهارِ ستتوّجُ شَعركِ

اليوم، وبعدَ طول انتظار، سَندخلُ ميتيلين،
مدينَتَنا الأثيرة، بصحبةِ سافو، أحبّ نسائنا إلينا،
ولسوفَ تخطُر بيننا مثل أمّ محاطةٍ ببناتِها
بعد أن عادَت من منفاها...».

لكّنكِ يا أتيسُ تَنسينَ كلّ شيء

٤٦- لم تصل إليّ منها كَلمةٌ واحدة
وهذا ما يَجعلُني أتمنى الَموتْ.

بَكَتْ كثيراً حينما غادَرت،
قالت لي: «هذا الفراقُ لا بدّ من تحمّله
يا سافو، وإني لأرحلُ مرغمة».

قلتُ: «اذهبي، وعيشي بسعادة
ولكنْ تَذكّري من تركتِ مصفدةً بأصفاد الحبّ

وإن أنت سلوتني، فاذكري هدايانا لأفروديت
وكلَّ الجمال الذي تقاسمناه معاً؛
عصائبَ البنفسج، برَاعمَ الورود المضفورة،
زهورَ الشبت والجادي المَجدولة حَولَ عُنقكِ الفتيّ،
وعطرَ المرّ الممسوح به رأسُكِ،
فيما على الأرائكِ الوثيرةِ تتكئ الفتياتُ
وبينَ أيديهنّ كل ما يَشتهين

وحيثُ لا أصواتَ تعلو بالغناء
دونَ أصواتِنا، فما من زهرةٍ تَتَفتحُ
في الربيعِ دونَ أغنية...».

٤٧- إلى زوجةِ جنديّ من ساردِيس:

بَعضُهم يرى أنّه مشهدُ الفرسان،
ويرى آخرونَ أنه مشهد المشاة،
ويصرّ غيرهم على أنّه منظرُ الأسطولِ البحريّ
هُوَ أجملُ مشاهد الأرضِ المظلمة.
ولكنني أقولُ: بل إنّ ما يحبُّه المرءُ هو الأجمل.

وَكَم يسهلُ إثبات ذلك:
ألمَ تَكُنْ هيلين الفائقةُ الجمال - التي خَبرَت
زهرَةَ الرجولةِ الكونيّة - هيَ التي اختارَت،
من بَينِ الرجالِ جَميعاً، ذاك الذي مرّغَ
شرَفَ طَروادةَ بالوَحل؟

أما هجَرت زوجَها النبيلَ، وابنهَا، وأبوَيها،
وتَبِعَتْ ضَلالةَ الهوى التي قادَتْها بَعيداً مَعَ مَنْ تهوى؟

وهكذا أنتِ يا أناكتوريا، حَتى في نَأيِكِ
ونسيانكِ لَنا، فإنّ وَقعَ خُطواتكِ الرشيقةِ
والنورَ المشعّ من عَينيكِ
ليهزُّني أكثرَ من بَهاءِ العرباتِ الليدية
والمشاةِ شاكّي السلاح.

*** الجزءُ الرابع:**

٤٨- دونَما إنذار
وَمثلَ عَصفِ الريحِ بالبلوّط
يرنّحُ الحبّ قلبي

٤٩- إن أنتِ أتيتِ
لسوفَ أمدّ لكِ
وَسائدَ جَديدةً
من أجلِ راحتكِ.

٥٠- شُكراً على مجيئكِ يا عزيزتي،
كَمْ كنتُ محتاجةً اليكِ، لَقد
ألهبتِ بالحُبِّ صَدري - فلتكوني مُباركَةً
عَدَد الساعاتِ التي
بَدتْ لي بلا نهايةٍ في غَيبتِكِ

٥١- لقد كُنتُ في غايَةِ السعادة
صَدّقيني، وَصلّيتُ لتكونَ
تلكَ الليلةُ
مُضاعَفةً لنَا.

٥٢- أعرفُ الآن لِمَ كانَ ايروس،
من بين نَسل الأرضِ والسماءِ
الأكثر حَظوةً بالحبّ.

٥٣- كانَتْ بكاملِ أناقتِها
قدماها تغيبان تَحتَ
أربطةِ صندَلها المطرّزة -
المشغولةِ يَدوّياً في آسيا.

٥٤- أمّا أنتِ يا أتيس
يا ذاتَ الوجه النسناسيّ
فقد طالما أحبَبْتُكِ، حينَ
لم تكوني أكثرَ من طفلةٍ صغيرةٍ فِظّة

٥٥- وكنتُ شديدةَ الإعتزاز بكِ أيضاً
فليسَ ثمّة فَتاة تدانيكِ
في مهارتِكِ، وَلنْ ترى الشمسُ
واحدةً في مُقبلِ الأيام

٥٦- بَعدَ هذا كلّه
تَكرهينَ يا أتيسُ

مجرّد التَفكير بي
وَتَهرعينَ إلى أَندروميدا

٥٧- *بسُمِّه الذي لا يقاوم وحلاوته المرّة*
مرخيّةِ الأوصال،
الحبّ كإحدى الزواحِفِ
أنقضَّ عليّ

٥٨- *خشيةً من فُقدانك*
رحتُ أركضُ مُرتعَشَةً
مثلَ فتاةٍ صغيرةٍ
خَلفَ أمهّا

٥٩- *جَليٌّ ليَ الآنَ:*
لا العَسلْ تَشتهيهِ نَفسي
وَلا النَحلْ

٦٠- *نَهارٌ يأتي، نَهارٌ يَرحلُ*
أجوعُ
وأقاومْ

٦١- *لَسوفَ تَقولينَ*
أنظُري، لقدْ عدتُ إلى
الذراعَين الناعمتين
اللتّينِ هجَرتُهما فيَ سالفِ الأيّامْ

٦٢- *أخبريني*
مَنْ بَينَ كلّ البَشَر
مَنْ ذاكَ الذي تُحبينَهُ
أكثَرَ منّي؟

٦٣- *قُلتُ لنفسي: كُفّي يا سافو!*

لِماذا تُحاولينَ تَحريكَ
قَلبٍ قاسٍ؟

٦٤- لربُما تَنسينَ لكن
دعيني أقولُ لَكِ هذا :
في مُستقبلٍ ما
سيُفكّر بنا أحدٌ ما

٦٥- يختَرقُني الألمُ
قطرةً
بَعدَ قطرةٍ

*** الجزءُ الخامس :**

٦٦- بصَوتِه العذبِ
يُعلنُ العَندليبَ
عَنْ مَقدمِ الرَبيع

٦٧- ليلة أمس
حَلُمتُ أننّا تَبادلنا الحَديثَ
يا سيبريان

٦٨- الليلة راقبتُ
القَمرَ والثريّا
يَتَساقطان

مَضى الآنَ نصفُ الليلْ،
الشبابُ يَمضي
وأنا في الفراشِ وَحدي

٦٩- بيرسيوويشن (ربة الإقناع)

يا أبنَة أفروديت
أنتِ تخدَعينَ البشَرَ الفانينْ

٧٠- *لطالَما تمنّيتُ*
يا أفروديت الذهبيّة التاج،
أنَّ لي حظاً مثِلَ حظّكِ

٧١- *لماذا في مثْلِ سنّي*
سُنونوةُ الجنان،
ابنة الملك بانديون
تأتيني بالأخبارِ المُزعِجَة؟

٧٢- *كانَ ذلكَ مُختلفاً*
صبايَ كانَ وَقتئذٍ
في رَيعَانه
وأنتِ -

٧٣- *هذا الاتجّاهُ ذاك الاتجّاه*
لا أدري ماذا أفعَلُ:
أنا إمرأةٌ برأيين

٧٤- *صَديقاتي الرائعاتْ*
كَيفَ لي أن أتبدّلَ
نَحوكُنّ وأنتُنّ على هذا
القَدر مِنَ الجَمال؟

٧٥- *أسألكَ يا سيّدي*
أن تُقابلَني وَجهاً لوَجه
كفعلِ الأصدقاء،
وأن تُرَيني عَطفَ عَينيكْ

٧٦- *لا شَكّ أنني أحبّك*

لكن إن كُنتَ تُحبّني
فأتخّذ لكَ زوجةً صغيرة!
فلن أحتَمِل مُعاشَرَة شابٍّ
أنا أكبُره في السنّ

٧٧- أجَلْ، إنّه جَميل
ولكن هيّا يا عَزيزَتي
أيَستدعي منِكِ كلّ هذا الزُهو
مُجرّد خاتم؟

٧٨- لقد بَلَغني أنّ أندروميدا -
تلكَ الفتاةُ الريفيّة
بثوبِها الريفيّ -
قد لوّعت قَلبَك
وهي لا تَملكُ منَ الكياسَةِ
ما تَرفعُ به ثوبَها عن كاحِليَها

٧٩- حَسَناً
لقد حَظِيتْ أندروميدا
بمبادَلةٍ مُنصفة

٨٠- سافو، حينَ يُفجّر بَعضُ الحَمقى
صدرَكِ بالغَضَبْ
إعمدي إلى كَبحِ جِماحِ
لِسانِكِ الثَرثار

٨١- مِنَ الغريب القول: إن أولئكَ الذين أحْسَنتُ
مُعامَلتَهم هُم أنفسهم الذينَ
يُلحِقون بي الآنَ أكثرَ الأذى

٨٢- علّمتُ الموَهوبين
وأكثَرَ من ذلك، أحسَنتُ

في توجيه هيرو،
الصَبيَّةُ من جيارا
التي اختَطّتْ مسارها بين النجوم،

٨٣- حقّاً يا جورجو
أنا لَستُ ممن يَحملونَ الضَغائن
فلي قلبٌ مترعٌ بالبرَاءة

٨٤- تَحيّاتٌ إلى جورجو
أحييّك يا سيّدتي
يا سَليلَة الُملوك العِظامِ
تَحيّاتٍ كَثيرَة

٨٥- أكثَرُ عُذوبةً منَ القيثارَة
وأشدُّ بريقاً من الذهب

٨٦- على الرغمِ من ثَرائك
بالموت ستنتَهين، لَنْ يَذكركِ
بعدئذٍ أَحدٌ أو يُريدَكِ
فما كانَ لكِ نَصيب في
أزهارِ بييريا،
وفي هيدز سوفَ تروحينَ وتَجيئينَ
غيرَ مرئيّة وَسطَ أشباحِ الموتى

٨٧- لا تَسأليني ماذا سأرتَدي
ليسَ لَديّ عَصبَة رأس مُطرّزةٍ
من ساردِيس لأمنَحَكِ إيّاها
يا كليس، كالتي أرتَديها،
ولَطالما قالَتْ أمّي:
إنّ شَريطةً بنفسجيةً يُناط
بها الشَّعر كانَت تَدلّ بلا رَيبٍ
على الذّوقِ الرَفيع

ولكنّ شَعْرنا كانَ داكناً:
الفتاةُ التي شَعْرُها أكثر
اصفراراً من ضَوءِ المصباحْ
لا يَنبَغي أن تَضَعَ على رَأسِها
غيرَ الزُهورِ اليانِعة

*** الجزءُ السادس:**

٨٩- إذا كُنت مُوَسْوَسَةً
إلى هذا الحدّ، فلا تنبشِي
في حصى الشاطئ

٩٠- قبلَ أنْ تَغْدُوآ أُميَّنِ
ليتو ونيوبي
كانَتا رفيقتينِ حَميمتين

٩١- تُعلّمنا التَجربة:
ثروةٌ بلا فضيلةٍ
جارٌ غَيرُ حَميد

٩٢- هذا كلُّ ما نَعرِف:
الموتُ شَرّ،
الآلهة أنفُسهم يؤكّدون ذلك،
فلَماتوا إذَنْ
لَو كانَ أمراً حَسَناً

٩٣- قولي ما تَشائينْ
الذهبُ ابن الإله زيوس،
لا الدودُ يأكلُ الذهبَ
ولا العثّ، إنّه أشدُّ
قوّةً من قُلوبِ الرجّال

٩٤- بَعدَ ذلك أخَذَ إلهُ

الحَرب أيريز يَتباهى بقُدرَتهِ
على هَزيمةِ هيفيستوس
إله الحِدادَة،
بِمَحضِ قوّته

٩٥- أمّا أولئكَ المنفيّون
فسَيجدونَ عَنتاً
في تحمّلك أيها السَلام.

٩٦- فلتَحملُ الريحُ والأحزانُ
بعيداً عني
مَنْ يَوبّخني

٩٧- أمّا الحَمائمَ
فقد باتت بقلوب بارِدةٍ
واجنحة ثقيلة

٩٨- لم يَكُن ليخطرَ لي
أنني سألمسُ السماءَ بيَدي

٩٩- في ذكرى بيلاجون
وَضَع والدُه صيّادُ السمك منيسكوس
سلّة سمكٍ ومجذافاً:
تذكارينِ لحياةٍ بائسَة

١٠٠- هَلْ تتذكّرين
كَيفَ كان الوزّال الذهبيّ
يَنبتُ على شَواطئ البَحر؟

١٠١- أرفقي بي يا جونجيلا،
فأنا لا أطلبُ غيرَ أن ترَتدي
رداءكِ الأبيضَ حينَ تأتينَ

تتواثبُ الرَغباتُ حولَ فتنتكِ
منجذبةً بكليّتها
محلّقة في مَدارك
وإني لمبتهجة، فعلى الرغمِ
من مشاحَناتي السابقة مع
أفروديت، فإليها رَفعتُ صَلاتي
لتكونَ عودتكِ وشيكة

١٠٢- أنتِ تُذكّرينني
بفتاةٍ صغيرةٍ
بالغةِ الرقّة
راقبتُها مرة وهي
تقطفُ الأزهار

١٠٣- حينما بَلغَ منهم التعبُ مَبلغه
أمطَرَ الليلُ نَومه
الأسودَ الكثيف
على أعيُنهم

١٠٤- فلتُباركك الآلهة
ولتكنْ غفوتكِ على صَدر
إحدى صَديقاتكِ الحنونات

١٠٥- لطالَما سألتُكَ أن لا
تأتي يا هيرمز،
أيهّا الإله الذي يقودُ الأرواح
إلى مستَقرّها:
لكنني هذه المرّة لا أحسّ بالسعادة،
أريدُ أن أموتَ، لأرى زَهرةَ
اللوتس المخضلّة تَتفتحّ
على طول نهَر أكيرون

١٠٦- *الموزيات هُنّ من*
مَنحنني هذه المَكرمُة
لقد علمّنني مهارَتَهنْ

١٠٧- *ألا بُدّ من تَذكيركِ يا كليس*
أنَّ الأغنيات الحَزينة
لا يليقُ أن تترددَ في بيت الشاعر؟
وأنها لا تناسِبُ بيتنا أيضاً؟

١٠٨- *لا شكوى لديّ*
فالنجاحُ الذي مَنحتني إيّاه
الموزيات الذهبية ليسَ وَهماً
وحينَ أموتُ لَنْ أنسى.

ترجمة: طاهر رياض وأمنية أمين

فهرست الأسماء

أتيس (Atthis): إحدى تلميذات سافو.

أبوللو (Apollo): ابن زيوس (Zeus) وليتو (Leto) وأخ أرتيمس (Artemis)، إله الدواء، الموسيقى، الرماية والتنبؤ وإله الضوء والشمس والشباب، من أسمائه بايان (Paean) وفيبوس (Phoebus).

أدونيس (Adonis): ابن سنيرس (Cinyras) ملك قبرص. تحولت أمه ميرا (Myrrha) إلى شجرة، فاهتمت أفروديت بالطفل الجميل، وعهدت به إلى بيرسيفون ملكة العالم السفلي لتربيته. لكن هذه أغرمت به، ورفضت أن تعيده إلى أفروديت، فشكتها إلى زيوس، وحكم هذا الإله بأن يبقى أدونيس ثلثَ العام مع بيرسيفون، وثلثه مع أفروديت، ثم يكون حراً في اختيار مكان إقامته في الثلث الأخير من العام. وتثور الغيرة في قلب أيريز زوج أفروديت، فيرسل خنزيراً برياً يداهم أدونيس أثناء تجواله في الغابة مع أفروديت ويقتله. وتتحول دماؤه إلى أزهار الشقائق الربيعية.

أرتيمس (Artemis): ابنة زيوس (Zeus) وليتو (Leto) وأخت أبوللو (Apollo). إلهة البريّة، تلقب بالصائدة العذراء، ويخدمها العديد من الحوريات. وهي أيضاً إلهة الولادة وكل الأشياء الصغيرة، إلى جانب أنها إلهة القمر، ولها علاقة بالدببة، فلقد حوّلت كاليستو (Callisto) إلى دبّ، والفتيات اللاتي يخدمنها في معبدها كان يطلق عليهن «الدببة».

أفروديت (Aphrodite): أيضاً تلقب بسيبريس (Cypris)، سيبريان (Cyprian)، سيبروجينيا (Cyprogeneia)، سيثريا (Cytherea)، ملكة بافوس (Paphos) – وهي إلهة البحر، الحب، الجمال، الزهور والمواسم. ولدت من زبد البحر، وخرجت للحياة على شواطئ بافوس بقبرص. كانت زوجة الإله هفيستوس (Hephaestus) وكانت غير مخلصة له، حيث أمسكها هي وعشيقها الإله إيريز (Ares) في شبكة وجعلهما أضحوكة أمام الآلهة.

أكيرون (Acheron): أحد أنهار عالم الموتى.

أناكتوريا (Anactoria): كانت إحدى تلميذات سافو من بلدة ميليتوس (Miletus)، ثم تزوجت وذهبت مع زوجها لسارديس (Sardis).

أندروميدا (Andromeda): قيل عنها: إنها كانت تُنافس سافو في تدريب الفتيات.

أيريز (Ares): إله الحرب، كان ابن الإله زيوس (Zeus) وهيرا (Hera) وكانت له علاقة مع أفروديت.

إيروس (Eros): إله الحب، وكانت سهامه تصيب الآلهة والبشر، وكان ممن يخدمون أفروديت.

بافوس (Paphos): مدينة قبرصية، وكانت من أوائل وأهم المراكز لعبادة أفروديت.

بانديون (Pandion): ملك اسطوري لأثينا، والذي تحولت ابنته إلى طائر السنونو؛ السنونو كان معروفاً بأنه طائر يحمل الرسائل ويعلن عن قدوم الربيع.

بيرسيفون (Persephone): ابنة الإله زيوس والإلهة ديميتر (Demeter) إلهة المحصول، كانت إلهة جميلة اختطفها هيدز (Hades) إله الموت، ليتزوجها ويجعلها ملكة على عالم الموتى.

بيرسيوويشن (Persuation): سافو كانت تطلق عليها أنها ابنة أفروديت.

بيلاجون (Pelagon): صائد سمك.

بييريا (Pieria): مكان في مقدونيا بجانب جبل أُوليمبس، وكان مسقط رأس الموزية.

تيماس (Timas): إحدى تلميذات سافو.

جورجو (Gorgo): يقال: إنها سيدة ثرية، وكانت تنافس سافو.

جونجيلا (Gongyla): إحدى تلميذات سافو.

جيارا (Gyara): جزيرة.

جيرينو (Gyrinno): كانت إحدى تلميذات سافو المفضّلات.

دوريكا (Doricha): كانت مومساً مشهورة من نوكراتيس (Noucratis).

ديسا (Dica): إحدى تلميذات سافو.

ربات البهجة (Graces): وهن ثلاث إلهات ممن يرافقن أفروديت، كنّ معروفات بـ : إلهة البهجة (Gaiety)، إلهة المرح (Revelry) وإلهة الإشراق (Radiance).

زيوس (Zeus): أصغر ابناء الإله كرونس (Cronus) وقد انقلب على والده وأصبح الإله الأعظم. وهو إله السماء والطقس، وقد ولد في كريت (Crete)، وعندما انقلب مع إخوانه على والده قسموا العالم عن طريق القرعة، فكانت السماء من نصيب زيوس، والبحر من نصيب بوسيدون (Poseidon) وعالم الموتى من نصيب هيدز (Hades). وهو يعتبر أباً للرجال، ومنجداً لهم، وهو يشرّع القوانين التي تحكم مجرى الأشياء، يعلّم المستقبل وأحياناً يكشفه للرجال عن طريق التنبؤات، وهو يفوق كل الآلهة في قوته وسلطته.

سارديس (Sardis): عاصمة مملكة ليديا.

سيبريان، سيبروجينا أو سيبريس: أنظر أفروديت.

سيبرس (Cyprus): جزيرة قبرص، وهي إحدى جزر أفروديت.

سيثريا: أنظر أفروديت.

طروادة (Troy): مدينة على ساحل آسيا الصغرى، وكانت مشهداً لحروب طروادة. وورد في الأساطير الإغريقة أن داردانوس (Dardanus) ابن الإله زيوس، أسس داردينيا (Dardania) وهي منطقة تقع شمال شرق طروادة، وتزوج من ابنة الملك توسر (Teucer). كان له من الأحفاد طروس (Tros) وإيلوس (ILus). من اسم طروس سميت طروود (Troad) وطروادة (Troy).

فوسايا (Phocaea): مدينة يونانية على سواحل آسيا الصغرى.

فيبوس (Phoebus): أنظر أبوللو.

فيون (Phaon): كان رجلاً مستقيماً قضى حياته في قاربه عند البحر. لم يُغضب أحداً، وكان يأخذ النقود من الأغنياء فقط. كان اللسبيون مندهشين من طريقة حياته، وأفروديت كانت راضية عنه، فاتخذت هيئة عجوز وطلبت منه أن يعبر بها، فأسرع ليحملها ولم يطلب منها نقوداً، فكافأته بأن جعلته شاباً وسيماً، وهذا هو الشخص الذي غنت سافو حُبها له.

كروسوس (Croesus): آخر ملوك آسيا، وكان اسمه مقترنا بالغناء الفاحش.

كرونس (Cronus): كان أحد الجبابرة (Titans). بتحريض من والدته انقلب ضد والده يورانوس

(Uranus) وأخذ منه الحكم، وقد تم تحذيره بأن أحد أولاده سينقلب عليه، فكان يبتلع أولاده، لكن والدته ريا (Rhea) خبأت أصغر أبنائه زيوس (Zeus) الذي هزم والده وأخذ منه الحكم.

كريت (Crete): كانت مركزاً للحضارة والفنون من ١٧٠٠ حتى ١٤٠٠ ق.م. وقد عُرِفت بأنها مسقط رأس الإله زيوس (Zeus).

كليس (Cleis): ابنة سافو.

كويوس (Coeus): كان أحد الجبابرة (Titans). تزوج من فيبي (Phoebe) وأنجب منها ليتو، التي أنجبت أبوللو وأرتيمس.

ليدا (Leda): هي ابنة ثيستوس ملك ايثوليا. أحبها الإله زيوس، فكان يأتيها على شكل بجعة. وكانت متزوجة من تنداريوس، ونتيجة لهاتين العلاقتين، وضعت ليدا بيضتين، فقست إحداهما عن التوأمين بولوكس وهيلين، وهما من ذرية زيوس، وفقست الثانية عن كاستور وكليتمنسترة، وهم من ذرية تنداريوس. وهناك قصة أخرى تقول: إن نميسيس (Nemesis) إلهة الانتقام وضعت البيضة وعثرت عليها ليدا.

ليتو (Leto): أحبها زيوس فحملت منه بالتوأمين أبوللو (Apollo) وأرتميس (Artemis). ولكن الإله الكبير اضطر إلى هجرها خوفاً من غيرة هيرا، التي أمرت جميع بقاع الأرض بعدم إيوائها، فظلت ليتو تجوب العالم حتى آوتها قطعة من الأرض قاحلة وعائمة على سطح البحر.

ليديا (Lydia): المملكة العظمى في آسيا الصغرى، وفي أيام سافو كان يحكمها ألياتس (Alyattes) وابنه كرويسوس (Croesus).

ليسبوس (Lesbos): جزيرة كبيرة في آسيا الصغرى، من أهم مدنها ميتيلين، (Mitylene) وهي مسقط رأس سافو.

مناسيديكا (Mnasidica): إحدى تلميذات سافو.

منيسكوس (Meniscus): والد بيلاجون (Pelagon).

ميتيلين (Mitylene): موطن سافو معظم حياتها.

الموزيات (Muses): تسع آلهات شقيقات يرعَيْن الفنون والآداب.

نيوبي (Niobe): كانت أماً لخمسين طفلاً وطفلة، وارتكبت خطأ بتباهيها أمام ليتو (Leto) بعدد أبنائها. بينما ليتو لم يكن لديها سوى طفل واحد وطفلة واحدة، لكنهما كانا إلهين قويين، فقتلا جميع أولاد نيوب انتقاماً لأمهما.

هيدز (Hades): عالم بعد الموت، وقد اختلفت على مكانه الحكايات. في إحدى الروايات قيل:

إنه تحت الأرض، حيث يعيش أشباح الموتى. يفصل بينه وبين عالمنا أنهار هيدز، ستيكس (Styx) واكيرون (Acheron) حيث يعبر بالموتى شارون (Charon) المراكبي، وعند مدخل هيدز يقف سيربيروس (Cerberus) كلب الحراسة، كي يمنع الموتى من الخروج من هيدز.

هيرا (Hera): زوجة الإله زيوس وراعية الأعراس.

هيرميز (Hermes): هو من يصب النبيذ للآلهة، وهو رسولهم، والإله الذي يرشد الموتى لعالمهم، وهو أيضاً إله النوم والأحلام.

هيسبيروس (Hesperus): نجمة الليل.

هيفيستوس (Hephaestos): معروف بالحداد والمزور بين الآلهة، ابن هيرا (Hera) وكان أعرج، فألقت هيرا به خارج السماء خجلاً منه، فانتقم منها، حيث بعث لها كرسياً من ذهب، عندما جلست عليه وجدت أنها مسجونة، ولا يستطيع أن يخرجها أحد سواه. كان زوج أفروديت.

هيلين (Helen): ابنة زيوس (Zeus) وليدا (Leda) وكانت أجمل النساء. تزوجها منلوس (Menelaus) ولكن باريس (Paris) اختطفها إلى طروادة، فذهب جيش بقيادة أجاممنون (Agamemnon) لاستعادتها، وحاصر طروادة مدة عشر سنوات، حتى استعاد هيلين إلى منلوس، وعاشت في سبارتا (Sparta).

رواية

الحلاج يصلب من جديد

عزت الغزاوي

١

في الليل ناداني صوت.

العرق يبلل جسدي وملابسي. أنا تحت بطانية سوداء خشنة. نسيت أن امرأتي زينب قد ماتت. مددت يدي كأنني في العتمة أبحث عنها.

نسيت أن أبحث عنها منذ زمن.

الباب مغلق. في العراء هبت الريح قوية تقتلع قباب البيوت. المطر يتدفق كالفيض. لا نور سوى القلب.

ناداني الصوت مرة أخرى.

لو خرجت لضربتني الريح. سأنتظر قليلا بعد أن ألقيت بالبطانية بعيدا وهدأت على ظهري مغمض العينين، أحبس أنفاسي.

كنت قد توضأت قبل النوم.

قرأت شيئا من الكتاب. «الله نور السموات والأرض». كنت أحفظها دائما، لكن لساني الليلة تعثر بها. أعدتها مرة أخرى. توقفت عند «مثل نوره كمشكاة فيها مصباح.»

المصباح الزيتي في الخابية المكشوفة عند الركبة اليمنى للبيت. ذبالته انطفأت قبل النوم. خرجت أبخرة من الكاز الرطب بقيت تطوف أركان البيت وأنا أتابعها حتى اختفت.

مقاطع من رواية تحمل العنوان نفسه

عزت الغزاوي، روائي فلسطيني يقيم في رام الله

رأيت في المنام زينب، امرأتي.
منذ سنوات سبع وأنا أشتاق إليها.
قال الناس: يبكي على زينب، ولا يخجل.
ناداني الصوت.
أنا هنا، قلت في نفسي، غفوت قليلاً، ولم أر شيئاً في المنام.
أنا هنا. يدخل رجل، ظننته صاحب الصوت، بلحيته البيضاء وعينيه الغائرتين.
- هل عرفتني؟
له وجه طويل، وعظام وجنتيه بارزة. زغب من الشعر الأحمر ينتشر فوق وجنتيه. الحاجبان أبيضان غزيران.
- لماذا لا تجيب؟ هل عرفتني؟
العينان بلون العسل جامدتان إلا من دمعة تكاد لا تبين. تهبط صافية على مهلها. تضيع بين زغب الشعر على الوجنتين، ثم تختفي في اللحية.
قلت له: لا أعرف من أنت.
قال: أنت في العتمة إذاً.
قلت: نعم. قد انطفأ المصباح.
قال: وأين نور قلبك يا شيخ عبد المعطي؟
قلت: كانت زينب معي تشعل روحي.
قال: هي الآن في الأقاصي، ما زالت تسير. لن تلحق بها مهما حاولت.
قلت: لكنني لا أستطيع أن أنساها.
قال: واهمٌ أنت. ذات يوم، ستمشي مشوارها وتمعن في المسير.

تخيلت أنني بدأت المسير.
عيناه تتأملان وجهي. يراني ولا أراه. أنا المكشوف أفضح له كل أسراري.
يشير لي بيديه أن أنهض. حاولت، لكنني بقيت مكاني.
أحسست به يقترب. يرفع الوسادة من تحت رأسي، يلمس جبيني بيده الباردة. يسقط رأسي الى تحت. تنتقل يده إلى صدري.
يكشف منامتي الخفيفة. تتسلّل أصابعه المرتعشة الباردة إلى ما فوق القلب.
تهدأ أصابعه القلقة هناك.
إذهب إلى النوم. (يقول لي الصوت).
أنا المكشوف دون أسرار أمضي إلى النوم. غافيا أكون. القلب يخرج من أحشائي بيدين نظيفتين. لا لون للدم. لا رائحة للوجع. ماء شديد البرودة يجري في أذني. ثلج يذوب. ثلج ينطفئ ويغمر قلبي. أنا ذاهب للنوم بأمر من الصوت.

لبيك يا أيها القريب!

ماء الثلج يغسل كل شيء. الرأس والأذنين والأنف والرقبة والذاكرة. كل شيء ما عدا العينين. إنهما تسبحان في فراش دافئ.

٢

أعود طفلاً في الثانية عشرة
رمضان من العام ٨٦٩ للميلاد.
أنا الحسين بن منصور الحلاّج.
البلدة تستوي وقت الصبح بالناس والخيول. روائح زهر الليمون تنعش القلب. مزارع على امتداد النظر تشتعل بالخضرة.
لوز ومشمش وبرقوق ورمان وليمون، والورود مبتهجة تحت شمس خفيفة. نقترب أنا وأمي من سوق بلدتنا «تستر». الشارع يكتظ بالناس. النساء ملفعات بالسواد، والرجال يلبسون عمائم بيضاً وأثواباً رمادية قصيرة. امرأة تتعرف على أمي وتسألها إن كانت ذاهبة الى بغداد.
تقول أمي: إن شاء الله.
تبتسم المرأتان. تتحسس أمي رأسي، ونمشي معا.

بمثل تلك السرعة ستختفي «تستر» كأنها لم تكن. على الجبهة اليمنى تصعد الجبال رويدا رويدا. تتسلق أشجار الصنوبر والبلوط والخروب البرّي أعالي الجبال. ثمة بقايا قصر أنيق كان ذات يوم لكسرى، ملك فارس.

صعدنا إليه ذات يوم، أنا وصبية آخرون. حجارته الملساء الكبيرة ما زالت على حالها. الإيوان الدائري الكبير وسط جمهرة من الجنود الذين يتحلقون حوله وقد مدّوا حرابهم وسيوفهم. في الجهة المقابلة تستريح الظباء حول نبع ماء. نساء شبه عاريات يحتفلن بعيد النيروز، يقطفن الورود في باقات هائلة.
نمشي، ونترك كل ذلك وراءنا، والقصد بغداد، مدينة الخرافة والأضواء البلورية والمساجد والبضائع والأحلام. إذا لم تذهب الى بغداد فأنت لم تعش شيئاً من عمرك، ولم تر شيئاً من الدنيا! الدنيا خُلقت في بغداد!

المرأة وأمي تتحادثان بهمس. أمشي أمامهما، وخلق كثير من أمامنا وخلفنا. رجل يضرب بغلةُ بعصا رفيعة، والبغل يلقي برأسه إلى الأرض، وتكاد رجلاه تهبطان من الإعياء أو المرض. يتأفف وينظر إلى السماء بقهر شديد. لا بدّ أن الحمل ثقيل. حبُّ الرمان يقفز من الخرج ويسّاقط. تدوسه

الخيول وسط الشارع. مد أحد الصبية يده والتقط حبّة ناضجة مفرومة يقطر منها الأحمر. ينظر إليه الرجل ويمطّ شفتيه بقهر. نتركه وراءنا ونمضي. حمار أشهب يصر على الوقوف أمام المارة ولا يستجيب لنخسات صاحبه. يتمرد على كل شيء. يرفع الرجل يديه بيأس، ويبدأ بتفريغ حمولته على الرصيف: رائحة التوابل تفتح الشهية، لكن الناس يمضون، كلهم يقصدون «باب بغداد» حيث الراحلون الى هناك يلتمسون القافلة التي ستنطلق بعد الظهر بقليل. وباب بغداد منبسط من الأرض تحول مع الوقت إلى سوق كبيرة. هنا يلتقي القادمون من بغداد والذاهبون إليها. هنا يتم تسليم الهدايا والرسائل في كل الاتجاهات. بين الهدايا عبيد وخصيان وقيان وجوارٍ وأموال وآلات عزف وغيرها.

وهنا مكان انتظار أيضاً. نساء ينتظرن أزواجهن الذين يقدمون من أصقاع الدنيا. «باب بغداد» قبل أن تدخل فيه. يمتد بعيداً، تملأه الساحات المظللة بشراشف بيضاء وملونة. كل شيء هنا. عليك أن ترى بعينيك. في البعيد تتأهب القوافل للمسير. يركض المتأخرون كي يلحقوا بالركب. إنها القافلة التي تتجه إلى دمشق. المنادي يعطي شارة الرحيل بأعلى الصوت. للرحيل نداؤه الخاص الذي يدغدغ القلب. شيء ما يناديك، يقفز القلب كأنه يتلقى مراسيم الوداع، يتململ ويمضي إلى الطريق الجديد، والأشياء تبدو مرسومة بقدرة لا خيار لنا فيها: نحن نلبي النداء فقط ولا ندري كيف ستنتهي الطريق.

تنحني أمي حتى تلامس بفمها شعر رأسي. تذكرني بأنها ستأخذني فورا إلى الشيخ «جنيد» حال وصولنا إلى بغداد. والخطوة لم تبدأ بعد. بشوق أنا لرؤية الشيخ صاحب الطريق الصوفية.

نتلهى بالفرجة على معروضات التجار. ابتسم لأنني أخيرا أجد من ينير قلبي. المنادي يقول: إن القافلة إلى بغداد تتحرك بعد العصر. تمر اللحظات ثقيلة. البلدة «تستر» سابحة في النور وأضواء الجبال البعيدة. ترى هل أعود إليها لو أخذتني بغداد؟

رجل يعرض حماره للبيع.

يقسم أنه لم يبلغ من العمر أكثر من خمس سنوات. يهجم على الحمار ويفتح فمه. الأسنان الصفراء الكبيرة تندلق إلى الأمام لحظة، لكن الحمار يغلق فمه بشدة ويهز رأسه وأذنيه.

توقف المساوم متأملاً.

أشاحت أمي بوجهها حين نهق الحمار، ومدّ عضوه الضخم وبدأ يتبول. السائل الأصفر يفتح حفرة في الأرض.

على الرصيف نساء محجبات يبعن أصناف الطيوب للنساء فقط. خليط من الصبية الصغار يمسكون بأطراف أمهاتهم يعبثون بكل شيء. حناء اليمن وصندل السودان وروائح بخارى وطيب العطر من ترمذ. امرأة شابة سألت عن بلورات زجاجية بلون الفضة. نظرت إليها البائعة باستهجان، ولما يئست همست لها: تضعين شيئاً منها في ماء دافئ وتستحمين به. «لماذا؟» قالت الشابة

بنبرة خفيضة. ترددت البائعة قليلاً، ثم همست: «إنه لتضييق الشيء إذا كان واسعاً».
ـ أنت عاهرة!
قالت الشابة باندفاع، لكن صوتها لم يكن عاليا.
ـ لذلك، أنا أستخدم هذه المادة كثيرا. عليك أن تجربيها إن كان لك شيء.

أبتعد وأترك يد أمي.
أمامنا كثير من الوقت قبل أن نبدأ مشوارنا إلى بغداد.

ثمة حجّام يقص الشعر، يتلهى بشحذ موساه، ويتأمل المارة. يأتي رجل ويجلس على الصندوق الخشبي الأسود. يبتهج الحجام وتصبح معالم وجهه أكثر جدية.

على مقربة نصبت خيمة خضراء عليها راية حمراء قانية. وقفت امرأة بيدها صبي صغير – ظننت أنه في العاشرة – أمام الخيمة ونقرتها بخفة. خرج للتو رجل ذو لحية كثة، وإلى جانبه صبي أمرد أرخى شعره الطويل. استهجنت ذلك الكحل الأسود الذي يغطي عينيه. الرجل ذو اللحية يسأل المرأة إن كانت بالفعل تريد إخصاء ابنها. تقول له: «نعم». يسألها إن كان والد الصبي يوافق على ذلك. تقول له: إن والد الصبي ميت منذ أكثر من سنة.
يأخذ الصبي داخل الخيمة ويغلق الباب. تبقى أمه واقفة مكانها تفرك يديها بانفعال.

ـ ماذا يفعلون بالصبي؟
سألت أمي.

أحسست أن الصبي يبكي.

لا جواب. المرأة تنتظر. أمي تتحرك إلى الأمام وتشدني. أتخلص منها وأدور وراء الخيمة أبحث عن فتحة علّني أرى الصبي. لم تكن بي حاجة، فقد كانت الخيمة شبه مفتوحة من الخلف. لم تكن هناك سوى حبال قوية مثبتة إلى الأرض كأنها تحجز الناس والمتفرجين. مررت من بين الحبال بسهولة. وقفت. الصبي الأمرد خلع ملابسه تماماً.

لم تكن له خصيتان.. تدلى كيس لحمي صغير تحت عضوه المتطاول الرفيع.

يقترب الصبي الأمرد من الوافد الجديد ابن العاشرة.
يشير له أن ينام على السجادة الحمراء.

يتردد الصبي الصغير. يبكي بصمت. يمسح دموعه بظاهر يده.
يحدجه الرجل ذو الشاربين الكثين بنظرة قاسية.
هو على السجادة الآن، وجهه إلى فوق كأنما يتأمل سقف الخيمة.
هناك من يطلب منه أن يغمض عينيه.
يرفع الصبي الأمرد ثوب الصغير. يكشف عن ساقيه وفخذيه.
عضوه الصغير منكمش كأنه متداخل مع بطنه.
خصيتاه حبّتا فستق ناضجتان.
- ليس للغلام شيء!
يقول الرجل، ويبصق على الأرض. يتفقد آلته العجيبة المكونة من قطعتين صغيرتين من الخشب الأحمر، مربوطتين إلى بعضهما كأنهما طرفا كمّاشة.
الرجل يتحسّس خصيتي الصبي. يشدهما. يصرخ الصبي صرخة واحدة سرعان ما يكتمها. يفتح عينيه ويقفز واقفاً.
نقرة قوية من الجانب الآخر للخيمة.

وجه المرأة يطل: قلقاً، وحائراً يُفتّش عن الصبي الذي يهرع إليها، لكنه يتوقف فجأة.. تفتح ذراعيها. يبتعد كأنه يهرب. أنا أبكي وحدي وراء الخيمة، أشد الحبل بيدي. لماذا يحدث هذا!

المرأة تمضي والصبي وراءها يتلوّى.
يهبط إلى الأرض، وتنحني فوقه. فيضٌ من البشر يمرون لا يُلفت انتباههم شيء. لم يروا ما رأيت.

والقوافل تمشي أيضاً بعد نداء طويل. بعد دمشق، رحلت قافلة الحجاز ثم طشقند..

تخيلت قلبي يرتحل إلى الحجاز، ولما نادى الصوت بالرحيل إلى طشقند سرحتُ في المدينة التي زارها أبي، المنصور، وأحبها كما قال لنا. والمنصور، أبي، مات قبل عام. لم ينم تلك الليلة ولم يذهب إلى صلاة الفجر كما اعتاد. قالت أمي: إنه يخرج من صدره زغب القطن المندوف، ولا بد أن تنتهي نوبة السعال الموجعة. لكنه سعل على مدى شهور طويلة ولم يتوقف عن ذلك. تلك الليلة خرجت روحه من صدره.. جحظت عيناه وتصلبت عروق رقبته وكف عن الحركة. «لا تكن حلاجاً أبداً!» يقول لي. اسأله لماذا، وهو لا يجيب، بل يضع يده على صدره ويحملق بوجهي. يموت، وحين يختفي يناديني الناس في الشارع «الحلاج».. يعطونني مهنة أبي. لم يسمعوا ما سمعته من المنصور.

سأقف بباب داود الخبّاص الذي اشتهر بصناعة الحلويات الشهية، لأتعلم عنه، بعد رجاء من أمي. يغمرني الرجل بعطفه، يوصي صبيانه قائلاً: «علّموه كل شيء». لم تكن لي علاقة بالمكاييل وأنواع الزهور. يدخل الفقراء إلى المكان. يجيلون النظر بالحلويات، ويخرجون دون شيء منها. أتطوع بتقديم الحلوى لهم دون أن يدفعوا شيئاً من المال. يوبخني داود. أقف أمامه ولساني عاجز عن القول. «هؤلاء لا يملكون مالاً يا داود، فكيف لي أن أردهم وفي نفوسهم رغبة!»

ـ عليك أن تعود إلى أمك يا حلاج!

ـ ستغضب مني يا سيدي.

ـ لا بأس. إنك لن تكون خباصاً ماهراً على أية حال.

أعود إليها. أنتظر قدوم ساعات المساء كي أدخل البيت. تبتهج بي كعادتها، ثم تلزم صمتها وسجادة الصلاة. بقلبها تدرك أنني لم أعد كما كنت. تسألني ماذا فعلت مع داود الخباص. أسكت، فتأخذ منه الجواب في اليوم التالي.

ـ يا بني، ألن تتعلّم مهنة تعيش منها كما يفعل الرجال؟

ـ وهل نملك شيئاً يا أم الحسين؟

ـ نعم. العقل والإرادة!

ـ وماذا نفعل بهما إذا أراد الله شيئاً آخر؟

ـ أين تعلمت ذلك؟ ألا نختار حياتنا؟

ـ هكذا هو الأمر.. الطريق مرسومة تماماً.

تأخذني إلى زكريا الدباغ في اليوم التالي. يتفحصني ويشكو من هزالي وضعف بنيتي. أمي تطمئنه. تقول له: إن روحي تحتمل أكثر من جسدي. أياماً سبعة أقضيها بين جلود الماشية العطنة والأصباغ من كل لون. أهرب إلى حواري «تستر»، أمشي بين البشر. الصبية من جيلي يلعبون. يلبسون القفاطين الملونة النظيفة ويمشون وراء أمهاتهم أو آبائهم في الأسواق. أشعر بالجوع، وأرتعش. روائح الأطعمة تزيدني جوعاً. أتوقف قليلاً أمام دكان بدر خان الشوّاء. مع الدخان تتصاعد الروائح إلى الأنوف. ثمة من يتوقف ويقرر الجلوس إلى البسطة المرتفعة قريباً من الشواء وينتظر. رجل شديد السمنة يشمر عن ساعده ويلتهم قطع اللحم. شيء من الدهن يتسلل إلى ثوبه الفضفاض لكنه لا يأبه لشيء.

تأتي امرأة غطت كل وجهها سوى العينين، نحيفة ورشيقة، كأنها تطير. تقترب من الرجل صاحب الشواء وتمد رأسها. يتابعها بنظراته لكنها تمضي مبتعدة وتدخل الزقاق المجاور. يقف رجل لم يكن أنهى طعامه ويتبعها. أحمل ما تبقى من رغيفه وقطع اللحم المشوية وألحقه.

«توقف: لقد نسيت خبزك».

هو يقترب منها. هي تباطأت في مشيتها. الزقاق يضيق في العتمة. أنا أمدُّ جسد الرغيف إلى فمي. لا نور في العتمة. الجسدان يلتصقان ويبتعدان، وأعود وحدي.
ـ لماذا تركت زكريا الدباغ؟
لقد عرفت أمي كل شيء. ربما ذهبت تسأل عني، فقال لها: إنني هربت. لم أكن جاهزاً لأي جواب. عيناها تبحثان وسط حيرة وجهي. هي التي تريدني أن أكون من الرجال خائفة، وقلقة ومشوشة.

أنا، ماذا أريد؟ أصيح في خراب كبير: هل أصبحت رجلاً قبل أن أحسّ بذلك!
ـ يا أم الحسين..
أناديها ولا أدري كيف أتابع حديثي.
ترخي رأسها إلى الجدار وتصمت. عليّ أن أقول شيئاً.
ـ هل نسيت نذرك يا أم الحسين؟
ـ ماذا ؟
ـ هل نسيت؟

وكانت نذرت إن جاءها ولد، وهبته خادماً للمسجد.

أنا الحسين بن منصور الحلاج، موهوب قبل أن أخرج إلى نور الدنيا.

في عتمتها وهي تتأوه، وهبتني لبيت من بيوت الله حتى أكون قريباً منه. يسرقها الخوف أو النسيان أو المماطلة فتأخذني من صنعة لصنعة أتعلمها، وترفع كفيها إلى السماء كي أهتدي إلى زاد يرفع عنّا الحاجة إلى الناس.

تتحرك القافلة إلى بغداد. تتأهب الجمال بأحمالها. تصطف عبر الطريق، وصوت المنادي يذكّر الراحلين بأن الركب يتحرك في الحال. في المقدمة يلكز الخيالة خيولهم بزهو، والسيوف تتدلى حول خواصرهم. هناك جِمال تزدهي بالهوادج الملونة، وخدم يمسكون بمقدماتها. جمال أخرى مثقلة بالأمتعة المحزومة بالحبال القوية. ثمة من يركب الحمير وثمة من يمشي. لدينا متاع قليل من الألبسة حملته أمي فوق كتفها ساعة البدء والسفر الطويل إلى بغداد. لا بد من بغداد!.

أنظر إلى الوراء لحظة من الزمن. «تستر» معلقة بين الهضاب تغيب عنها الشمس. النداء

الخافت يغيبه الرحيل. خطوة واحدة إلى الأمام تبعدك عن مكان وتقربك من آخر. المجهول يتحدى قدرة الكشف، والكلمات لا تواتي صاحبها. لو كانت الأشياء كتاباً نقرأه لنراها حتى في العتمة! لكننا ساعتها سنخسر لحظة الدهشة ووجيب القلب، أو كنا سنشرب الويلات والأفراح في لحظة واحدة، ونخسر مشروع الحياة. المجهول هذا الطريق الذي نمشيه للمرة الأولى، والوجهة بغداد.

لن أنسى ساعة الرحيل من «تستر». مرّت السنون وتقلبت الأنواء، لكنها تلح كلما بدأت رحلة جديدة.

يخيم الليل والرعاة ينادون أصواتهم في البعيد. يأتي من يعلن آلامه لليل. تتوقف الدواب فجأة ويفترش الناس الأرض والندى. تشتعل نيران صغيرة يتحلق حولها الرجال الذين جاءوا دون نساء، فيما تنتحي الأسر جانباً. بعضهم يضرب وتداً عالياً في الأرض، يعلق عليه قطعة قماش وينزوي مع امرأته في العتمة. الصبية يأكلون ويصغون لحكاية من هنا أو هناك، ثم يرخون رؤوسهم رويداً رويداً إلى أن يناموا وراء الأصوات الهامسة.

استلقي إلى جانب أمي لأذهب إلى نوم، وروائح الاقتراب من بغداد تتحدى أحلامي ما قبل النوم.. كم سنمشي قبل الوصول، كيف تبدو المدينة الباذخة حين تستوي الرحلة! إنه خليفة جديد يبايعونه الآن، وكل الأخبار من بغداد ما زالت محكومة بأنباء الخليفة السابق الذي سملوا عينيه ثم قتلوه دون وداع أو جنازة. علها كانت أخباراً كاذبة تلك التي سمعناها!

أقول لأمي: ماذا يعني سمل العينين؟

ترتبك. تخفي وجهها في عتمة الليل وتصمت. تسمع نداء قلبي وتختبئ. تريد أن أصدق أنفاسها الذاهبة إلى غفوة. أعلم أنها لم تكن نائمة. لا بد أنها تفكر بسؤالي.

تقول هامسة: ما بك يا حسين؟
أقول : سألتك..
تصمت مرة أخرى. تحرك قدميها تحت الغطاء الخفيف.
- ذلك يعني أن لا يعود المرء قادراً على رؤية الحياة!
- لماذا؟
- لا أدري.
- كيف يفعلون ذلك؟
- يدخلون شيئاً في عينيه، ثم تنطفئان كالسراج.

النجوم لامعة في سماء بعيدة. تبتعد أمي بأنفاسها. تطير إلى السماء بحركة ضعيفة من قدميها. «الحسين لم ينم بعد يا منصور.. اصبر قليلاً» تقول بصوت خافت.

لم تزل تعيش مع أبي بعد الموت. لم أعلم أنني كنت أفصل بينهما حين يقتربان من بعضهما في المساء. يا عاشقة المنصور: ها هو يتركنا وحدنا ويمضي، ولم يأخذ شيئاً معه سوى غبار القطن الذي استقر في رئتيه.

هناك من هدأ، وهناك من اقتعد الأرض دون حراك، وهناك من صلّى دون تعب أو ملل. البهائم في البعيد واصلت نومها وأرسلت روائحها في الهواء.

٣

هو مسجد الشيخ جنيد! بغداد توزع روائحها عبر بوابة نيسابور، التمور والبهارات واللحوم والديوك. مشينا والناس يطوفون السوق، يتوقفون طويلاً أو قليلاً أمام الساحات يتفقدون الحاجيات المنثورة على طول الشارع. الأغنياء يتبعهم غلمان يحملون على رؤوسهم زنابيل من القش لحمل البضائع، والفقراء مشوا حفاة يحملون بأيديهم قفافاً خشنة يدسون فيها حاجياتهم. وفي كل مكان انتشر الدلالون والحمالون وباعة العطور. فجأة يسكت همس الناس أمام باب المسجد المنزوي بعيداً وراء البيوت. الساحة الكبيرة ساعة الصبح خالية من البشر. يرتفع البناء عالياً بالمئذنة الخضراء. هكذا تبدأ بعينيك السماء ثم تهبط مع المئذنة وسُلمها الخشبي حتى تصل الحجارة الداكنة الكبيرة وفي أسفلها مشربيات الماء وأحواض الوضوء. الظل يهرب من الشمس، يصبح قصيراً في الجهة الشمالية من المسجد. البوابة الخشبية الهائلة مفتوحة وما من أحد قريب أو بعيد. أمي وأنا نتوقف هناك على العتبة. الساحة نخلات تصطف كأنها ترفع دعاءها إلى السماء.

ـ يا سيدي الشيخ جنيد!
ولا يصعد صوتي إلى أي مكان.
ـ كان صوتك خافتاً.. خافتاً جداً.
قالت أمي ومدّت رأسها عبر البوابة.
ـ يا سيدي الشيخ!
ولا يصل صوتي.
ـ كان صوتك أعلى قليلاً.. قليلاً فقط.

قالت أمي وتقدمت بضع خطوات إلى الساحة، حتى وقفت تحت شجرة النخيل الأولى. لامست جذعها الخشن. حضنتها وأغمضت عينيها. كان أبي يحب النخيل أيضاً. لحقت بها وجلست. ربما

لم تشعر باقترابي. أرفع عيني مع الشجرة. عالية تتخللها الشمس وترف بين سعفها. «هناك الله»، قلت في سري. «لماذا يكون هناك دائماً وليس هنا.»

ـ هل أنت الشيخ الجنيد يا سيدي؟
قالت أمي فجأة.
ـ إن شاء الله.
ـ هل يمكن لي ان أتحدث معك؟
ـ هل هو ولدك؟
ـ نعم.
ـ ويشكو من شيء.. أراه نحيفا.
ـ لا .. لكنه منذور لمسجد من مساجد الله.

أفتح عيني وأنظر إلى الجنيد. بلحيته البيضاء يقف أمام أمي وقد أدار ظهره قليلاً. ربع القامة، كما تخيلته، وله عينان عسليتان غامقتان فيهما مصباح بعيد. قلت له:

ـ كنت أحب أن ألقاك يا سيدي.
ـ قل لي يا شيخي!
ـ سأفعل.
ـ هل كنت نائماً قبل قليل؟
ـ لا أظن. كنت أتطلع إلى أعلى النخلة ثم وجدت نفسي أبتعد.
ـ ماذا قلت؟
ـ هناك الله في الفضاء الكبير.
ـ نعم.
ـ سألت: لماذا لا يكون هنا؟
ـ هنا.. أين؟
ـ لا أدري. لكن «هناك» توصل إلى «هنا».
ـ أنت في الثانية عشرة؟
ـ هذا ما تقوله أمي.

تتابع أمي حركة وجهي. ترخي الحجاب على وجهها. تقترب من الشيخ الجنيد وترفع يدها في الهواء.
ـ يا مولانا الجنيد، هذا الحسين ابني نذرته وهو في بطني لمسجد من مساجد الله، وها أنا آتي

به إليك علّك تكون به رحيماً.
- من أين جئت يا امرأة؟
- من «تستر». مشينا كل المسافة إلى بغداد!
- أليس هناك من مساجد في «تستر».. كلها لله.
- نعم يا مولانا، لكنه سمع بك وتمنى صحبتك.

يبتسم الجنيد كأنه يضيء. من قلب العتمة انتشلني. تمضي أمي وحدها خارجة من البوابة الكبيرة. رأيتها تمسح دموعها وتمشي ببطء. ربما ظنّت أنني سأخلف وعدي وألحق بها. لكنني لم أفعل. تساءلتُ ماذا سيحل بها، وإلى أين تمضي وحدها في الطريق. من دون وداع مشت كأنها تجد الوداع صعباً.
- توضأ يا حسين ثم اتبعني إلى هناك..
- إلى أين؟
- إلى الخلوة.
- أين هي؟
- تلك باللون الأخضر.

يقفز قلبي بين ضلوعي على ذكر الخلوة. هناك تناجي الحبيب دون صوت، وربما تراه وربما يراك.
أتوضأ بشيء من الماء.
أنسى ترتيب الأعضاء.
أعيد الوضوء مرة ومرة.

هناك في الخلوة لا يقطع عليك الصمت أحد. تكون مشغوفاً بالنور الذي يملأ العتمة. تطير من نافذة وتبقى تعرج فيها وقلبك يخفق مع كل فرسخ لأنك على موعد مع الأعظم.
- هل نسيت أن تأتي يا حُسين؟
- من ينادي؟
- أنا.. شيخك الجنيد. لماذا لا تفتح عينيك؟
- العيون لا تقول شيئاً يا مولاي.
- لكنها ترى.
- ليس بهما أراك.
- أنت تراني إذن؟
- نعم.
- تعال، واتبعني.

٤

الخلوة معتمة قليلاً. حين يقفل الباب تتقاسم الأنوار الباهتة نافذتان شماليتان مرتفعتان باتجاه السقف. النافذتان من خشب سميك نادراً ما يفتحهما أحد. لكنني كنت أفعل ذلك بعد أن تسلمت الخدمة في مسجد الجنيد. أصعد إلى سلم وافتحهما فترة من الوقت. ثمة من يحرق البخور أحياناً على جمر الموقد الشتوي. تنتشر الرائحة وتتداخل مع السجاد والمصاحف. عباس الأزبكي ينام هنا بعد صلاة الفجر، ويبقى ممداً إلى ما قبل صلاة الظهر. بلحيته السوداء الطويلة ورجليه الرفيعتين يبدو مسافراً فوق سجادة كبيرة، أمامه موقد فحم مشتعل. رأيته يجلس أمام النار ويفتح كفيه أمامها، يلقي فيها شيئاً من البخور والصندل، تلمع عيناه ببريق حاد كأنه ينتشي، يأكل حبة تمر واحدة يضعها في فمه ويتلهى بالنواة ساعة من الوقت. وحين تنطفئ النار ينام دون حراك.

يدخل الجنيد ذات صباح. يقف وسط الخلوة يتفحصها. يدخل وراءه رجل لم أتبين وجهه، يصمتان قليلاً ويخرجان إلى الساحة. يمشيان ويقفان تحت شجرة نخيل. لا يسمعان صوتي وأنا أترك الخلوة.

الرجل : وماذا بعد يا سيدي الجنيد؟
الجنيد : ماذا؟
الرجل : كثرت الشائعات حول الأزبكي.
الجنيد : ماذا يقولون؟
الرجل : إنه مجوسي!
الجنيد : تحكمون هكذا بالشبهة؟
الرجل : يطيل الجلوس أمام النار. يفتح كفيه كما في الدعاء.
الجنيد: لكنه يصلي وراءنا ويصوم رمضان، ويشهد كما نشهد.
الرجل : يقولون إن ذلك نفاق. إنه يخفي مجوسيته.
الجنيد : لا نحكم بالشبهة على أحد.. دعوه يعبد الله كما يشاء.

ويبتعد الجنيد تاركاً الرجل واقفاً مكانه. أعمال كثيرة تنتظرني في الخدمة. سأحمل القطع الفضية لأخرج إلى السوق.

ماذا تشتري يا حسين للفقراء الذين يزدادون يوماً بعد يوم في الزاوية؟ الخبز أولاً، والتمر، والزلابية، وقدراً كبيراً من الحساء.

ـ ماذا تريد يا حسين؟ يسألني صاحب الفرن، ويبتسم.
ـ أريد الله. أقول له.
ـ ليس في هذا الفرن يا حسين! يقول لي.

أتوارى بين الصبية والرجال الذين يمدون أيديهم إلى الأرغفة. صبي صغير يلتقط رغيفاً ويولي هارباً. تتبعه العيون. يخرج وراءه واحد من العاملين في الفرن. يغيب قليلاً ثم يعود بالصبي

ونصف رغيف. يتبرع بضربه. «علينا أن نقطع يدك في المرة القادمة» يصيح بصوت أجش. يستلقي الصبي على الأرض كأنه طريد. إنه لا يبكي، يتأوه وهو ينظر إلى سقف الفرن الذي يغطيه السواد.

ـ لا تضرب الصبي.

أقول له.

ـ إنه سارق يا حسين.

يصيح في وجهي.

ـ لماذا يسرق رغيفه؟

أسأل.

ـ لا تسألني. بإمكانه هو أن يجيبك.

الصبي يصمت فقط. يغمض عينيه وشيء من الدم يسيل حول فمه. يختلط الخبز والدم، يلتقيان حول اللسان ويمشيان إلى عتمة الجسد. يمط قامته ببطء ويصعد إلى فوق. يتأمل الوجوه ويخرج من الفرن كأن شيئاً لم يكن. يتمتم ببضع كلمات ويمضي بين الناس.

يصبح نقطة في البعيد يصارع الزحام. ألحق به وهو يتابع الهروب، لكنني أعود إلى الفرن. سألتقيه مرة أخرى على شكل صبي جديد أكثر بؤساً، وربما يتجمع حوله الكثيرون من الذين لا يجدون رغيفاً لوجبة اليوم.

ـ لم تقل لنا ماذا تريد يا حسين؟

يصيح صاحب الفرن.

ـ «الله»

أهمس بصوت ضعيف.

ـ نعم. ولكن كم من الخبز تريد؟.

ـ ما يكفي للفقراء.

يضحك بصوت عالٍ من القهر. يضرب بيده مصطبة العجين الملساء أمامه ويهم بطردي. نسيت كم من الخبز أريد. يتجمع كل من في الفرن يرقبون. أحاول أن أتذكر عدد الفقراء في الزاوية كما قال الجنيد، لكنني لم أتمكن من ذلك. إنهم يأتون كل يوم ينتظرون الطعام، فكيف لي أن أدري؟

لكن صاحب الفرن يحسم الأمر بنفسه. يأخذ ما بيدي من نقود ويملأ زنبيلاً بالخبز الساخن. أرفعه بيدي وأمضي. ليت الصبي يأتي الآن كيما أعطيه ما يشاء من الخبز!

انظر في وجوه الصبية الذين يمرون في الطريق علّ أحدهم يكون جائعاً. أمر على بائع الزلابية. بشر كثيرون يقفون هناك. إنهم في كل مكان يشترون أو يتفرجون أو يجلسون في الظلال. ثمة صبي بقفطان فضيّ يحمله رجلان وقد جلس على دكة خشبية مفروشة بقماش ناعم الملمس. للدكة أرجل قصيرة حين تستقر على الأرض. لكن الرجلين يطوفان السوق بالصبيّ، وهو يتفرج بعينيه الصافيتين. يشير لهما بيده حيناً كي يتوقفا ثم ينفض يده علامة على استمرار المسير. ربما جذبته رائحة الزلابية الرقيقة المجوفة وهي تتقلى في الزيت. يأتيه أحدهما بواحدة. يمسك بها بين أطراف أصابعه ويقضمها. لا يتردد في التعبير عن سخطه من سخونتها، لكنه يلاطفها بأنفاسه ويعاود قضمها محاذراً أن لا يسقط القطر على قفطانه النظيف.

٥

ـ ماذا تفعل يا حسين حين تخرج إلى السوق؟
يعاتبني الجنيد بصوته المليء بالأسى. أتأمل عينيه التائهتين.
ماذا أقول له؟

يقترب مني ويضع يده على رأسي ثم على جبيني. لم تكن الحمى، بل الشعور بالخجل من هذا الرجل الذي قد يطوي الليل والنهار على حبة تمر واحدة.

ـ إنهم يظنون بي الجنون يا شيخي.
ـ «لماذا»؟
ـ لأنني أنسى ما بيدي وأفطن إلى نور اللّه حين أرى الناس. لا أدري إن كنت مصيباً. لكنني كل يوم أزداد قناعة أن الله موجود في كل واحد منهم دون أن يشعروا بذلك.
ـ لا بدّ أنك ذهبت بعيداً يا حسين. إن تجلي الله سرّ لا يجوز لك أن تفشيه.
ـ أعرف ذلك، لكنني لا أستطيع.
ـ عليك أن تحذر إذا يا حسين. ربما يصعب عليّ أن أقاوم رغبة الناس في معاقبتك.

يتركني ويمضي لحاله. تكتظ الزاوية بالفقراء الجياع. يأكلون كل ما تصل إليه أيديهم. الشيخ عبد الله الزبيري اشتاق لزوجته بعد غياب أربعين يوماً قضاها في الزاوية والخلوة. هو الأعمى دون دليل يعرفني بطريقته الخاصة. إنها عشر سنوات من الألفة.
ـ يا حسين! اقترب مني.

يبتسم الشيخ عبد الله الزبيري وتظهر لثّته الحمراء ولسانه الرخو.
ـ أنا هنا. هل اشتقت؟

ـ نعم.
ـ ظننت أنك في المرة الأخيرة قلت: إنك لن تشتاق إليها مرة أخرى.
ـ ماذا أفعل يا حسين، وجسدي ما زال يتوسل القرب من جسدها؟
ـ لا تفعل شيئاً. إن هذه عبادة أيضاً يا شيخي.
ـ إنها ليست عبادة يا حسين. إنها عبودية.
ـ هي عبادة يا شيخي ما دمت لم تنكشف بعد على النور.
ـ ربما. ماذا أفعل وقد تعذر عليّ ذلك؟ في كل مرة أعود ونفسي تقول لي: يا زبيري، ها أنت الآن مطَهّر من الرغبات وقريب من النور. في عتمتي أتبادل الأحلام والرؤى والدعاء والصلاة والبكاء والفرح. أرفع يديّ إلى السماء وأطلب من اللّه أن يكشف عني الحُجب أو حتى أن يأخذني إليه. لكنني سرعان ما أواقع امرأتي ذات ليلة، هكذا في المنام، وأصبح مبللاً في فراشي غير قادر على الاستجابة لصوت المؤذن قبل الاغتسال. حينها أعرف أنني ما زلت في البرزخ تشدني عتمة طاغية.
ـ لكنك تسعى إلى النور يا زبيري وتؤمن به! ربما تصل يوماً.
ـ إنها سبعون عاماً يا حسين! وتقول إنني قد أصل.
ـ لا بأس.. هي لحظة واحدة من النور تكفي. إنك لن تعدّ السنون كي تقنط.

يقف على قدميه ويحمل عصاه السوداء. يمد يده اليمنى ونمشي معاً خارجين من بوابة المسجد إلى الشارع. يطأطئ رأسه كأنه يرتكب جريمة، لكنه سرعان ما يبتهج وهو يسمع أصوات المنادين والباعة والصبية.

أمير الكرخ يحتفل بطهور ابنه الذي ولدته زوجته التركية المدللة. على حواف دجلة نصبوا له خياماً هائلة مزينة بالسجاد والحرير. الخدم يأتون بالماء من النهر ويرشونه على الأرض لتلطيف الجو. رائحة الطعام تعبق في كل مكان. الرجال والنساء خليط مدهش، يتدافعون إلى الخيام العالية. الأغنياء يدخلون الفسطاط الأحمر، ينحني أمامهم الخصيان بلباسهم الأنثوي الفاضح وقد زيّنوا شعورهم بورود ملونة. الفقراء يدخلون الفسطاط الأخضر، يمدون أيديهم إلى أكياس صغيرة من النقود يأخذونها ثم يساقون إلى موائد الطعام.
ـ لماذا لا تدخل مع الداخلين؟
يقول الزبيري ويتسمر في الطريق، يشم الرائحة ويسيل لعابه.
ـ أنت جائع يا زبيري؟
ـ نعم. لم أتناول اللحم منذ أربعين ليلة! أريد شيئاً من الثريد أيضاً.
ـ لا بأس.

أصناف الطعام لا يحصيها أحد. قيل إن سبعين نوعاً من الطعام تُقدّم للناس إضافة إلى كيس من النقود الفضية للفقراء وآخر من الذهب للأغنياء.

أسحب الزبيري إلى الثريد واللحم. يُشمر عن ذراعه ويلتهم الطعام. الزيت يتجمع حول فمه ويتقاطر على لحيته ورقبته. هكذا كان كل الناس في الفسطاط الكبير. صغاراً وكباراً أقبلوا على الطعام والشراب. «لماذا لا تأكل؟» سألني أحدهم وابتعد عني يبحث عن قصعة جديدة لم يلمسها أحد.

سألت نفسي إن كنت أشتاق لهذا الطعام الذي تزدحم به الموائد. لم أجد هوى يحرك جسدي. مددت يدي وأخذت شيئاً من الثريد وتلهيت به حتى انتهى الزبيري الذي ازداد فرحه مع كل صنف جديد من الأكل. كلهم لبّوا نداء أجسامهم. شعرت بهم يرقصون ويرتفعون عن الأرض. يخبئ الزبيري كيس النقود في عبُه. يتفقد عصاه ويحملها. نخرج إلى الشارع، وندخل سوق القطيعة،

- أريد أن أشتري شيئاً لزوجتي!

يقول الزبيري.

- ماذا؟

- قطعة قماش ناعمة.

- ولونها؟

- الألوان متساوية بالنسبة لي.. لكنها تفضل اللون الأحمر.

يتلمس قطعة القماش بيديه، يُقربها من أنفه ويجتاحه الرضى. يناديه قلبه بأنه اقترب. أُحس بذلك من خفة حركته وقلة اعتماده على العصا. إنه يحسّ بالأمكنة بطريقته الخاصة. «الرائحة لم تتغير يا حسين».

أسأله عن أية رائحة يتكلم، لكنه يعضّ شفتيه ويصمت. علها رائحة المرأة البدينة التي مررنا بها أمام محل بائع الأقمشة، أو علها رائحة الحيّ. أتركه على عتبة بيته. يطرق الباب بعصاه. تجيب امرأة لم أر وجهها أبداً، وأمضي.

بغداد والغروب ورجل لا يرى الوجوه حين تتكشف له الأسرار.

على حائط عتيق من التراب خرجت نبتة صغيرة رفيعة مزدهية بوردتها الصفراء وتاجها الأبيض.

سأتركها ورائي وأنا أتابع المسير لكنّها تلحق بي: هنا في بقعة مضيئة من روحي تسكن بكامل صورتها وبهائها الأنيق، تخاطبني وهي تجري ما بين البذرة ونور الشمس والبتلات: أنا الرقيقة أملك قوة اللّه، إن روحه القوية موجودة في داخلي، لكنني أردت من تلك الروح أن تصبح حالة من

الجمال.

أتوقف أمام جامع عتّاب. تلك أول مرة أقف هناك. صوت المؤذن للصلاة الأخيرة لم يكن شجياً.. لم يتداخل مع رقة الوردة الصفراء. الآذان والقلب لم يلتقيا في الصوت. لكن الناس يدخلون بوابة الجامع، يحملون أحذيتهم بين أيديهم. أدخل مع الداخلين. «عجبت لكلّي كيف يحمله بعضي، ومن ثقل بعضي ليس تحملني أرضي».

٦

هي ذاتها التي تجلس وراء الجنيد في زاوية المسجد؛ الصبيّة بالخمار الأرجواني. أتردد في الاقتراب، لكنني لا أستطيع مقاومة رغبتي في سماع صوتها. هي أيضاً تشكوني لسبب ما. ماذا فعلت معها أيضاً؟ كان آخر عهدي بها مثل أوله تماماً. تسكن مع أمها بيتاً مجاوراً للمسجد. أمر من هناك، أراها تقف على العتبة. «ما اسمك أيها الشاب؟» تقول لي ذات مرة.

انظر إلى وجهها ولا أحفظه. لا أدري إن كنت قلت لها عن اسمي. «هل أنت غريب هنا؟» تسألني. أسكت كأنني لا أسمع سؤالها. ربما ظنّت أنني متيم بها. كنت فقط أتأمل ملامحها دون أن أحفظها. أمشي دون كلمة ولا أعود إلى الطريق ذاتها. تسيطر عليّ في الغياب. أتقلب في النوم والصحو وتقف أمامي بابتسامتها. تمر دهور طويلة ولا يتغير شيء. تظهر لي في كل مكان أذهب إليه. تختفي وراء خمارها. تلامسني أحياناً وتنشر رائحتها، لكن صورة الرجل والمرأة تبتعد عني. «إن رجال الله يحبون أيضاً يا حسين!» قالت لي ذات مرة ولم أعرف ما أقول لها. أمشي يومها بأثقال الدنيا على كتفي، اسأل إن كنت أعذب قلبها الرقيق. لماذا تفعل هذا يا حسين؟ وكيف لي أن أدري إن كان جسدي لا يتحرك لامرأة. إنها ليست بحاجة إلى رغيف يمكنني أن أعطيه لها. إنها تحتاج إلى نار لا تتوهج في صدري، وماذا ينفعها النور الذي يضيء وجهها في ظلمات الليل حين أراجع تفاصيل الرحيل الطويل إلى أشغال الدنيا وهمومها.

ـ يا سيدي الجنيد، هل تحفظ سري؟

تقول له، وهو يحجم عنها ويقترب من الجدار.

ـ قولي يا ابنتي. الأرض تحفظ الأسرار أكثر مني.

ـ أشكو إليك الحسين، خادم المسجد.

ـ هو ؟

ـ إنه لم يفعل شيئاً. لكن لي به رغبة.

ـ وهو ؟

ـ إنه بعيد لا أكاد أراه.

ـ لماذا إذاً تعذبين نفسك؟

ـ إنه القلب يا سيدي. أحسّ أنني لم أختر بنفسي.
ـ يحدث ذلك أحياناً. لكننا حين نفعل ذلك نراجع أنفسنا.
ـ قد فعلت ولم أصل إلى شيء.
ـ ليس عندك سرٌّ أحتفظ به كما أرى.

تصمت قليلاً وتنحني بجسدها إلى الأرض. يهم الجنيد بالوقوف ليمضي بعيداً. كم كان معذباً بالحوار. كيف يستطيع أن يأتي بذلك الهدوء وهو يتكلم عن امرأة تراه ولا يراها. ربما ظن أنها قد يئست وذهبت إلى مشوارها. لكنها وقفت حائرة.

ـ ربما تساعدني يا سيدي الجنيد. إنني أستجير بك.
ـ ماذا أفعل يا ابنتي.
ـ تقول للحسين إن امرأة تعشقه وتحتمل الحياة معه.
ـ وهل قلتِ له ذلك أنتِ؟
ـ نعم.
ـ وماذا قال لك؟
ـ لم يقل. إنه لا يقول.
ـ هل تعرفين ماذا أعني حين أقول: إن بعض الرجال لم يخلقوا لامرأة؟
ـ ربما. هل من كلمة أخرى؟
ـ مثل هؤلاء يُطفئون نارهم.
ـ انصحني إذاً يا سيدي الجنيد!
ـ عليك أن تري الرماد فقط في الحسين.

أريد أن أختفي في الهواء كي لا تراني وهي خارجة. أما الجنيد فبقي قريباً من الجدار لا ينظر وراءه. أصعد كريشة طير في السماء. ريشة لا وزن لها، تنهب المسافات إلى الأعالي، محكومة بعمود من الضياء يسحبني. أصبح في خط موازٍ مع النخلة العالية وسط ساحة المسجد. الجنيد نقطة فضية ينعكس عنها الضوء. النخلة من فوق قمعٌ صغير يصبُّ زيته في الأرض. أما المرأة فتبتعد بين بيوت الحارة، تمسك أطراف خمارها بيد، وباليد الأخرى تحرّك الهواء. وحين تدخل الباب وتغلقه وراءها أرخي نفسي للهبوط من جديد.

حوار

تقاليد التنوير الأوروبي
ومخاطر الليبرالية الجديدة

(حوار بين غونتر غراس وبيير بورديو)

فقد العالم، بوفاة بيير بورديو (١٩٣٠-٢٠٠٢)، أبرز علماء الاجتماع، كما فقد اليسار الأوروبي أكثر أصواته حماسة ونفوذا على مدار العقد الماضي. درس بورديو، المولود في بقعة نائية في جنوب غرب فرنسا، الفلسفة في شبابه، لكن تجربة حرب الجزائر ـ عمل لفترة من الوقت معلما في مدرسة بالجزائر ـ جعلت منه عالم اجتماع. كان كتابه الأوّل المنشور في ذروة الحرب، وفي عام الإطاحة بالجمهورية الرابعة، بعنوان سوسيولوجيا الجزائر. وبداية من أواسط الستينات فصاعدا نشر سلسلة من الدراسات عن المجتمع الفرنسي، كانت علامتها الفارقة منذ اللحظة الأولى، ذلك المزيج اللافت للنظر من البحث التجريبي، والطموح النظري.

كانت مسألة اللامساواة قوّة الدفع في عمله، وعلى مدار حياته ـ ويمكن قراءة كتاباته كاستقصاء واحد مطوّل حول أشكالها المزدوجة وآلياتها في المجتمعات الرأسمالية الحديثة. وقد ركّز بورديو قبل هبة مايو ـ يونيو ١٩٦٨ بفترة طويلة على الجسم الطلابي (les Heritiers) من خلال استفسار نقدي شمل التعليم في وقت لاحق (La Reproduction) وطبقة الأساتذة (Homo Academia). كما كتب مجموعة من الأبحاث الرئيسة في الحقل الثقافي للفن جرت بلورتها بموازاة النصوص حول التعليم، بداية من التصوير، وصولا إلى ذائقة المتاحف (Lamore de l'art) و(La Distinction) وظهور مفهوم جديد للأدب في القرن التاسع عشر (Les Regles de L'art).

سياسيا، كان بورديو، دائما، في جهة اليسار. أصابه السأم من تجربة النظام الاشتراكي في سنوات ميتران، واتخذت كتاباته طابعا راديكاليا بصورة متزايدة في التسعينات. وقد أشار اتهامه الكبير، أي كتاب بؤس العالم، حول العواقب الإنسانية للنظام الليبرالي الجديد، الذي طبقته الاشتراكية الفرنسية، إلى هذا التغيّر في الموقف. وفي عام ١٩٩٥ لعب دورا كبيرا في الحصول على دعم المثقفين لحركة الإضراب الكبرى ضد حكومة جوبيه، وأصبح منذ ذلك الوقت المنظم والناطق الذي لا يكل باسم المعارضة السياسية لحكومة جوسبان، الذي شعر

بمرارة شخصية تجاهه. شن بورديو، مؤسس شبكة Raisons d'Agir للقيام بتدخلات سريعة، ومنظم «يسار اليسار»، والمدافع عن وجود حركة اجتماعية أوروبية، في سنواته الأخيرة هجمات عنيفة على فساد أجهزة الإعلام الفرنسية وسير الانتلجنسيا الفرنسية مع التيار ـ كلاب الحراسة الجدد، عنوان كتاب سيرج حليمي في سلسة Raisons d'Agir ـ مما عاد عليه بكراهيتهم الشديدة. في الصفحات التالية حوار أجراه في عام ١٩٩٩ مع الكاتب الألماني غونتر غراس، الفائز بجائزة نوبل للآداب، ونشرته مجلة «نيو لفت ريڤيو» ٢٠٠٢.

تقاليد التنوير الأوروبي ومخاطر الليبرالية الجديدة

غراس: من غير المألوف في ألمانيا جلوس عالم اجتماع وكاتب معا. يجلس الفلاسفة في ركن، ويجلس علماء الاجتماع في ركن آخر، بينما يتشاجر الكتّاب في الغرفة الخلفية. إن نوعية الحوار الذي نجريه هنا نادرة الحضور. ولكن عندما أفكر في كتابك «ثقل العالم»، أو في أحدث كتبي «قرني»، أرى قاسما مشتركا بيننا: كلانا يروى قصصا من القاع، نحن لا نخاطب الناس بطريقة متعجرفة، أو بطريقة المنتصر. كلانا سيئ السمعة في مهنته، لأنه يقف إلى جانب الخاسرين، إلى جانب المهمّشين والمنبوذين خارج المجتمع.

كبحثم في «ثقل العالم، أنت وبقية الكتاب المشاركين، فرديتكم الخاصة، وركّزتم على فكرة التفهم، بدلا من التركيز على أولوية المعرفة ـ وهي نظرة إلى الأوضاع الاجتماعية في فرنسا يمكن تطبيقها في بلدان أخرى ـ ككاتب، تستهويني فكرة استخدام قصصك كمادة خام ـ وصف شارع جونكويل، مثلا، حيث عمال الحديد من الجيل الثالث غالبا ما يجدون أنفسهم معزولين عن المجتمع، وفي صفوف العاطلين عن العمل. أو، إذا شئت حالة أخرى، قصة الشابة التي تأتي من الريف إلى باريس، وتعمل على تصنيف الرسائل في وردية الليل. لقد جرى توظيف جميع الشابات الأخريات، هناك، على أمل العودة تحقيق الحلم، والعودة إلى القرى بعد سنوات قليلة، لكن ذلك لن يحدث أبدا، وسيبقين مصنفات للرسائل على الدوام. بوصفكم لمكان العمل، من الواضح أنكم تثيرون المشاكل الاجتماعية دون استخدام الشعارات. أحببت ذلك كثيرا، وأتمنى لو كان لدينا كتاب كهذا حول العلاقات الاجتماعية في بلدي. وفي الواقع، يجب أن يوجد كتاب كهذا في جميع البلدان، وربما مكتبة كاملة تجمع دراسات اجتماعية تفصيلية حول نتائج الإخفاق السياسي ـ السياسة التي تمت إزاحتها بالكامل لصالح الاقتصاد ـ وربما كان السؤال الوحيد الذي يتبادر إلى الذهن حول منهج علم الاجتماع بشكل عام: لا وجود لروح الدعابة في ذلك النوع من الكتب. كوميديا الفشل، التي تلعب دورا كبيرا في قصصي غائبة عن تلك الكتب ـ وكذلك الأشكال العبثية الناجمة عن تقابل أشياء بطريقة عكسية، كيف نفسر هذا الغياب؟

بورديو: قد تكون عملية تدوين التجارب مباشرة من أصحابها تجربة غامرة في حد ذاتها:

فمن غير الممكن البقاء على الحياد. وقد شعرنا بضرورة حذف العديد من الحكايات لأنها كانت جارحة جدا، ومليئة بالألم أو الأشياء المؤثرة.

غراس: عندما أقول روح الدعابة، أعني أن المأساة والملهاة ليست تعريفات حصرية، فالحدود بين الجانبين مائعة.

بورديو: أردنا أن يرى القرّاء العبثية في حالتها الخام، لا في شكل مصقول. أحد التعليمات التي أصدرناها لأنفسنا كانت ألا نلجأ إلى التعبير الأدبي. قد تجد ما أقول مثيرا للصدمة، ولكن هناك دائما غواية أن يكتب الإنسان بطريقة جيدة عندما يجابه مشاكل درامية من هذا النوع. كان الأمر يقضي أن نكون مباشرين بأقصى ما نستطيع من القسوة، لنعيد إلى تلك القصص ما تنطوي عليه من عنف غير مألوف، وغير محتمل تقريبا. وقد فعلنا ذلك لسببين: الأوّل علمي، والثاني، كما أعتقد، أدبي. أردنا نزع الأدبية لنكون أدبيين بطريقة أخرى. كان لدينا أسباب سياسية، أيضا: اعتقدنا أن العنف الذي جلبته السياسة الليبرالية الجديدة في أوروبا وأميركا اللاتينية، والكثير من البلدان ألاخرى، كبير إلى حد أننا لا نستطيع القبض عليه بالتحليل المفهومي المجرّد. إن ما يوجه من انتقادات إلى السياسة الليبرالية الجديدة لا يوازي نتائجها الوخيمة.

غراس: هذا الأمر موجود في كتابك. فالشخص الذي يجري المقابلة غالبا ما يعجز عن الرد بسبب الجواب الذي يحصل عليه، لذلك يكرر نفسه، أو يفقد بوصلة التفكير، لأن ما يسمعه يتم التعبير عنه بقوة المعاناة الداخلية. والجيد أن من يجري المقابلة لا يتدخل عند هذا الحد لإعادة تأكيد سلطته، أو فرض وجهة نظره. ومع ذلك أود الكلام أكثر حول سؤالي السابق ـ كلانا ـ أنت كعالم اجتماع وأنا ككاتب ـ من أبناء التنوير، الميراث الذي يوضع موضع التساؤل في الوقت الحاضر، في فرنسا وألمانيا على أقل تقدير، كأن عملية التنوير الأوروبية قد فشلت، أو جرى اختزالها، أو كأننا نستطيع الاستمرار بدونها. لا أوافق. أرى نقائص، تطوّرات ناقصة في عملية التنوير ـ الخط، على سبيل المثال، من شأن العقل لصالح ما هو متاح تقنيا. لقد ضاع الكثير على مر العصور من أشكال التصوّر الموجودة منذ بداية التنوير ـ أفكر، هنا، بمونتانيه ـ وكانت روح الدعابة من بين الأشياء الضائعة. «كانديد» فولتير، أو «جاك القدري» لديدرو، مثلا، كتابان تظهر فيهما ظروف العصر بطريقة مرعبة، بيد أنهما يظهران مثابرة الإنسان على عرض الساخر، وبهذا المعنى، المنتصر، حتى بواسطة الإخفاق والألم. وأعتقد أن من بين العلامات التي تدل على خروج قطار التنوير عن سكته نسيان كيفية الضحك، الضحك رغم الألم. ضاعت ضحكة المهزوم المنتصرة في عملية التنوير.

بورديو: ولكن ثمة صلة بين هذا الإحساس بفقدان ميراث التنوير، والانتصار الكوني للرؤيا الليبرالية الجديدة. أنظر إلى الليبرالية الجديدة كثورة محافظة ـ بالطريقة التي استخدم فيها

التعبير بين الحربين الأولى والثانية في ألمانيا ـ ثورة غريبة تعيد إحياء الماضي، لكنها تقدّم نفسها باعتبارها تقدمية. تحوّل النكوص نفسه إلى شكل من التقدم. وهي تفعل ذلك بكفاءة عالية إلى حد يبدو معه معارضوها أنفسهم وكأنهم من دعاة النكوص. وقد عانينا كلانا من هذه التهمة، ينظرون إلينا كشخصين من طراز قديم، «كمرتدين»، ومن دعاة الماضي.

غراس: ديناصوران.

بورديو: بالضبط. هنا تكمن القوة العظمى للثورات المحافظة، الإحياء «التقدمي» للماضي. حتى بعض ما ذكرته الآن متأثر بهذه الفكرة ـ يقال لنا نحن نفتقر إلى روح الدعابة. ومع ذلك لا شئ يثير الضحك في هذه الأزمنة. لا يوجد ما يثير الضحك في الواقع.

غراس: لم أقصد القول إننا نعيش في أزمنة سعيدة. الضحكة الجهنمية التي قد يثيرها الأدب طريقة أخرى للاحتجاج على الأوضاع التي نحياها. لقد تكلمت عن الثورة المحافظة. وما يجري تسويقه اليوم باسم الليبرالية الجديدة يمثل، ببساطة، العودة إلى أساليب ليبرالية مانشستر في القرن التاسع عشر، نتيجة قناعة بإمكانية أعادة التاريخ إلى الوراء. جرت في الخمسينات والستينات، وحتى في السبعينات، محاولات ناجحة نسبيا لإضفاء مسحة حضارية على الرأسمالية في أوروبا. وإذا افترضنا أن الاشتراكية والرأسمالية طفلتان بارعتان لعصر التنوير، يمكن القول أنهما فرضتا بعض القيود على بعضهما. حتى الرأسمالية وجدت نفسها مضطرة للقبول بمسؤوليات معينة والعناية بها. أطلقوا على هذا الوضع في ألمانيا تسمية اقتصاد السوق الاجتماعي، وحتى بين المسيحيين الديمقراطيين كانت ثمة قناعة بضرورة عدم تمكين الظروف التي سادت في جمهورية فايمار من العودة مرّة أخرى. تحطم هذا الإجماع في مطلع الثمانينات، ومنذ انهيار المنظومة الشيوعية، شعرت الرأسمالية ـ المسماة ليبرالية جديدة ـ وكأنها تستطيع أن تفعل ما يحلو لها بلا قيد ولا شرط. لا يوجد في الوقت الحاضر ثقل مضاد لها. واليوم، حتى البقية القليلة الباقية من الرأسماليين العقلاء، ترفع علامة التحذير، وهي ترى الوسائل تفلت من قبضتها، وترى كيف تعيد الليبرالية الجديدة أخطاء الشيوعية ـ تصدر فتاوى تنكر وجود بدائل للسوق الحرّة، وتعصم نفسها من الأخطاء. الكاثوليك يتصرفون بالطريقة نفسها في بعض عقائدهم الجامدة، وكذلك تصرف بيروقراطيو اللجنة المركزية في أزمنة سابقة.

بورديو: نعم، لكن قوّة الليبرالية الجديدة تكمن في حقيقة أن تطبيقها، على الأقل في أوروبا، تم على يد أشخاص يصفون أنفسهم بالاشتراكيين. شرويدر، بلير، وجوسبان، كلهم يدعي الاشتراكية لتطبيق سياسة الليبرالية الجديدة، مما يجعل التحليل النقدي في غاية الصعوبة، لأن كافة تعبيرات السجال، أقولها مرّة أخرى، قلبت رأسا على عقب.

غراس: تحدث الآن عملية استسلام أمام السوق.

بورديو: وفي الوقت نفسه أصبح من الصعب اتخاذ وقفة نقدية على يسار حكومات الاشتراكية ـ الديمقراطية. في فرنسا، عبأت اضرابات العام ١٩٩٥ قطاعات عريضة من العمّال، من المستخدمين وكذلك المثقفين. ومنذ ذلك الحين، ظهرت سلسلة كاملة من الحركات ـ حركات العاطلين عن العمل، الذين نظموا مسيرة احتجاجية على صعيد أوروبا، وحركة sans-papiers الخ. حصل نوع من القلق الدائم، مما أرغم الاشتراكيين الديمقراطيين في السلطة على التظاهر بتبني الخطاب الاشتراكي، على الأقل. لكن هذه الحركة النقدية ما زالت ضعيفة جدا من ناحية عملية ـ بالدرجة الأولى لأنها ما زالت محصورة في النطاق القومي. ويبدو لي أن أحد الأسئلة السياسية الأساسية التي تواجهنا يتمثل في كيفية خلق موقف على يسار حكومات الاشتراكية الديمقراطية على الصعيد الدولي، ليتسنى ممارسة الضغط الحقيقي عليها من خلاله. لم تخرج محاولات خلق حركة اجتماعية أوروبية حتى الآن عن نطاق التمهيد. وما أود التساؤل بشأنه كيف يمكننا كمثقفين الإسهام في هذه الحركة، وهي حركة ضرورية إلى أقصى حد، لأن جميع المكاسب الاجتماعية ـ خلافا لمنظور الليبرالية الجديدة ـ نجمت تاريخيا بفضل الكفاح الفاعل. لذا، إذا كنّا نريد «أوروبا اجتماعية» كما يقال في مرّات كثيرة، فإننا نحتاج إلى حركة اجتماعية أوروبية. وأعتقد أن على كاهل المثقفين مسؤولية هامة لتمكين حركة كهذه من الوجود، لأن قوّة النظام السائد ليست اقتصادية، فقط، بل هي ثقافية أيضا ـ تتموضع في حقل المعتقدات. لهذا السبب ينبغي الكلام على الملأ: لإعادة الشعور بإمكانية اليوتوبيا. وهي أحد المجالات الأساسية التي انتصرت فيها الليبرالية الجديدة عندما قتلتها، أو جعلتها تبدو موضة قديمة.

غراس: وربما يرجع السبب، إلى حقيقة أن الأحزاب الاشتراكوية، أو الاشتراكية ـ الديمقراطية آمنت جزئيا بفرضية أن زوال الشيوعية يعني أن الاشتراكية قد انتهت أيضا. فقدوا إيمانهم بالحركات العمالية الأوروبية، التي ظهرت إلى الوجود قبل الشيوعية بفترة طويلة. عندما يفترق الإنسان عن ميراثه الخاص، فهذا شكل من الاستسلام، وهذا يؤدي إلى التأقلم مع قوانين تزعم أنها طبيعية من نوع الليبرالية الجديدة. لقد ذكرت اضرابات العام ١٩٩٥ في فرنسا. حدثت في ألمانيا محاولات أقل شأنا لتنظيم العمال، ولكن تم تناسيها في وقت لاحق. وقد حاولت على مدار سنوات القول للنقابات: لا يمكنكم الاهتمام بالعمال، فقط، طالما كانوا يعملون، فعندما يفقدون العمل سرعان ما يسقطون في بئر بلا قاع، يجب إنشاء نقابة على نطاق أوروبا من أجل العاطلين عن العمل. نحن نشكو لأن توحيد أوروبا يجري على الصعيد الاقتصادي، فقط، ولكن ينقصنا محاولة من معظم النقابات للخروج من الإطار القومي إلى نوع من التعبئة والتنظيم يتجاوزان الحدود القومية. إن شعار العولمة يفتقر إلى الطعنة الخاطفة المطلوبة. مازلنا محصورين في النطاق القومي، وحتى في حالة بلدان تجاور بعضها، مثل فرنسا وألمانيا، لا نقوم بالاستفادة من التجارب

الفرنسية الناجحة، أو نعثر على رديف لها في ألمانيا، وفي أماكن أخرى، لنقف في وجه الليبرالية الجديدة المعولمة.

وفي الوقت نفسه يقبل العديد من المثقفين بكل شئ. لكن كل ما تجنيه من هذا القبول هو سوء الهضم، لا أكثر. يجب أن نرفع أصواتنا. لذلك، أشك أن الإنسان يستطيع الاعتماد على المثقفين بمفردهم. وبينما ما زال الناس في فرنسا يتكلمون باستمرار عن «المثقفين» ـ هذا ما يبدو لي على الأقل ـ فإن تجربتي الألمانية تقول لي إن من الخطأ الربط بين كون الإنسان من فئة المثقفين، وكونه في جهة اليسار. إن تاريخ القرن العشرين يقدم الكثير من الأمثلة المضادة: كان غوبلز مثقفا. وأن يكون الإنسان مثقفا لا يعني في نظري ضمانة كافية للجودة. يمكنني التخمين، فقط، بحقيقة الوضع في فرنسا. ولكن في ألمانيا هناك أشخاص اعتقدوا في العام ١٩٦٨ أنهم على يساري، واحتاج الآن لتحويل رأسي جهة اليمين لأتمكن من رؤيتهم ـ في اليمين المتطرف، إذا أردنا الدقة. بيرند روبهل، القائد الطلابي السابق، يتحرك الآن في هذه الأوساط. هذا سبب آخر للتعامل مع تعبير «مثقف» بطريقة نقدية. يظهر كتاب «ثقل العالم» في الواقع أن العمّال الذين انخرطوا في النقابات طوال حياتهم لديهم تجربة أكبر بكثير في الحقل الاجتماعي من المثقفين. وهم في الوقت الحاضر عاطلون عن العمل، أو تقاعدوا. يبدو أن أحدا لا يحتاجهم. وما زالت قوّتهم غير مستثمرة.

بورديو: أراد كتاب «ثقل العالم» تخصيص مهمة أكثر تواضعا بكثير، ولكن مفيدة للمثقفين، خلافا لما تعوّدوا عليه. إن الكاتب العام [ربما المقصود العرضحالجي]، كما شاهدت في شمال أفريقيا، شخص يستطيع الكتابة وإقراض مهاراته للآخرين للتعبير عن أشياء يفهمونها أكثر منه. علماء الاجتماع في وضع شديد الخصوصية. فهم يختلفون عن بقية المثقفين، لأن معظمهم، بشكل عام، يجيد الاستماع وتفسير ما يقال لهم، ونسخه ونشره. ربما هذا يجعلهم مثل نقابة من نقابات الحرفيين في القرون الوسطى، ولكن أعتقد من المفيد لو ساهم المثقفون، في الواقع جميع من يملكون الوقت للتفكير والكتابة، في هذا النوع من العمل ـ الذي يفترض مقدما قدرة، نادرة تماما بين المثقفين، على التخلي عن ذاتيتهم ونرجسيتهم.

غراس: ومع ذلك، عليك جذب المثقفين المتعاطفين مع الليبرالية الجديدة. وقد لاحظت وجود واحد أو اثنين في هذا المجال الرأسمالي ـ الليبرالي الجديد، الذين إما بفضل نزعتهم الفكرية، أو تدريبهم حسب ميراث التنوير، شرعوا في إبداء بعض الشك تجاه هذا الانتشار المنفلت من عقاله للمال في العالم، هذا الجنون الذي انبثق داخل الليبرالية الجديدة، هل ينبغي تركه بلا مقاومة، مثلا الاندماج الذي يحدث بلا سبب أو هدف ويؤدي إلى فقدان ألفين أو ثلاثة أو حتى عشرة آلاف من الناس لوظائفهم، وأسواق البورصة التي لا تعكس سوى مضاعفة الربح إلى أقصى حد ممكن. نحن

نحتاج إلى حوار مع هؤلاء الأشخاص.

بورديو: للأسف، الأمر ليس مجرد مجابهة الخطاب السائد، الذي يهندم نفسه باعتباره حكمة جمعية. لمحاربته بفعالية نحتاج إلى نشر وتعميم خطاب نقدي. نحن في هذه اللحظة، مثلا، نتكلم في مقابلة تلفزيونية، والهدف - بالنسبة لي، وأعتقد بالنسبة لك، أيضا - الوصول إلى جمهور أوسع من دائرة المثقفين. أريد إحداث نوع من الشرخ في جدار الصمت هذا. فالمسألة ليست مجرد جدار من المال فقط. التلفزيون، هنا، مسألة ملتبسة: فهو الأداة التي تمكننا من الكلام، وفي الوقت نفسه الأداة التي تفرض علينا الصمت. نحن نتعرض بشكل دائم للهجوم والحصار من جانب الخطاب السائد. الغالبية العظمى من الصحافيين شركاء غير واعين في هذا الخطاب، والخروج من دائرة الإجماع التي يحوز عليها مسألة بالغة الصعوبة. في فرنسا، كل شخص غير مرموق لا يمكنه الوصول من ناحية فعلية إلى الحقل العام. الشخصيات المكرّسة، فقط، هي التي تستطيع كسر الدائرة، ولكنها للأسف مكرّسة بفضل رضاها وصمتها، وهي تحرص على البقاء في هذا الوضع. القليل جدا يستخدمون رأس المال الرمزي الذي تمنحهم إياه شهرتهم للكلام جهارا والتعبير عن أصوات من لا صوت لهم.

غراس: كان فهمي للعمل الروائي دائما - أو إذا أردنا الدقة منذ رواية «طبلة الصفيح» فصاعدا - أن عليه سرد القصة من وجهة نظر الأشخاص الذين لا يصنعون التاريخ، بل الذين يحدث لهم التاريخ، سواء كانوا قتلة أو ضحايا، كانوا انتهازيين أو شركاء طريق، أولئك الذين يقعون في المصيدة. وقد استخرجت هذا الفهم من الميراث الأدبي الألماني - فرغم كل شئ، ماذا كنّا سنعرف عن الحياة في حرب الثلاثين عاما لو لم يكن لدينا كتاب غريملهاوزن؟ واعتقد هناك حالات مشابهة في فرنسا. إذا اعتمدنا على وثائق المؤرخين، نعرف الكثير بالتأكيد عن المنتصرين، لكن قصة المهزومين لا تكتب بطريقة مناسبة، هذا إذا كتبت أصلا. وظيفة الأدب هنا تقديم البديل لملء الفراغ، والتدخل عند الضرورة لمنح أشخاص بلا صوت حق الكلام. وهذا منطلق كتابك، أيضا.

ولكن أنت أشرت إلى التلفزيون الذي بلور - على غرار جميع المؤسسات الكبيرة - خرافاته الخاصة: التصنيف، الذي ينبغي الخضوع لما يمليه علينا. لهذا السبب نقاشات مثل نقاشنا نادرة الوقوع في القنوات الرئيسة، ولكنها تظهر في قناة Arte حتى هذا النقاش جوبه بالرفض في البداية من جانب هيئة شمال ألمانيا للبث الإذاعي والتلفزيوني، قبل راديو بريمن - فهو بعيد النظر، كما يليق بالمؤسسة الصغيرة أن تكون: وهذا هو الجانب الكوميدي في مسألة كهذه - اندس في الموضوع، وأحضرنا حول طاولة في مكتبي.

نقاشات الخمسينات والستينات أخلت السبيل لبرامج المقابلات الاستعراضية الطويلة التي

تضم عددا من الأشخاص Talk-show . لا أشارك، أبدا، في برامج المقابلات الاستعراضية الطويلة ـ هذا الشكل ميئوس منه، ولا يؤدي إلى نتيجة. ففي حمى الثرثرة، الفائز هو الذي يتكلم أطول، أو يتجاهل الآخرين تماما. عموما لا يقال شئ يستحق الاهتمام، فعندما يحدث شئ مثير للاهتمام، أو تحتل مسألة مكان الصدارة، يغير مقدم البرنامج الموضوع. كلانا يأتي من ميراث يمتد بعيدا إلى القرون الوسطى، ميراث المناظرة. شخصان، وجهتا نظر تختلف كلتاهما عن الأخرى، تجربتان تكمل أحداهما الأخرى، وإذا بذلنا جهدا حقيقيا يمكن الخروج بشئ ما، ربما نخرج بتوصية للتلفزيون: ضرورة العودة إلى شكل أثبت نجاحه، شكل الحوار النقدي، على غرار المناظرة.

بورديو: اتفق مع ما تهدف إليه. ومع ذلك ينبغي توفر ظروف خاصة جدا لمنتجي الخطاب ـ للكتّاب، والفنانين، والباحثين ـ لتمكينهم مرّة أخرى من امتلاك وسائل إنتاجهم. استخدم هذه التعبيرات الماركسية، التي تبدو موضة قديمة بعض الشئ الآن، عن قصد، إذ جرى تجريد الكتّاب والمفكرين اليوم من وسائل الإنتاج والنشر، ولم تعد لديهم أدنى سيطرة عليها، لذا يضطرون إلى طرح وجهات نظرهم في برامج قصيرة، بكافة وسائل الخداع والتمويه. حوارنا يتم بثه الساعة الحادية عشرة مساء، على قناة مشفّرة [لا يمكن مشاهدتها دون اشتراك] موجهة إلى المثقفين. وإذا حاولنا قول ما نقوله الآن في قناة عامة كبيرة، سنتعرض للمقاطعة ـ كما ذكرت ـ من جانب مقدم البرنامج، وبالتالي سنصبح عرضة للمراقبة.

غراس: ينبغي تفادي الوقوع في الشكوى، فقد كنّا دائما في صفوف الأقلية. والمثير عندما تنظر إلى التاريخ يتمثل في مدى أهمية الدور الذي تستطيع أقلية القيام به. تضطر الأقلية، بالضرورة، إلى بلورة تكتيكات وحيل خاصة، لتصبح مسموعة. أنا، مثلا، أرى نفسي مضطرا كمواطن لكسر قاعدة أساسية في الأدب: «لا تكرر نفسك». في السياسة، ينبغي التكرار المرّة تلو الأخرى، مثل الببغاء، تكرار الأفكار التي تعرف صوابها، والتي برهنت على هذا الصواب، وهذا أمر مثير للتعب الشديد ـ دائما تسمع صدى صوتك، وينتهي بك الأمر إلى التصرف كببغاء حتى أمام نفسك. ولكن من المؤكد أن هذا بعض العمل، إذا أراد الإنسان الحصول على مستمعين في عالم يفيض بأصوات مختلفة.

بورديو: ما يعجبني في عملك ـ قرني، مثلا ـ يتمثل في بحثك عن وسائل تعبير لتبليغ رسالة نقدية تخريبية إلى جمهور كبير العدد. ومع ذلك، الوقت مختلف جدا الآن عن زمن عصر التنوير. كانت الموسوعة سلاحا لتجنيد وسائل اتصال جديدة ضد الظلامية. وعلينا في الوقت الحاضر الكفاح ضد أشكال جديدة من الظلامية.

غراس: ولكن كأقلية، أيضا.

بورديو: هذه القوى أقوى بما لا يقاس من قوى الظلامية في عصر التنوير. نواجه مؤسسات إعلامية، ذات قوة هائلة، ومتعددة القوميات، وهي تحكم قبضتها على كل شئ تقريبا، ما عدا القليل من الجيوب. وحتى في عالم النشر، تزداد صعوبة نشر أعمال نقدية تحتاج الوقت والجهد. لذلك، أفكر، لماذا لا نحاول إنشاء أممية للكتّاب ـ سواء في حقل العلم أو الأدب، أو حقول أخرى ـ الكتّاب الذين ينكبّون على أنواع مختلفة من البحث. ربما تقول: كل واحد يخوض معركته الخاصة. ولا أعتقد أن هذه الحالة مؤثرة في ظل الظروف الحالية. وإذا كنت قد شعرت بأهمية هذا الحوار معك، فذلك نابع من محاولة البحث المشترك لابتكار وسائل جديدة لإنتاج وتبليغ رسالة ما. وبدلا من كوننا أدوات في يد التلفزيون يمكن، مثلا، تحويله إلى وسيلة لقول ما نريد.

غراس: لا بأس، هامش المناورة ضيق. يحدث الآن شئ أجده مثيرا للدهشة. لم يخطر لي من قبل أنني سأطالب بدور أكبر للدولة. ففي ألمانيا كان لدينا الكثير من الدولة دائما، الدولة التي تقف فوق الجميع للحفاظ على النظام. وكانت ثمة أسباب جيدة لوضع نفوذ الدولة تحت ضوابط أكثر ديمقراطية. ومع ذلك فإننا ننحرف اليوم إلى الوجه الآخر للتطرف، فقد تبنت الليبرالية الجديدة أعمق مطامح الفوضوية ـ دون أدنى شبه بها من ناحية أيديولوجية بطبيعة الحال ـ أعني تغييب الدولة بالكامل. رسالة الليبرالية الجديدة: فلتذهب، سندير نحن الأمور. إذا كانت ثمة إمكانية لإجراء إصلاحات ضرورية في فرنسا أو ألمانيا ـ أتحدث، هنا، عن إصلاحات، لا عن إجراءات ثورية ـ لا يمكن القيام بشئ منها قبل قبول مطلب الصناعة الخاصة بدفع ضرائب أقل، وموافقة الاقتصاد عليها. هذه عملية إضعاف للدولة بطريقة تتجاوز حتى أحلام الفوضويين، لكنها تحدث الآن ـ لذا أجد نفسي، وربما أنت أيضا، في وضع غريب، وضع المطالب بتمكين الدولة من القيام بمسؤولياتها، وضبط المجتمع.

بورديو: هذه عودة إلى ما تحدثت عنه من قبل. المفارقة أننا نضطر للدفاع عمّا لا يمكن الدفاع عنه. ولكن يكفي الكلام عن العودة إلى «ما يكفي من الدولة»، لتفادي الوقوع في شرك نصبته الثورة المحافظة. وأعتقد أن علينا ابتكار دولة من نوع مختلف.

غراس: كي لا نفهم بعضنا بصورة خاطئة. من الطبيعي أن الليبرالية الجديدة تريد التخلّص، فقط، من أنشطة الدولة التي تمس بالاقتصاد. إذ على الدولة حشد الشرطة، وتطبيق النظام العام ـ وهي أشياء لا تدخل في اختصاص الليبرالية الجديدة، ولكن إذا حرمت الدولة من سلطتها لضبط المجال الاجتماعي، ومن مسؤوليتها تجاه المستثنين من عملية الإنتاج، أو الذين لم يلتحقوا بها بعد ـ ولا أعني مسؤوليتها فقط تجاه المعاقين، والأطفال وكبار السن ـ وإذا ساد اقتصاد يمكنه الإفلات من كل أشكال المحاسبة، بالاندفاع نحو العولمة، فإن على المجتمع التدخل لاستعادة الرفاه والاحتياط الاجتماعي بواسطة الدولة. اللامسؤولية هي المبدأ المنظم للرؤيا الليبرالية الجديدة.

بورديو: استعدت في كتابك «قرني» سلسلة من الأحداث التاريخية، وقد وجدت بينها أحداثا بالغة التأثير. أفكر الآن بقصة الولد الصغير الذي يذهب إلى مهرجان يخطب فيه ليبكنخت، ويتبوّل على عنق أبيه. لا أدري ما إذا كانت هذه ذكريات شخصية، لكنها بالتأكيد طريقة مبتكرة في اكتشاف الاشتراكية.. كما أحببت كثيرا ما ذكرته عن يونغر وريمارك: فقد أظهرت بطريقة غير مباشرة قدرا كبيرا من المعرفة عن دور المثقفين كشركاء في أحداث مأساوية حتى عندما يبدو أنهم ينتقدونها. وكذلك تعليقك على هايدغر - شئ آخر مشترك بيننا، لأنني كتبت تحليلا نقديا ذات يوم عن بلاغة هايدغر، أثار الكثير من ردود الفعل حتى وقت قريب في فرنسا.

غراس: من الأشياء التي تثير دهشتي، إعجاب المثقفين الفرنسيين بيونغر وهايدغر، لأنه يقلب جميع الكليشيهات التي تحملها فرنسا وألمانيا عن بعضهما رأسا على عقب. فالإعجاب في فرنسا بهذا الفكر الضبابي، الذي كانت له نتائج مصيرية في ألمانيا، مسألة غنية بالعبث.

بورديو: فعلا - بقدر ما يعنيني الأمر، وبما أنني وقفت ضد التقديس الجديد لهايدغر، فقد تعرضت للعزل الشديد. لم يكن من السهل أن تكون فرنسيا يحاول الدفاع عن التنوير، في بلد يتجه بقوة نحو ظلامية حداثية. وأعتقد أن قيام رئيس للجمهورية الفرنسية بتوسيم يونغر كان حدثا فظيعا. وحتى الآن إذا حاولت في باريس وصف يونغر كثوري محافظ - حللت أعماله «النظرية»، يومياته في فترة الحرب حيث يصف حياته اليومية في فرنسا المحتلة - تصبح عرضة للاتهام بالفوضوية، أو القومية..الخ. إلى جانب ذلك، حتى وجود نوع من الأممية قد يعرّضك للاتهام في هذه الأيام.

غراس: أريد العودة إلى قصة ليبكنخت. كان من المألوف لدى العائلة المذكورة في القصة أن يذهب الولد مع أبيه. هكذا كان الوضع في زمن ويليام ليبكنخت، واستمر في زمن كارل ليبكنخت. يجلس الولد على كتفي الأب مستمعا إلى الخطيب الجماهيري. وما كان يعنيني أن ليبكنخت كان يستنهض الشباب من أجل حركة تقدمية باسم الاشتراكية من ناحية - وفي الوقت نفسه لم يلحظ الأب في ذروة حماسته أن الابن يريد النزول عن كتفيه. عندما يتبّول الولد على عنقه، يضربه الأب، رغم أن ليبكنخت يواصل الكلام. وعند اندلاع الحرب العالمية الأولى، يؤدي السلوك السلطوي لهذا الأب الاشتراكي تجاه ابنه، إلى انخراط الأخير فيها - أي ينتهي به الأمر إلى القيام بما حذر منه ليبكنخت. اتضحت لي هذه الخلاصة مع تكشف أحداث القصة - وهذا ما حدث في عملية كتابة كتابتها.

وإذا عدنا إلى الاحترام الذي يحظى به هايدغر ويونغر في فرنسا، ربما من المفيد أكثر للمثقفين الفرنسيين إبداء الاهتمام بالمفكرين الألمان في عصر التنوير. إذا كان لديكم ديدرو وفولتير، كان لدينا ليسنغ وليختنبرغ، وقد كان بالمناسبة سريع البديهة، وينبغي لإفكاره أن

تستهوي الفرنسيين أكثر من يونغر.

بورديو: إذا بحثنا عن مثل أقرب، فقد كان ايرنست كاسيرير من أهم الورثة الشرعيين لتقاليد التنوير، لكن شهرته في فرنسا كانت متواضعة في أفضل الأحوال، بينما كان خصمه الكبير هايدغر ناجحا إلى حد بعيد. أقلقني هذا النوع من تبديل المواقف الفرنسية والألمانية بصورة دائمة: كيف نضمن ألا يزاوج بلدانا بين الجوانب الأقل جاذبية فيهما؟ فغالبا ما يخرج الإنسان بانطباع ـ وهذه مفارقة تاريخية ـ أن الفرنسيين يأخذون أسوأ ما لدى الألمان، ويأخذ الألمان أسوأ ما لدى الفرنسيين.

غراس: رسمت في كتاب «قرني» صورة لأستاذ جامعي يتأمل خلال دروسه في يوم الأربعاء، بعد ثلاثين عاما، كيف تعامل كطالب مع الأحداث في أعوام ١٩٦٦-١٩٦٨. كان متأثرا في ذلك الوقت بفلسفة التسامي حسب المفهوم الهيدغري، وعاد إليها مرّة أخرى، وقد عاش حتى وصوله إلى المرحلة الأخيرة موجات من الراديكالية ليصبح شخصا ينتقد أدورنو ويعريه على الملأ. هذه سيرة نموذجية لتلك الفترة، التي نختزلها الآن بالحديث عن ١٩٦٨.

كنت في وسط تلك الأحداث. كانت احتجاجات الطلاب مشروعة وضرورية، وحققت أكثر مما يريد الناطقون باسم شبه الثورة في عام ١٩٦٨ الاعتراف به. الثورة لم تقع، لم توجد أرضية لوقوعها، ومع ذلك تغيّر المجتمع. وصفت في كتاب «يوميات حلزون» كيف سخروا مني عندما قلت إن التقدم حلزون. يمكن، بالطبع، تحقيق قفزة كبيرة إلى الأمام شفويا ـ كانت بهذا القدر تعبيرات ماوية ـ لكن المرحلة التي قفزت نحوها، أي المجتمع القابع تحتك، ليس في عجلة من أمره ليركض خلفك. أنت تقفز فوق المجتمع، وتشعر بالدهشة عندما تقف الظروف ضدك، وتسميها ثورة مضادة ـ حسب القاموس العنيد لشيوعية كانت تترنح حتى في ذلك الوقت. كان ثمة القليل من الفهم لأشياء كهذه.

بورديو: كتبت في ذلك الوقت كتابا بعنوان Les Heritiers وصفت بواسطته المواقف السياسية المختلفة لطلاب ينحدرون من الطبقة العاملة، والبرجوازية الصغيرة، والبرجوازية. كان الطلاب من أوساط البرجوازية هم الأكثر راديكالية، بينما طلاب البرجوازية الصغيرة أكثر ميلا إلى الإصلاح، وحتى إلى «المحافظة».

غراس: كانوا على الأرجح أبناء عائلات غنية أسقطوا على المجتمع صراعاتهم مع آبائهم، الصراعات التي لم يتمكنوا من خوضها، أو لم يملكوا الشجاعة الكافية لإخراجها إلى العلن، لأن ذلك يحرمهم من المال.

بورديو: كانت هذه الازدواجية واضحة جدا في حركة العام ١٩٦٨ التي كان فيها ـ كما في كل القلاقل الاجتماعية ـ عدة ثورات في الواقع. ثمة ثورة واضحة للعيان وبرّاقة، بيد أنها رمزية

وفنية، مظهرها الخارجي شديد الراديكالية، يقودها أناس أصبحوا لاحقا محافظين جدا. ثم على مستوى أدنى، كان آخرون تعتبر مطالبهم إصلاحية ـ ومثيرة للسخرية ـ في ذلك الوقت، أرادوا تغيير طرق التعليم، وتوسيع الفرص للحصول على التعليم العالي، أناس لديهم مطالب متواضعة جدا، لكنها واقعية، وتُقابل بالازدراء من جانب الأشخاص أنفسهم الذين أصبحوا محافظين اليوم.

غراس: كان ثمة وعي مضطرد في ألمانيا والبلدان الاسكندنافية في السبعينات مفاده أن السماح للاقتصاد بالاستمرار في استغلال الموارد الطبيعية، كما كان يفعل آنذاك، سيؤدي إلى تدمير البيئة: وقد ظهرت حركة أنصار البيئة في هذا السياق. لكن الأحزاب الاشتراكية، والديمقراطية – الاشتراكية واصلت تركيزها الأحادي الجانب، كما فعلت في الماضي، على القضايا الاجتماعية التقليدية، وتفادت موضوع البيئة تماما، أو رأت فيه حركة معادية لمطالبها. شعرت النقابات اليسارية، التقدمية في كل جانب آخر، أن الوظائف تتعرض للخطر بمجرد طرح موضوع البيئة ـ نظرة ما زالت مستمرة حتى الآن. وإذا كنّا ننتظر من اليمين، والطرف الليبرالي الجديد استخدام عقولهم، والعودة إلى رشدهم، ينبغي انتظار الشئ نفسه من جانب اليسار. يجب فهم حقيقة أن موضوعات البيئة لا يمكن فصلها عن مسائل العمل والتشغيل، وأن جميع القرارات يجب أن تضع في اعتبارها موضوع البيئة.

بورديو: صحيح. ولكن ما تقوله عن علماء البيئة يصدق، أيضا، على الديمقراطيين الاشتراكيين. الليبرالية الاجتماعية، البليرية [إشارة إلى انتوني بلير، رئيس وزراء بريطانيا] الطريق الثالث ـ هذه الابتكارات المفترضة جميعها وسائل لتذويت نظرة القوى المهيمنة في أوساط الخاضعين لهيمنتها. يشعر الأوروبيون، في أعماق أنفسهم، بالخجل من حضارتهم، ولم تعد لديهم شجاعة التمسك بتقاليدهم. تبدأ هذه العملية على الصعيد الاقتصادي، لكنها تمتد تدريجيا إلى المجال الثقافي. يشعرون بالخجل من تقاليدهم الثقافية، يعانون مشاعر ذنب متواصلة كلما دافعوا عن تقاليد يُنظر إليها وتتهم بأنها أصبحت لاغية ـ في السينما، في الأدب، وفي أشياء أخرى.

غراس: في بلادنا، ينظر جناح شرويدر في الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي إلى أنفسهم كمحدّثين، ويتهمون ما عداهم بالتقليدية ـ وهي عملية اختزال حمقاء بالطبع ـ ولا يملك أنصار الليبرالية الجديدة سوى مشاعر البهجة عند رؤيتهم كيف يرتطم الاشتراكيون والاشتراكيون الديمقراطيون بالأرض بسبب تعريفات فارغة كهذه.

بورديو: إذا نظرنا إلى مشكلة الثقافة: سررت عندما مُنحت جائزة نوبل، ليس لأنها تحتفي بكاتب جيد جدا وحسب، ولكن لأنها تحتفي بكاتب أوروبي مستعد للكلام بصوت مسموع، وللدفاع عن أساليب فنية قد يعتبرها آخرون موضة قديمة. لقد شنت الحملة ضد روايتك «بعيدا

جدا عن البلاد » بذريعة أنها موضة قديمة كأدب. وبالطريقة نفسها، تتهم الآن عملية الانقلاب التقليدية، والتجارب على الشكل، التي قام بها الروّاد ـ سواء في الأدب، أو السينما، أو الفن ـ باعتبارها أشياء مهجورة. وقد أصبح من الصعب بصورة متزايدة مقاومة نوع من الحداثة الزائفة، القادمة عموما من البلدان الأنكلو ـ سكسونية، والتي تطرح نفسها كتجاوز لأشكال أقدم، بينما تتخلف في الواقع عن الثورات الفنية في القرن العشرين.

غراس: بقدر ما يتعلق الأمر بجائزة نوبل: تمكنت من العيش جيدا بدونها، وأرجو أن اتمكن من العيش معها. قال البعض: «وأخيرا!» والبعض الآخر: «جاءت متأخرة»، بيد أنني أشعر بالسعادة الغامرة لأنها وصلتني في سن متقدمة، ما بعد السبعين. إذا حاز كاتب أصغر سنا، فلنقل قرب الخامسة والثلاثين علي جائزة نوبل، أتخيل أن تكون عبئا ثقيلا عليه، لأن التوقعات ستكون كبيرة جدا. الآن يمكنني الحديث عنها بنوع من المفارقة، ومع ذلك أفرح بها. لكن هذا يستنفذ الموضوع بقدر ما يعنيني الأمر.

أعتقد من واجبنا طرح عروض لا يمكن تجاهلها بسهولة. شركات التلفزيون الكبرى في حيرة من أمرها، أيضا، بسبب عبادتها المغلوطة للتصنيفات. علينا المساعدة قليلا لوضعها في الاتجاه الصحيح. يصدق الأمر نفسه على العلاقات بين ألمانيا وفرنسا، لقد حاربنا بعضنا، وأرقنا دم بعضنا حتى آخر قطرة تقريبا، ما زالت جراح البلدين في الحربين الأولى والثانية، وفي حروب ترجع إلى القرن التاسع عشر مرئية، ، كما قام البلدان بكل أنواع المحاولات البلاغية لتحقيق المصالحة. ولكن يدرك الإنسان فجأة أن ما يفرّق بيننا ليس الحاجز اللغوي، فقط، بل الجوانب التي تحظى باعتراف أقل. وقد أشرت قبل قليل إلى أحد تلك الجوانب: حقيقة أننا لسنا حتى في وضع للاعتراف بعملية التنوير الأوروبية المشتركة. كانت الأشياء مختلفة قبل هيمنة الأمة ـ الدولة. لاحظ الفرنسيون ما حدث في ألمانيا، والعكس صحيح. قام غوته بترجمة ديدرو، مثلا، وكانت هناك درجة من الاتصال بين جماعات في البلدين، كانت جماعات الأقلية تكافح لإشاعة التنوير، ضد أشكال الرقابة الموجودة في البلدين.

وقد حان الوقت لإعادة إنشاء هذه الصلة. كل ما علينا نشره يتمثل في أفكار ورثناها من التنوير الأوروبي ـ ومن فشل تطوراته اللاحقة. ما من سبيل سوى إصلاح التنوير بوسائل التنوير، تنقيحه كلما اقتضى الأمر. صحيح، نحن على صواب في إدانتنا لهيمنة الليبرالية الجديدة، وأوجه تصرفاتها الرعناء، ولكن علينا النظر، أيضا، إلى الجوانب التي وصلتنا بطريقة خاطئة في سياق عملية التنوير الأوروبي. وكما قلت من قبل، الرأسمالية في شكلها المتأخر، والاشتراكية في شكلها الخام، كلتاهما من نتاج عصر التنوير، وثمة ضرورة لتجلسا معا بطريقة ما على مائدة واحدة مرّة أخرى.

بورديو: أشعر أنك متفائل أكثر مما يجب. لست على يقين، للأسف، أن المشكلة يمكن طرحها بهذه التعبيرات، إذ أعتقد أن القوى السياسية والاقتصادية المهيمنة على أوروبا في الوقت الحاضر تهدد ميراث التنوير. في الآونة الأخيرة كتب المؤرخ الفرنسي دانييل روشيه كتابا أظهر فيه أن للتنوير معان مختلفة جدا في ألمانيا وفرنسا، وأن كلمة Aufklarung الألمانية، لا تعني الشئ نفسه الذي تعنيه كلمة Lumieres الفرنسية، رغم أن هذه تبدو شيئا مشتركا بين البلدين. ولكن ثمة فرق، وهي عقبة علينا تذليلها، إذا أردنا مقاومة تحطيم ما نربطه عموما بالتنوير ـ التقدم العلمي والتقني، والتحكم بذلك التقدم. نحتاج لابتكار نزعة يوتوبية جديدة، متجذرة في القوى الاجتماعية الحالية، ومن أجلها نحتاج ـ بمجازفة تبدو وكأنها تعيد الرؤى السياسية القديمة ـ لخلق حركة جديدة. النقابات بشكلها الحالي أشكال تنظيمية قديمة، يجب إصلاحها، تحويلها، وإعادة تعريفها، إلى جانب تحويلها إلى أشكال أممية، وعقلانية، تعتمد على مكتشفات العلوم الاجتماعية، إذا أرادت تحقيق الغرض منها بالكامل.

غراس: ما تقترحه يعني يوتوبيا. يحتاج الأمر إلى إصلاح عميق للحركة النقابية، ونحن ندرك مدى صعوبة تحريك ذلك الجهاز.

بورديو: ومع ذلك، لنا ادوار نلعبها في هذه اليوتوبيا. على سبيل المثال، الحركات الاجتماعية في فرنسا، أقل قوّة في الوقت الحالي مما كانت عليه قبل سنوات قليلة. تقليديا، كانت حركاتنا تمتاز بنظرة قوية، معادية للمثقفين، وهي محقة جزئيا. واليوم، بما أنها تعاني من أزمة، فإن الحركة الاجتماعية ككل، أكثر استجابة وانفتاحا أمام النقد، وأميل إلى التأمل بصورة متزايدة. أصبحت، فجأة، أكثر استعدادا لقبول أنواع جديدة من نقد المجتمع من حولها. وأنا أعتقد أن الحركات الاجتماعية التي تعتمد النقد والتأمل هي المستقبل.

غراس: أرى هذا الأمر بتحفظ أكبر. كلانا في سن تمكننا من الكلام بقدر ما تسمح الصحة، لكن هذا الوقت محدود. لا أعرف حقيقة الوضع في فرنسا. ولكنني أرى لدى الجيل الشاب من الكتّاب في ألمانيا بعض الميل والاهتمام بمواصلة تقاليد حركة التنوير في إسماع الصوت، والانخراط [في الشأن العام] وإذا لم يقم أحد بحمل العبء عن كاهلنا، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، فإن جزءا كبيرا من تقاليد التنوير الأوروبي معرض للضياع.

غياب

حسين البرغوثي-الغائب

سيكون بين اللوز

كنّا نعرف، وكان يعرف، أن أيامه في هذه الدنيا قليلة. كان التواطؤ لعبة مقبولة ومتبادلة، ليصبح الكلام عن المرض مجرّد إشارة عابرة في نقاش أكثر جدية حول قضية من قضايا المعرفة. فتلك هي ميزة حسين البرغوثي: محاولة القبض على المعنى، لا عن طريق اقتصاد المقايضة الثقافي، بل بواسطة الاستثارة الذهنية، التي ترفع من شأن كيفية تحقيق المعرفة، ولا تحجم عن التساؤل حول أدواتها، لتحقيق متعة عقلية خالصة، قد تصل الذروة في خلاصة ما، أو ما يشبه الخلاصة.

وقد كان، بهذا المعنى، وسيلة إيضاح حيّة وحيوية، لما ينبغي للمثقف أن يكون عليه، في ثقافة يلتبس فيها الفرق بين منتج الأدب ومنتج المعرفة، بقدر ما يتعلق الأمر بتعريف مفهوم المثقف. فمنتج الأدب ليس مثقفا، بالضرورة، خلافا لمنتج المعرفة، الذي يستمد ضرورة دوره الاجتماعي من ذلك التعريف، ومن كون الهم المعرفي شرطا من شروط وجوده.

قد يتمكن شخص من الجمع بين الصفتين، وهذا أمر شائع، لكن التلازم ليس شرطا في جميع الأحوال. ولعل ما يعزز من الطلب الملح على ضرورة التلازم تلك الرومانسية، غير المبررة حسب ميشيل فوكو، التي يعزوها الأدب لنفسه، وإشكاليات الدور الاجتماعي للمثقف.

لكن حسين البرغوثي حقق ذلك التلازم الدقيق، فعمل في حقل الشعر، كمن يحاول البرهنة على ما ينبغي للشعر أن يكون عليه، بقدر ما يتعلق الأمر بعلم الجمال، وكتب في حقل السيرة الذاتية، كمن يحاول البرهنة على نجاح النص المفتوح في تبديد وهم التضارب بين الفلسفة ولغة الشعر، وكتب للمسرح بطريقة تمكنه من تفسير عبارات قد تبدو عادية بتأويلات مستمدة من الميثولوجيا الإغريقية، وفلسفة الأنوار الأوروبية، والثقافة العربية الكلاسيكية.

وهذه وتلك معارف كان بتكوينه الأكاديمي المحترف يعرف الفرق بين الكلام عنها عن طريق السماع، أو المصادر الثانوية المختزلة، وبين الإطلاع عليها حسب الأصول، بقدر ما يستدعي الأمر من تعب العين، ووجع القلب، وكد الذهن. وهذا ما فعله، دائما، بطريقة مدهشة في كتابات ونقاشات أنفق فيها ساعات طويلة من عمره القصير.

سأل حسين البرغوثي في غرفته بمستشفى الشيخ زايد في رام الله، قبل وفاته بيومين عن دراسة قدمها «للكرمل» بعنوان «قصص من زمن وثني». كانت الكلمات تخرج من فمه بصعوبة،

لكنه كان مهتما بفتح نقاش عن الدراسة، وعن موعد نشرها في «الكرمل». وهي، بالمناسبة، أخر ما كتب، ويحاول من خلالها استبطان العصر الجاهلي، وعلاقة أوزان الشعر بميثولوجيا الشرق الأدنى القديم، بطريقة سردية يمارس فيها دور الراوي، ويتقمص شخصية مراقب عاش في ذلك العصر.

ربما تبدو أشياء من نوع الرأي، أو موعد النشر، أو نقاش أساطير العصر الجاهلي، بلا أهمية بالنسبة لشخص يحتضر، لكن حسين البرغوثي كان مخلصا لما عاش به ومن أجله، أي قضية المعرفة، حتى الرمق الأخير. كانت الأسئلة، ورغبته الحارقة في نقاش أعلى من الكلام عن المرض والعلاج، طريقته في إضفاء المعنى على ما تبقى له من وقت قبل الرحيل. لذلك، كانت سنوات ما بعد اكتشاف المرض هي الأكثر كثافة وحيوية في نشاطه الأدبي والفكري، الذي توّجه بسيرة ذاتية هي الأجمل بين ما كتبه الفلسطينيون في هذا السياق.

ففي «الضوء الأزرق» استدار إلى زاوية مهملة في موضوع السيرة الذاتية، وهي استبطان شخصيات هامشية، وحياة لا تحفل بتغيرات دراماتيكية كبيرة من نوع الحروب والكوارث، لتحويل الهامشي، وما يشبه الراكد، إلى موضوع لتأملات فلسفية وجمالية عميقة وذات طبقات متعددة من المعاني. وهي طبقات بررّت للبعض تفسيرها كتجربة صوفية، لكنها لم تلك كذلك. فالصوفية تشترط الميتافيزيقا، رغم ما تتسم به من حسيّة عالية في تجلياتها الأدبية على الأقل.

ولم تكن الميتافيزيقا، بالمعنى الفلسفي، هما من همومه، بل كان الواقع، وما ينطوي عليه من احتمالات تمكّن بصيرة نادرة من القبض على بعض معانيه. وتلك معادلة سبق لغسان كنفاني إيجازها في عبارة بديعة: في الواقع خيال أكثر من الخيال نفسه، وفي الخيال واقع أكثر من الواقع نفسه. وذلك ما برهن عليه حسين البرغوثي بالتدليل على كثافة المعنى المضغوط في كينونة لا تلفت الانتباه.

ولعل تلك العلاقة العميقة والمعقدة بالواقع هي ما يفسر تمرده عليه، بقدر ما يتعلق الأمر بالمعرفة، أو بنمط الحياة والتقاليد اليومية والمهنية المألوفة بالمعنى الاجتماعي. فالمؤسسة الأكاديمية الفلسطينية لم تستطع التعامل معه، ولم يكن في هندامه وسلوكه وأفكاره ما يساعدها على تحقيق قدر من المصالحة.

لا يصعب العثور على أشخاص اشتروا شهادات مزيفة لإضافة لقب الدكتور إلى أسمائهم، أو حصلوا على شهادات قليلة الأهمية حرصا على اللقب في مجتمع يقوم على الوجاهة والتراتبية شبه الريفية. لكن حسين البرغوثي كان من طينة لا تغويها الألقاب والوظائف، ولا تستكين إلى قوالب متعارف عليها، بل تنتج نموذجها الخاص، ومثالها الفريد، الذي ينسجم مع فكرة البطل - الضد، أكثر من انسجامه مع فكرة المواطن الصالح.

وبهذا المعنى كان نموذجا خاصا، ومثالا فريدا لما ينبغي للمثقف أن يكون عليه، وبهذا المعنى، أيضا، يُقاس حجم الخسارة التي لحقت بنا، في زمن يحفل بالخسارة. ومع ذلك، ورغم ذلك: كان، دائما، ما سوف يكون. عاش كما شاء، وعاد إلى ظلال اللوز، كما شاء، لكن ظله فينا وبيننا سيبقى كبيرا بحجم غيابه. في هذا الملف تقدم «الكرمل» آخر ما كتب حسين البرغوثي.

سأكون بين اللوز (٣)

حسين جميل البرغوثي

بنينا حلمنا، أنا وآثر وبترا : بيتاً جديداً وصغيراً وأبيض، في حرش زيتون، قرب قمة جبل برية. هذا هو بيت اسمي،

«وبيته في آخر البيوت.. »

أقعد على فراش أو على كرسي قش، في فيء زيتونة مقمرة، قرب «البيت الذي قرب الرمل»، كما يسميه آثر، وأحدق إلى الأودية، وهياكل شجر غامضة تشبه كائنات بدائية تحرس «خط الشفا» (الأفق) الذي يفصل قمة الجبل عن السماء. كلما أرى هذا الخط أتخيل أغنية فيروز:

«كنا أنا والليل نمشي عالهدا

ويقللي : لعتّم الدنيا عليْك، تعندهن توصل وما يشوفك حدا. »

وفي المنفى، كتبت أغنية عن «خط الشفا» هذا (عن قاطع طرق، يغني لـ «سبعة» ـ أنثى من إناث السباع التي نسيها الله في هذه البراري):

«مرّة القمر وقفْ معي وقفة عراس الجبلْ

فرسي معي

فرسي الأصيلة، والبارودة، والعباية، والشنبْ مفتولْ

ـ عمّكْ حطّ قلبه في الشنبْ لما فتلْ ـ .

واقف لحالي مثل لحراشْ : جامدْ عشعراتي الندى

واقف لحالي

والهوا شمالي، وعبالي تيجي شغلات جوّا القلبْ

مدفونة ما شافا حدا.

نزلنْ سبعْ دمعات ودمعة
ـ والدمعْ غالي، يا «سبعة» ـ واسمعي:
عمّك حياته قاسية!

فرسه معه
فرسه الأصيلة والبارودة والعباية
ـ عمره ما طاق الذل بين الأراضي الواطية ـ.»

هكذا كان «خط الشفا» في مخيلتي، ثلاثون عاماً في منفى طوعي، وهكذا كان «خط الشفا» في مخيلتي. والآن، وأنا قاعد في فيء الزيتونة المقمر، تخيلته «سلّماً»: كان الفراعنة القدماء يعتقدون أن السماء الأولى من حديد، ومن يريد الصعود إليها يصعد عن قمم الجبال، سلالم الروح. وأشعر الآن بخوف ما من هذا الخط، ومن هياكل الشجر البدائية والغامضة عليه. وساوس تطفح من ذهني. من يدري، مثلاً، ماذا يسري في هذه البقعة اللامرئية بين التراب والظلال المقمرة، من قوى خطرة؟ قد تتقلب أفعى «زعراء»، أراها. أعني أن ذهني يسيل عقارب وأفاع، أحياناً، وتلزم قوة روح كي أهتف:

إليكِ، فإني لست ممن إذا اتقى   عضاض الأفاعي نام فوق العقاربِ
وإلا سينام ذهني فوق عقاربه، فرحاً لأنه نجا من أفاعيه!

عدت ولم أعد إلى هذا الجبل. كأني عدت، ولكن لم أعد. لا سلام هنا، وأرغب في بناء سياج فاصل بيني وبينه. عند «خط الشفا» تبدو أكثر النباتات إلفة غريبة، وبدائية، وغير محددة الملامح، و«يغني الجبل»: فتفيض عنه أصوات وحوش لم أعرفها من قبل، وأخرى أعرفها، تأتي من الأودية، ومن خط «الشفا»: نباح كلاب مصروعة تحاول أن تنهش وحشاً آخر، وبرجمة حمام من عش فوق سطح البيت، وثعالب، وحفيف نسناس، وخطى قطط برية، وعزف ناي يبدو وكأنه من كهف في الذاكرة. وفوق هذه الموسيقى التصويرية الغريبة، قمر أحمر حمرة داكنة، ومستدير، يشبه وجه إلهة صامتة، مغمضة العينين، تتأمل فوق قمة الجبل، وتصغي إلى أزيز صراصير مستمر يشبه خلفية ناعمة لهذه الموسيقى التصويرية الغريبة ذاتها. كل نغمة توحي إليّ بأن لا تنم في فيء زيتونة مقمرة في هذه البقعة من اللامكان، ولا تتسكع بعيداً عن البيت الذي قرب الرمل، لأن الزهور البرية المتوحشة نفسها ستفتح قدميك لكي تشوبها حمرة القمر هذه!

وبسبب من إلتهاب الرئة، والقصبة الهوائية، تخرج مني عندما أتنفس أصوات أغرب من «غناء الجبل»: حشرجة تشبه حيواناً أسطورياً جريحاً، ونداءات تشبه صهيل حصان يأتي من

البطن، وهكذا، وهكذا. وتتداخل الأصوات كأن غابة في حنجرتي.

في البدء كنت أميز بين غناء الجبل وبين أصواتي، ولكن صرت أرتبك كثيراً في المدة الأخيرة. يكون الجبل صامتاً، والقمر الأحمر مغمض العينين، وفجأة تأتي من أغوار الأودية أصوات غريبة ليست لإنس ولا جن، فأصغي. وبعد قليل أعرف أنها من حنجرتي، وصدري، بسبب من ضيق التنفس. ولم أعد أعرف الفرق بين وحوش الجبل، وأوتار صوتي. هل بدأت أتوحش، أم أستألف الوحوش؟ وكأن الجبل في بطني، هو ووساوسه. فضوء القمر الهادئ هذا قد يتخثر إلى عقرب، أو أفعى ملونة تخرج من عرق الزيتونة، إن غفوت، وقد يأتي ضبع ينهش ما عاد مني. ومن يدري، قد يغتالني أحد ما، عند هذه الحافة النائية. عدت ولكن لم أعد.

وقفت في شباك مضيء قليلاً، في البيت الذي قرب الرمل. في أي شباك وقفت؟ وفي أي زمن؟ ومتى كان ما كان؟ لا أدري. ولكن كنت أرى الزيتونة منه. وأفكر في هذه العودة إلى السكن في ريف رام الله عودة غير محكمة الحبكة. جاءت ثعالب خمسة، بعضها أسود، وبعض أقرب إلى الأحمر. وأخذت تلعب تحت الزيتونة ذاتها، وتحتل نفس الحيّز الذي كنت فيه. لعبت بالمخدة زمناً، وجرتها هنا وهناك، ثم جرت فراشي كله من تحت الزيتونة إلى بقعة في وسط الخلاء. سحبته إلى بقعة أدق، بقعة في اللامكان. عدت، ولكن لم أعد. وأدركت الثعالب هذا.

كل ليلة هكذا، يطغى عليّ شعور بتخلع المكان، وتخلع إدراكي له. نسناس بوجه بومة يأتي كي ينبش في كيس قمامة رميته هناك، وقطط برية تعبر بعيداً عني، بحذر.

مرة جاء من جهة الوادي غناء كائنات يشبه عرس جن، بدفوف ونايات، أو زعيق طيور بحر، ومشى الغناء صاعداً نحو «خط الشفا».

ليس هذا «جبل الذاكرة» الذي أعرفه، بل أقرب إلى «جبل الآلهة»، جبل يحلم عرس جن، ويحلمني. لما تناهى الغناء الغريب، واختفى عند وجه القمر الأحمر فوق «خط الشفا»، جاء ثعلب أسود، ورفع أذنيه وكأنه يصغي للريح، ثم رآني تحت الزيتونة. كنت قريباً منه، ولكنه أدرك أنني غير قادر على الهجوم على أي كائن، كائناً من أو ما كان، فمرق عني وكأنني أقل من شبح. وأمام البيت، على حجر في رذاذ ضوء أصفر شاحب، كان يقف نسناس يمط رقبته عالياً، ويحاول أن يرى ما في الداخل، ثم يتجمد من رؤاه.

والمرض، كالزمن، «يكسر الزوايا الحادة» فينا جميعاً. فبدوت في نظر نفسي ظلاً مقمراً أحمر آخر، واقفاً فوق صخرة عند «خط الشفا»، وقد تأخذه هبة من هواء، أو تحمله أغنية ناعمة.

والجبل كله ظلال، ربما لذهني ووساوسه. وعليّ تعلم فن «ملاكمة الظلال». ولكن، في هذه البقع الموحشة، لا أحد يجرب سيفه في هباء، أو يطارد أشعة القمر برمح خشب. أقعد وأفكر في قوة الظلال التي تسيل مني، وحولي. لا يكفي أن تبني «بيتاً جديداً»، يجب أن تبني روحاً جديداً.

ثلاثون عاماً في المنفى، وأنا من «عبدة النار»، من قبيلة تجوب البحر على ظهور السفن. كنت كما كنت، واحداً ممن كانوا كما كانوا:

«.. سليقة كل نهر لا يفتش عن ثبات
يجرون في الدنيا لعل الدرب يأخذهم إلى درب النجاة من الشتات.»

ورجعت إلى هذا «البيت الذي قرب الرمل»، عبر «درب النجاة من الشتات»، الذي بدا درباً نحو «المحدود» في التجربة، والمتناهي فيها. هل هذا صعودي، أنا الظل المقمر الأحمر عند «خط الشفا»، إلى سماء الحديد الفرعونية، أم هبوطي من هناك إلى درك سفلي، أي هل رجعت بسبب من طفح في القوة، قوة فائضة فيّ، أم من كثرة «الإنهاك»؟.

|

عليّ العودة نحو الطفل الكامن فيّ، لكي أمشي في الأرض طفلاً - نبياً، إن لم يكن في حياتي الحاضرة، ففي حياتي التالية. نظرت إلى آثر، إبني الذي كاد أن يصل الرابعة الآن، وهو يلعب قربي، تحت فيء الزيتونة المقمرة. منذ مدة وأنا أحاول أن أتعلم منه العودة إلى الطفل - النبي الكامن فينا كلنا.

رأى غمازة طائرة حمراء، تضيء وتخبو، من هذا النوع الذي يستعمله الإسرائيليون الآن لتصفيات نشطاء الإنتفاضة. كانت مارقة قرب القمر، وتغمز، كعين إلكترونية تتشبه بالحوريات. سألني: «حسين، هذه الطائرة من شو؟». «من حديد.» «وهل يخاف القمر من الحديد؟». «نعم، نعم. يخاف القمر من الحديد».

كل طفل ساحر بدائي. وله عصا كعصا موسى، من كلمات مسحورة. أول لفظة لفظها آثر كانت ال «طائرة»، ثم «القمر»، وال «هلال». كان يقول عن الهلال إنه «يشرب الحليب، ويمشي معي، إلى أمه القاعدة على رأس الجبل.» وبنى أسطورة من كلماته، من أسماء الأشياء كما تبدو لأعينه المسحورة. من «طائرة»، و«حديد»، و«خوف»، تناسلت أسطورة «القمر الذي يخاف من الحديد.» لغة ساحرة في أسطورة أكثر سحراً. الطفل يرى بعيون مسحورة. جنين عراف. كان آثر صغيراً، لا يفقه اللغة بعد، في غرفة مضاءة بشموع، ويحدق في ظل غامض بين الكرسي والجدار. وكان يتفلت مني وكأنه يرى معجزة في الظل، وضحكت منه.» هذا ظل، محض ظل، لا شيء هنا، عم تبحث؟». كان أصغر من أن يفقه قولي. وفجأة خطر ببالي سؤال غريب: ماذا أقصد أنا، حين أقول «هذا محض ظل، ولا شيء هنا؟». وبدا لي أنني أعمى، وأنه يرى عوالم كاملة لا أراها، وتعودت عليها. لا شيء هنا؟ من قال هذا؟

من زمن وأنا أراقب لغته. مرة سمعني أشتم شركة الكهرباء لأن النور انقطع. كنا في بئرزيت، أيامها. وسقطت ثلوج كثيرة كسرت الصنوبر والسرو في الحرش. نظر من الشباك إلى الثلج على الشجر المتكسر، وشتم «شركة الثلج»، وشركة «البرد»، ورأى شركة لكل شيء: للقمر شركة، وللنجوم شركة أخرى.

كان نائماً في حضني تحت النجوم، ويحرك أصابعه قائلاً لها: «قلت لكُنّ لا تلعبن وحدكن في الشارع»، ثم يقول أن يده تركته ثم ذهبت إلى النجوم. ومرة أخذته إلى «القدس القديمة». فوقف في باب «خان الزيت» - سوق مسقوف أشبه بدهليز يعج بالحناء، والذهب، والسائحات، والجنود،

والرهبان وهكذا، وهكذا، فارتجف مرتعباً، لأنه اعتقد أن خان الزيت كله «مصعد كهربائي»، ممدد أفقياً، ورفض دخوله.

ومن رؤى من هذا النوع، يبني أسطورته الخاصة. ولا أحد يشبه أحداً هنا. لكل حكايته. وما هي حكايتي مع هذا المكان؟ حدقت في «خط الشفا» شارداً، وسألت نفسي، كأنني آثر، «حسين، هذا شو؟». وجاء صوت من الذاكرة يكرر: «خط شفا، خط شفا.» فرد الطفل النبي الكامن فيّ: «طيب. وخط الشفا هذا شو؟».

أحدق في فيء الزيتونة المقمر وأسأل، «حسين، هذا شو؟. فترد ذاكرتي: «فيء زيتونة مقمر». فتضحك ثعالب الجبل وتقول: «لا. لا. هذا الفيء عقارب، سيل عقارب. ولكنك تصر على أنه فيء زيتونة مقمر. ليس لديك ذكاء قلب!».

أعدنا أيها البحر القديم إلى «وشاح الحور أخضر في الرماد، وفي رؤى شعرائنا»! إنس يا حسين أحباء ماتوا في البحر والسفر، وصاروا «شجرا من المرجان في القيعان». وعد إلى أوّلك!.

|

برج آثر الحوت ـ برج مائي متقلب، وفنان بطبيعته ـ.

سافرت معه إلى باريس، قبل مدة. هناك، في بيت المخرج المسرحي، فرنسوا بو سالم، سمعت تسجيلاً لـ «أغنيات الحيتان الزرقاء».

الحيتان الزرقاء مذهلة. لسان حوت صغير منها أثقل من فيل. ولها نتوء فوق الأنف تستشعر به أمواج الجاذبية الأرضية، فحساسيتها للجاذبية أكثر من الإنسان بخمسة وعشرين مليون مرة. وهذه الثدييات تغني، في أغوار المحيطات، مارقة بين بحارة غرقوا وصاروا «شجرا من المرجان في القيعان»، بتنويعات على أكثر من أربعمائة صوت، غناء يبدو قادماً من بطن الكون، ومن قلق لم يحلم به حتى السحرة، وأيقظ فيّ هذا شعوراً لا عهد لي به، من تلك الأيام الكنعانية في «الإينوما إيليتش»، حين لم يكن هناك بعد اسم للسماء ولا للأرض، والكون محض عماء.

وبرج الحوت الأزرق، عندي، مائي، وفيه أربعة أنواع من الإلهام. مثلاً، ميز لوركا بين أربعة أنواع من الإلهام الفني:

عند العرب، حين يلهم اللّه مغنياً، يهتف الناس «الله! الله! يا شيخ». ويدعو العرب هذا «طرباً». كان في مدينة البتراء معبد يشبه معبد ديونيسيوس، إله الخمرة، والسكر، والرقص، والموسيقى، والنشوة، الذي يجعل الكرمة تورق في خشب سفينة. وكانت العرب تقول عمّن مسّه جنون ديونيسيوس هذا «لقد بطر»، نسبة إلى «بترا»، التي كانت العرب تلفظها «بطرا». وتحرفت اللفظة إلى «طرب».

أما في إيطاليا فالإلهام «ملائكي»، والملائكة أبرياء إلى حد البلاهة، وتلميحات إلى حالة بيضاء، لا تعرف الخير والشر، بعد، فهي أشبه بـ: «مطر ناعم في خريف بعيد». ولكن الإلهام عند الاغريق «قمري». فربات القمر التسع ـ الميوزات ـ هن من يلهمن المغني، وينفخن من أنفاسهن في فمه. هكذا يبدأ هوميروس، مثلاً، ملحمة الأوديسة، بأن يسأل «الميوزات» أن

يلهمنه، أو حتى أن يغنين، بدلاً عنه. ولكن نفسهن بارد، ويمنحهن لوركا «نصف قلب من رخام»! والرخام لا يرقص، ولا ينبغي له، فيه صيغة «عاقلة»، ربما، وجامدة، خطوط مستقيمة، وزوايا، وهندسات، إلهام بارد!.

أما الإلهام في إسبانيا، فشيطاني، يدعى الـ «دويندي»: ويشبه زجاجاً مسحوقاً في الدم، لأن الميت في إسبانيا أكثر موتاً من أي ميت آخر في العالم حيث لا يوجد بلد فيه الموت مهرجان شعبي إلا في إسبانيا: مصارعة الثيران. الموت والحب يجتاحان الروح هنا، كما في قول لوركا، في «قصائد الأغنية العميقة»، مثلاً،

«خنجر
يدخل القلب كمحراث
يدخل الأرض الخراب.

لا !
لا تغمده فيّ !

والخنجر
مثل شعاع شمس
يشعل التجويفات.

لا !
لا تغمده فيّ !»

برج الحوت الأزرق، كما قلت، مائي، فيه نفحة من كل أنواع الإلهام هذه. فيه شيطانية الـ «دوندي»: يشعر بكل كيانه، وكأن عقله أحشاء قلبه، وإن كتب، فإنه يكتب بالدم ـ وهذه خير كتابة، كما يقول نيتشه. «فاكتب بالدم، لكي تعرف أن الدم أيضاً روح!». وفيه من الميوزات حس بـ «المقياس»، و«الحدود»، و«النظام». من هذا النوع الذي جعل ليوناردو دافنشي، على ما أعتقد، ينحت تمثالاً سحر الناس بجمال أنفه، فكسر أنفه بمطرقة لأنه أراد أن ينحت تمثالاً جميلاً، لا أنفاً جميلاً فقط. ويحن الحوت الأزرق إلى أن يطفح وراء أي حد، ومقياس، ونظام. فيه حس ما ورائي، مجنون، بالحرية. حس نجده، مثلاً، في موسيقى زياد رحباني. ومن العرب، فيه هذا الذي نهتف عندما نسمعه «الله! الله! يا شيخ!». وفيه بياض الثلج، ونقاء الملائكة.

ودائماً ستجده يلعب عند هذه الحافة الشفيفة بين المسمى، واللامسمى، عائداً إلى هذا الزمن الكنعاني عندما لم يكن هناك بعد اسم للأرض أو للسماء، والكون عماء. إنه برج الطفل النبيّ.

والطفل النبي ليس «طفلاً»، بل حوتاً أزرق سبح في الأغوار، بين بحارة صاروا شجراً من المرجان في القيعان، وعلمته الرقص متاهات كبرى، أي نضج، وبعدها رجع طفلاً. ومن أسمائه الـ

«عبقري»، عند بودلير، وال «عراف»، عند رامبو.

ويحب الحياة أكثر مما يمكن لأحد أن يتخيل. يشبه اللقطة الأخيرة في فيلم «الراكض على نصل (الخنجر أو السكين)»: لقطة لإنسان ـ آلة، على ظهر ناطحة سحاب، تحت زخات مطر، وقد بقيت له عدة ثوانٍ فقط ليموت، وفي يده ألد عدو له، إنسان ما، فيقول لعدوه هذا: لن أقتلك، لأنني أحببت الحياةً أكثر مما يمكن لك أن تتخيل، ويفتح يده نحو السماء الماطرة، فتطير منها أسراب حمام أبيض، أبيض، أبيض. يا إلهي كم كان الحمام أبيض، أبيض، أبيض. وبرجه، عندي، «الحوت الأزرق».

|

مثلاً، زارنا فرنسوا في البيت الذي قرب الرمل. وجد في الجبل سنبلة يابسة، أعطاها لآثر قائلاً: «هذي شو؟». فكّر آثر قليلاً وهو يقلبها بين يديه، ثم أجاب: «هذه؟ لكي نقرع بها الجرس!». «أي جرس؟» «جرس العالم». «وكيف صوت جرس العالم؟». ضحك، وقلد صوت سيارة اسعاف كان سمعه لما زارني في مستشفى رام الله.

الطفل، بطبيعته الأولى، والبدئية، يرى الدنيا بطريقة «ملتوية». هذا فن. كان لوركا يقول إن الفن «تجنب»، كما في مصارعة الثيران: فأي أبله يمكنه أن يلقي بنفسه إلى التهلكة على قرون الثور، ولكن الفن أن يلقي الميتادور (مصارع الثيران) بنفسه على القرون، ثم يتجنبها، في آخر برهة. وهذا الجبل «قرن ثور»، وعليّ أن أتجنبه في آخر برهة. وأن أراه بطريقة «ملتوية»، كطفل.

مثلاً، صرت أتخيل، كآثر، الجبل «جرساً» من نحاس أحمر، جرساً مقلوباً، ونباتاته وصخوره مسبوكة من نحاس، وتلمع تحت قمر أحمر يبدو مثل وجه إلهة مطرقة ومغمضة العينين. وأتخيل أنه سيرن، لو مشيت أنا وآثر عليه، كأننا «سنبلة تقرع جرس العالم». لو مشينا عليه، قرب خط الشفا، سيتخلص الجبل من «ثقله»، ويرن، يرن، كأن خطانا عليه عصا من نحاس في يد كبير من كبار موسيقاريي الجن. وتأتي الغريريات مسحورة برنينه، والثعالب، والأفاعي، والناس، وكل كائنات هذا الجبل، وتسمع هذه النغمة الجديدة لذاكرة عادت إلى أولها، ويمتد الجبل فيها، كأصوات الوحوش الممتدة في حنجرتي.

نعم، نعم، نعم. ما دمت لا أميز بين أصوات تفيض عن حنجرتي وصدري، وبين أصوات الوحوش هنا، أي ما دام صوت الجبل يمتد في صوتي «مدّ الزيتون في الزيت»، فأنا هو، وهو أنا، ونحن معاً جرس العالم، أو «برقية الحنطة في مرج الرصاص».

ولأنني منحاز للحنطة، أمسكت آثر من يده، ومشينا نحو خط الشفا. سنتوغل في الذي يخيفنا، في «الحديد» الذي يخاف منه القمر، لكي نسبك منه عودتنا إلى ناي «قدورة» أو ربابته، بالجرأة.

فجأة سمع صوت وحش غريب. «حسين، هذا شو؟». «لا أدري». قبض على يدي خائفاً وقال: «ارجع، ارجع.» ورجعنا. فشلت العودة! وفي نفس الليلة التي أتحدث عنها، جرّت الثعالب فراشي نحو هذه البقعة التي قال لي عندها «ارجع، ارجع.»

فتحت الراديو لأستمع للأخبار. المستعمرون يحرقون جبل زيتون في قرية ما في الشمال. وتخيلت المشهد: الدخان والنار، والريح تسفوهما في الأفق، والوهج يضيء الأودية في نسخة أخرى، ومن نوع آخر، عن فيلم «الصحراء الحمراء». قال آثر: «حسين، لا تسمح للراديو أن يتكلم عالياً.» «لماذا؟» «ستخرج منه حية!». طيب. طيب. وضعت شريط موسيقى. «حسين، في الموسيقى صرصور.» يا إلهي من هذا البيت الذي قرب الرمل! عدت ولكن لم أعد!.

|

لا يعود أحد إلى أوّله، ولو لماماً، إلا إن عاد إلى تاريخه، إلى نفسه في تاريخه. مثلاً، كنت أبحث عن مدينة لاسمي. وفقط في التاريخ يمكن أن تكون لأي اسم مدينته. مثلاً، في «البتراء»، هذه المدينة التي نحتها في الصخر الوردي «نحاتو الزمن» من العرب القدماء.

هناك، وأنا قاعد مع بترا وآثر، أمام «أعمدة الخزنة»، وأراقب سائحاً «يعشق جمع الصور»، وجملاً عليه سجادة بدوية مطرزة بأشكال هندسية، وكلباً ضخماً للحراسة، شعرت أنني ابن هذا الإرث. وتتأرجح روحي أمامه بين الصخر والرماد، بين الأهرامات والأغاني العابرة. من هنا جاء الخط النبطي الذي جاء منه الخط العربي الذي أكتب به. نحتوا مدينة في الصخر، وأخرى في الخط. وأنا؟ من مواليد «خارج الزمن»؟ بقي لي جمل يركبه سائح في عنقه كاميرا؟.

خسارة، قلت لنفسي، أن تمر على سطح الأرض، ولا تغير شيئاً، أو تترك أثراً، خسارة، يا ابن هذا الإرث العظيم! خسارة أن تولد وتموت في زمن مهزوم، بوعي مهزوم، وخائف، وحتى اسم ابنك، «آثر»، حسبوه «آرثر»، اسماً غريباً، اسم من استعمروك، ولم يخطر ببال أحد أنه من «لسان العرب»! خسارة أن تفقد نفسك إلى هذا الحد. هل هذا التشرد من التاريخ، أو «فيه»، هو ما يجعلني أبحث عن مدينة لإسمي، ولا أجدها؟ سر تشرد اسمي نفسه؟.

في مدخل البتراء دفعت «ثمن تذكرة» للدخول، ثمناً عالياً لا يدفعه إلا سائح أجنبي، وعبثاً حاولت أن أقنع الموظف أنني لست «أجنبياً»، عن إرثي، وإرثه! عندما يفقد أحد ماضيه تماماً، تستطيع أن تصنع بمستقبله ما تشاء، لأنه قد فقد «ظله» الممتد في التاريخ. هذا الصخر الملون في بتراء ظلي، أنا الذي قدره فقط أن «يراقب»، و«يرى»، و«يمر»، ولا «يتدخل»، ولا ينحت، ولا حتى يحتج، ويحمل ورماً ملتهباً، سيلاً من خلايا حمراء في فلقة رئته اليسرى.

بقي لي جسدي، من كل هذا الإرث، بقايا جسدي، بالأحرى. بقايا تشبه أغنية فيروز:

«يا شجرة الإيام، غيّرنا الهوا فرفطلنا الورقات وعرينا سوى
يا شجرة الواقفة بمهب الهوا مثلك أنا: شجرة على مفرق طريق!»

هذه أغنية جسد شلح تاريخه أو شلحوه إياه، ويشعر، تحت هذه الزيتونة المقمرة، أنه «خارج الزمن»، وحده، ليس حلماً، بل انعكاس حلم. والفرق هنا «حرف راء» به يصبح آثر، مثلاً، «آرثر». ما دام الحاضر «قرن ثور» عليّ أن «أتجنبه»، كي تستقيم رؤاي.

منذ زمن وأنا أطير كعصفور سفته الريح، بطريقة «مائلة»، وأتجنب، كي أرى. مثلاً، تعرفت على زوجتي، بترا، في ستوديو كنت أسكنه في رام الله. وقبل أن تأتي، وأتعرف عليها، كنت،

ليلاً، أرقب ظلي على جدران البيت، تحت ضوء شمعة، وأشعر وكأنني هو، أو كأن ظلي هو الذي يرقبني، وأبدو «مسطحاً»، مثل هذا العرّاف الجاهليّ، «سطيح»، الذي كان يطوي جسمه كثوب ويمكن أن يرتبه في خزانة.

وعندما تنقطع الكهرباء، مثلاً، تغمر العتمة كل شيء، تختفي كل ظلالي، ويبقى جسد ـ كتلة صماء لا ظلال لها، أتحسسها وكأنها جدار من الإسمنت الخشن. شعري نفسه بدا وأنه ينمو من جلدي كالأقحوان، والسنابل، وكأنني حقل، أو تل أثري، أوليس هذا حنيناً إلى التاريخ؟. وفي ليلة ما، في حمام الأستوديو هذا، وقفت أمام المرآة، تحت إضاءة كهربائية صفراء، خافتة: وحدقت في وجهي، وكأنني شخص آخر.

كان شعري طويلاً جداً، وأشقر وأجعد، ويتدلى ضفائر على كتفيّ، وكان مبتلاً، والماء يقطر منه على عينيّ، وحاجبي، وشفتيّ. وفجأة رأيتني كث الحواجب، عجوزاً كهلاً وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً، بشفتين غليظتين في غاية الحمرة، وعينين غريبتين تسبران الغيب، ولا تريان ما أمامهما، وشعرت بأنني تايريزياس، عراف معبد دلفى، في القرن الرابع قبل الميلاد. لست من هذا الزمن. وبدأت أنشد من قصيدة «الأرض الخراب»، لـ ت. س. إليوت، «وأنا، تايريزياس، الذي رأى كل هذا..».

وخرجت من الحمام إلى ساحة مزروعة بالليمون واللوز، والنجوم، حول الأستوديو، وأنا أكرر: «وأنا تايريزياس الذي رأى كل هذا..» ورأيت رام الله، بنت هذا التاريخ المختل، وقلت: أنا الشاهد الأوحد. اللهم فلتشهد!

أتت بترا إلى الساحة. وتعرفت عليها بين اللوز. وتزوجنا. وأصبت بالسرطان. بدأ شعري يتساقط من العلاج الكيماوي. وقفت أمام مرآة أخرى في بيت آخر، وليل آخر، وضوء آخر، في بيرزيت، ولمست شعري: كان جافاً، ولا أشعر به، وشبيهاً بأسلاك معدنية دقيقة. وكلما وضعت يدي على خصلة شعر خرج بعض منه بين أصابعي، أو سقط في المغسلة. «وأنا، تايريزياس، رأيت كل هذا..» وقلت لنفسي: عد إلى تاريخك، «أنت وحدك عدم»، كما قال شكسبير، حتى تايريزياس كان الناطق الرسمي باسم الآلهة، وليس وحده.

حلقت شعري كله، بشفرة، وبزغت صلعة تلمع في صفرة الضوء، كهوية جديدة، ومدهونة بزيت الزيتون.. كنت تايريزياس الأكثر نضجاً، ولكن لم أدر ما اسمي الآن. ولا ما هي مدينة اسمي. وقهقهت من شكلي، وأناي وهناي، وما علي أن أكون.

كنت، في نظر غيري، ربما، صاحب شعر طويل، أشقر، محض متمرد ثورته لا تتجاوز شكل شعره. والآن يبزغ أصلع فقد «علامته المميزة». هويتي تأتي من تاريخي، وروحي، وليس من شعري وصلعتي. ولكنهم شلحوني تاريخي، ولم أعد إلا شجرة على مفرق طريق. والسرطان يحاول أن يشلحني جسدي؟.

فكرت، وأنا أحدق في المرآة، أن كل ما يلزمني ثوب طويل أصفر، يليق بعراف، أو بطفل نبي، وصندل جلد قديم، وأظافر أقدام فظة تصلح حتى لعبور المستنقعات، وأن أرحل، بحثاً عن اسم

لي، وعن مدينة لاسمي، في تاريخ هذه البقعة من التاريخ. سأمر على طيبة مصر، وبيبلوس، وبابل، وتدمر، وبترا ء، والأندلس، ولو كان صندلي زنبقة بيضاء في خطوة من خراب.

مرت مدة وأنا أنادي على نفسي، بيني وبيني، باسم تايريزياس هذا. كنت أبدل اسمائي ومدن إقامتي، بالمناسبة. مرة كنت «مردوك»، كبير الآلهة البابلية، ومرة أمرأ القيس، ومرة غلاماً يروي شعر المتنبي في حانات حلب في العصر العباسي، ومرة عبداً أسود شارك في «ثورة الزنج» في القرون الوسطى، واشترته غانية من أصفهان، ومرة زرت «سيدوري» صاحبة الحانة في «ملحمة جلجامش»، ومرة صعلوكاً مع «الشنفرى» الذي

«يرى الوحشة الأنس الأنيس، ويهتدي
بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك».

ومرة كنت واقفاً مع خادمين من روما، أمام باب قصر في مصر، عندما خسرت كليوباترا معركة «أكتيوما»، فمرقت مسيرة تنشد عن نصر وهمي:

يومنا في أكتيوما
ذكره في الأرض سار
سائلوا أسطول روما
هل أذقناه الدمار!

وسمعت خادماً منهما يعلق على النشيد لصاحبه، في مسرحية «كليوباترا» لأحمد شوقي،

«أنظر الشعب، دَيونَ،
كيف يوحون إليه!
يا له من ببغاءٍ
عقله في أذنيه!»

ويا إلهي، كم كنت وَحدي، أحياناً. وكأنني هذا الشاعر الذي كان يطوف في أصقاع موحشة لا أثر فيها لكائن حي، وفجأة:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى   وصوّت إنسانٌ فكدت أطيرُ!

وهكذا، وهكذا. وأدركت أنني لست شَعري، في سفري، ولو سقط خصلاً خصلاً، ولا لحمي، ولو حرقوه في نار بوذية، ووضعوا رماده في إناء من التوتياء، وقالوا لي: «هذا رمادك فابك عليه». لا بد من حب، ومن جمال. » الجمال لن ينقذ العالم، ولكن الجمال في العالم يجب إنقاذه»، قال كاتب ما.

بعد ثلاثين عاماً من منفى طوعي عن الجبل، رجعت إليه، إلى جمال سبق ونسيته، أو حتى خنته. من يعرف من أهل هذا الريف أنني كنت في طيبة مصر، وجالست كهنة الكرنك، ورأيت خنزيراً برياً يقتل الإلهة «النعمان» في فيء الصنوبر في غابات لبنان فيبزغ من دمه قطيع الاقحوان، وضاجعت في ما بين النهرين عاهرة مقدسة عند النبع البارد قرب مدينة «أوروك»، ثم شربت خمرة، وأكلت خبزاً في «أورك»، لأن هذا هو سبر البلاد، وعاداتها الأولى؟ من يدري أين

كنت؟ لا أحد، ولا أحد سيدري أين أذهب!

وأخيراً ها أنا في البيت الذي قرب الرمل. كل ليلة تجر الثعالب فراشي من تحت الزيتونة المقمرة إلى وسط الخلاء. لم ألق لها أكلاً، ولا قمامة في كيس بلاستيك أسود، منذ ليال. ولم تجيء الثعالب، منذ ليال، أيضاً. وشعرت بعزلة، غريب كم شعرت بعزلة. كان بإمكاننا أن نكون أصدقاء، أنا والثعالب، والنسناس الذي يحدق فيّ كل ليلة، والقطط البرية، والأفاعي، والعقارب، ونمشي عند خط الشفا معاً. كان بإمكاننا. ولكن الثعالب لم تجيء، منذ ليال. وحزنت، وسهرت أنتظر منها أن تستألفني.

|

وبقيت قاعداً فوق كرسي قش في فيء مقمر، فيء من أيام البيزنطيين، فالزيتونة «رومية»، وأسمع عزف ناي غامض. وطلع الصبح عليّ. ضباب أبيض جداً بدا وكأنه تجمد في أغوار الأودية، وجلدي يستحم في لسعة برد منعشة، وبدأت عصافير تزقزق في الجنائن، وبداية شمس، ونمل بأجنحة، وحياة تستيقظ.

قرب البيت الذي قرب الرمل طريق من حصى أبيض، بدت شبه مقمرة، ربما من حمرة التراب حولها، في جنائن تين. فجأة لمحت شيئاً بنياً تحرك واختفى في الطريق. حدقت جيداً، في ضوء غامق، فرأيت حيواناً غريباً لم أره في حياتي أبداً، غريباً عن الجبل تماماً: أحمر حمرة داكنة أقرب إلى البني، وشعر ظهره يشبه مشطاً منفوشاً، وقائمتاه الأماميتان عاليتان. ضبع! يا إلهي! آجلاً أو عاجلاً سيأكل آثر، وقد يخطفه في ليلة ما. ولكن ساورني شك فيما أرى. الضبع أسطورة الجبل، ولكن هذا الكائن غريب عنه، وليس ضبعاً. حدقت أكثر.

خلفه حيوان صغير آخر، ابنه، ربما. أحمر حمرة داكنة أقرب إلى البني، مثله، ووجهه مغمور في ندى الطريق، ويشمشم شيئاً ما. وخطر ببالي أنني رأيت كائنات كهذه في كتاب «الصيد في الفن». هذا خنزير بري! ولكن قد يكون ضبعاً، فقوائمه الأمامية عالية كقوائم الضبع. لا، لا! هذا الشكل هو الذي رأيته في كتاب «الصيد في الفن»! خنزير بري! ولكن ماذا لو كان ضبعاً؟.

كنت منهكاً، من ورم في فلقة الرئة اليسرى ازداد إلى ٣٧ سنتمتراً مربعاً. مجرد المشي عشر خطى ينهكني. لا أستطيع دفاعاً، من أي نوع كان، لا عني، ولا عن آثر. مشيت في الجنائن نحو هذا الكائن. هكذا، عارياً من كل نية في أي عدوان، كنت أريد أن أرى وجهه، وهل هو ضبع أم خنزير بري. ونسيت تماماً أنني فريسة سهلة في كلتا الحالتين.

بدا وكأن قوة حب استطلاع خالصة لوجه الله تعالى تسوقني سوقاً إلى موتي. مشيت إلى الحيوان ببراءة تقترب من البلاهة. واقتربت، فانتبه. رفع رأسه عالياً، وحدق فيّ بين التين، ولكن لم أر وجهه بوضوح. حاولت أن أرى، فقط أرى. وفجأة غاص، نحوي، حافراً وعافراً حمرة التراب بظلفيه، ووجهه نحو الأسفل. بنطحة منه قد يكسر شجرة!.

وبقيت واقفاً. حركته بدت كوميدية، مخلّعة، وكأنه عجل، وليس وحشاً. ابتسمت من حركته. كان مندفعاً بكل كتلته. ولما صار على بعد عشر خطوات فقط مني، كنت لم أزل أحاول رؤية

وجهه. وقف تماماً. ورفع رأسه إلى الأعلى، وأذنيه. وحدقنا في بعضنا. كان وكأنه شم نواياي - للنوايا رائحة، كالعرق، والخوف، مثلاً -، ولم يعد يدري ماذا أريد منه، ولم أدر ماذا يريد مني بالضبط. وركزت في وجهه، هكذا، ببراءة، فازداد حيرة. نظرت إلى ابنه، أو ابنته، كائن أحمر صغير يمشي بسلام في الطريق البيضاء خلفه، ولم يزل يشمشم التراب بأنفه. وفهمته: هو أيضاً يدافع عن صغيره، ويحاول أن يطمئن على صغيره، الذي له «بيت قرب التين»، ربما.

وقفنا بين التين، زمناً، وحدقنا في بعضنا. وخطر آثر ببالي. استدرت ورجعت، ثم نظرت خلفي، فرأيته وقد استدار هو الآخر، ورجع. نظرت من الشباك إلى آثر وأمه: كانا نائمين، بسلام. وأردت أن أوقظهما كي يريا أصدقاءنا الجدد! نظرت إلى الخنزير البني: كان يمشي قرب صغيره ناسياً تماماً أننا التقينا، وكان بإمكاننا أن نكون أصدقاء.

|

فاستدرت إلى عالمي الخاص. كنت أحاول أن أتخيله، عم أمي، قدورة هذا، حين كان يعزف على ربابته فوق سطح «الدير الجواني»، ويشرف على أودية عميقة ومقمرة، وجنائن محروثة، ومزروعة. كنت أحاول أن أتخيله حين يشعل ناره، ليلاً، ويدخن «أرجيلته»، وأمي تحمل جمرة في ملقط إليه.

وسألتها، تحت الزيتونة المقمرة:

«هل كان يزوره أحد هناك؟»

«نعم، نعم. كانت ثقة الناس ببعضهم أكثر من اليوم، أملهم في بعضهم أكبر. كنا نترك المفتاح فوق الباب، ونضع «زير» فخار فيه ماء، في الخارج، لمن يأتي، كائناً من كان، كي يشرب.»

«ومن كان يزوره؟»

«الغجر.»

«غجر؟»

«نعم.»

«وهل كانوا يغنون ويرقصون حول النار في الجبل، ليلاً، وخيولهم تأكل علفاً قربهم؟»

«لا، لا! سمعت من شيوخ قبيلتنا عن غجرية كانت تأتي وتمشي على الحبل، وتغني، وعن رجل معه قرد يقوم بحركات بهلوانية، أو «صندوق عجب» يروي به سيرة بني هلال، وعن منجمين. كنت صغيرة، أيامها، وأذكر أن غجر الدير الجواني كانوا صيادي غزلان. ينصبون فخاخهم ويسهرون مع قدورة على سطح الدير.»

«وكيف كان يسهر معهم؟»

«يغني لهم على ربابته من سيرة الزير سالم.»

|

يقول غجر فلسطين إنهم عرب قدماء من «ربع جساس»، وطردهم الزير سالم من النقب، وسموهم «النَوَر» نسبة إلى النور، أو النار، ربما. ماذا كانوا يرون في النار، ليلاً، في الدير

الجواني، حين يحدقون فيها، ويسمعون سيرة الزير سالم؟ مدينة اسمهم»؟ وربابة قدورة، هل أرجعتهم على وتر مفرد نحو «أصلهم»؟ كانت عرافة نورية تأتي إلى بيتنا، وأنا طفل، بثياب ملوّنة، ووشم أخضر مثلث على ذقنها، ومعها «صَدَف»، وقواقع بيضاء، تنثرها على المصطبة، وتقرأ البخت. فتنتني غرابة عالمها. وبعد عقود، كنت أنبش في شعر الغجر وأغنياتهم في هنغاريا، وأزور حاناتهم، وأغانيهم، وأحببت من شعرهم قول باري كاروي،:

«يا اخوتي السبعة
وقد نثرتهم الريح، ليلاً، على صخور سبع
عليكم ألقي قميصي الوحيد.»

والعرافة لم تزل قاعدة في بداياتي، تنثر عدة أصداف على المصطبة، وتقرأ الهيئة التي ترسمها الأصداف،

«وأنت من وين؟
أنا من بلد الحكايات».

ولكي يكتمل الوهم الغجري، سماني أبي «النوريّ»، وقالت أمي إنني طفل جلبه الغجر معهم، ذات يوم. ومثلما كانوا يحدقون في النار في الدير الجواني، ووهجها يشع على حفر في ملامحهم، ويتذكرون أصل اسمهم، وفصلهم في «حكايات» الزير سالم، أحدق في ذكريات أمي عنهم، وعن ربابة قدورة، فأعثر عليهم في ذاكرتي قبل أن أولد! أي أن «بداياتي» ليست نقطة، بل نجمة مشعة!

وبعد عقود كتبت أغنية «عن أصلي النوري» هذا، «أصلي نوري، هذا قدري»، وأعيش على الأشياء القديمة، وعلى بيع الخيل، والعملة القديمة، وخلاخل فضة، وحكايات. وشاركت في فيلم وثائقي عن هؤلاء «الغرباء». يبدأ بلقطة لـ «نورية» تشبه تلك العرافة، حين تدخن، قاعدة أمام نار غامضة، وبوشم على ذقنها وشفتيها، وصوت عميق وأجش، وتتنبأ بأزمنة صعبة آتية ـ نبوءاتها من «سيرة الزير سالم». ولكن لقاءات الثقافة العربية والغجرية أقدم من هذا:

قيل إن الغجر وصلوا اسبانيا في ١٤٧٧ ميلادية، أيام حكم العرب للأندلس. ومن الأغنيات الشعبية الأندلسية والتراتيل الكنسية البيزنطية، وأغاني اليهود السفارديم، والعرب المسلمين، وأغنيات الغجر الغامضين هؤلاء، تبلور غناء متطور بلون روحي عميق يدعى «الأغنية العميقة» ـ ومن هذه جاءت «الفلامينجو».

وكتب لوركا أول ديوان شعر له مستوحى من هذه الأغوار التي لنا، نحن العرب، وللغجر، سهم فيها: «قصائد الأغنية العميقة» ـ عن نهرين لغرناطة: الأول يبكي والثاني من دم، وعن نهر له سوالف من ورق الزجاج، وعن

«بلد قديم
لمصابيح زيت، وحزن
بلد صهاريج عميقة

بلد
موت بلا عيون
وسهام.»
وعن عمياوات يحدقن في القمر. وهكذا، وهكذا. ـ

أحب لوركا. وقبل أن يولد آثر في مستشفى الهلال الأحمر في رام الله، فكرت أن أسميه «لوركا»، كي يرحل في مدينة اسمه، ويصل الأندلس، ويكون اسمه شبه هذا القمر الأحمر فوق الجبل، الذي يشبه إلهة مغمضة العينين وتتأمل، ويكون اسمه «واقفاً فوقه»، في حلمه، حين تأتي عرافة غجرية، وتغني له، بصوت كالحوريات، قول محمود درويش:

«وسآتي مثلما في كل ليلة
أفتح الشباك في الحلم، وأرمي لك فلّة.»

ثم تعطيه صدفة بيضاء تشبه هذا القمر الشاحب الذي يبدو «صدفة مغسولة بمياه الزمن حين ترتفع وتهبط بين النجوم، وتنكسر إلى دقائق وسنين». ويكون لتلك الصَدَفة رائحة أنثى، وملح بحري، وعطر إن شمه سوف تمشي روحه نحو الأندلس، ونحو «قصر الحمراء»، ونحو نهر له سوالف من زجاج. وتنتشر روحه من الأندلس حتى بتراء، ومن بابل حتى الكرنك، ومن الغجر حتى الزير سالم.

«وأنت من وين؟
أنا من بلد الشبابيك.»

وبداياتي ليست نقطة بل نجمة مشعة. ومن أشعتها الغجر الذين يعرفون أمي، وأرجيلة قدورة، وربابته، والدير الجواني، وأصلهم في حكاياته عن الزير سالم. وهذا أيضاً من التاريخ الذي شلحته، أو شلحوني اياه. خسارة، يا ابن هذا الإرث العظيم.

من يعرف من أين جئت؟ ولا أحد! ولا أحد سيعرف أين أذهب!

مررت على «الأغنية العميقة» هذه، وأنا عراف يلبس ثوباً أصفر، وتلتقي فيه جميع الأنهار، لكي يصبح «خريفية». قعدت، مرة، في الليل، عند الشاعر الأميركي، إدجار ألن بو، في القرن التاسع عشر، وهو يكتب قصيدة لها عنوان عربي: «العراف»، حيث «كل الطبيعة تحكي، وحتى الأشياء السامية ترفّ أصوات غامضة الظل من أجنحة رؤيوية». وحلمت بزيارة واحة «سيوه»، في صحراء ليبيا، حيث قيل إن الإسكندر المقدوني دفن هناك، حيث يوجد معبد أمون ـ رع، وقيل إن الإسكندر نفسه ذو أصل مصري. لي جذور في مصر، وفي الإسكندر المقدوني، في «ذي القرنين» هذا.

قيل:

كان «نيكتانيبوس» ساحراً مصرياً ـ حكم مصر في حوالى ٣٥٨ قبل الميلاد ـ وعرافاً، ومنجماً، ويمتلك القدرة على أن يجعل الناس يحلمون. ومن عاداته، حين يهاجم مملكة مصر عدو من البحر، مثلاً، أن يدخل غرفة خاصة بالسحر في قصره، ويصنع تماثيل صغيرة من شمع، للأعداء والأصدقاء،

ويضعها في وعاء ماء، ثم يرتدي ثياب نبي مصري، في يده قضيب من الأبنوس، ويدعو آلهة مصر، ومنها آمون أو آمين، كي تغرق بقوة الكلمات السحرية أعداءه في البحر أو في الإناء، لا فرق.

في ذات يوم لم يغرق تمثال واحد، وحاربت آلهة مصر في صفوف خصومه، فوق ذلك، وأدرك أن مملكته على وشك الزوال. فتنكر في زيّ إنسان عادي، وهرب في سفينة إلى مقدونيا، ليعيش ككاهن وعراف مصري هناك.

وهناك، بعث «حلما» إلى أم الإسكندر المقدوني، أوليمبيا، يوحي إليها فيه أن الإله أمون المصري سيزورها في حلمها، ويناكحها، وتحبل بذكر هو إبن «أمون». وحبلت أوليمبيا من أمون. وحين جاءها المخاض، كان نيكتانيبوس هذا قربها، وأمامه طاولة عليها كان رسم مدارات الكواكب، وكان يقرأ كتابة السماء، ويهيب بأوليمبيا أن تؤجل ولادتها. ولما لمع وميض غريب بين النجوم، يشير إلى بخت سعيد، نظر إليها وقال: «الآن، الآن، أيتها الملكة، لِدي من سيحكم العالم»! وأبرق برق، ووقع الطفل على المصطبة. (انظر/ي واليس بدج. السحر في مصر القديمة. ص ٩٥ - ٩٨، ١٩٦).

أيامها، في مصر، كانت قد تكونت وحدة غيبية بين إلهين فرعونيين: «رع» (إله الشمس)، و«أمون». ومن رموز «أمون ـ رع» النسر الذهبي. ويقال إن نيكتانيبوس بعث «نسراً» إلى حلم فيليب، زوج أوليمبيا، يخبره أن الإسكندر ليس ابنه، بل ابن أمون.

واجتاح الإسكندر المقدوني العالم القديم. وبنى الإسكندرية، وذاب، كغيره، في إرث هذه البقعة من العالم، وإرث فلسطين من جملته. وظل الإسكندر قلقاً من «هويته»، وممن هو بالضبط. فذهب إلى عراف في واحة «سيوه»، في صحراء ليبيا، كي يستجلي أمر نسبه، فقال له العراف إنه ابن الإله «أمون»، وليس ابن «فيليب». ولأن جذور أمون هذا في العبادة القمرية، أعتقد الإسكندر أنه إله قمري، وأصدر عملة عليها صورته وله «قرون» (كالهلال). وصار يرغب أن يخر له أتباعه ساجدين. مات في مصر، وقيل إن جثته نقلت إلى واحة سيوة، ودفن هناك، حيث يوجد معبد لأمون ـ رع.

ورأيت، قبل مدة، تقريراً في التلفزيون عن عالمة آثار تنقب في «سيوه» هذه عن قبره. ولكن، كما قال لي رسام فرنسي التقيت به في «لوديف»، منعوها من التنقيب، وسيجوا البقعة كلها!.

أعني أن من المبتذل أن يكون الواحد ابن أمه وأبيه، كما يقول نيتشه، يمكنني أن أكون ابن الإسكندر المقدوني هذا، كما كان الإسكندر نفسه ابن أمون، وليس ابن فيليب، ويمكنني أن أكون ابن بطليموس، أو المتنبي، أو جلال الدين رومي، أو الأغنية العميقة، أو وتر ربابة. كي أتجنب «قرون الثور»، أقول من المبتذل أن يكون الإنسان ابن أمه وأبيه.

ثم التقيت بهؤلاء الذين عادوا ولم يعودوا إلى الجبل، و«كانوا كما كانوا، سليقة كل نهر لا يفتش عن ثبات». وها أنا هنا، بعد كل هذه الرحلة، في بيت صغير وأبيض، مع ابني وزوجتي، وأنا هو، هذا القاعد تحت فيء زيتونة مقمرة، وتسحب الثعالب فراشه إلى بقعة في الخلاء، أنا

هو، هو نفسه. وهذا البيت الذي قرب الرمل بيته هو، هو نفسه. تحرسه زيتونة، أو ولدته أمه «في البستان الدافيء يحرسه حجر أخضر»، هذا هو، هو نفسه. ليس أسطورة أو محض خيال، بل خريفية من خرايف الجبل، والدير الجواني!

«وأرى...

أرى ما أريد من السلم..»

وهذه العجوز ذات السبعين عاماً أمي، منهمكة في زراعة ثوم، وبندورة، وبصل بلدي، حول البيت الذي قرب الرمل، في أحواض حجر بدائية، نفس أنواع النباتات التي كانت تزرعها في الدير الجواني، قبل أن تتزوج، وقبل أن يزرع لها أبي جنائن بيتنا باللوز، فهي ترجع نحو «ذاكرتها القديمة»، وتفيض حيوية، وأنا شفيت من السرطان، وتزرع لي، ولآثر، وبترا، كل مكونات صحن السلطة الذي سأحتفل به بالحياة. وفي الربيع، بين النحل، ونوّار اللوز، وطريق النمل، والشمس والعصافير، سأتعلم العزف على الربابة، وأقعد فوق بيتنا، وأعزف، مثل قدورة بالضبط، وأشرف على أودية عميقة ومقمرة، وجنائن مزروعة، وأختتم بهذا دورة أخرى من دورات التناسخ الأبدي، دورة أخرى، وخريفية جبلية أخرى. بداياتي نجمة مشعة، ونهاياتي كذلك.

ويوماً ما، سيعرف الجبل أنه اختار الثبات، كمدينة البتراء، واخترت الحركة، كالنار، والهواء، والأغنيات، والحكايات، وقصص الجن، ولا بد أن نتعارف ثانية، ولو في لحن ربابة!.

الجبل بدايتي الأولى، ودفعته إلى «أقصاه»: أوصلته إلى الإسكندر المقدوني، والمتنبي، وأمون، ورع، ورأس الرجاء الصالح، ولاو ـ تسو، وبوذا، وجلال الدين رومي، وبودلير، وماركيز، وميشيما، وغير هذا الكثير، والكثير جداً. وفيّ وصل هو إلى أقصاه، وصار هو، هو نفسه. وأنا أدري ببداياتي، فهل يتعرف هو، هذا الجبل نفسه، هل يتعرف، في ملامح وجهي التي تتكون كأسطورة غاية في الغرابة، على أحد أقاصيه، واحدى نهاياته؟ هل يتعرف هذا الجبل.. هل.. في ملامح.. على أحد.. أقصى، ونهاياته؟ أنا من غريرياته، وآن له الآن أن يراني، على هيئة غريريا تصعد الجبل نحو القمر الأحمر الذي يشبه إلهة مغمضة العينين وتتأمل فوق «خط الشفا»، ويقول لي: هناك، هناك، ألا ترى؟ هناك، سلالم الروح إلى سماء الحديد الفرعونية فاصعد!.

اللهم فلتشهد! اللهم فلتشهد! وليغنّ الجبل!

قصص عن زمن وثني

حسين جميل البرغوثي

هذه قصص عن هذا الزمن الغامض ـ الواضح، الذي سمّاه القرآن الكريم «جاهلية»، ويمتد إلى أكثر من مائة وخمسين سنة قبل مجيء الإسلام في القرن السابع للميلاد. وتدور حول برهنة نقطة واحدة: كيف بزغت بحور الشعر العربي من عبادة الربة القمرية البيضاء، عشتار، وهيئاتها المختلفة التي كانت تعرفها العرب.

ليس هذا «بحثاً» فيه أحفظ شيئاً وتغيب عني أشياء، بل حدوس، وتخيلات، وشطحات، أيضاً، ورغم ذلك مزروعة في التاريخ الفعلي. غايتي سبر طريقة التفكير، والإدراك، الذهنية الجاهلية ذاتها، سحرها، ومعتقداتها، وكيف كانت ترى ما ترى. فأحلم التاريخ أكثر مما أتبعه، وأتبعه أكثر مما أخونه، وأحاول أن أقبض على حلم وثني لم يعد موجوداً، وأركز على معلقة امرىء القيس تحديداً، وأربط بين معلومات متناثرة لم يربط بينها أحد حتى الآن، كي تبزغ صورة مذهلة لعبقرية قديمة لم تزل أكثر من معاصرة، لمن يتأملها جيداً.

هذه عبقرية جذورها الأولى ضائعة، وتطل من نتف مفككة، من هذا الطراز أو ذاك، من أساطير وحقائق، ذكريات ونبوءات، سجع كهان ومعلقات، روايات وروايات مضادة، مطلسمات وموضحات، في زمن ـ أسطورة قدره أن تنسج عنه أساطير أخرى، تنسج عنها أساطير أخرى، وتلوح وكأن لا رأس ولا ذنب لها، أو ركاماً ينقض بعضه بعضاً. وأحاول أن أحلمها، فأسقط روايات وآخذ بأخرى، كي أقبض على «نواة الروح»، فبعد هذا فقط يمكن فهم سرّ تضارب الروايات عن هذه الذاكرة التي لم تزل تتوالد، متجهة نحو المستقبل. وقد يكون كل ما قلته خدعة، أو وهماً فنياً، فهذه، في نهاية الأمر، محض «قصص» غريبة عن أزمنة أغرب.

|

أيامها، كانت «الأشياء» تنطق، والحجارة رطبة وتحلم، وكانوا يعبدون الحجارة، والإبل، والنجوم. رجل يدعى «قيس»، قيل: إنه هو نفسه امرؤ القيس، جاء إلى كعبة «ذي الخلصة»، وهي كعبة «مؤنثة» من بقايا عبادة عشتار: صخرة بيضاء عظيمة، أعلاها منحوت على هيئة إكليل. وكانت العرب تعلق عليها بيض النعام الأميل للصفرة، والسيوف، والحليّ، والقلائد.

قعد امرؤ القيس أمام ثلاثة «قداح»، وهي أسهم من خشب بلا نصل ولا ريش، كُتب على أولها: «الآمر»، ومن يسحبه ينفذ ما ينوي عليه، وعلى الثاني كتب «المتربص»، ومن يسحبه، ينتظر ويتربص، وعلى الثالث، «الناهي»، ومن يسحبه يكف عن فعل ما نوى.

كان امرؤ القيس أميراً شاباً، ماجناً، قيل: إنه راود حتى نساء أبيه عن أنفسهن، فطرده أبوه من البيت، وتصعلك زمناً، وكان من رواد الحانات، والنساء. وفي ذات يوم، قبل قدومه إلى كعبة ذي الخلصة، كان يسكر ويلعب النرد، في حانة في اليمن، حين قيل له: إن قبيلة بني أسد قتلت أباه، فقال جملته الشهيرة: «اليوم خمر، وغداً أمر». وأراد الثأر لأبيه، فجاء إلى «الضرب بالقداح الثلاثة». قعد وسحب سهماً منها، فكان «الناهي» (عن الثأر)، فسحب ثانية، فكان الناهي، فسحب ثالثة، فكان الناهي. فغضب، وجعل الأسهم حزمة واحدة في يمناه، وصفع بها وجه ربه قائلاً: «لو قتلوا أباك لما عققتني.» (أي لما دعوتني للكف عن الثأر.)

أكاد أراه وهو قاعد يقدح بالسهام، والبدر صقر فضي يفرد جناحيه فوق شبه جزيرة العرب. كانت الربة البيضاء، عشتار، تمر بثلاثة أطوار:

حين تولد تكون هلالاً، وتتحول، في ثالث ليلة، إلى قمر، ويكبر نورها الهلالي ليلة بعد ليلة. ويرمز لهذا الطور، عند العرب، سهم واحد من السهام الثلاثة التي ضرب بها امرؤ القيس. وحين يكتمل نورها في الليلة الرابعة عشرة من الشهر تصير بدراً. والقرص البدري هذا كان يدعى، عند البابليين، «تاج السهول»، أو «إكليل» عشتار، وهو الإكليل المنحوت في أعلى كعبة ذي الخلصة. وفي كمالها البدري تلبس قلائد من الحجارة الكريمة، وتضع على خصرها ألواح «الأقدار السبعة». هذا هو «القمر الأبيض»، ويرمز لهذا الطور، عند العرب، السهم الثاني. بعدها تتجه الربة البيضاء إلى عبور بوابات «الظلمات السبع»، وتخسر في كل بوابة شيئاً من نورها، حتى تغيب تماماً في «المحاق». هذا هو «القمر الأسود»، أو «المظلم»، ويرمز له السهم الثالث.[1]

في كل طور من أطوارها الثلاثة تحدد عشتار شيئاً من مصير الناس على الأرض، يوماً بعد يوم. ومن ينوي على فعل، من أي نوع كان، يمكنه أن يضرب بالسهام ليأخذ «رأي الربة».

لونا «القمر الأبيض»، و«القمر المظلم»، أي: الأبيض والأسود، مقدسان للربة، وكذلك الحجارة البيضاء والسوداء. وامرؤ القيس كان يعي أن كعبة ذي الخلصة «صخرة بيضاء»، تسبح في ضوء القمر، ومقدسة. ونسبة لأطوار عشتار، كان رقم ثلاثة مقدساً في كل شبه جزيرة العرب، تقريباً. فهو عدد مرات الضرب بالسهام، وعدد أطوار القمر. هذا هو سر مطلع معلقة امرىء القيس: «قفا نبك». فتلك إشارة إلى متكلم يأمر اثنين آخرين، غيره، أن «يقفا»، فعدد الأشخاص ثلاثة. وهذه الصيغة الثلاثية شائعة في شعر العرب، وتعني، أيضاً، قدسية «المثلث» (عدد زواياه، أو عدد أضلاعه)[2]. وكان امرؤ القيس يعرف هذه «الصيغة الثلاثية المقدسة» أكثر مما يمكن أن نتخيل.

لما أفاق من سكره، مثلاً، ونوى الثأر لأبيه. شاع خبر نواياه ووصل بني أسد، فأوفدت هذه إليه وفداً. فاحتجب عن رؤية الوفد «ثلاثة» أيام، ثم خرج معتمراً (لابساً) عمامة سوداء. فعرض عليه الوفد «ثلاثة» خيارات: إما القصاص (أن يقتل شريفاً من شرفاء بني أسد بدلاً عن أبيه)، أو الفدية (أو يقبل الديّة)، أو أن يتمهل «حتى تضع الحوامل أجنتهن»، ثم تكون حرب. فاختار الثالث. ولا حدّ لمثل هذه «الصيغ الثلاثية» في حياة العرب، وحياته.

بعيداً جداً عن كعبة ذي الخلصة، حيث يقعد الآن، تقع كعبة مكة، سيدة الأمكنة والكعبات

جميعاً. وكل وثنيّ كان يجد نفسه بعيداً عنها كان يقوم بطقوس غريبة:

ينتقي أربعة حجارة، ولو وصل بينها بخطوط مستقيمة على الرمل لتَكوَّن أمامه «مربع مقدس». بعدها ينتقي خير هذه الحجارة، وأفضلها، ويدور حوله سبع مرات، بعدد مرات الطواف بالكعبة في موسم الحج. لم يحلل أحد أبداً هذه الطقوس، وبقي سرها مبهماً. هذا الحجر الأخير يدعى «حجر دوار»، ويذكره امرؤ القيس في معلقته:

وعنَ لنا سربٌ كأن نعاجهُ «عذارى دوار» في ملاء مُذيّل

حيث يبدو أن عذارى العرب كانت تطوف بهذا الحجر سبع مرات. بعدها، يقوم الوثني بجمع الحجارة الثلاثة الباقية، وينصب عليها «قدره» الذي يطبخ فيه قرابينه للآلهة. لا يتوازن القدر إلا على ثلاثة أحجار، ولو وصل بينها بخطوط مستقيمة على الرمل، لتَكوَّن «مثلث» مقدس.

هكذا يبدأ صاحب الطقوس بمربع، أي بأربعة حجارة، ثم يشتق من هذا المربع مثلثاً، أي «الأثافي» الثلاثة التي يطبخ عليها. ومجموع زوايا المربع والمثلث سبعة، وهو عدد مرات الطواف حول «حجر دوار». كان موسم الحج نفسه يأتي في الأشهر الأربعة الحرم (المربع المقدس)، ويكون في الشهر الثالث منها (المثلث المقدس). سأعود إلى المربع الذي يشتق منه مثلث، لاحقاً. ولأعد الآن إلى امرىء القيس نفسه. كيف كان يرى إلى كل هذه القصص؟

سأحاول أن أتخيل نفسي في ذلك الزمن الوثني، أي أن أتقمص شخصية رجل في قافلة عائدة إلى مكة في إحدى الليالي المقمرة، وتمر بما يمكن أن يمر به رجل وثني ما، لاضاءة ما سبق بشكل أكمل.

I

أيامها، كانت أماكن شاسعة بكاملها محرمة، ولا يقربها أحد، وتسكنها الجن. وكانت الليلة مقمرة، وكنت مع قافلة تمعن في أرض الجن المحرمة. كنا قادمين من مجاهيل الصحراء، ونرتجز (أي ننشد شعراً من نوع «الرجز») على وقع خطى النوق. عبرنا قرب واد غريب، فيه الشجر كتل ظلال تتماوج، وبدأت النوق ترغي، ودبّ هرج ومرج بين رجال القافلة. وكان دليلنا رجلاً من «بني سهم»، يغزل طرق الصحراء كأنه إبرة، ووجهه حرباء تتلوّن حسب الطريق، من خوف الهلاك. كان خائفاً من رغاء النوق، فرفع يده، وقال:

«باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، قفوا! نحن على حافة وادي عبقر!»

وأشار إلى بطن الوادي، نحو كثبان رمل مقمرة وناعمة، وإذا بكائن، على هيئة إنسان، يسوق «ظليما» (ذكر نعام) مربوطا من خطمه بحبلة من الكتان. كان مقبلا من عمق الوادي، فاستوحشنا منه، وحتى الإبل بدأت ترغي وتتراجع بنا إلى الوراء ومرق قريبا منا، كان أطول من ناقة، ورأينا ظهره عاريا، وفيه نمش أخضر، مثل طحالب تتشعب على سطح ماء آسن، فارتعبنا. وقف بعيداً عنا، وتلفت نحونا، وحدق فينا مدة كانت كافية لنتحول إلى تماثيل من ملح تحت القمر، ثم قال للدليل:

«يا ابن سهم الخشب: من أشعر العرب؟»

كان الدليل خائفا فلم يجب. فواصل:

«أشعرهم من قال:

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي   بعينيك في أعشار قلبٍ مقتّل»

فعرفنا أنه يقصد امرأ القيس.

«باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، من أنت؟» قال الدليل، ورجع إلى الوراء حتى كاد يقع.

«أنا لافظ بن لاحظ، من كبار الجن، لولاي لما قال صاحبكم الشعر!».

ومضى، مقهقها. وقف دليل القافلة مذهولا، وحدق فيه حتى أختفى. قلنا له:

«فما تقول في هذا؟» فقال:

«هذا لافظ بن لاحظ، شيطان امرىء القيس الذي يملي عليه الشعر، كما تعتقد العرب. ولافظ هذا من «وادي عبقر»، وكل شاعر يملي عليه شعره أحد جن أو شياطين هذا الوادي يدعى «عبقرياً».٣

مشت القافلة، وكنت متعبا، فحدقت في نجوم الصحراء الأبدية، وشرد ذهني إلى ما سمعت ورأيت. حولي كثبان مقمرة ناعمة، مستديرة، كموج البحر، ونهود الكواعب، وبطون الحوامل، ومدارات الكواكب، وفوقي سماء واسعة تشبه نصف دائرة وشعرت بأنني في فضاء خال لا شيء فيه، وفيه ما لا عين رأت.

غفوت على ظهر الناقة، فرأيت، فيما يرى الحالم، كثبان رمل ناعمة، هناك، بعيدا، وعليها كتلة سوداء غامضة كانت تتضح كلما اقتربت. وكانت تقترب من ثلاث أشجار من الحنظل لها ثمر مرّ، ثلاث أشجار واقفة وحدها في الصحراء، تحت النجوم، ولو وُصِلَ بين الثلاث بخطوط مستقيمة، لتَكوَّن مثلث متساوي الساقين.

شبح كان يمشي على أضلاع المثلث، متنقلا بين الأشجار الثلاث، كظل، ويجمع من كل شجرة ثمرة. ما الذي يفعله هذا الكائن بالثمر المر؟ كان الشبح يجمع الثمر في حجر ثوبه، وبفمه يمسك طرف ثوبه كاشفاً عن فخذيه الرفيعين. وأخيراً جلس في وسط المثلث، فنقع الثمر في سطل ماء كان هناك. وأشعل نارا، ووضع السطل عليها فوق أحجار ثلاثة. ففهمت أن الكائن يزيل مرارة الحنظل بهذه الطريقة ويجعله صالحا للأكل. فجأة سمعت صوتا ينادي على الشبح، من مكان مستور، أو من تحت الأرض:

«يا هبيد، يا هبيد»!

استيقظت من هذه الرؤيا التي تشبه الحلم، ومسحت عينيّ مرتعباً، لأن هبيدا هذا هو اسم شيطان عبيد بن الأبرص في الشعر. و«هبيد» هو الحنظل المطبوخ بعد نقعه في الماء لتزول مرارته. كانت قريش تأكل الثريد. والقبائل الأفقر تأكل الهبيد. ويبدو أن الشيخ من قبيلة جن فقيرة.

كان عبيد بن الأبرص صديقاً لامرىء القيس، وأكبر منه سناً، ونشأ معه في ديار بني أسد.

ولكن طبيعة شعرهما مختلفة جداً، لأن هبيدا يختلف كثيراً عن لافظ بن لاحظ، فهو يعصر سم الروح و«هبيدها». أي حنظلها المقطّر، وينقعه بماء القلب ويطبخه، فيحيله إلى شعر عبقري بمذاق التمر. هبيد «يذوق»، ويبدو مثل لسان الحية الذي تتحسّس به الأشياء. وشعر عبيد كروح هبيد: شيء يذاق باللسان، «طعمه» أساسه.

حدثني رجل يدعى «القرشي»، وكان معنا في القافلة، قصة عن هبيد هذا قال:
«أحد رجالات الإنس أراد أن يصبح شاعراً، ولا سبيل إلى ذلك إلا إن ألهمته جن من «وادي عبقر». وحدث، في ليلة مقمرة كهذه، أنه كان سائراً في الصحراء، وانتابه عطش شديد. وآنس (رأى) كائنا يبدو إنسيا، فمال إليه، لكي يروي ظمأه. ناوله ذلك الكائن طاسة من لبن ظباء فيه «هُزومة» (رائحة نتنة لا تطاق)، فلم يستسغه الرجل، فبصق اللبن، وأعاد الطاسة إلى صاحبها، وأدار ظهره، ومضى. فصاح به صاحب الطاسة، الذي لم يكن إلا هبيدا نفسه:
«لو كرعت (دلقت) هذا اللبن في بطنك لأصبحت أشعر قومك!».
فندم الإنسي ندماً ما بعده ندم».

شاعرية هبيد «طاسة من لبن ظباء» فيه «هُزومة». والشعر يبدأ باللسان، وبمعدة قادرة على كرع شيء كهذا. لكن «لافظ بن لاحظ»، كما يدل اسمه، فنان في «اللفظ»، و«ابن لاحظ»، أي ابن من «يلحظ»، أي «يرى» صوراً من وادي عبقر. «يلحظ» امرأة عادية، فتبدو له مثل منارة راهب مسيحي رومي في الليل، في كنيسة عالية الأقواس، فيها راهبها يحمل شعلة سراج زيت، ويجيل بصره في الأقواس فلا يرى، فيميّل السراج إلى جهة مظلمة كي يزداد نور الفتيل، فيصعد دخان وضوء شاحب ترقص منه ظلال على السقف والحيطان.

لاحظ يرى، ويلفظ ما يرى، ويسحر رؤيا ولفظا. «هبيد» في مطبخ الروح، ولافظ بن لاحظ في بؤبؤ عينيها! وامرؤ القيس في بؤبؤ الشعر. ومن هو عبيد بدون هبيد، وامرؤ القيس بدون «لافظ بن لاحظ؟».

وحدثني القرشيّ نفسه، قصة عن لافظ بن لاحظ هذا، فقال:

«كنت وحدي أسعى بناقتي في أرض الجن المحرمة، حين وصلت مدخل أودية موحشة تبدو كبطن ناقة خاوية، وشعابه موحشة ووحيدة، وشعرت بالخوف، والجوع، ربما خوفاً. أجلت نظري حواليّ فآنست نارا، في منعطف الوادي، أمامي، قلت سأميل إلى النار قليلاً، فقد أجد أعرابياً هناك، أستريح عنده. فوجهت ناقتي نحو النار.
عبرت في واد لا شيء فيه، ولا شجرة ولا غزالاً، وبدت الناقة وكأنها تسبح في موج خفي،

وعنقها تمتد إلى الأمام ثم ترجع، راسمة شكلاً هندسياً، أو هكذا تخيلت، وكانت الريح جارحة، وكان البرد قراً، والناقة تسبح. حاولت أن أوقفها، فاشتد سعيها بين الحجارة، وإذا بعجوز نحيف، بيده ناي يعزف عليه، فوقفت الناقة بين يديه، كأنها تعرفه. وقفتْ بدون أن يوقفها، كما انساقت إليه بدون أن يسوقها. فحدقتُ في الاثنين معاً: الناقة والمغني!

وضع المغني الناي جانباً، ورمى حطباً، من كومة قربه، في النار، وتململ قليلاً ثم نظر إليّ. ومن البعيد، من أعماق الوادي المخفية، سمعت غناء وإيقاعاً غريباً، هل دخلت قرية جن؟ وكمن وقعت على رأسه الطير، بقيت منغرساً في مكاني على ظهر الناقة لا أتحرك. وانتبهت إلى العجوز، فإذا بيديه على شكل أظلاف الأغنام وبقر الوحش، وعليهما شعر كثير.

وعندئذ أقبل ظليم من جهة الوادي، ووقف أمام العجوز، وقال:

«حملني بأثقل الأحمال، كي يخفّ حملي!».

وذهلت من هذا المنطق. وعرفت بأنني في منطقة سكانها غامضون. فقال العجوز:

«حللت سهلاً، ووجدت أهلاً. هذا وادي عبقر، وأنا كبير الجن، لافظ بن لاحظ».

قلت، وقد بهرني لطفه:

«رأيت وادي عبقر في الزمن الخالي، لم يكن هنا، بل هناك، في مجاهيل الصحراء، ورائي. «فأجاب:

«أرض الجن تنتقل بغمزة عين من مكان إلى آخر! ماضيك يبدو لك مستقبلاً!».

وبدأ العجوز يزداد طولاً حتى بدا الظليم أقصر من ثعلب، فركبه، ومضى مقهقهاً. وغاب حول منعطف الوادي، وسمعت غناءه يأتي من خلف الجبل:

لقد طوّفتُ في الآفاق حتى رضيتُ من الغنيمة بالإياب

شعرت بالبرد، فجأة، فترجلت، وضممت عليّ ثوبي، ومشيت نحو النار التي لم تزل ترتجف. على الرمل، أمامي، رأيت مطلع معلقة امرىء القيس مكتوباً بطرف عصا أو ناي، تحت وهج النار:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل بسقطِ اللوى بين الدخول فحوْمل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل
رخاءُ تسحّ الريحُ في جنباتها كساها الصّبا سحق الملاء المذيّل

وتحت البيوت الثلاثة رسم لمربع في جوفه مثلث. لم أر، من قبل، رسماً من رسومات الجن يشبه هذا. فامرؤ القيس يخاطب اثنين غيره، فيقول لهما «قفا نبك..»، فعدد الواقفين ثلاثة. والثلاثة واقفون في بقعة واسعة من رمل دقيق، بين أربعة أمكنة هي: «الدخول، حومل، توضح، والمقراة»،

أي في مربع. فهو يتكلم عن مثلث في جوف مربع. وفي آخر بيتين يذكر ثلاث رياح، الجنوب والشمال والصبا، من بين أربع رياح مشهورة عند العرب: الجنوب والشمال والصبا والدبور!. أي يختار ثلاثاً من مربّع الرياح.

|

شرد ذهني، من حديث القرشيّ، إلى امرىء القيس. بعد أن أمر صاحبيه، قائلاً «قفا نبك»، بدأ يتذكر وقت رحيل حبيبته. كان ذلك بين آخر الليل وأول الصبح، في «الغداة»، وقت مقدس للعُزّى - (كوكب الصبح، أو الزهرة).

يقول نيلوس، وهو رحالة روماني مات في القرن السادس، عندما مر ببلاد العرب، في نواحي البتراء ودومة الجندل، أن ليس لهؤلاء «الهمج» دين، فهم يخرون ساجدين لكوكب الصبح. ينتظرون بزوغ هذه الربة، ومعهم «قربان»: أما أن يكون شاباً أبيض الوجه، من أسرى الحرب، أو ناقة بيضاء خالصة البياض. وعندما يطل كوكب الصبح يدور الكاهن حول الضحية ثلاثاً، ثم يضرب عنقها بالسيف، وينفجر الجمع بالنشيد، ويهجمون على القربان فينهشونه حتى لا يبقى منه شيء عند بزوغ الشمس(٤).

على كل، يدور كاهن العزى حول الضحية ثلاث مرات. وللعزى معبد في «وادي سعام»، قرب مكة، من ثلاث سمرات، تزورها قريش وتذبح لها القرابين. فالسمرات شجيرات مقدسة للعزى، إحدى إلهات الثالوث الأنثوي المقدس، والأكثر سطوة بين العرب: «اللات، والعزى، ومناة الثالثة الأخرى». ومعبدها «ثلاث سمرات»، كل سمرة ترمز لواحدة من ربات الثالوث، أو كل السمرات ترمز إليها وحدها، أي أن رمزها هو «المثلث»، الذي كان، تقليدياً، رمزاً للعضو الأنثوي.

وكل هذه «المثلثات» في عبادة العزى مرايا لعبادات عشتار، فقد كانت العزى تدعى، أيضاً، «عستروت»، وعبادتها منتشرة في بابل، وفلسطين، ولبنان، وسورية، وشبه جزيرة العرب، وكانت ربة بتراء الكبرى، وهكذا. ومعلقة امرىء القيس تشير إلى «أنشودة صباحية»، في وقت مقدس للعزى، أو لعشتار، وامرؤ القيس، كان واقفاً تحت شجرات «سمار»، بالذات، في «الغداة»، عندما فارقه أحبته:

كأني غداة البين يوم تحمّلوا لدى «سمُرات» الحيّ ناقف حنظل

وتخيلته واقفاً، هناك، تحت السمرات، مطرقاً، وكأنه يقشر حنظلاً مراً، ويتذكر أيام ملذات، وعربدة، وخمر. وقد كانت احتفالات العزى، قديماً، ماجنة، فيها يسكرون ويمارسون الجنس المختلط. وربما أن لهذه الاحتفالات صلة بكون بعض النساء كن يكحلن عينا واحدة، ويحلقن نصف شعرهن، ويخرجن إلى السوق، ويحجلن على قدم واحدة، داعيات الرجال «إلى النكاح قبل أن يجيء الصباح». فمن أسماء العزى «عتر»، ويعني، أيضاً، «الفرج» (العضو الأنثوي والذكري معاً).

* * *

وانتبهت إلى القرشيّ الذي كان يقول:

«حدقت في رسم الجن الذي رأيته، وفي النار، وانتبهت إلى جلبة في الجبل القريب. نظرت

بخوف، فاذا ببقر تهرول من سفوحه والنار تدب في أذنابها التي بدت لي مشاعل صغيرة. بعض العرب يستسقي المطر في الجفاف بإشعال مواد تلتصق بأذناب البقر، فتهرول هاربة نحو الوادي، وهم ينشدون ويتصايحون تيمنا بالمطر، وليس الفصل فصل جفاف، فمن هؤلاء الذين أشعلوا ذيول البقر؟ وبدا لي أنني في اليمن، إذ لا بقر مستأنسة إلا هناك.

ولعلني في قرية جن، فكرت خائفاً، حتى لو هربت، فإن أحياء الجن وخيامها تنتقل بطرفة عين، ولا مناص من الأمر، فانثنيت على نفسي، وحدقت في النار أمامي، واستسلمت للدهر، من بعيد، بعيد جداً، كان يأتي غناء كبير الجن:

«لقد طوّفتُ في الآفاق حتى   رضيتُ من الغنيمة بالإياب».

كانت حكايات القرشي مسلّية، كهيئته. قلت له:

«علقت العرب المعلقات على ستائر كعبة مكة، والكعبة معبد قمري، وإن في هذا لطعم صلة غامضة بين شعر العرب وبين الدورة القمرية. ماذا تظن؟».

قهقه عالياً، وهز رأسه، وقال:

«بأبي أنت وأمي، مكة ليست بلد شعر بل بلد تجارة، وكل همّ قريش تجارتها. عندما سأل بيزنتيوم، مؤسس القسطنطينية، عرافاً عن أفضل مكان آمن يبني فيه مدينته، قال له العراف: ابنها في مقابل بلاد العميان! والمعلقات معلقة في مقابل بلاد العميان!. فلا همّ لقريش إلا أكل اللحم «صريحا لا خليط له، وقولها: رحلت عيرّ، أتت عيرُ» (رحلت قوافلها وأتت قوافلها).

فخذ عني هذا: تقدس العرب الدائرة، والمربع، والمثلث. هذا هو معنى دوران العرب حول الكعبة سبع مرات في موسم الحج، أو حول «حجر دوار»، ومن العرب من يدور حتى حول ناقته، أو حول كومة من تراب يصب عليها حليب شاة. المعلقات دوائر يا صديقي، وهذا ما لا يراه عميان العرب، سأحدثك عن شيء غريب وقع معي في موسم الحج الماضي».

ومد يده إلى قربة ماء، كانت معلقة في رحل ناقته، فشرب بنهم حتى طفح الماء على لحيته، وقال: وهو يربط عنق القربة بخيط جلد:

«إعلم أنني لم أكن أستغرب شيئاً، حتى تلك الليلة المقمرة، في موسم الحج الماضي، كنت نائماً في ساحة بيتنا، تحت النجوم، في مكة. حين سمعت هاتفاً يهتف بي أن تعال، تعال، واستولت عليّ قوة غريبة، فنهضت كشبح، وخرجت من الباب، وشعرت وكأنني كائن آخر، لست أنا، وكأنني استحلت في الليل غولاً، عندما مسني ضوء الرب «هبل»، وهتف هاتف بي أن تعال، نهضت وأنا أتبع الصوت مسحوباً من أذني بخيط خفيّ، عبر الأزقة المقمرة، فوصلت باباً بمصراعين فدخلت، وصعدت السلم إلى سطح بيت عال، مطل على مربع الكعبة، أو مكعبها.

كانت هذه ليلة طواف العرايا، حيث تطوف طائفة من نساء العرب حول المربع المقدس، ليلاً، ورأيتهن: كنّ يضعن يداً على عجزهنّ. ويداً على منطقتهن الأمامية، ويغنين:

اليوم يبدو بعضهُ، أو كلّه!
وما بدا منه، فلا أحّله.

لأن الاعتقاد بأن العرايا، حينما يتعرضن لضوء القمر، يحبلن منه، وتغطية «ما بدا منه»، والغناء في الطواف، استعاذة بالرب القمري، «هبل»، من أن يفعل بهن هذا. كن يطفن، كموجة من غناء، سبع مرات، فأقرب سرب منهن كانت الدائرة التي يرسمها بخطاه تلامس زوايا الكعبة، والأبعد يرسم دوائر أوسع فأوسع. وأنا سارح فوق السطح، شارد الذهن في عالم آخر، سمعت غناء ساحرا، ورأيت كبير الجن، لافظاً بن لاحظ، قادماً من بعيد، يركب ظليماً (ذكر نعام)، ويغني:

«وما ذرفت» عيناك إلا لتضربي بعينيك في أعشار قلب مقتّل»

وشعرت بأن الرياح هبت عليّ معا، وصرت في الريح رملاً، وصعد راكب الظليم إلى نفس سطح البيت الذي كنت عليه. والعرايا لم يزلن يدرن، ويتمسحن بزوايا الكعبة الأربع، وينشدن، ويرسمن دوائر سبعاً حول بيت الإلهة، ولافظ بن لاحظ يصغي للنشيد، وبدا لي من العماليق، وكان عليّ أن أنظر إلى الأعلى كي أرى جبينه، ولو أدت بي النظرة إلى أن أمسخ حجراً أسود كحجر الكعبة. وماذا رأيت؟

رأيت أفقاً أكثر مما رأيت جبيناً. ولوهلة رأيت عينين شاسعتين، كالصحراء والبحر: من يقف فيهما لا يستره شيء، لا «صحرة» ولا «بحرة»، وفي شعره الأسود الأجعد، أعشاش حمام، أو بقع ربيعية فيها غزلان وأسراب من بقر الوحش، أو هكذا بدا لي. سعة عينيه لا تدل على بعد النظر ولا التركيز فيما يرى فقط، بل على أن روحه في أذنيه، أيضاً، في إيقاعات النشيد العاري، وفي ذكاء قلب من وادي عبقر، كان شارداً، منوماً هو الآخر بمشهد النساء، ونشيدهن.

وسألني كمن يتكلم مع نفسه:
«يا قرشي الحسبْ: من أشعر العرب؟»
«أمرؤ القيس ولافظ»، أجبت بخوف.
فغضب لأنني ذكرت اسم امرىء القيس قبل اسمه، وأخذ يغني:
«امرؤ القيس نايٌ في يدي، وعليه أعزفُ ما بي»
كيف يعرفُ ما بهْ.
ثم يجهلُ ما بيْ؟»

ثم قال كلاماً غريباً. ولن أنسى هذه اللحظة التي قال فيها ما قال.

كان الأفق دائرة مطرزة الحواف بالنجوم، نجوم تلامس رؤوس الجبال المحيطة بالوادي الذي تقع فيه مكة، جبال جرداء تسبح في صمت قمري، وتحجب نظري عما وراءها في المكان، وعما قبلها في الزمن. بيوت من حجارة بركانية سوداء، حادة الحضور، وشعرت بأنه لا توجد سماء أقرب إلى

الأرض، من سماء مكة فوق الجبل، ونظرت إلى الكعبة، حولها كانت فضاءات مفتوحة، مساحات للتأمل، والعزلة، صافية، وكانت السماء قريبة، مثل صلاة، ووقع خطى العرايا يشبه موسيقى نجوم ترن في الصمت الإلهي، مما شدد من شعوري بفوضى، وعدم ترتيب ما في قلبي. كان الحجر الأسود في ركن الكعبة يلمع، من ضوء القمر، كمرآة داكنة بحجم رأس إنسان، وخشعت أمام السواد، «فالصمت في حرم الجمال جمال»، وسبح ذهني في عالم آخر.

فجأة قال لافظ بن لاحظ، مؤشراً إلى ما يراه:

«هذه الساحة مرآة».

ثم نظر نحو السماء الداكنة، فوقنا، حيث تتلألأ نجوم كثيرة، خافتة وساطعة، وتبدو مثل كتابة سرية، وأكمل:

«هناك، تدور النجوم دائرياً، وتسبح في أفلاكها، وهنا، تحت، عرايا يقلدن حركات هذه النجوم، فالأرض مرآة السماء، والحروف، في كل بيت شعر، نساء عرايا، ويدرن حول كعبة شعرية سرية، كما تدور هؤلاء العرايا بكعبة مكة!».

قلت:

«ما معنى أن الأحرف نساء عرايا؟»

قال:

«إن كان امرؤ القيس من أوحى إلى نفسه بمعلقته، سله عن معنى هذا؟ وإن عجز عن الجواب، قل له: عندما يسأل كبير الجن، قف جانباً يا كبير الشعر، وتعلم الإصغاء!».

وابتعد على ظهر ظليمه مغنياً، بسخرية روح جن كريم أنكر الإنس مكرمته:

وأنا عند امرىء القيس نايٍّ وعليّ يعزف ما بهْ

كيف يعرف ما بيْ،

ثم يجهل ما بهْ؟

واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، يا صاحبي، ليلتها كل طريقة رؤياي للأشياء بدت مختلة، وظلت من تلك الليلة مختلة. لا تفكر في أسئلة الجن، فشعر العرب مدينة كالقسطنطينية، مبنية في مقابل بلاد العميان. لا تر ولا تفكر، كي تكون كبقية قومك!» وقهقه حتى نزلت دموعه على لحيته، فمسحها، وهو يحدق في حيرتي مما يقول.

|

مؤسس علم العروض، الخليل بن أحمد الفراهيدي، قال: إن بحور شعر العرب «دائرية»، وتتوزع على خمس «دوائر فلكية». بكلمات أبسط، كل بيت شعر عربي يرسم دائرة، وهذا تقليد لمسارات النجوم الدائرية. صحيح أن الخليل كان يتكلم عن «أوزان الشعر»، أو «بحوره» فقط، ولكن شاعراً ألمانياً عظيماً، هو غوتة، أدرك أن الشعر العربي «دائري»، كله، وليس فقط وزنه. فقال مادحاً إياه، أو، بالأحرى، «دورانه»:

«لا نهاية لك: هذا هو سر عظمتك
لا بداية لك: هذا هو تميزك
أغنيتك دوارّة كقبة السماء،
ونهايتك وبدايتك متشابهتان
وسطك يقود إلى نهايتك، ونهايتك هي نفسها بدايتك.
أنت: متكامل»؟ (٥)

مجمل القول أن ثلاثة أشكال، على الأقل، كانت مقدسة عند العرب في ذلك الزمن الوثني: دائرة، في جوف الدائرة مربع، في جوف المربع مثلث، وهندسة المقدس هذه «نواة» الشعر العربي.

|

قعدنا ذات ليلة كي نستريح، من تعب الطريق، وأشعلنا ناراً. كل جماعة في القافلة أشعلت نارها، فبدت الصحراء من حولنا وكأنها احتفال لعبدة النار، وكان معنا بعض العرب ممن يقدسون النار. هذا يطبخ، وذاك يسكر، وهؤلاء يتسامرون، والجمال ترغي. كنت مع القرشيّ نفسه، حول نار بعيدة عن بقية القوم، حين اقتربت منا امرأة يحجب وجهها خمار أسود، وتحمل طفلاً، بدا شبه زهرة بيضاء في هذا العراء.

قعدتْ قريباً من النار، على الرمل، ولم تلفظ لفظة واحدة. استنسبها القرشيّ فاسترابت، ثم قالت:

«من قبيلة دوس».

قهقه القرشي مكرراً:

«من دوس! آ! دوس!»

فقد كانت نساء دوس مشهورات بضخامة إلياتهن، وجمال أفخاذهن، وهن يطفن بكعبة ذي الخلصة، نظرت المرأة إليه، فلم ير إلا عينيها. وانتبه فجأة إلى لهجتها. لم تكن تشبه أية لهجة يعرفها، فلا هي قرشية ولا ثقيفية ولا دوسية ولا.. وبدت له بأنها امرأة غريبة فعلاً، ليست حتى من الأرض، وكأنها ولدت من تعويذة، وليس من رحم أم، مثلها مثل بقية البشر. وشعر بدوار خفيف، لا لشيء إلا لهذا السواد العميق الذي لا يسبر له غور في عينيها، فقال:

«بأبي وأمي، لست دوسية! هل أنت كاهنة؟»

كانت عيناها مكحلتين بنثار الأثمد الأسود - حجر أسود يدق وتكتحل نساء العرب بنثاره - وكان الطفل ملفوفاً بثوب يمانيّ الطراز، ويحرك فمه يمنة ويسرة، كمن يبحث عن حلمة أمه الضائعة من فمه، ثم حدق في القرشيّ بصمت، وثبات، وكأنه استغرب وجوده، وتمتم شيئاً لا معنى له.

«ماذا يقول؟» سألها القرشي.

«مقه، مقه!»، أجابته.

ومقه اسم إله القمر القديم في اليمن، وقيل من تكرار اسم «مقه، مقه»، جاء اسم مكة.

وتابعت:

«أقصد مكة به، سوف أسأل الرب هبل في كعبة مكة عن نسبه، وماذا أفعل به. عثرت عليه في هذا الخلاء، ملقى في طريق القافلة، وكأنه طفل جن!».

وصلنا مكة في الليلة التالية، وكان القمر صافياً، وكان الوقت متأخراً، ومشيت مع تلك المرأة إلى الكعبة، بصمت، لم أطلب إذنا، ولم تحتج. مررنا بين بيوت فيها سكارى يضحكون، وبعض المغنيات كن يعزفن على العود، ويضحكن معهم، وعبرنا السوق نحو المعبد، كاهن كان واقفا على درجات الكعبة الأربع، يتأمل النجوم، والأفق، والجبال. وصدى غناء يأتي من بعيد، وقفت المرأة تتأمل هيئة الكاهن، وكأنها خائفة منه، لأمر ما.

كانت لحيته طويلة، مصبوغة بالحناء، لأن البق والحشرات تفر من رائحة الحناء، ولأن لصبغته لونا هلالياً، ويبدو أنه يفضلها على صبغة الزعفران الصفراء. وعيناه صغيرتان، بأهداب كثة، وكان منحني الظهر قليلاً، وله ضفيرتان مجدلتان تتدليان حول وجهه، من ذكريات طفولته، ربما. كان شعر الأطفال يجدل ضفائر عدة، أيامها، ويزين بالحلي، أحيانا. وعند البلوغ يقصونه كله، باستثناء ضفيرتين، ويلقون بالباقي أمام الآلهة، في كعبة مكة. من يومها، ربما، والكاهن يحمل هاتين الضفيرتين كأنهما اسمه، شفتاه رقيقتان، وتشيران إلى خبث موروث فيه، رمت الكاهنة الطفل بين يديه، وقالت:

«خذ طفلا ولدته نساء يحبلن بأحجار، أو من نسل الجن، خذ هذا. وانظر في أمر نسبه».

أخذ الكاهن الطفل ودخل. ظلت هي عند الباب، وأما أنا فتبعته، في الداخل كان فتيل مضاء تتوالد منه ظلال ترتجف فوق جدران المعبد، بقرب صنم الرب القمري الأعظم، «هبل».

وكان هذا صنما من عقيق أحمر، لأن الهلال الأحمر، وليس القرص البدري، كان رمز إله القمر في بابل. وكانت يد هبل اليمنى قد كسرت، فركبت له قريش يدا من الذهب الخالص. أمامه، في هذا الجو الشبحي، كانت سبعة «قداح» (أسهم بلا نصل ولا ريش)، ودخان بخور يصعد من مبخرة. أسدل الكاهن خماراً أسود على وجهه. وأنشد بخشوع ترتيلة تشير إلى قدسية المثلث – رقم ثلاثة – :

«إنا اختلفنا فهبْ السرّاحا
ثلاثة يا هبل فصاحا»

وكان الرب القمري – الذي تحدق عيناه في السقف، تحت الضوء الخافت، ولا يبدو بأنه يرى الكاهن أبداً – يقول رأيه بطريقتين: إما بشفتيه، وإما أن يأمر القداح بقوله. وتنتهي الترتيلة بهذا:

«إن لم تقله فمرْ القداحا»

سحب الكاهن ثلاث مرات من الأسهم السبعة، ثم قال:

«هذا رضيعك من بني هلال».

ولم يدر من أين جاءته فكرة هذا النسب للطفل، ولا كيف، وكل ما شعر به هو أن الرب فتح

شفتيه وبدا وكأنه أوحى إليه، والتفت إلى الباب فلم ير المرأة التي جلبته، حدق الكاهن في الباب، فرأى بقعة من ضوء القمر تسقط عبره على أرض المعبد، ولم ير أحداً، فحدق في وجه الطفل الذي كان يدير بصره في التزيينات الوثنية والنباتية على الجدران، وفي ظلال أعمدة من خشب، على النمط الرومانيّ، وقال حائراً:

«من بني هلال؟ أبوك الأسمى هو الرب نفسه، الهلال؟ وشرد ذهنه في أمر ما، ثم نظر إليّ، كمن استغرب وجودي عنده. قلت له:

«أنا تاجر من اليمن، ولا بيت لي في مكة، أيمكنني النوم هنا ليلتين أو ثلاثا؟». قال:

«بأبي وأمي، نم في بيتي! ففضل اليمن علينا كبير».

وبدا لي أنه يقصد أن مؤسس الوثنية في مكة، عمرو بن لحي، كان كاهناً يمانياً، جاء إلى مكة بعد خراب سد مأرب الشهير، وخراب تجارة البحر الأحمر على يد الرومان، وأسس ديانة كاملة ونمط حياة لمريديه، وصار رباً لهم، كما قيل، وهذا فضل لا يليق بالكهنة نسيانه. سألته:

«وماذا ستفعل بالطفل؟» قال:

«سنّ عمرو بن لحي لنا طرقاً وثنية في الحياة، تنظم أمورنا، وتنطبق حتى على الإبل، على أربعة أنواع من الإبل؟(٦). ومن سننه أن كل ناقة تلد ١٢ أنثى متتابعة ليس بينها ذكر تنذر للآلهة وتدعى «سائبة»: فلا نركبها ولا نجزّ وبرها، ولا نأكل لحمها، ولا نمنعها من ماء أو مرعى، ولا نحمّلها حملاً، وتبقى سائبة حتى تموت.

وهذا الطفل كالناقة السائبة: إما أن أتركه في الحياة وشأنه، في حرم الآلهة، أو أن أبعثه إلى قوم من الموحدين، يهود، أو مسيحيين، أو حنفيين، فيفعلون به ما يشاءون، أو أتركه طيلة الليل عند أقدام الرب هبل، بين السهام السبعة، والرب يتولى أمره..».

وأطرق طويلاً أمام الرب، ثم أقفل باب الكعبة، وحمل الطفل، وخرجنا، لم يكن يفكر إلا في «الدهر» الذي جلب إليه طفلاً بهذه الغرابة. بعينين كالحجر الأسود، ونسب الكاهن ذلك إلى قوة المربعات المقدسة.

أيامها لم يكن فقط شكل الكعبة مربعاً، بل كان كل تخطيط مدينة مكة قائما على المربع(٧)، وقيل: إن أول من قسم مكة أرباعا كان قصي بن كلاب، جد قريش، قبل زمن سحيق. وبالنسبة للكاهن لا يمكن أن يحدث شيء دون المربع. وكان يرى المربع في كل مكان. من الخط الذي كان به الرهبان يكتبون أناجيلهم، الخط الآرامي المربع المعروف بـ «السطرنجيلي» في القرن السادس للميلاد، حتى مربعات مكة.

مشينا تحت القمر، نحو بيته، في جنوب مكة. في الطريق، كان عليه الاستدارة نحو اليمين، في الشارع الخالي، حاملاً الطفل بين يديه. فاتجه يميناً، بسعادة غامرة، لأن الاتجاه يساراً فأل شر. بدا وكأن الآلهة نفسها وجهت قدميه إلى هذه الجهة، فنظر إلى الكعبة بخشوع، فأطلت عليه ٣٦٠ صنماً، بعدد أيام سنة قمرية بابلية، ولكل صنم بسمة مختلفة، قناع مختلف، قوة خفية مختلفة، بعضها كان في داخل الكعبة غير مرئي إلا لعين القلب، وبعض كان حولها. وكانت ريح تنعف

شعر لحيته، فشعر بخوف ما. كانت بينه وبين الكعبة علاقة تشبه الحبل السري الذي يربط وليداً بأمه الأرض، والابتعاد عنها بدا مثل فقدان توازن، وقف محتاراً، أمامه كان بناء مجاور من الطين مسقوف بالخشب، وعلى زاويته يقف غراب أسحم (أسود) سرعان ما طار إلى اليسار، فأثار ذلك، فينا جميعاً، إحساسا بشؤم ما.

حدق الكاهن في وجه الطفل، فبدا له مربع الشكل، بفكين فيهما قسوة، وبجبين واسع، وشعر خفيف أسمر. وجهه مثل مربعات مكة، فكر الكاهن. أبوه مرة قال له، وكان طفلاً، بأن جد قريش، قصي بن كلاب، كان أول من جعل مكة أرباعاً، وكيف كان وجه قصي بن كلاب؟ من يدري، ربما كان مربعاً، سألته عن قدسية المربع. قال:

«في اليمن كانت القلاع تبنى بحجارة ضخمة، تلصق معا بحديد مصهور، على هيئة مربعات، وفوق رمال الصحراء، أقام سادة اليمن وحضرموت قلاعاً شاهقة، مربعة الشكل، وفي القرن الرابع بعد ميلاد المسيح، انتقل فن بناء القلاع المربعة من اليمن إلى الشمال. المربع في كل مكان، معبد اللات (الشمس) في الطائف صخرة مربعة بيضاء، وكعبة ذي الخلصة مربعة، وكعبة مكة. والبتراء؟ هل تعرف البتراء؟ هناك معبد فيه صنم الرب «ذو الشرى»، وهو حجر مربع أسود، له قاعدة من ذهب، ويصبون عليه دم قرابينهم، تخيل وقت صب الدم على رأس الرب: أحمر يسيل على أسود ثم على الذهبيّ. وفي البتراء حجارة غريبة، منحوتة من الصخر، على هيئة مكعبات ضخمة، ولا أحد يدري ما سر هذه الحجارة، والسر في المربع، وهل سمعت عن قصر غمدان؟».

«لا! لماذا تذكره؟».

«قيل إنه أحد ثلاثة قصور بنتها الجن للملك سليمان فأهداها لبلقيس، ملكة اليمن، كان قصراً حجرياً مربعاً، جداره الأول أخضر، والثاني أحمر، والثالث أبيض، والرابع أسود، وفي كل ركن من أركانه الأربعة أسد أجوف من نحاس، ويزأر كلما هبت الريح على ركنه.

عندما تدخله تشعر بسحر، فتصعد عدة طبقات، في آخره غرفة بأربعة أبواب، كل باب يفتح على جهة من الجهات الأربع، واحد على الشمال، وواحد على الجنوب، وواحد على الشرق، وواحد على الغرب. ومن ينظر من هذه الأبواب يرى، ليلاً، دائرة الأفق تتلألأ بالنجوم، وفي الغرفة ستائر عليها أجراس معلقة، وكلما هبت الريح، رنت الأجراس، مصدرة أنغاماً ساحرة ترحل في الأفق، وتندغم مع موسيقى النجوم، وفي السقف فتحة ترى منها «دائرة الأبراج»، أي حركات النجوم الدائرية في أهم قطعة من السماء عند البابليين، هذه الدائرة التي سموّها «زنار السيدة عشتار»، وحركات النجوم في «الزنار» سموها «كتابة السماء». فترى السماء تكتب، أو «تنسج» زنار ربة القمر، وأنت نائم في هذه الغرفة، على سرير من ذهب، هل تعرف معنى لقصر رغدان؟» (٨).

قلت:

«قدسية المربع، وصلة الجن به». قال:

«ليس هذا فقط، إنه تقليد لمعمار الكون، فيه أربعة أبواب تطل على جهات الكون الأربع، وسقفه يطل على السماء، السماء التي سماها الفراعنة «سقفاً». وكل جدار في القصر يقابل

جداراً من جدران الكون، ألوان الجدران ألوان كواكب، كبرج بابل، وهو برج مربع، من سبع طبقات، كل طبقة مطلية بلون أحد ألوان الكواكب السيارة السبعة، وهذا تقليد بابلي، ومنذ زمن قديم يعتقدون بأن النجوم، وهي تدور في مداراتها، تصدر موسيقى، ورنين الأجراس تقليد لموسيقى النجوم هذه. قيل: إن القصر من بعيد كان يلمع كالبرق، وكأنه لؤلؤة من برق».

– «والخورنق».

«قصر الخورنق؟ نعم، نعم. أحد أربعة قصور شهيرة عند العرب، تحفة فنية. أجمل حتى من قصر «السدير». قيل: إن الملك النعمان بن ماء السماء دعى مهندساً رومياً يدعى «سنمّار»، ليبني له معجزة، فبنى سنمار الخورنق: قصراً مربعاً، كل توازنه يعتمد على «آجرّة» واحدة (قطعة من الطين المشويّ). إن أزحتها من مكانها انهار القصر كله. ولما بلغ الملك أمر هذا الحجر السري، سأل سنماراً: أيعرف سر هذا الحجر أحد سواك؟ قال: لا. فأمر الملك بحذف سنمّار عن ظاهر القصر. قتله لكيلا يعرف أحد أين هي الآجرة! فقيل: «جزاء سنمّار»، وذهبت مثلا.

شعر العرب قصر خورنق آخر: دوائر ومربعات ومثلثات، ربما، ولكن كل توازنه يعتمد على حجر واحد، كحجر سنمّار، هذا الحجر هو الذي يجب أن تبحث عنه. أما المربع فسهل. خذ الأهرامات، قاعدة الهرم مربعة، وعندما توصل قطريها ينقسم المربع إلى أربعة مثلثات. هكذا جاء المثلث من المربع، جدران الهرم هي هذه المثلثات. وقمة الهرم، إن نظر إليها نسر من عل، تقع فوق مركز المربع تماماً، أترى؟ يبدأ الفراعنة بمربع ويشتقون منه مثلثاً، كما في طقوس «حجر دوار» عندنا، الحجر الذي يذكره امرؤ القيس في معلقته، هل سمعت به؟» (٩)

«نعم، نعم. لكن دعني أغير غدير الكلام نحو أرض اخرى: هل شعراء العرب يقلدون الدورة القمرية في شعرهم، الدائرة والمربع والمثلث، وغير هذا، من الأشكال المقدسة في التقويم القمري؟».

إرو عني، أيها التاجر اليماني، ما سأقول: ليس لنا، نحن الوثنيين، كتاب مقدس يفكك لنا أسرار الألوهة، لا كتاب كتوراة موسى، ولا قديساً واحداً كقديسي الإنجيل، والأفلاك كتابنا الأسمى، نقدس النجوم، وملوكنا تشبهوا بها، أي بالآلهة، والقمر إله، هل سمعت بالملك «مزيقيا»، بن عامر بن ماء المزن؟».

«لا»

«قيل: سموه مزيقيا، لأنه كان يلبس، كل يوم، بدلة، ويمزقها، وفي كل سنة، كان يمزق ثلاثمائة وستين بدلة. هكذا قيل، لكن إرو عني ما هو حق: «مزيقيا» جاءت من كلمة يونانية، هي «ميوز» – اسم يطلق على كل ربة من ربات القمر، إي الـ «ميوزات». ربات الإلهام اليونانيات، وكن تسع أخوات، ومن اسمهن جاءت «مزيكا» و«موسيقى»، العربيتان، وكان الملك يتشبه بالقمر، فيبدل بدلة، في كل يوم من أيام السنة القمرية البابلية، المكونة من ثلاثمائة وستين يوماً».

«لم أفهم. أوليس غريباً أنه ذكر، ويتشبه بربات القمر اليونانيات، أي بإناث؟»

«نعم، نعم، هذا غريب، ربما أنه يتشبه بعشتار، خذ، مثلاً، عادة الملوك في التحجب، أي وضع حجاب وراء حجاب وراء.. سبعة حجب بين الملك والرعية. يبدو لي أن هذا تشبه بطور القمر في المحاق، أي بـ «القمر المظلم»، حين كانت عشتار تعبر بوابات الظلمات السبع. ويبدو أن سيدات بابل، حين كن يلبسن الخمار على وجوههن، كن يقلدن «القمر المظلم» هذا، أو خذ إمرأ القيس نفسه:

حين قرر الثأر لأبيه، وجاءه وفد من بني أسد، احتجب عن الوفد ثلاثة أيام. لماذا؟ لأن عشتار، حين تغيب في ظلمة «المحاق»، تتحول إلى جثة هامدة مشدودة إلى وتد في العالم السفليّ «ثلاثة أيام بلياليها»، أي تحتجب ثلاثة أيام، قبل أن تبزغ كهلال جديد. وهذه الأيام الثلاثة قدستها العرب وسمتها الليالي «الدهم» (السوداء). امرؤ القيس احتجب مثل عشتار، ثلاثة أيام بلياليها، ثم خرج إلى الوفد معتمراً «عمامة سوداء»، أي كان يتشبه بـ «القمر المظلم». ولا تعتمر العرب بعمامة سوداء إلا إن كان هناك دم، وثأر.»

«والشعراء؟ هل قلدوا دورة القمر؟»

«زهير بن أبي سلمى، أحد كبار شعراء المعلقات، قال: إنه حاك سبع قصائد في سبع سنين، أي أن كل قصيدة استغرقت عاماً قمرياً عربياً واحداً، أي «حولاً». هذا تقليد خارجي للدورة القمرية، ولكنه تقليد لها، رغم ذا. تقليد خارجي، ولكنه تقليد. انتبه إلى رقم سبعة في قوله هذا، سأحدثك عنه. ولكن خذ نرسي. نرسي، هل سمعت بالراهب النسطوري نرسي؟»

«لا. متى عاش؟»

«لا أدري متى عاش، لكن أعرف متى مات، قيل في سنة ٥٠٢ بعد ميلاد المسيح. امرؤ القيس مات بعده بثلاث وثلاثين سنة، كما أرى!. نرسي كان كاهناً يدعى بـ «لسان الشرق»، انتبه إلى لقبه! حكيم الشرق، كله. قيل: إنه كتب ثلاثمائة وستين قصيدة، بعدد أيام السنة القمرية البابلية، ورتبها في إثني عشر جزءاً، بعدد الأشهر القمرية، أو بعدد الأبراج في «دائرة الأبراج»، واستعمل في أوزانها وزن أربعة، واثني عشر، وغيره، من الأرقام المقدسة في الدورة القمرية. تخيل كل قصائده مرتبة على محيط دائرة، كل قصيدة تساوي درجة واحدة عليه. والكل دائري.»(١٠)

«جميل. جميل. ولكن ماذا عن العرب؟»

«العرب؟ قيل: إن أول شاعر رويت له قصيدة من ثلاثين بيتاً، أي بعدد أيام شهر قمري بابلي، ليس إلا الزير أبو ليلى المهلهل، خال امرئ القيس. والمهلهل، خال امرئ القيس، شخصية طريفة. قيل: أنه لقب بـ «المهلهل»، لأنه «هلهل» الشعر، أي أضعفه، وقيل لا، بل نسبة إلى «تهليل» الشعر، أي غناءه.

لكن إرو عني ما هو حق: تحتفل العرب ببزوغ الهلال، وتنشد له الأناشيد الدينية، والمهلهل لقب جاء من هتاف الناس في الاحتفالات ببزوغ الهلال «هلَ، هلَ». هذا هو: التهليل أو الغناء

للرب نفسه. وهذه أيضاً عادة بابلية قديمة، وهي الاحتفالات بـ «النور الجديد».

ويبدو أن الشاعر عبيداً بن الأبرص، كان ضحية لتشبه الملوك بالقمر، التشبه الذي حدثتك عنه. قيل: إن ملكاً ما، نسيت اسمه الآن، اسمه، اسمه، نعم، اسمه المنذر بن ماء السماء (٥١٤ - ٥٥٤م)، وكان ألد أعداء امرئ القيس، قسم دهره إلى يومين: يوم نعيم، ويوم بؤس. يقتل من يلتقي به في يوم بؤسه، وينعم على من يلتقي به في يوم نعيمه بمائة من الإبل. أو لا ترى إن هذا تشبهاً بعشتار السوداء، أي «القمر المظلم» (يوم البؤس)، وعشتار البيضاء (يوم النعيم)؟ وفي ذات يوم التقى عبيداً في يوم بؤسه، فقتله! ليس هذا غريباً عنه. كان المنذر يقدم قرابين بشرية للعزى، من أسرى الحرب.»

«ربما، ربما. لكنك من كهنة الرب هبل، وهو رب ذكريّ، ما الذي يجعلك تعترف بعشتار كربة للقمر؟» «أنا؟ ليس أنا من يعترف أو ينكر! عشتار لها هيئات لا حصر لها، ومن هيئاتها العزى. هل تعرف ثالوث اللات، و«ود»، والعزى؟ هذا ثالوث جاء من اليمن إلى الشمال، وتعبده عرب هذه النواحي. والعزى، أي كوكب الصبح، أو عستروت، سمها ما شئت، هي ابنة زواج اللات مع ود (الشمس مع القمر). إنه عائلة مقدسة، كالأب والإبن والروح القدس في المسيحية. وعبادة عشتار، إن فكرت في الأمر جيداً، لم تزل في الكعبة.»

«كعبة مكة؟»

«نعم، كعبة مكة. فيها بئر تدعى بئر الكعبة، فيها يلقي المؤمنون بالهدايا للآلهة: دنانير بيزنطية، ودراهم فارسية، وحلياً، وهكذا، فليس للعرب عملة خاصة بها. قيل: في هذه البئر تسكن أفعى الكعبة. أحياناً تخرج وتفحّ، وتتسلق الجدران، وترعب الكل، حتى يأتي طائر فيخطفها. لم أرها، لكن حدثني عنها كهنة آخرون. والأفعى أحد رموز عشتار. لماذا تفحّ، وتخرج من بئرها غاضبة؟ يبدو لي أن عشتار غاضبة على عبادتنا للرب هبل. الصراع بين الآلهة الأم، وبين الديانة الذكورية، لم يزل قائماً. ولست من يقول القول الفصل في شؤون الآلهة. أفعى، وحمامة، وثور، هذه هي حيوانات عشتار. الأفعى في بئر الكعبة، وحمام مكة صيده لم يزل محرماً بيننا حتى الآن، أيها اليماني، فهو مقدس للربة القمرية.»

وبدون أن أدري كنا وصلنا بيته. دخلنا باباً، إلى ساحة بيت رحبة، فرأيت امرأة هناك قاعدة، على كتفيها وشاح له رائحة المسك. عيناها واسعتان. وشفتاها أميل إلى السمرة المخلوطة بحمرة، وغليظتان بجمال في التكوين يوحي بأنوثة لا بغلظ، وقد زينت قدميها بالحناء، وقصت شعرها، وحلقت حاجبيها، وطيبت نفسها بأنواعها من الطيب. قيل: إن المسافر إلى مكة كان بإمكانه أن يصلها متتبعاً بأنفه رائحة الطيب. سلمها الكاهن الطفل، وقال:

«هذا من بني هلال. بعثته الآلهة. ولا أدري لماذا. سنتبناه، هذا خير هدية لخير بيت.»

وصعدنا معاً درجاً يقود إلى غرفة علوية. قال:

«على الرحب والسعة، أقم بيننا أيها المسافر اليماني.»

«لم نتعارف!»

«أنا عبد مناة، من كهنة النسيء. هل تعرف من هي مناة؟ ربة المنايا. واحدة من ثالوث «اللات، والعزى، ومناة الثالثة الأخرى». لها معبد على شاطئ البحر: صخرة عظيمة سوداء. انتبه إلى اللون، سأحدثك عنه في ليل آخر. هذا لون من ألوان هذا الثالوث الأنثوي. أنا عبد مناة، كما أن امرئ القيس هو امرؤ قيس، أي رجل الرب أو الصنم قيس. وأنت؟ عبد من؟»

ضحكت وقلت:

«لست عبداً لأحد. واسمي يتغير كطرقي. فلنقل إنني تاجر من اليمن.»

أطرق عبد مناة، وتأملت هيئته بصمت. رفع رأسه فجأة، وقال:

«عم ظلاماً، يا تاجر اليمن.»

«أحب أسأل، قبل أن تنزل.»

«نعم»

«من هم كهنة النسيء هؤلاء؟»

«كهنة يوفقون بين التقويم القمري والشمسي، ويعينون بداية السنة، والأشهر الحرم، ومواسم الحج، وأوقات الأعياد، وهكذا، وهكذا. أترى؟ عم ظلاماً، أيها اليمانيّ.»(١١)

وأغلق الباب العلوي عليّ بلطف، وسمعت خطاه نازلة على الدرج.

|

كان من المذهل تماماً، بالنسبة لي، حين اكتشفت بأن المربع، والمثلث، والدائرة، والصليب، والصليب المعقوف، وغيرها من أشكال الهندسة المقدسة، كانت معروفة منذ زمن سحيق جداً في هذه المنطقة، في ثقافة حسونة، مثلاً، وسامراء، في العراق، وفي مواقع أخرى، منذ أكثر من خمسة أو حتى ستة آلاف سنة قبل الميلاد.

توجد وثائق أثرية مصورة لهذه الأشكال، ولا تترك مكاناً للشك، فهي ليست «تحليلاً» بل «وقائع». ويورد خزعل الماجدي رسوماتها في كتاب «أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ» (دار الشروق، ١٩٩٧). من جملة الرسومات رسوم يظهر فيها أن المثلث مشتق من المربع منذ تلك الأزمنة. والعرب قبل الإسلام، في الجاهلية، ورثت الكثير من هذا الإرث، والمستمر عندنا حتى الآن. بكلمات أخرى، نحن نتكلم عن هندسة ذاكرة عمرها أكثر من ثمانية آلاف سنة.

قام فراس السواح، في «لغز عشتار»، بتحليل واسع وجيد لعلاقة كل هذا الإرث بعبادة القمر. وما يهمني من كل هذا «ألوان» عشتار، كي نفهم الذهنية الجاهلية بشكل أكمل.

فالهلال (الأحمر، والأصفر)، والبدر (الأبيض)، والمحاق (الأسود، القمر المظلم) ألوانها الأساسية. الأسود، أو «عشتار السوداء»، دليل شر، ولكنه شر إلهي، فهذا، مثلاً، هو لون الربة «مناة». ومما يشير إلى هذا، في الأساطير، أنه كان لعشتار توأمان، أحدهما أسود، والثاني أبيض. ويبدو أن ظاهرة التشابه الكامل بين أخوين توأمين كانت لغزاً في الثقافات القديمة. للتوأم، مثلاً، قدرة على استنزال المطر.

ويبدو أن الأخضر من ألوان عشتار، أيضاً. فعند الفراعنة كان رمز نجمة الصبح صقراً أخضر له

أربعة وجوه، ترمز لأبناء «حورس» الأربعة (وحورس هو ابن الربة القمرية الشهيرة، إيزيس). في الطقوس الجنائزية المصرية، كانت تدفن مع الميت في تابوته أربعة تماثيل من الخزف أو الشمع، لأبناء حورس الأربعة، أحدها برأس إنسان، ويرمز إلى الجنوب، والثاني برأس ذئب، ويرمز إلى الشمال، والثالث برأس ضبع، ويرمز إلى الشرق، والرابع برأس صقر، ويرمز إلى الغرب.(١٢) ولعل هذا يلقي بعض ضوء على لماذا كان لون أحد جدران قصر غمدان «أخضر».

|

كنت في بيت عبد مناة، كما قلت، ونمت من تعب السفر. وفي الليلة التالية أيقظني، وكان القمر يطل من شباك الغرفة العلوية، وصب لي لبن نوق، ودعاني إلى الكعبة. في الطريق رأيت ناقة مربوطة في ساحة بيت، أمام حوض ماء من الجلد، ورأيت شباكاً مضيئاً منه يصدر غناء جارية ما، ذات لكنة فارسية، مع عزف على العود، يقطعه صياح سكارى، يتجادلون مع خمسة لصوص كانوا سرقوا غزاليّ الكعبة الذهبيين.

قلت له:

«قلت إنك سوف تحدثني عن لون الربة مناة: الأسود.»

«نعم. السواد مقدس عندنا. كان للآلهة البيضاء، عشتار، توأمان، أحدهما أسود، والثاني أبيض، والحجارة السوداء والبيضاء مقدسة لعشتار، كألوان التوأم. وهذا انتقل إلينا. هل سمعت بقبيلة «عك»؟

«لا! هل هناك قبيلة باسم كهذا؟»

«نعم، نعم. في موسم الحج تسوق هذه القبيلة أمامها غلامين أسودين، ينشدان ترنيمة دينية مطلعها: «نحن غرابا عك»، أي غرابان لقبيلة عك، وتردد كل القبيلة نشيدهما: «نحن غرابا عك». هذان الغلامان توأمان، هكذا أظن. وهما غرابان لهما قدسية، وإلا لما كانا يسيران أمام «عك» في طقوس الحج. قدسية السواد ورهبته منتشرتان في روح العرب. لست أدري من اعتدى على معبد العزى، مرة، فخرجت إليه على هيئة امرأة سوداء منفوشة الشعر وهي تصرخ، وخلفها كاهنها يرتجز، أي ينشد أغنية حرب على وزن الرجز.»

«وماذا عن مناة؟»

«مناة سوداء. فمعبدها صخرة سوداء على شاطئ البحر. لماذا على شاطئ البحر؟ لا أدري. ولكن القمر يتحكم بحركات المد والجزر البحرية، ولذا ارتبطت الربة القمرية بزرقة البحر. ومن الغريب أن العرب تسمي «قرارة الرحم» بحراً، أيضاً. ربما لأن للعادة الشهرية إيقاعاً قمرياً، نشأ شعور بأن القمر يتحكم بالجزر والمد في «بحر الرحم»، إن جاز لي القول.

ورهبة السواد منتشرة بين العرافات. من أشهرهن «سوداء بنت زهرة». تأمل اسمها فقط: «سوداء»، و«بنت زهرة». وزهرة اسم العزى. عرافة أخرى أشهر من سوداء هي زرقاء اليمامة، زرقاء بنت زهير. لماذا قلعوا عينيها فوجدوا عروقهما محشوة بـ «الأثمد الأسود»، وهو حجر يدق وتكتحل نساء العرب، وحتى رجالاتها، بنشاره؟ لأنها عرافة قمرية، وحشو عروق عينيها بنشار

الأثمد نوع من أنواع الصلاة للربة القمرية أن تمنحها بعد الرؤية والرؤيا. هذا قد يكون أصل عادة تكحيل العيون. ولماذا أذهب بك بعيداً؟ هذا هو الحجر الأسود في ركن الكعبة.»

«لنرجع إلى قدسية ذوي الجلدة السوداء. ماذا عن عنترة بن شداد؟ الشاعر الأسود؟»

«عنترة؟ أسطورة، قدره أن يكون أسطورة. ولكن تخيل عبداً أسود عيروه بأنه «لا يتقن إلا الحلب والصرّ»، ولا يستطيع قول الشعر، بل رعي الإبل في ثقافة بيضاء تحتقر العبيد، يتحول إلى أسطورة، وإلى أحد شعراء المعلقات، وتعلق معلقته على ستائر كعبة مكة، كما سمعت. عبد يتحول إلى أسطورة لها طعم الغيب في ثقافة بيضاء. ما السبب؟

إرو عني، أيها اليمانيّ: عنترة فارس فذ، نسيج وحده. وما الفروسية؟ ذبح الخصوم، إن فكرت في الأمر. ومن أسماء العزى «عتر»، أي «ذبح». فهي مثل عنترة، مولعة بالدم والقرابين. وكان يعشق ابنة عمه، عبلة، ويقدم «فروسيته» إليها، وما الحب؟ جنس خفيّ. ومن معاني «عتر» العضو الأنثوي، والذكريّ، فهي رمز اللذة، والسكر، والحب، والحسن، والعنف، أيضاً. ولكن عنترة أكثر من هذا، فأمه حبشية سوداء، وأبوه أبيض، أي يجمع في أصله بين رهبة اللونين القمريين: الأبيض والأسود. ربما أن هذا لا يكفي لتفسير أسطورته، ربما، ربما، ليس سهلاً أن تفسر هذه الأرض الغريبة.»

«وماذا عن أغربة العرب؟ ثلة الشعراء السود هؤلاء، ما سر تسميتهم بهذا الاسم؟»

«الغراب مقدس، ولهذا تهتف قبيلة عك: «نحن غرابا عك». وله صلة بغرب إفريقيا، وبجهة الغرب، والغروب، أي الموت، والقمر المظلم. بعض من أغربة العرب هؤلاء من أصول حبشية؛ أمهاتهم حبشيات.»

«دعني أغير غدير الكلام إلى جهة أخرى: كيف قلد شعراء المعلقات، امرؤ القيس مثلاً، الربة القمرية؟»

«كل شيء يبدأ من رقم سبعة، عندنا. العرب مذهولة برقم سبعة هذا. نطوف بالكعبة سبع مرات، ويستمر الطواف أسبوعاً، والسهام أمام الرب سبعة، ونطوف بحجر دوار سبعا، وإن أرادت امرأة أن يعيش لها ولد تخطو فوق جثة زعيم قبيلة سبع خطوات، وفي لعبة الميسر سبعة أسهم عليها حزوز، وعلى السهم السابع فيها سبعة حزوز، وهكذا، وهكذا. حدثتك أيضاً عن زهير بن أبي سلمى: حاك سبع قصائد في سبع سنين. خذ امرأ القيس نفسه: قيل إن خبر مقتل أبيه جاءه وهو في «دمّون»، في أرض اليمن، وكان سكراناً، فقال: «ضيعني صغيراً، ثم حملني دمه كبيراً، لا صحو اليوم ولا سكر غداً، اليوم خمر وغدا أمر». وبعدها شرب سبعاً، سبع كؤوس، وسكر تماماً.»

«ولماذا شرب سبعةً بالذات؟»

«لا أدري. رقم مقدس من أزمنة لا يذكرها أحد بيننا، ولا حتى عمرو بن لحيّ. هل تعرف الصابئة؟»

«سمعت بهم، عبدة نجوم من حران»

«حسناً. لكل كوكب من الكواكب السيارة السبعة عندهم رمز هندسي. رمز العزى مربع في جوفه مثلث، أضف الثلاثة (عدد زوايا المثلث)، إلى الأربعة (عدد زوايا المربع) تحصل على سبعة. وعند الروم نفس الشيء: سبعة هو رقم العزى، يسمونها «فينوس»، هناك. وفي طقوس «حجر دوار» يبدأ المؤمن بمربع ثم يشتق منه مثلثاً، والمجموع سبع زوايا.»

«هل هذا لغز؟»

«نعم. لغز. خذ مثلاً عليه. لعبة الميسر. هل تعرف ما هي الميسر؟»

«معرفة مبهمة.»

«قمار، لعبة قمار. كانت العرب تلعبها، قديماً، في فصول الجفاف، كنوع من أنواع الصلوات للنجوم، كي تبعث المطر، لأن العرب تعتقد أن المطر يأتي من النجوم، صلاة دينية، ربما، من طقوس صلوات الاستسقاء. هكذا يبدو لي الأمر. في الميسر أحد عشر سهماً أو «قدحاً». لماذا أحد عشر سهماً فقط؟ لا أدري، ببساطة، لا أدري. منها أربعة سهام، أي مربع مقدس، لا حزوز عليها، ومن يسحب سهماً من هذه الأربعة لا يربح ولا يخسر. وعلى السهام السبعة الباقية حزوز. ومن يسحب سهماً منها يربح أو يخسر بعدد الحزوز على السهم الذي يسحبه. على السهم الأول حز، وعلى الثاني حزان، وعلى الثالث ثلاثة، وهكذا، إلى سبعة، وعدد كل الحزوز على كل السهام السبعة ثمانية وعشرون. ما معنى هذا؟»

«لا أدري»

«وأنا لم أكن أدري.»

«والآن تدري؟»

«نعم.»

«كيف عرفت؟»

«من واقعة وقعت معي في الزمن الخالي. كنت في الكعبة وحدي، ليلاً، والمعبد مظلم. أشعلت ناراً خفيفة في إناء، تصاعد منها دخان، وبدا المعبد شبحياً، بظلال في الزوايا، وغموض في الأشياء. درت فيه برهبة، وأنا أحمل النار، وظلي يدور معي على الجدران. وبدا لي ظلي نفسه شبحاً يسخر مني. وحتى صنم الرب بدا كتلة من سواد غامض يغتسل بنور أحمر يشبه السحر.

قعدت أمام الرب، عند السهام السبعة، وكنت أفكر في سر عدد سبعة هذا (وهو عدد سهام الميسر، أيضاً)، وفي صلته برقم ٢٨ (عدد حزوز سهام الميسر).

نظرت إلى أعين الرب المرتفعة نحو السقف. قديماً لم يكن للكعبة سقف، وكان الرب يحدق في النجوم بعينيه المقلوبتين. ورأيت بياضهما، واحمرار زواياهما، وسواد حدقتيهما، وبدوت وكأنني أفقد كل وضوح سابق. وأطرقت في القداح السبعة، المرتبة في شكل ربع قوس أمامه. تناولت واحداً، وقلبته بين يديّ، وسألته:

: «باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، من أنت؟». قال:

«أنا، الصريح!».

«صريح؟ أنت غمغمة من خشب».
وتناولت الثاني. وسألته، قال:
«أنا، الملصق».
«ملصق! وأنت تغوص في ظهري؟».
وتناولت الثالث. وسألته، فلم يجب. فأطرقت في محاولة لفهم سر صمته. لمست السهام جميعاً، كانت بطول واحد، وملمس واحد، وعرض واحد، وبلا ريش، ولا نصال، وممحوة الوجه من كثرة ما لمسها الكهنة. وسمعت عندها هاتفاً يهتف بي، صوت «رئيّ» من الجن. ربما، كهذا الذي رافق عمرو بن لحيّ، يأتي من إحدى الزوايا.
ارتعبت وأدرت نظري في المعبد، ولم أرَ أحداً. فنظرت إلى عيون الرب هبل، فأغمض عينيه وفتحهما ثانية، وارتجفت النار، وكادت تنطفئ. وخيّم صمت ثقيل، وطويل، وهدوء مريب، وأنا قاعد على هذه الهيئة أستجلي أمري، بعيون محدقة في الفراغ، وفم مفتوح. وعندها سمعت قهقهة، وصوتاً يقول:
«تكون الحياة واضحة، فيحوّلها الرب إلى طلسم من سبعة أقداح لا هي بالسهام الكاملة كي تستخدم في الحرب، ولا بالواضحة كي تستخدم في الفهم.»
نظرت مرتعباً إلى الباب، كي أرى من هذا الذي يدنس حرمة الحرم بفظاظة، وإذا برجل يدخل المعبد، غريب الهيئة، بصندل جلد، وقربة ماء على ظهره، أسود الشعر أجعده، قاسي الملامح، ومشمر الساقين. توجست منه ووقفت. كان يلهث، متعباً من سفر ما. فتناول القداح وجعلها حزمة واحدة في يديه، وضربني بها على كتفي الأيمن ثلاث ضربات خفيفة.
«من.. م.. من؟» وقبل أن أكمل، قال:
«كبير الشعراء». (امرؤ القيس).
كنت كمن رأى إلهاً بجلده وعظمه، أمام حضرة وسلطة الشعر، فشعرت بالضآلة، وخفت. ولم ألفظ حرفاً. سلطة الذاكرة، والروح. كانت تقف أمامي، وعلى كتفيها قربة ماء تحت ضوء شبحي.
«من م.. م..» كررت. فأجابني:
«أنا فكرة يا كاهن الكعبة هائمة في الزمن، وتبحث عن كائنات من لحم ودم كي تتجسد فيها.»
«أنا عبد مناة، وأنت شبح».
«لا، أنت شبحي يا عبد مناة! وأشباحي كثرة. من قبل ولادتك، ومن بعد موتك سأهيم وأهيمن، مع أمثالي، عليك، وعلى أمثالك. فأنا جزء من هذا الكل الذي يدعى «حقيقة الروح.» بدوني لن يعرف عربي من هو حقاً، ولن يكون عربياً حقاً.»
«أنت من نفق في الذاكرة!»
«لا يا عبد مناة. أنا وصلة بين الصحراء والمستقبل.»
صوته كان ناعماً، فيه أنوثة، حتى، وفيه صلابة بدوي، وجلال أمير. وكان يلعب بي، قلت:

«أنا كاهن، وأنت شاعر»

«وكلانا في خدمة المقدس!»

«نعم.»

«فاعلمن يا عبد مناة، أنني ميت جسداً، ولكن ذبذبات لغتي كأجراس قصر غمدان، موسيقى نجوم في فضاء الذاكرة المقمرة، ترن من قرن إلى آخر، وترحل من ساحل بحر في الليل إلى آخر، وقد مستك فصرت شبحاً لامرئ القيس. طال استحضارك لي يا كاهن الكعبة، وقلّ حضوري، والآن أتيتك وعلى ظهري قربة ماء.»

تأملت وجهه، فلحظت جمالاً لم ألحظه من قبل، وحزنا عميقاً ما، قلت:

«هل أسأل يا كبير الشعراء أم أنتظر؟»

«سلني؛ فمن جاد على العرب بمعلقة لا يبخل بجواب.»

«هل تستطيع جواباً، أم عليّ أن أسأل شيطانك، لافظ بن لاحظ؟»

«إسأل المنبع قبل المصب.»

«أفأنت المنبع أم هو؟»

«اسأل قداح الرب.»

«سألتها. قالت إن رقم ٧ يحتوي في داخله هو نفسه على رقم ٢٨ (أي أن مجموع واحد، زائد اثنان، زائد ثلاثة، وهكذا، إلى سبعة، يساوي ٢٨، كما في قداح الميسر. وهذه طريقة حساب سحرية قديمة.)

«وما سؤالك لي إن كنت تعرف هذا؟»

«ما معنى الرقمان؟»

«سبعة عدد أيام الأسبوع، و٢٨ أربعة أسابيع. شهر قمري من ٢٨ يوماً. مربع مقدس.»

«هل قلدت هذه الدورة القمرية في معلقتك؟»

«حجارة بيتي من نجوم.»

«هل أسأل أم أصمت؟»

«سل!»

«ما الذي تقصده حين تبدأ المعلقة بذكر ثلاثة أشخاص واقفين بين أربعة أمكنة؟»

«المربع المقدس»

«هذه صدفة.»

«ذكرت في كل المعلقة أسماء أربع نساء فقط: أم الحويرث، وأم الرباب، وعنيزة، وفاطمة! مربع مقدس»

«وهذه صدفة!»

«وفيها أربع أبيات فقط مصرّعة (لصدرها وعجزها قافية واحدة)، مربع مقدس.»

«وهذه صدفة.»

«وعدد أبياتها ٩٠، ربع سنة بابلية من ٣٦٠ يوماً، مربع مقدس.»
«كلام مبهم، كالليل، كن واضحاً، كالصباح.»
«وضوح الصباح ليس بأمثل من غموض الليل. أشير فيها إلى الفصول الأربعة، والرياح الأربع. المربع المقدس.»
«كل معلقتك على المربع المقدس، أهذا ما تعنيه؟»
«أنت تقرر ما أعنيه.»
«وأنت؟»
«أنا الأصل، وما عداي شبح.»
«وأنا؟ حتى لو كنت شبحاً، للأشباح حقوق!»
«عندما تتخيل ما أقوله، وتراني، انت شبحي، وحين تفسر ما أقوله، وتغير في معناه ليصبح مرآة روحك، فأنا شبحك.»
«أتقلد دورة قمرية من ٢٨ يوماً في منازل القمر الـ ٢٨؟»
«ألم تشبع يا كاهن الكعبة من الأرقام المقدسة، بعد؟»
«لا»
«من زرع فيك حب استطلاع كهذا؟»
«نفس الآلهة التي زرعت فيك شهوة لا ترتوي للنساء.»
«عم ظلاماً يا عبد ربة المنايا.»
«من أين تعرفني؟»
«من الزمن الذي تعرفت فيه عليّ».
«ألم تزل تتهرب؟»
«أتخفى بالكلام.»
«لماذا؟»
«لنفس السبب الذي يتهرب فيه ربك القمري من الوضوح، فيتخفى بسبعة قداح من خشب.»
«يا سادن الشعر، دعني وشأني. كل ما قلته لا يقنع قريشاً بشيء.»
«لا وقت عندي لإقناع قريش، ولا غيرها، لست قرشيا.»
«أقنع كاهن الكعبة!»
«في معلقتي أربعة بيوت مصرعة فقط. مربع مقدس.»
«وهذا صدفة.»
«الأول: «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل.» حين يأتي البيت المصرع الثاني، «أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل»، يبلغ عدد القوافي ٢٨، بعدد المنازل القمرية. مربع مقدس، دورة قمرية.»
«وهذا صدفة.»
«ثم تبدأ دورة قمرية جديدة بالبيت المصرع الثالث:

أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل.

وحين يأتي البيت المصرع الرابع، والأخير، «ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي»، يبلغ عدد أبيات هذا القسم ٢٨ بيتاً. بعدد المنازل القمرية. دورة قمرية من ٢٨ يوماً.»

«وهذه صدفة.»

«في آخر المعلقة أصف سيلاً في ديار بني أسد، في إثني عشر بيتاً، بعدد الأبراج الإثني عشر في دائرة الأبراج. ودائرة الأبراج تعني ٣٦٠ درجة، أي ٢٨ منزلة قمرية.»

«وهذه صدفة.»

«وقبل هذا القسم أصِفُ حصاني في ثمانية عشر بيتاً، ومجموع الأبيات عن السيل والحصان معاً ٣٠، بعدد أيام شهرَ قمري بابلي».

«وهذا صدفة».

«وهل تفسر الصدفة كل هذه الحقائق؟»

«أتستهتر بكاهن الكعبة يا كاهن الشعر؟ لمعلقتك روايات مختلفة، ونسخ مختلفة، وعدد أبياتها في كل نسخة مختلف، وترتيب أبياتها مختلف. أتستند إلى نسخة واحدة (هي التي يستند إليها لاحقاً القرشي في «جمهرة أشعار العرب») وتريدني أن أجادل قريشاً في الأمر؟»

«أسقطوا منها، وأضافوا إليها. وبقاياها فقط بين يديك..»

«من هم؟»

«هؤلاء الذين يعتقدون أن إيقاع الشعر جاء من وقع خطى إبلهم. لا تثق بي، إن شئت، ولكن لا تثق بهم.»

«وبمن أثق؟»

«بالجن التي أملت علي معلقتي.»

«وما الجن؟»

«كلمة تعني المستور..»

«هل الجن في خدمتك؟»

«يا عبد مناة، لا يخدم أحد رباً لا يخدمه. أخدم من يخدمني.»

واستدار وخرج. لحقت به. كان يسرع في ساحة المعبد المقمرة، ومعه امرأة تشبه هذه التي أتيت أنت معها، تلك، التي أتتني بالطفل.»

شرد عبد مناة، وبدا وكأنه لم يفهم، بعد، ما حدث معه. وانتبه حين قلت له:

«حجر سنمار الشعر العربي، إذا، يبدأ بهذين الرقمين: ٧ و٢٨؟»

«نعم. تطوف العرب بالكعبة سبع مرات، أي بعدد أيام الأسبوع السبعة. كل سهم أمام الرب يرمز إلى يوم من أيام الأسبوع القمري. أو أن كل مرة يطوف فيها المؤمن حول مربع الكعبة ترمز إلى يوم من أيام الأسبوع. مجموع الأرقام القابعة في ٧ هذا، أي واحد، واثنان، وثلاثة، وهكذا، إلى سبعة، تساوي ٢٨، أي أربعة أسابيع، مربعاً مقدساً، أو شهراً قمرياً «نجومياً». فرقم سبعة

يرمز إلى ربع دورة قمرية، وفي ذات اللحظة، إلى دورة قمرية كاملة. وهنا قوة سحره.»

«هل هناك مثال آخر على ما تقوله؟»

«لم أقله أنا، قاله امرؤ القيس لي في الكعبة.»

«أستميحك عذراً، ثلاث مرات، على ما بدر مني. هل هناك مثال آخر على ما قاله؟»

«مثال آخر؟ قداح الميسر التي حدثتك عنها. سبعة سهام، وعليها ٢٨ حزاً. السهم السابع وحده عليه سبعة حزوز، ومجموع الأرقام في عدد هذه الحزوز التي عليه، أي واحد، واثنان، وثلاثة، وهكذا، إلى سبعة، هو ٢٨، بعدد كل الحزوز على كل السهام. أترى؟ السهم السابع يختصر الكل، سحرياً. ويدعى «المعلى»، في الميسر، وهو أقوى سهم.»

«والشعراء؟ هل قلدوا رقمي ٧ و٢٨ هذين؟»

«لا أحد يقلد رقماً مقدساً أو رقمين، هناك رياضيات مقدسة كاملة، كما عند الكلدانيين. ورثت العرب الكثير من الكلدانيين، فارْوِ هذا عني، أيها اليماني، ولا تنسه أبداً. الصابئة الذين حدثتك عنهم من بقايا الكلدانيين.»

«وما دخل الكلدانيين بالشعر؟»

«هؤلاء كهنة بابل، أول من قسم السنة إلى ١٢ شهراً، وسموا كل شهر باسم أحد الأبراج الإثني عشر، وقسموا الشهر إلى أربعة أسابيع، والأسبوع إلى سبعة أيام، وسموا كل يوم باسم أحد الكواكب السبعة السيارة. فربطوا الزمن بدوران الكواكب، ورقم سبعة، وفضلهم علينا كبير.»

***

عند الخليل بن أحمد الفراهيدي، جميع بحور الشعر العربي قائمة على عشر تفعيلات: ثمانية منها سباعية، أي يبلغ عدد أحرف كل منها سبعة. فرقم ٧، وعلاقته بـ ٢٨، أي المربع المقدس، هو أساس كل تكوين هذه التفعيلات، بدونه لن نفهم شيئاً من أوزان الشعر كلها، أو من علاقتها بالدورة القمرية. فقط بعد فهم هذا يمكن فهم «الحالات الهامشية». المربع المقدس هنا يعني أربع تفعيلات سباعية عدد أحرفها ٢٨.

هناك حالتان لهذا المربع:

١ – في الحالة الأولى، يكون عدد أحرف أي بحر في عدد كبير من البحور (كالهزج المستعمل، ومجزوء الكامل، ومجزوء الوافر، ومجزوء الرجز، ومجزوء الرمل – في أوزانها الكاملة) ٢٨ حرفاً.

٢ – في الحالة الثانية، يكون المربع المقدس هو الأساس، ثم تضاف إليه «تفعيلات أخرى». مثلاً، في الأغلبية الساحقة لبقية البحور، والتي لا تدخل في الحالة الأولى (كالمنسرح، والطويل، والبسيط، والوافر، والمديد)، نجد دائماً المربع المقدس نفسه، أي رقم ٢٨. مثال على ذلك البحر الطويل (وزن معلقة امرئ القيس):

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن   فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

فهو يتكون من مربعين: ٤ تفعيلات فعولن، وعدد أحرف هذا المربع ٢٠. و٤ تفعيلات

مفاعيلن، وعدد أحرف هذا المربع، وهو الأهم، ٢٨.

٣ - حالة خاصة ومهمة هي بحر الرجز:

قيل: إن الرجز أكثر أنواع الشعر شيوعاً في الجاهلية، وإن جميع البحور جاءت منه. وكل أنواع الرجز قائمة على تفعيلة واحدة هي: مستفعلن، وعدد أحرفها سبعة. وله أربعة أوزان (المربع المقدس).

الوزن الأول: مستفعلن مكررة مرتين، أي من ١٤ حرفاً، ويقلد ليلة البدر المقدسة. والثاني، مستفعلن مكررة ثلاث مرات، أي فيه ٢١ حرفاً، ويقلد ثلاثة أرباع الدورة (المثلث في المربع). والثالث، مستفعلن مكررة أربع مرات، أي ٢٨ حرفاً، ويقلد دورة قمرية كاملة من ٢٨ يوماً. والأخير، مستفعلن مكررة ست مرات (تثنية المثلث، وسأعود إليها).

٤ - لكن تقليد الدورة القمرية يمتد إلى أبعد من الوزن، ليشمل «القافية»، ومجمل البناء الفني للقصيدة. مثلاً، هناك «سمط» ينسب لامرئ القيس نفسه (والسمط قصيدة تحتوي دائماً، مهما كان شكلها الفني، على «مربع مقدس»، وهذا مهم، لأن المعلقات كانت تدعى «سمطيات»، أيضاً، والإيحاء هو أن المعلقات نفسها مبنية على المربع المقدس نفسه). يربط امرؤ القيس في سمطه هذا بين المثلث المقدس (رقم ثلاثة)، والمربع المقدس (رقم أربعة)، ورقم سبعة (مجموع ثلاثة وأربعة، كما في طقوس حجر دوار بالضبط):

«توهّمتُ من هندٍ معالم أطلال
عفاهنّ طولُ الدهرِ في الزمن الخالي

مرابعُ من هندٍ خلتْ ومصايفُ
يصيح بمغناها صدى وعوازفُ
وغيرها هوْجُ الرياح العواصفُ
وكلّ مسفّ ثم آخرُ رادفُ

بأسحم من نوْدِ السّماكيْن هطال».

في هذا السمط ٤ أبيات (قافية الفاء) تكون المربع المقدس، وثلاثة أبيات (قافية اللام) تكون المثلث المقدس، والمجموع ٧. والسمط على البحر الطويل الذي سبق ذكر حضور المربع المقدس، أي رقم ٢٨، في وزنه. (انظر/ي مادة سمط في «لسان العرب».) قد يقال أن السمط منتحل، وأنه ليس لامرئ القيس، ولكن حتى لو كان كل الشعر الجاهلي منتحلاً، فإن هذا لا يفسر شيئاً أبداً لا عن كيف بزغ، ولا عن كيف وصل إلى هذا الحد من كمال بنائه الفني. في التاريخ لا يأتي أي شيء من عدم، أو بلا تمهيد.

مجمل القول: هناك رياضيات مقدسة كاملة، عند الكلدانيين، مثلاً، والفراعنة، والكنعانيين،

والعرب قبل الإسلام. ليست المسألة تقليد رقم أو رقمين فقط. يكفي الذكر هنا أن الرياضيات المقدسة كانت على صلة وثيقة بالفلك والتنجيم. هذا يعني حسابات معقدة، هناك عالم فلك كلداني بعث إلى أرسطو بمخطوطة يستشهد فيها بأكثر من ألف وتسعمائة عام من الملاحظات الفلكية، مثلاً. (١٣) فلنتخيل حسابات المنجمين حين تحاول أن تستند إلى هذا التاريخ من الفلك!

***

لم تطل في مكة إقامتي، فودعت عبد مناة، واعداً إياه بالرجوع، وداعياً إياه إلى زيارة موطن عمرو بن لحي، ورجعت إلى اليمن مع قافلة أخرى. كان معي القرشي، يضحك ويثرثر، كعادته، عن عميان قريش، ثم أقنعني أن نشعل ناراً نطبخ عليها، في مدخل واد ما، ثم نلحق بالقافلة.

كانت معه تلك المرأة الغامضة التي زرت كعبة مكة معها. وقعدنا نطبخ، في عرق جبل. كان اشتباك النجوم عظيماً فوقنا، وحولنا ضبع، ومغائر، وسفوح مقفرة. أكلنا وشربنا ثم ركبنا إبلنا، ولم أدرِ كيف سنلحق بالقافلة. وبدا القرشي نفسه قلقاً، فسألته:

«أتعرف الطريق؟»

«سنهتدي، سنهتدي. تجارة مكة ستضيع إن لم نهتد بالنجوم، وأنا قرشي، لا تنس.»

وحدق في وجهي وضحك.

«وهل تعرف نجوم الاهتداء؟»

«ربما.»

ذهلت من جوابه، حين أكمل:

«هذه كاهنة. وتعرف.» وأشار إليها.

كانت على ناقتها، بنفس خمارها، وكان فخذاها مكشوفين، وصلبين، يلمعان في ضوء القمر، ويسترق القرشي النظر إليهما، بين فينة وأخرى، ثم نظر إليّ وضحك.

«هذه من كاهنات العزى، بأبي أنت وأمي، من كاهنات العزى. إن لم أخطئ، هذه من البغايا المقدسات الملحقات ببعض الكعبات.»

«هل قالت لك؟»

«الإشارات، نحن نقرأ الإشارات، أيها اليماني.»

«وما هي الإشارات إلى ما أشرت إليه؟»

«قيل إن العزى، أصلاً، امرأة فاتنة جداً، أيها اليماني، أكثر إغراء من نساء دوس. زهرة توشك أن تتفتح. أتخيلها، حين قعدت على كثيب رمل ناعم، ربما، تحت القمر، بثوب أسود لامع، وخمار، وحيدة، بعيداً عن حيّ أهلها. والنجوم تتلألأ. كانت طموحة، وتحن إلى النجوم، فحدقت في الأعالي، وأرادت الصعود إلى هناك. وبينما هي غارقة في هواجسها، مر عليها كائنان قيل أنهما نزلا من هناك، من بين النجوم البعيدة. كشفت طرف ثوبها عن فخذيها، وتنهدت. فخذاها كفخذي هذه الكاهنة، مستديران، مقمران، ويخفيان وعوداً بلذة غير مسبوقة. وقفا حائرين، وراوداها عن نفسها. رفعت الثوب أكثر، وقالت لهما: أحب النكاح حتى يجيء الصباح، بشرط.»

فكت خمارها، فرأيا عينين كحيلتين، ووجهاً فائق الجمال، وحلت أعلى ثوبها، ومدت يدها بين نهديها، فأخرجت صنماً صغيراً، ثم مدت يدها إلى جيبها ثانية فأخرجت خمرة، وقالت: «إما أن تعبدا هذا الصنم، أو تشربا هذه الخمر، أو تقتلا أحداً. ثلاثة خيارات، فاختارا.» فكرا طويلاً، ثم اختارا الخمر. فكت أزرار ثوبها، وتعرت على الرمل، وقضيا ليلة سكر ولذة، مثل صاحبك امرئ القيس في «ديرة جلجل». ومن شدة سكرهما باحا إليها بسر الصعود إلى السماء. وفي الغداة، وهي تتلوى تحت أحدهما، مر رجل ثالث، فخافا من افتضاح أمرهما، وقتلاه. أما هي فصعدت إلى السماء، ولم تدرِ كيف ترجع إلى الأرض، وصارت العزى، أي كوكب الصبح».

«فهمت.»

«لا، لم تفهم، فأنت من بلاد العميان!» وأوقف ناقته، وأكمل:

«سنشعل الآن ناراً، ونعقر ناقتي، ونسكر مع العزى.»

ونادى على الكاهنة:

«بأبي وأمي، هل معك خمرة؟»

«نعم»

نظر إلي وقهقه قائلاً:

«أنزل عن ناقتك، أنا سأسكر، وأنت ستعبد الأصنام!»

قعدنا حول النار، وعقرنا ناقته، وسكر، فسحب تلك الكاهنة نحو الجبل، ولم أعد أسمع غير تنهدات تفوح بمسك اللذات، ثم عاد وصاح:

«سنلحق بالقافلة أيها اليمانيّ.»

«كيف؟»

«حسناً. أنظر هناك، هناك. في خلفية السماء الداكنة. هناك، ممتدة من الشرق إلى الغرب، كنصف دائرة، أربعة عشر نجماً. هذه من نجوم الأنواء. هل تعرف ما نجوم الأنواء؟»

«سمعت بها.»

«نجوم تبعث ريحاً أو مطراً، مثلاً، فإن هبت ريح أو سقط مطر، قالت العرب: «هذا نوء النجم كذا»، أي ما بعثه هذا أو ذاك النجم. وعددها ٢٨. أربعة عشر منها دائماً ظاهرة فوق الأفق، وأربعة عشر مخفية تحته. وتشبه دولاباً يدور، إن بزغ نجم من الشرق، سقط نجم مقابل له في الأفق الغربي. عندما تدور دورة كاملة تنتهي سنة وتبدأ أخرى، وتقول العرب: «استدارت السنة». زمننا مستدير، أيها اليماني، مستدير. سنهتدي بهذه النجوم إلى اليمن.»

وضحك. وركب على ناقة الكاهنة، وأردفها خلفه. وانطلقنا في مجاهيل الصحراء. سألتني الكاهنة عما كنت أبحث في كعبة مكة، فقلت عن الصلة بين دورة القمر وشعر العرب. قالت:

«ألم ترَ صلة، بعد؟»

«لا.»

«نجوم الأنواء!»

«كيف؟»

«كل بيت من الشعر فيه ثمانية وعشرون حرفاً، يقلد المربع المقدس. كل حرف نجم، وتدور الحروف كنجوم الأنواء، من الشرق إلى الغرب، مثلاً. عندما تنتهي الدورة، أي «يبزغ» الحرف الأخير، يكون هو القافية، أي نهاية الدائرة، ثم تبدأ دورة أخرى، أي: بيت شعر جديد، ولما ينتهي تأتي قافية، نفس القافية، أو نفس النجم، لأن نجوم الأنواء هي نفس النجوم. البداية هي النهاية والنهاية هي البداية. شعر مستدير. والقافية بداية ونهاية الدائرة.»

فعلق القرشي:

«قلت لك: المعلقات معلقة في مقابل بلدان العميان في مكة، كان يجب أن تعلق في اليمن.»

قالت الكاهنة:

«تخيل نجوم الأنواء بيت شعر، مكتوباً من الشرق إلى الغرب، باتجاه دوران نجوم الأنواء، وتخيل الحروف تدور. الأحرف نجوم، ولكل نجم ريحه، ومطره، وعواصفه، وكلما هبت في روحك عاصفة، قل: هذا نوء الحرف كذا أو كذا. وستفهم الروح.» فقال القرشيّ:

«أو تخيل أنك كتبت على كل نجم حرفاً، سيكون لديك دولاب حروف. وكنجوم الأنواء، أربعة عشر حرفاً تظهر فوق خط الأفق، تدعوها العرب «صدر البيت»، وأربعة عشر مخفية، تدعوها العرب «عجز البيت». كبحر مجزوء الرجز، مثلاً، أو مجزوء الوافر، أو مجزوء الكامل، أو ما شئت. بحور كثيرة عدد أحرف كل منها ٢٨، في أوزانها الكاملة، ومقسومة هكذا.»

علقت الكاهنة:

«عجز البيت سجنجل (مرآة فارسية) لصدره، وكأن الصدر ينظر في مرآة العجز فيرى نفسه، وهذا ما نسميه بـ «التثنية»، في الرياضيات المقدسة، أي قدسية الاثنين، كـ «سفر التثنية»، عند اليهود، أو كالتوأم (اسم السهم الثاني في طقوس الميسر)،» قالت الكاهنة. فسألتها:

«ولماذا قسمت العرب البيت إلى قسمين متماثلين، هكذا؟»

رد القرشيّ:

«قل لنا أنت!»

«نسبة إلى الناقة، مثلاً، صدر الناقة، وعجز الناقة....،

وقبل أن أكمل شهق القرشيّ ضاحكاً، وقال:

«والقافية قفا الناقة. لماذا لا تترك أمرأ القيس وشأنه يا هذا؟ يقلد الكواكب فلا ترى فيه إلا قفا ناقتك! دعه وشأنه، فهو من وادي عبقر، وسكان مكة أدرى بشعابها، ستفهمه القسطنطينية قبل أن يفهمه أهله!»

وأسرع بناقته، وقال للكاهنة:

«عجيب أمر هذا اليمانيّ. أهل اليمن أذكياء، أما هذا!»

|

عندما قرر البابليون جعل سنتهم القمرية من ٣٦٠ يوماً فقط، استدار الزمن تماماً. فصار،

مثلاً، بالإمكان رسمه كدائرة هندسية من ٣٦٠ درجة، كل يوم في السنة يساوي درجة على محيط الدائرة. بدون «استدارة» الزمن هذه، لم يكن بإمكان شعر عربي مستدير أن يولد.

كان الخليل بن أحمد يعي تماماً حقيقة تقليد جميع البحور للدورة القمرية. مثلاً، عدد جميع بحور الشعر عنده، وعند تلميذه الأخفش، بما فيها المخلع، والمنهوك، والمشطور، والمجزوء، باستثناء مجموعة بحور لم تستخدمها العرب أبداً (مثل وزن المضارع التام والهزج التام). يبلغ ٢٩ بحراً، بعدد أيام شهر قمري مثالي من ٢٩ يوماً. إضافة إلى هذا، عدد التفعيلات في كل البحور إما ٣ (المثلث المقدس)، أو ٤ (المربع المقدس)، أو ٦ (تثنية المثلث)، أو ٨ (تثنية المربع)، يبقى «منهوك الرجز»، وهو مستفعلن مكررة مرتين، أي عدد أحرفه ١٤، ويقلد ليلة البدر المقدسة، كما سبق وأشرت.

كنا نصعد كثبان رمل، وكان القمر بدراً، ونجوم الصحراء تبدو أقرب إلى الأرض من أية نجوم أخرى. سمعت صفيراً بدا غناء جن، فقال القرشيّ، وهو يحدق بعيداً:

«هذا منهل، لنذهب إليه.»

«وما هي المناهل؟»

«عيون ماء أو آبار مسكونة بجنيات يغنين. وحول هذا المنهل نخل مقمر، كثير الظلال، ومسكون. من يدري، قد نجد الجنيات عاريات هناك، فنمتع أعيننا، أيها اليمانيّ.»

«سمعت أن الجنيات يتزوجن من رجالات الإنس. هل تنوي الزواج؟»

«نعم، وسيتكسر القمر كمرآة، ويحرمني من حساب الزمن، ومن اصطياد ظلال كالغزلان، ومسح الندى عن عيون الحجارة. ويمرق الهواء في الرمل فيصدر صفيراً يشبه الغناء. هل كل هذا يخيفك أيها اليماني؟»

«نعم.»

«هذا من جملة المستور في هذا البر الواسع. مستور يتجلى حتى في الكهنة، هل سمعت بالكاهن الشهير «سطيح»، الذي يعرف الفرق بين الملح والمليح؟. كان شطرة من إنسان، كشق تمرة، له عين واحدة، ويد واحدة، ورجل واحدة، ولا عظم فيه سوى جمجمته، ويطوى جسمه كثوب، ويمكن أن ترتبه حتى في خزانة، ولا عنق له، ووجهه في صدره! هذا ما يحدث للذي يسافر في كنه المستور، أو يمشي على هذا الخط الفاصل والواصل بين الجن والإنس!»

ضحكت الكاهنة ثم قالت:

«نعم، نعم، لكن المستور، عندي هو الجنين في بطن أمه! بطن المرأة الحامل لغز. يظهر الوليد على ظهر الأرض، بالولادة، ثم يعيده الموت إلى بطنها، إلى اللغز الذي جاء منه. أتعرف قول أمية بن الصلت:

والأرض معقلنا وكانت أمنا منها ولدنا ثم فيها نوئد

إن كنت أذكر قوله جيداً؟ الرحم الأول هو رحم أمنا الأرض. ونكون فيه أجنة مستورة، ونولد، أي نظهر، ثم نموت، فنعود إلى البطن الذي كنا فيه أجنة أو تراباً أو حجارة.»

«هل لهذا علاقة بوقوف امرئ القيس على الأطلال؟»

«نعم. الأطلال كبطن المرأة الحامل، تخفي في جوفها ذكريات قديمة: ملذات مع نساء، وأحبة، وحاضراً صار ماضياً، فهي بطن حامل بمعنى سابق، معنى صار مستوراً. وحملها هذا يجعل جلد المكان، أو سطحه، طلسماً، كجلد بطن المرأة الحامل. فهي، الأطلال، وشم بالإبر على «ظاهر اليد»، عند الشعراء، أو كتابة بلغة أعجمية، أو رطانة رومية، أو كتابة عبرية يخطها «حبر» (كاهن يهودي) بتيماء، أو كتاباً منقوشاً في حجر، أو رسماً أصمّ وأخرس لا يبوح بشيء للواقفين عليه، «وهل عند رسم دارس من معوّل»، كما يقول امرؤ القيس، صاحبك، أما عندي، أنا الكاهنة، الأطلال بطن أمنا الأرض، الدائرة وبطن الأم الحامل توأم واحد. مركز الدائرة جنين في بطن محيطها، خفي، قابع في نفسه، نقطة غير مرئية ولا حتى بعين القلب، كل ما حوله مغلق، كل نقطة بعيدة عنه بنفس المسافة، محيط دائري يحميه، ويستره، ويعزله، وبدونه تنهار الدائرة كلها.

هذا المحيط نفسه غامض، فهو البرزخ بين الداخل والخارج. ونجوم الأنواء تدور لأنها تخفي دائماً نصفها، وتكشف نصفها الآخر، ثم تدور، فتكشف ما كان منها مخفياً، وتخفي ما كان منها مكشوفاً. هذا هو معنى بزوغ نجم في الأفق الشرقي، في نفس الوقت الذي يسقط فيه نجم في الأفق الغربي! دورة المستور وهو ينكشف، توأم لدورة المكشوف وهو ينستر.

وفي جوفها، جوف دائرة الأنواء، في مكان ما، يوجد مركز لا يراه ولا حتى الكهنة. هل فهمت الآن لماذا كل حرف نجمة من نجوم الأنواء؟ فأحبل بالمعنى، كالمرأة بالجنين، كي تقرأ الإشارات. «إقرأ»، في لغتنا، تعني، أيضاً، إحبل، صر حائضاً، فليتكون جنين في رحمك، فليأتك الحيض، أيها اليمانيّ، ولتحبل بالمعنى!»

قلت لها:

«هذا حدس، يا كاهنة العزى، حدس. وقد نقبل به أو لا نقبل.»

«حدس؟ تقبل به أو لا تقبل؟ خذ مثالاً لا حدس فيه، واضحاً لعقلك، الذي يعتقد أن الواضح ليس غامضاً. امرأة تدعى «نائلة»، ورجل، يدعى «إسافا»، مارسا فعلتهما الدنيئة الشنيعة في داخل كعبة مكة. فمسختهما الآلهة حجرين، أو صنمين، إن شئت. فعلة شنيعة، ولكل شنيع عقابه. هذا حق. أما أن يتحول هذان المسخان إلى حجرين مقدسين، ويوضع صنم نائلة قرب الحجر الأسود في كعبة مكة نفسها، مثلاً، وأن لا يكتمل حج العربيّ إلى الكعبة إلا بالتمسح بهذين الصنمين، فلغز مبهم. سره ليس قدسية الشنيع، ولا عقاب الفعل الشنيع، بل قدسية السر بين الأنثى والذكر، والجنس، ودورة الحمل، والولادة، والشيخوخة، والموت! وهذا من المستور. أوليست معلقة امرئ القيس، صاحبك، مليئة بالزنا، بمضاجعة حوامل، ونساء يرضعن صغارهن، وعذارى، وغزوات، وانتهاك أعراض، ومع هذا كله كانت معلقته أول معلقة علقتها العرب على ستائر الكعبة؟ أقدس وأضخم كعباتها؟ هذه قدسية لغز عظيم ندعوه الشهوة. تخيل إسافا ونائلة: شهوتهما حولت لحمهما ودمهما إلى حجر! وحتى الآلهة لم تقف على الحياد! اسمع، أيها اليماني،

نحن نقدس ثالوثاً سرياً: اللذة، وسمو النفس، والسكر!»

«كيف؟»

رد القرشيّ:

«ألم تقرأ المعلقات يا هذا؟ طرفة بن العبد يقول في معلقته:

ولولا ثلاث هنّ من شيمة الفتى وجدّك لم أحفل متى قام عُوّدي،

وما هي هذه الشيم «الثلاث»؟ النشوة (بشرب الخمر)، وإغاثة المستجير (وهذا من سمو النفس)، والتلذذ بامرأة سمينة ناعمة في خيمتها في الشتاء.»

مرت لحظات صمت مثل صلاة، ورفعت الكاهنة رأسها مثل نجمة صبح أو غزالة خائفة، ثم قالت:

«إسمع غناء الجنيات في مناهلهن، اسمع.»

كان غناء ساحراً، مغرياً، وبعيداً، ومخيفاً.

«أو لا تحبل بالمشاعر يا هذا؟ وبالمخاوف، والأسئلة؟ وتقلد المرأة الحبلى؟ أسمع غناء المناهل، أو لا تحس بقدسية اللذة، وعقابها؟ اسمع.»

وأصغيت. فجأة قال القرشي:

«فلنسر نحو جنيات المناهل.»

فأجبته،

«واليمن؟ أريد العودة نحو أهلي يا هذا!».

أجاب ضاحكاً:

«ستعود إلى المألوف، بعد الغطس في المدهش. وسيبدو لك حتى المألوف غريباً، ومدهشاً، حين تعود إليه».

قعدنا عند طرف النخل، وكان الغناء قريباً وبعيداً، ويأتي من واحة خفية. عقلنا ناقتينا، وقعدنا. والرمال حالمة، وصامتة. قلت: «لا أدري أين نحن الآن».

فردت الكاهنة:

«هذه بداية فهم جديد، وشأنك وحدك.»

غرقت في التفكير وحدي، ومشيت على غير هدى إلى داخل النخل. كانت ظلال مقمرة كثيرة تسبح في الطريق، ولمعت في ضوء القمر بركة ماء صغيرة في وسط النخل. قرفصت على حافتها، وغمست يديّ في الماء. وذقته، كان مالحاً قليلاً. غسلت وجهي وشعري، وحدقت في الأفق. وفجأة رأيت سعداناً، كهذه السعادين التي يقدسونها في اليمن، ولا تركبها الجن، يقفز على أربع بين النخل. ثم رأيت حشرة كبيرة سوداء تسعى قربي. فانهمكت في مراقبتها. ثم سمعت ايقاع خطى الكاهنة خلفي، كانت تسفو الرمل بقدميها، وترفع طرف ثوبها عن فخذيها، ثم قرفصت قربي، وحدقت في الحشرة، وقالت: «لا تقتلها ولا تلمسها، فالجن تركب الحشرات. وقد تجن.»

«وما الجنون؟»

«الجنون من الجن، ملامسة المستور عنك، فيك، بك».

صورتها في الماء، ملثمة بخمارها الأسود. أزاحته ففاح طيب ما. في خلفية السماء أضواء خافتة وداكنة.

«ما هي هذه الكواكب الستة، هناك، بعيداً، في خلفية السماء؟»، سألتها.

«الثريا.»

«ماذا؟»

«الثريا. امرؤ القيس زار حيّ حبيبته، ليلاً، فوجدها وقد خلعت ثيابها لتنام، فخرج بها واجتاز ساحة الحيّ، وهي تجر وراءهما عباءة مرقطة بنقوش، كي تمحو أثريهما. وكانت الغواية قد غزت روحه. حينها نظر هو إلى السماء ورأى الثريا هذه، فبدت له كوشاح مرصع بالذهب والخرز.»

واقتربت شفتاها مني. ودبت في جسدي غواية لا تنجلي. كان خيالي يكمل لي ما اختفى من جسمها، وتعرت، أصبح الجسم طلسماً. جسمها يلمع كمرآة، وفيه كثبان. وحلت شعرها، فبدا ليل آخر. وتمددت عارية، فبدت واحدة مع كثبان الرمل الحالمة، موجة متجمدة من ضوء القمر، والغناء، وبدا لي أن كل ما أفكر فيه عن الشعر والدورة القمرية محض وهم ليلي آخر، وأنا أسافر مثل حرف الحاء في «صحراء».

«الثريا!» قالت، «الثريا! تخيل كاهن الشعر، امرأ القيس، كيف يرى الليل حيواناً ضخماً، يجثو على الأرض ويمط جسمه، أو يتخيله موجاً كموج البحر، أي كماء الرحم، ويشعر أنه يسبح كجنين أعمى في الماء البدني هذا. هبلته أمه! كم يسحر لفظاً ورؤيا!.»

وشعرت دفء جسمها يغمرني كماء رحم، ولم أعد أدري ما الفرق بيني وبينها وبين النخل والواحة والرمل، ثم نمنا بقرب بعضنا، وحدقنا معاً في النجوم. وسرح كل إلى عالمه الخاص. فجأة قالت لي:

«إن من يبحث عما خبأته الآلهة، يبحث عن أسس نفسه».

|

«منازل القمر»: دائرة هندسية على محيطها ٢٨ نقطة، كل نقطة تبعد نفس المسافة عن أختها، أي حوالي ١٢٫٨٥ درجة. يقضي القمر يوماً وليلة تقريباً في كل منزلة، ويرجع إلى نفس موقعه، أي يختتم الدائرة، في كل ٢٧٫٣٢ يوماً تقريباً. هذه دورة «نجومية» – أي: قائمة على رصد حركة القمر بالنسبة إلى ما كان يدعى بـ «الكواكب الثابتة».

فكرة «الزمن المستدير» في الشعر العربي على صلة بهذه الدورة بالذات. لأسباب سحرية، وعملية، اعتبرت العرب هذه الدورة من ٢٨ يوماً، بزيادة طفيفة تبلغ ثلثي يوم في الشهر، وقلدها الشعراء، والكهنة.

هذا حل بسيط، وعبقري، وقادر على ربط أكثر الظواهر تبايناً: مثلاً، على الربط بين الدورة الشهرية عند النساء، أو بالأحرى، عند عشتار، والتي تتكرر كل ثمانية وعشرين يوماً تقريباً، أي لها ايقاع قمري، وبين عدد سهام الميسر السبعة التي عليها ٢٨ حزاً، وبين عدد أحرف اللغة

العربية التي اعتبرت ٢٨، أيضاً، بدل ٢٩، (كما في حساب الجُمل السحري لاحقاً)، وبين تفعيلة سباعية هي أساس الشعر، وبين بحور ذات ثمانية وعشرين حرفاً، أي أساس «الزمن الشعري المستدير»، وبين مدارات القمر وفلكه ومنازله. هذا نظام مثالي، ثابت، وصلب. ومشكلته الوحيدة أنه مثالي وثابت وصلب.

وذلك لأن الدورة القمرية نفسها متذبذبة، وحساب الشهر القمري كله مشكلة. عندما قدم البابليون، مثلاً، سنة من ٣٦٠ يوماً، وشهراً قمرياً من ٣٠ يوماً، صارت السنة القمرية أقصر بخمسة أيام تقريباً من الشمسية. وفي كل ست سنوات سيبلغ النقص شهراً كاملاً. لذا لا بد من إضافة شهر إلى بعض السنوات العادية، لتصبح ١٣ شهراً. هذا يعني، في الشعر، أن كل من يقلد سنة قمرية من ١٢ شهراً، مثل نرسي، لا يقلد سنة من ١٣ شهراً، مثلاً.

وشهر من ٢٨ يوماً، أقصر حتى من البابلي. ومشكلة تقليده أكبر. لا بد من نظام معقول، ثابت، يمكن السير عليه، وهو شهر من ٢٨ يوماً. ولكن لا بد من أن يكون هذا النظام مرناً، متغيراً، في الشعر، لكي يتأقلم مع ذبذبات الشهر القمري وحساباته. هكذا نشأت الحاجة، عند الشعراء، إلى تفعيلة سباعية، أساساً، ولكنها تتغير حسب الحاجة. فيمكنها أن تكون سداسية أو خماسية أو رباعية، أو ثمانية، مثلاً، وهو المسمى، عند الخليل بن أحمد الفراهيدي، «الزحاف». بكلمات أبسط، الزحاف يعني تفعيلة تتذبذب كالشهر القمري، وتتأقلم مع تغيراته، ومكوناته، ولحظاته المقدسة، وعلاقة الدورة القمرية بدورة الشمس، ودورة الكواكب السبعة السيارة، وحسابات دائرة الأبراج. مجمل قولي: هناك حسابات فلكية – تنجيمية معقدة، ومهمة الزحاف التأقلم معها، أي أن يجعل الشعر كله تقليداً لنظام الكون كلّه. هناك «نواة قمرية» في محور هذا البناء النجومي. وأريد الكشف عن «هذه النواة»، بأبسط صيغة ممكنة.

كمثال على تعقيدات هذه الحسابات، وزن البحر الطويل، وهو «فعولن مفاعيلن»، مكررة ٤ مرات. عدد الأحرف فيه، كحد أقصى هو ٤٨ حرفاً. لماذا ٤٨ بالذات؟

كان القدماء قد رصدوا حركات حوالي ألف وتسعة وعشرين كوكباً. وقد قسموا أغلبية هذه الكواكب إلى ٤٨ مجموعة نجومية، وأعطوا لكل مجموعة اسماً خاصاً بها. من هذه المجموعات الأبراج الإثنا عشر المعروفة (كالحمل والسرطان والحوت، إلخ.) ولأن عدد هذه المجموعات الكلي هو ٤٨، وعدد الأبراج ١٢، أي الربع، فقد تكون مربع مقدس من العددين ٤٨ و١٢. البحر الطويل يقلد هذا المربع عبر وحدة «فعولن مفاعيلن» (حيث عدد الأحرف ١٢، بعدد الأبراج)، وتتكرر الوحدة ٤ مرات (حيث عدد الأحرف ٤٨، بعدد الصور أو المجموعات). إضافة إلى هذا، هناك ٤ تفعيلات مفاعيلن في البحر الطويل (حيث عدد الأحرف ٢٨، بعدد أيام شهر قمري نجومي). هكذا يتم الربط بشكل محكم بين دورة قمرية من ٢٨ يوماً، وبين بناء بحور الشعر، وبين دائرة الأبراج وتقسيماتها إلى ١٢ برجاً، وبين تقسيم الكواكب إلى ٤٨ مجموعة. إضافة إلى ذلك، الوحدة الأساسية لهذا البحر، أي «فعولن مفاعيلن»، أي ١٢ حرفاً، هي وحدة أساسية في بحور أخرى (كالبسيط)، وبما أن أساس كل بحور الشعر ثماني تفعيلات سباعية، واثنتان

خماسيتان، أي من ٧ أو ٥ أحرف، ومجموع ٧ و٥ هو ١٢ (عدد الأبراج، وأشهر السنة، إلخ)، فإن الحسابات الفلكية والشعرية مربوطة معاً ربطاً محكماً. ولا يمكن فهم هذا البناء المقدس بدون فهم نواته: تقليد الشعر للدورة القمرية.

|

قلت لها:

«أنا أبحث عن المربع المقدس الذي تدور الحروف حوله كعرايا حول كعبة مكة، كما قال لافظ بن لاحظ. وربما أن هذا ما خبأته الآلهة، أو هذا هو أساس نفسي.»

«تخيل مربعاً ذهبياً متساوي الأضلاع! حوله دائرة، وزواياه على محيطها.»

«نعم. تخيلته.»

«حسناً. زواياه تقسم محيط الدائرة إلى أربعة أرباع متساوية. عند المنجمين وأصحاب الطلاسم والعزائم، وأهل الفلك، كل ربع له أسماء مختلفة، فهو ٩٠ درجة، بحساب الدرجات، وسبع منازل قمرية، بحساب المنازل، وثلاثة أبراج، بحساب الأبراج، وسبعة نجوم من نجوم الأنواء، بالحساب النوئي، وسبعة أحرف، بحساب التفعيلات الشعرية، وفصل من فصول السنة، بحساب الفصول، وكل هذه الحسابات تعني الشيء نفسه، نفسه تماماً. أسماء مختلفة والمسمى واحد.»(١٤).

«ولم كل هذه التعدد؟»

«أوجه مختلفة ومقدسة للكون. كل زاوية من المربع، مثلاً، ترمز إلى جهة من الجهات الأربع، الشرق والغرب والشمال والجنوب، أو إلى ريح من الرياح الأربع، الصبا والدبور والشمال والجنوب، أو إلى فصل من فصول السنة الأربعة، الشتاء والربيع والصيف والخريف، وهكذا، وهكذا.»

«لم أفهم.»

«حسناً. سأعيد عليك ما تريد، ولكن بهيئة أخرى. تخيل دائرة على محيطها أربع نقاط تبعد عن بعضها المسافة نفسها. صل بين النقاط بخطوط مستقيمة، فيتكون لديك المربع الذهبي. نقطة، أو زاوية منه، ترمز إلى الشرق، ونقطة إلى شمال، ونقطة إلى الغرب، ونقطة إلى الجنوب. الجهات الأربع. وكل نقطة ترمز إلى ريح من الرياح الأربع، الشمال والجنوب والصبا والدبور، وكل نقطة ترمز إلى فصل من الفصول الأربعة، وهكذا، وهكذا. هذا هو المربع الذهبي. في بيت شعر من ثمانية وعشرين حرفاً، أربع تفعيلات سباعية، كل نقطة ترمز إلى تفعيلة، أو إلى سبعة أحرف، أحرف تدور حول المربع كالعرايا حول الكعبة، أو كدورة الفصول الأربعة.»(١٥)

«هذا أغرب ما سمعه إنسان!»

«وأوضح ما تعرفه الكاهنات.»

«كاهنة من أنت؟»

«اسمع، أيها اليماني، أنت لا تبدو من هذه الأصقاع، ولا من اليمن. ولقد أحببتك، فأنا لست، أيضاً، من هذه الأصقاع.»

«من أنت، أو من أين؟»

«قيل: إن امرأ القيس سافر إلى القسطنطينية كي يستنجد بقيصر الروم ليأخذ بثأر أبيه، فأعطاه هذا عباءة موشاة بخيوط الذهب، ولكنها مسمومة، ولما لبسها وسافر، ذاب السم من العرق والحر الشديد، وتخلل السم جلده فتقرح، وسمي بـ «ذي القروح». ووصل إلى «أنقرة»، من بلاد الروم، وأوشك على الموت قرب جبل يقال له «عسيب» هناك، فسأل عن أخبار الجبل. فقيل له: إن ابنة ملك ما دفنت فيه وحيدة. فأنشد، لتلك المرأة،

أجارتنا إن المزار قريبُ　　　وإني مقيم ما أقام عسيبُ
أجارتنا إنا غريبان ها هنا　　　وكل غريب للغريب نسيبُ

ومات، ودفن قربها. وأنا مثل ابنة ذلك الملك، مدفونة وحدي في عرق جبل، وأتيت أنت، فإما أن أرجع إلى الحياة فأسافر معك، أو أن تموت وتدفن قربي، أو نفترق فراقاً لا لقاء بعده.»

«لم تجيبي، بعد، على السؤال. من أنت؟»

«إعلم، أيها اليمانيّ، أن من عاداتنا القديمة، والتي لم تزل بقاياها قائمة بيننا حتى الآن، أن ننتسب إلى الأم، وليس إلى الأب، أو، إن شئت، إلى البطن والرحم، وليس إلى «الظهر»، والفخذ، والصُلب. وأنا أنتسب إلى أمي، ولا أدري من هو أبي.»

«ومن أمك؟»

«كانت خادمة في الحانات، ومغنية، اسمها «زلل». جاءت بي إلى مكة قبل سنين طويلة، في أحد مواسم الحج. ولما سألها القرشيون عن أصولها اختلقت روايات لا حصر لها عن أصلها وفصلها، فقالت، مثلاً، إن أباها مات بلدغة أفعى، وأنها، أصلاً، من بيبلوس، في سوريا، حيث كان لعشتار حجر أبيض مقدس. وبعد يومين قالت: إنها ليست من بيبلوس، بل «من كاهنات الطرب» في البتراء.»

«ومن هن كاهنات الطرب؟»

«لا وجود لهن! ولكن كان في البتراء معبد مقدس للرب «ذو الشرى»، رب الخمرة والسكر والنشوة. ومن يسكر وينتشي تقول العرب عنه «لقد بطر»، نسبة إلى البتراء التي تلفظها العرب «بطرا». وتحرفت اللفظة، مع الزمن، إلى «طرب». فقالت أمي إنها «من كاهنات الطرب»، وإن أجدادها كانوا يقيمون قرب معبد «ذو الشرى»، هناك. وظلت تختلق روايات عنها وعني، حتى يئست قريش من الحقيقة.»

«وبعدها؟»

«بعدها رحلتْ عن مكة، ولم أدرِ أين ذهبت. قيل: إنها صارت من كاهنات كعبة اليمامة، بغيا مقدسة، ربما. وبحثت عنها، هناك، في كعبة اليمامة - وهي كعبة تطاول كعبة مكة، وتطوف بها عرب تلك النواحي - ولكن لم أعثر لها على أثر.»

«وماذا فعلت بعد سفرها؟»

«امتهنت الرحيل مع القوافل. مرة حاول عبد مناة، كاهن كعبة مكة الذي أتيت معي إليه، أن يتتبع أثري، فرحل إلى كعبة اليمامة، بحثاً عني وعن أمي، ولم يدر من يسأل من الكاهنات

هناك، فلم يسمع أحد لا بزلل ولا بي في جميع اليمامة، فرجع، ونسي كل شيء. وكلما سألوه عني قال: «إنها مثل أمها: إشاعة». ونسيتني مكة ونسيتها. وإن مت ستدفنني القوافل في عرق جبل، مثل عسيب، وستبقى فيه عظامي مقيمة ما أقام عسيب».

«ومن الطفل الذي أتيت به إلى كاهن الكعبة؟»

«لا أدري. ربما أنه لإحدى البغايا المقدسات. وأنت؟»

«أنا؟ أنا.. من زمن آخر، من المستقبل.»

«باللات والعزى، هذه أول مرة أسمع فيها عن شيء كهذا، أيها اليماني، زمن آخر؟»

«نعم.»

«من المستقبل؟»

«نعم.»

«ولكن زمننا مستدير، ولن تخرج منه، مهما فعلت، وستعود دائماً إلى أولك.»

«ربما. أنا مقيد القدمين واليدين وملقى في حفرة في زمن سابق».

شردت الكاهنة طويلاً، طويلاً جداً. ثم قالت:

«أحياناً، أيها اليماني، نحب شخصاً آخر. ونحدثه عنا، أترى؟ ولا ندري كيف ندخل إلى قلبه. ونشبه مسافراً ينوي الوصول إلى كعبة مكة: إن كان قادماً من جهة العراق، عليه السير والنجم القطبي خلف أذنه اليمنى، والمسافر من جهة مصر، يجعل النجم القطبي من خلف أذنه اليسرى، والمسافر من جهة اليمن يجعله أمامه، من الجهة اليسرى، والمسافر من الشام يجعله خلفه. ولكننا لا ندري من أية جهة نحن نسافر، ولا إلى أية جهة، ولكننا نسافر، نحو هذا الذي نحدثه عنا، وأنا الآن أسافر نحوك، وتقول إنك من زمن آخر، من المستقبل، ولا نجم قطبياً خلف أذني اليسرى أو اليمنى، ولا أمامي، ولا خلفي، لأعرف كيف أصل إليك. كيف أصل؟».

«لا أدري!»

«وكيف أبدو لك، أنا، ابنة هذا الزمن؟»

«غريبة»

«وكيف ديارك وخيام أهلك، كيف هي؟»

«أغرب»

نهضت الكاهنة عارية، وألقت نفسها في بركة الماء المالحة، تحت القمر، وكانت تنضح عرقاً، فابتل شعرها، وسبحت قليلاً، ثم رفعت رأسها نحو البدر، ومسحت الماء عن وجهها، وضحكت، قائلة:

«أرأيت بدراً كهذا في ديار أهلك؟»

«نعم»

«مثله؟»

«نعم»

«مثله تماماً؟»

«نعم.»

«إذاً، ستفهم شيئاً من روحي، وسأفهم شيئاً من روحك. سيتكرر الفهم لأن الأشياء تتكرر. قل لي: هل تحبون البدر؟»

«نعم.»

«وتقدسونه؟»

«لا.»

«فرق كبير، بين أن تقدس شخصاً وأن تحبه، فرق كبير. من نحن، عند أهلك؟»

«قعر ذاكرتهم، ربما»

«باللات والعزى! قعر ذاكرة، كالأطلال؟»

«نعم»

«وتقفون علينا كما نقف على الأطلال، وتروننا رطانة رومية أو بقايا وشم ممحو في ظاهر اليد؟»

«نعم»

«ولن نلتقي أبداً، رغم ذا، لا أنا ولا أهلك، لن نلتقي أبداً؟.»

«نعم. لن يلتقي أحد بأحد.»

«ربما لهذا السبب قررت العزى الصعود إلى السماء، ونسيت كيف ترجع، أترونها في أول الصبح، تلك المرأة الكوكب؟»

«نعم.»

«مثلنا؟»

«نعم.»

«ولم تنزل بعد إلى الأرض؟»

«لا.»

«ولا مرة؟»

«ولا مرة.»

هكذا هو الأمر، ما دامت السماء غريبة عن الأرض، هكذا هو الأمر.»

ومشت الكاهنة، بحزن عميق، وصامت، بعيداً، خلف البركة، تسفو الرمل بقدميها، وتدندن قول امرئ القيس:

«أجارتنا إنا غريبان» ها هنا وكل غريب للغريب نسيبُ»

وارتفع صوتها بالتدريج، عالياً، وساحراً، وحزيناً، وامتزج بغناء الجنيات بين النخل، والظلال، فنادى القرشي من خلفها وخلفي:

«متى سنلحق بالقافلة إلى اليمن؟»

«أي يمن أيها القرشي؟ هذا الرجل من يمن في زمن آخر، ولن نراه أبداً.»
«يمن آخر؟» صرخ القرشي ضاحكاً. فردت عليه،
«نعم»
«غير اليمن السعيد؟ يمن تعيس، ربما؟»
ضحكت الكاهنة، وحدقت في النجوم.

الهوامش:

(١) أنظر/ي تفاصيل أطوار القمر الثلاثة عند فراس السواح. لغز عشتار. دمشق، دار علاء الدين، ١٩٩٦. أما الربط بين القمر والسهام فقديم. احدى إلهات الفراعنة كان رمزها سهمين متقاطعين. عند العرب قبل الإسلام، كان الإله «ود» (القمر) صنماً بحجم إنسان في يده قوس وسهم، ويرمز لقدرته على «صيد القلوب»، في الحب. ومن اسمه جاءت كلمتا «وُد»، و«مودة» العربيتان. ويشبه «كيوبيد» عند الرومان واليونان.

(٢) قدسية رقم ٣ في العبادة العشتارية نشأت أيضاً من كون كوكب الزهرة، أي نجمة الصبح، وهي شكل قديم لعشتار، تسبح في المدار الثالث من مدارات الكواكب السبعة السيارة، فوق مداري القمر والشمس.

(٣) أنظر/ي مقدمة أبي زيد محمد أبي الخطاب القرشي. جمهرة أشعار العرب. بيروت، دار صادر.

(٤) أنظر/ي محمود سليم الحوت. في طريق الميثولوجيا عند العرب. دار النهار، بيروت، ١٩٧٩. العزى كانت الإلهة الكبرى للبتراء، ودومة الجندل منطقة يعرفها امرؤ القيس نفسه جيداً. ويبدو أن نيلوس مَرَّ بدومة الجندل والبتراء وامرؤ القيس لم يزل حياً.

(٥) أنظر/ي زيغريد هونكه. شمس العرب تسطع على الغرب. أثر الحضارة العربية في أوروبا. ترجمة: فاروق بيضون وكمال الدسوقي. الطبعة الثامنة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣. ص٤٠٣.

(٦) هي الوصيلة، والحامي، والبحيرة، والسائبة. وعمرو بن لحي، في كل ما روي عنه، يتبع «الأرقام المقدسة»، كعدد أنواع الإبل الأربعة هنا.

(٧) كل تخطيط مكة المربع كان يرتكز على «اتجاه» معين: هو نقطة «الاعتدال الربيعي» الفلكية، أي بداية الربيع. وموقع الحجر الأسود في الكعبة، أيامها، كان مختلفاً عن موقعه الحالي، ويشير إلى نقطة الاعتدال الربيعي هذه. برج مكة هو «الحوت»، حسب بطليموس، وعندما تعبر الشمس من برج الحوت إلى أول دقيقة في برج الحمل يبدأ الربيع، الذي تحتفل فيه قريش ببداية السنة الجديدة، وهذه عادة بابلية قديمة. وتخطيط الكعبة نفسه كانت له أسس فلكية – تنجيمية من هذا النوع.

أنظر/ي مقالة:

Ibrahim Allawi "Some Evolutionary and Cosmlogical Aspects to Early Islamic Town Planning". Theories and Principles of Design in the Architecture of Islamic Societies. Harvard 1988. p.58.

(٨) شكل خاتم الملك سليمان الذي كان يحكم به الجن كان «مثمناً»، أي من مربعين متداخلين. جذور قدسية هذا الشكل فرعونية. كان الفراعنة يقدسون المربع والمثلث، وتثنية المربع (أي: الثامون) وتثنية المثلث (الشكل السداسي).

(٩) لعل من المفيد التذكير هنا بأن قدسية المربع غزت حتى تخطيط المدن: مدينة بابل نفسها، مثلاً، كانت مخططة على أساس المربع: شارع أفقي وآخر عمودي، أحدهما من الشرق إلى الغرب، والآخر من الشمال إلى الجنوب. ويشيران إلى نقاط البوصلة الأربع، أو الجهات الأربع. ومن أيامها حتى الآن لم يزل المربع من أسس تخطيط المدن في الشرق والغرب.. أنظر/ي تفاصيل هذا عبر التاريخ في كتاب لويس ممفيلد «المدينة في التاريخ». وفيما يخص المجتمعات الإسلامية في:

Islamic Patterns. An Analytical and Cosmological Approach. Keith Kritchlow. Thames and Hudson, 1989.

(١٠) أنظر/ي موسوعة الفولكلور والأساطير العربية. شوقي عبد الحكيم.

(١١) النسيء مسألة فلكية. مثلاً، عندما حوّل الفراعنة سنتهم إلى سنة بابلية من ثلاثمائة وستين يوماً، بدل

٣٦٥، سميت الأيام الخمسة المفقودة «الأيام النسيئة»، أي «المؤجلة»، وكانت مقدسة. أما العرب، قبل الإسلام، فكانت تقتتل كعادتها، وعندما يأتي موعد الأشهر الحرم، حيث يمنع أي سفك للدماء، تؤجل العرب الشهر الأول من هذه الأشهر، أي شهر صفر، إلى الشهر الذي يليه، لمواصلة القتال، وفي السنة التالية، إن استمر الوضع، تؤجله مرة أخرى. فيدور الشهر على جميع أشهر السنة، حتى يرجع إلى موقعه الأول منها. وعند ذلك تقول العرب: «استدارت السنة». مجمل القول: هذا المفهوم للنسيء كان يولّد مفهوماً خاصاً بالعرب لـ «الزمن المستدير»، أي بالزمن كدائرة مقدسة.

(١٢) أنظر/ي حول هذا، وحول الرياضيات المقدسة عند الفراعنة والعبريين، «السحر في التوراة والعهد القديم». شفيق مقار. دار الريس، ١٩٩٠.

(١٣) حول هذا، ومعلومات أخرى واردة في النص عن العلوم البابلية، وغيرها، أنظر/ي مرغريت روثن. علوم البابليين. دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠. ترجمة يوسف حبي. وكذلك: إخوان الصفاء. رسائل إخوان الصفاء. الرسائل الخاصة بالرياضيات والأسطرونوميا. وكذلك: مؤيد الدين العرضي. تاريخ علم الفلك العربي. كتاب الهيئة. مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠، ص٨٤-٩٠، وابن منظور، لسان العرب، مادة «نوأ».

(١٤) كل ظواهر الدنيا المهمة يمكن ترتيبها على هيئة «دولاب» في ثقافات قديمة كثيرة. أنظر/ي، مثلاً، فكرة الدولاب عند الهنود الحمر في:

Kenneth Meadows. Medecine De La Terre. La voie Chamanique. Paris, 1989.

(١٥) أنظر/ي العلاقة بين المربع والمثلث والمسدس ودائرة الأبراج في رسائل إخوان الصفاء. الرسالة الثالثة من القسم الرياضي. المجلد الأول. وفي المصادر المذكورة بالإنكليزية سابقاً عن الهندسة المقدسة.